٢

سلسلة المؤرخين

ابن حجر العسقلاني

مؤرخا

(٧٧٣-٨٥٢هـ)

تأليف

د. محمد كمال الدين عز الدين

عالم الكتب

ابن حجر العسقلاني

مؤرخاً

بسم الله الرحمن الرحيم

عالم الكتب
بيروت - المزرعة، بناية الإيمان - الطابق الأول - ص.ب ٨٧٢٣
تلفون: ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً: نابعلبكي - تلكس: ٢٣٣٩٠

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

الإهـــداء

إلى روح والـدي «مـع الـذين أنعم الله عليهم
مـن النبيـين والصـديقـين والشهداء
والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً».

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة البحث

شهد القرنان الثامن والتاسع من الهجرة نبوغ الكثيرين من أعلام الثقافة والفكر في العالم الإسلامي، وكان من بينهم المؤرخون الذين اكتسبوا مكانة فائقة بين المسهمين في الفكر الإسلامي المشكلين لمادته.

لكن تأخرت طويلاً العناية بدراسة هذا التراث على أسس منهجية قائمة على النظرة العلمية المتأنية، القائمة على العمق والتقصي والنقد، نتيجة لخطأ شائع مفاده أن نتاج هذين القرنين ليس إلا كتابات تتمثل في الشروح والمختصرات أو الجمع التأليفي (الموسوعي) الخالي من الابتكار والجدة، سواء في المادة أو في المنهج[1].

ولما لم يكن من سبيل إلى رد هذا الادعاء الخاطىء وإلى الإفصاح عن

(١) أنظر على سبيل المثال قول جاستون فييت: «. . . ولا ينبغي أن ننخدع بتكاثر المدارس الدينية والمساجد في ظل حكم سلاطين المماليك، فليس لذلك علاقة بنبوغ المدرسين، إذ لم يتخلف لنا عنهم اسم واحد عظيم، ولم تخرج هذه المعاهد العلمية الكثيرة شخصية عظيمة أو كاتباً موهوباً، فهي لم تزد على كونها مدارس لتدريس المدرسين، وباستثناء المقدمة لابن خلدون ـ ذلك العالم الفذ الذي تلقى تعليمه في المغرب ـ لم يظهر في القاهرة أي عمل أصيل. وقد تميز هذا القرن بكتاب الموسوعات والسير التي كثيراً ما كانت قليلة العمق، وواضعي المجاميع، فلم تعرف فيه أعمال تتميز بالأصالة. كان هؤلاء الرجال يستحقون في حياتهم عبارات المديح وسيراً موجزة مليئة بالنعوت الرنانة، ولكن أسماءهم تسقط في طيات النسيان» ـ القاهرة مدينة الفن والتجارة ص ١٠٧.

الأصالة والجدة في مثل تلك المؤلفات، وتقديم مادة تأريخية متأصلة يعتمدها الباحثون في البناء التأريخي إلا بالدراسة المنهجية المتأنية للعمل الواحد تفهماً لمنهجه وأغراضه، فإنه قد اتجه الرأي لدي إلى اتخاذ «إنباء الغمر بأنباء العمر» للمؤرخ المصري الشهير «شهاب الدين، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني» موضوعاً لهذه الدراسة.

أما الكتاب، فلأنه يعد من بين مؤلفاته التاريخية الكتاب الوحيد الجامع للحوادث والتراجم المعاصرة في حيز الحولية الواحدة، ولكونه معاصراً لمادته مدركاً للكثير منها.

وأما المؤرخ، فلأنه علم من أبرز علماء عصره، الذين اتسعت معارفهم وتخصصاتهم فدخلوا في نطاق الموسوعيين (أصحاب الجمع التأليفي) إذا ما ضمّ تراثهم الذي خلفوه بعضه إلى بعض، فلقد أسهم في التأريخ، والأدب، والشعر، والحديث والفقه، والتفسير.. وغيرها، ودخل في نطاق المؤرخين، والأدباء، والشعراء والمحدثين، والفقهاء، والمفسرين.. قياساً بما خلف من دراسات ـ في كل ـ قائمة على الأصالة والعمق.

لكن نتيجة للنظرة السالف بيانها بالنسبة للتراث في ظل دولة المماليك ككل ونتيجة لغلبة جانب المحدث لدى «ابن حجر» على غيره من الجوانب التي نبغ فيها فإن الكثيرين ممن عنوا ـ مؤخراً ـ بالتعريف بالحركة الفكرية في ظل الدولة المملوكية قد أثبتوه في جانب المحدثين، إهمالاً له في جانب المؤرخين[١] فإن تيسر لهم تقديم كلمة عجلي للتعريف به، فإنه يأتي في ظل المقريزي، أو في طيات الحديث عنه باعتباره معاصراً لأحد شوامخ التأريخ في مصر، فإذا ما عُرضت تلك الكلمة العُجلي على المنهج العلمي نجدها قد افتقدت كل مبررات وجودها باهتزاز معناها ومبناها معاً، ودلت على عدم اطلاع ودراسة لفكر الرجل ونتاجه في مجال التاريخ.

---

(١) Dunlop, Arab Civilization To A.D., I 500 ومارغوليوس. دراسات عن المؤرخين العرب، وقد أسقطا «ابن حجر» من جانب المؤرخين.

ولذا اتجهنا إلى إبراز جانب المؤرخ لدى «ابن حجر العسقلاني» من خلال هذا البحث، الذي أُسِسَّ على بابين اثنين، خصص أولهما للترجمة له، بينما خصص ثانيهما للتعرف على منهجه في الكتابة التاريخية من خلال دراسة مادة كتابه «إنباء الغمر بأنباء العمر»، باعتباره أهم ما خلف من مؤلفات تاريخية، لأسباب أبنا عنها في موضعها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا البحث كان في الأصل أطروحة جامعية أُجيزت بتقدير «ممتاز»، ثم قدر لها أن تنشر في نشرة شوهاء، مما دفعني إلى إعادة نشرها ـ الآن ـ بعد أن استغنيت عن الكثير من مادة الأطروحة الرئيسة تلخيصاً وحذفاً.

وبالله التوفيق، ومنه العون والسداد.

القاهرة ـ ديسمبر ١٩٨٦ م. **المؤلف**

الباب الأول
ابن حجر العسقلاني
دراسة حياة (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ.)

- الفصل الأول : نشأته وتكوينه
- الفصل الثاني : شيوخه وأساتذته
- الفصل الثالث : رحلاته
- الفصل الرابع : وظائفه
- الفصل الخامس : حياته الإجتماعية
- الفصل السادس : علاقاته بشخصيات عصره
- الفصل السابع : مقومات شخصية
- الفصل الثامن : مرضه ووفاته

الفصـل الأول

نشأته وتكوينه

ولـد «أحمد بن عـلي بن محمـد بن محمـد بن عـلي بن محمـود بن أحمد»(١)،

(١) نسب «ابن حجر» مضطرب لا ضابط له، فقد يتأخر «محمود» على «أحمد» أو يسقط كما ورد بخطه في «الدرر الكامنة» في ترجمتـه لعم أبيه قـائلاً: «عثمان بن محمد بن علي بن أحمد بن محمـود» ج ٢ ص ٤٥٠ تر ٢٦٠٧، وكذا في ترجمته لنفسه في كتـابه «رفـع الإصر» حيث قال: «أحمـد بن علي ابن محمد بن محمد بن علي بن أحمد» مخط. دار الكتب المصرية ق ٣٦ ب، وفي خطبة كتابه «إنبـاء الغمر» قائلاً: «أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن محمود بن أحمـد» ط. القاهـرة ج ١ ص ٣ لكنه خالف ذلك في حرف الحـاء المهملة من كتابـه «تبصير المنتبـه بتحريـر المشتبه» في ذكـره لعم أبيـه قـائـلاً: «... وفخـر الـدين عثمـان بن محمـد بن عـلي بن محمـود بن أحمـد» ج ١ ص ٤١٤، وكـذا صنع في تـرجمته لأبيـه في القسم الثاني من «المجمـع المؤسس» قائـلاً: «عـلي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد» مخط. الأسكندرية ق ٣٤٣ ب. وقد يـزاد في آخر نسبـه «أحمد يل» كما ورد في ترجمة المقريزي له في «جواهر العقود الفريـدة في تراجم الأعيـان المفيدة» وفي ترجمة الزين شعبان له ـ كذلـك ـ لكن بإسقـاط «محمود» ـ عـلى حد قـول السخاوي في «الجـواهر والـدرر» مخط. أحمد الثـالث ق ١٥ أ مشيراً إلى أنـه ورد كذلـك بخط «ابن حجـر» عينـه في آخـر نسخة من «صفة النبي صلى الله عليه وسلم».

ولعل «ابن حجر» كان مدركاً لوجود هذا الإضـطراب في نسبه، وإلا لما تندر بقـوله: أن نسبـه يقرأ طرداً وعكساً ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥ أ، عبدالله بن زين. جمـان الدرر مخط. دار الكتب المصرية ق ٢ أ ـ ولما أتى هذا الإختلاف في سلسلة نسبه بخطه هو.

أما ما اثبت في المتن فهو ما اعتمـده السخاوي في تـرجمته لشيخـه بعد استعـراض لسائـر الصيغ المشار إليها سلفاً، ناعتاً لما اثبت في موضعين من ترجمته لشيخه في الجواهر والدرر قائلاً: «هذا هو المعتمد في نسبه» «... وإنما جزمت بالأول لكثرة ما وجدته كذلـك بخطه، وإن تكـرر بخطه كـما=

المعروف بابن حجر، الكناني، العسقلاني، الشافعي، في شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة للهجرة[1] في منزل كان يقع على شاطىء النيل بمصر، بالقرب

= في آخر شرح البخاري وغيره أنه أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن حجر، لكن هذا أكثر» ـ ق ١٥ ـ وكذا ما أثبته البقاعي في ترجمته لشيخه ـ عنوان الزمان ج ١ ق ٣٥.

(١) ورد «لابن حجر» شاهد شعري أرخ فيه لمولده، قائلاً:

«شعبان عام ثلاثة من بعد سبع مائة وسبعين اتفاق المولد»

(من الكامل)

كما ورد في ترجمته لنفسه في (رفع الاصر ق ٣٦ ب) أن مولده كان في «شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة».

وهو بهذا يسقط اليوم المولود فيه، ولذا اجتهدت مصادر ترجمته في تحديد ذلك اليوم، فوقع بينها اختلاف كبير، حيث أشار «الشوكاني» ـ البدر الطالع ج ١ ص ٨٨ ـ إلى أنه ولد في الثاني من شعبان ـ ولعله خطأ طباعي، أو تصحيف في أصل الكتاب، كما أن «البقاعي» ـ عنوان الزمان ج ١ ق ٣٥ أ ـ و«السيوطي» ـ المنجم في المعجم ق ١٣٠ أ، نظم العقيان ص ٤٥ ـ و«ابن العماد الحنبلي» ـ شذرات الذهب ج ٧ ص ٣٧٠ ـ يجعلون مولده في الثاني عشر من شعبان، على حين أن «ابن خطيب الناصرية» ـ الدر المنتخب ج ١ ق ١٠٦ ب. و«ابن تغري بردي» ـ المنهل الصافي مخط. أحمد الثالث ج ١ ق ٦١، الدليل الشافي ق ١١ ب، النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٥٣٣ ـ و«السخاوي» ـ الجواهر والدرر ق ١٤ أ، الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٦، ـ و«ابن طولون» ـ القلائد الجوهرية ج ٢ ص ٤٥٤ ـ فإنهم يجعلون مولده في الثاني والعشرين من شعبان، أما «ابن فهد المكي» ـ لحظ الألحاظ ص ٣٢٦ ـ و«الغزي» ـ بهجة الناظرين ق ٧٧ أ ـ فإنهما يشيران إلى أن يوم مولده هو الثالث والعشرون من شعبان.

وهكذا حصر يوم مولده لدى مصادر ترجمته بين «الثاني من شعبان» و«الثالث والعشرين منه». وهي نقول لا يرتاح إلى إثبات أحدها لعدم التحقق من صحتها، فضلاً عن تضاربها، على حين أن مولده في ترجمته لنفسه أتى فيها غفلاً من إثبات اليوم، فضلاً عن أن البعض ممن ترجم له محدداً لذلك اليوم السخاوي والسيوطي قد أسقط ذلك اليوم من ترجمته له في مواضع أخرى من مؤلفاته، أو عمد إلى عدم التأريخ كلية لمولده. فلقد وردت ترجمته لدى «السخاوي» في التبر المسبوك ص ٢٣٠ وقد سقط منها تحديد ذلك اليوم، على حين أنه ترجمه في الذيل على رفع الإصر ص ٧٥ ـ ٨٩ متجاهلاً تماماً التاريخ لولادته، أما «السيوطي» فإنه ترجمه في التحدث بنعمة الله ص ٤٥، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٣٦٣ وذيل طبقات الحفاظ ص ٣٨٠ مسقطاً اليوم والشهر المولود فيهما.

من دار النحاس(١) والجامع الجديد(٢) حيث كناه أبوه «بأبي الفضل»(٣) تشبهاً ببعض قضاة مكة(٤) ولقبه «بشهاب الدين». أما شهرته «بابن حجر» - بفتح الحاء المهملة والجيم بعدها راء - فلا يضبط إن كان لقباً لأحمد الأعلى في نسبه، أم إسماً لوالد أحمد المشار إليه(٥) - على حين أن الكناني - بكسر الكاف وفتح النون وبعد الألف نون ثانية - فنسبة إلى قبيلة كنانة(٦) والعسقلاني - أصل لهم -(٧) وهي مدينة كانت بساحل الشام من فلسطين(٨) نقلهم منها «صلاح الدين

---

(١) اختط دار النحاس وردان الرومي - مولي عمرو بن العاص - ثم جعلت ديواناً في إمارة مسلمة بن مخلد - ابن دقماق الإنتصار لواسطة عقد الأمصار ص ٦ ق ١.

(٢) هو الجامع الجديد الناصري - راجع بشأنه، المقريزي. الخطط. ج ٢ ص ٣٠٤.

(٣) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ١١٧ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥ب، ويضيف السخاوي إلى ذلك أن الزين العراقي كناه علي الجادة «أبا العباس»، وكذا كناه بها البهاء ابن العلي. . . وغيرهما وكناه آخر «أبا جعفر» ونص على أنه شذوذ - الجواهر والدرر ق ١٥ ب، ٢٨ أ - لكن يبدو أن تكنية أبيه له هي التي كانت معتمدة لديه وغالبة عليه وإلا لما وردت لصيقة اسمه في ترجمته لنفسه، وفي تراجم سواه له، ولما كان هو - في حاجة إلى جمع مؤلف في «القصد الأحمد بمن كنيته أبو الفضل واسمه أحمد».

(٤) هو القاضي «أبو الفضل محمد بن أحمد بن عبد العزيز العقيلي النويري»، حيث أصطحبه أبوه إليه حدثاً - السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥ ب.

(٥) أورد كل من السخاوي في الجواهر والدرر ق ١٦ ب، و «البقاعي» في عنون الزمان ج ١ ق ٣٦ في ترجمتها لابن حجر جواباً منظوماً لاستدعا. أشار فيه «ابن حجحر» إلى ذلك قائلاً:

من أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني المحتد
ولجد جد أبيه أحمد لقبوا حجراً وقيل بل لوالد أحمد

(الكامل)

ويلاحظ أن البقاعي قد تفرد بإيراد القصيدة مكتملة.

(٦) أشار «ابن حجر» في المجمع المؤسس إلى أنه رأى بخط أبيه أنه «كناني النسب» ق ٢٤٣ ب، كما أفاد «السخاوي» في ترجمة شيخه أن «ابن حجر» كتب مرة أنه الكناني القبيلة - الجواهر والدرر ق ١٦ أ.

(٧) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٤٣ ب، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦ أ.

(٨) عسقلان - بفتح أوله وإسكان ثانيه - مدينة كانت تقع بالشام من أعمال فلسطين على ساحل =

الأيوبي» إلى مصر لما خربها، بعد أن رأى المصلحة في ذلك لعجز المسلمين عن حفظها من الفرنج، فوضعت فيها المعاول في سحر ليلة الخميس تاسع عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة[1].

وعلى الرغم من أن أهله كانوا قد استقروا بمصر بعد نقلتهم إليها، وارتفع نجمهم فيها، واستحوزوا على السبق بين رجالاتها، فإن مصادرنا لا تمدنا بمعلومات وافية عن الأصل الذي تحدر منه ابن حجر - مؤرخنا - أو أهله، مما يجعل جل معلوماتنا منحصرة في أن:

عم أبيه:

«فخر الدين عثمان بن محمد بن علي بن أحمد بن محمود»[2] الكناني الشافعي، المعروف بابن البزار، وابن حجر (ت ٧١٤ هـ. / ١٣١٥ هـ.) سكن ثغر الأسكندرية، وكان بحاثاً نقالاً، انتهت إليه رياسة الإفتاء على المذهب الشافعي هناك، وتفقه به جماعة منهم: «الدمنهوري»، و«ابن الكويك».. حتى صار منعوتاً لدى البعض[3] «بمفتي الثغر، وفقيه الشافعية في زمانه»، وأنه أنجب

= البحر بين غزة وبيت جبرين، واشتقاق اسمها من «العساقل» وهو السراب، أو من «العسقل» وهو الحجارة الضخمة وذكر بعضهم أن «العسقلاني» أعلى الرأس - البكري. معجم ما استعجم ج ٣ ص ٩٤٣، ياقوت. معجم البلدان ج ٤ ص ١٢٢، المشترك وضعاص ٣٠٨، ابن شاهنشاه. تقويم البلدان ص ٢٣٨، البغدادي. مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٩٤٠ ابن شداد الأعلاق الخطيرة ج ٣ ص ٢٥٨ - ٢٦٣.

(١) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٤٣ ب، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦ أ، وعن خراب عسقلان: العماد الأصفهاني. الفتح القسي بالفتح القدسي ص ٥٥٠ - ٥٥١، ابن الأثير الجزري. الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٢١٦، ابن شداد. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٨٦ - ١٨٨، المقدسي. الروضتين في أخبار الدولتين ج ٢ ص ١٩١ - ١٩٢.

(٢) ترجمة ابن حجر في الدرر الكامنة ج ٢ تر ٢٦٠٧ ص ٤٥٠، وتبصير المنتبه ج ١ ص ٤١٤، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦ ب.

(٣) هو «العفيف المطري»، حيث ذكره في ذيل طبقات الفقهاء - السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦ ب.

ولدين فقيهين هما: ناصر الدين أحمد، وزين الدين محمد.

جـده:

أما أخو فخر الدين عثمان، وهو جد - مؤرخنا - لأبيه، «العدل، قطب الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن جلال الدين علي»[1] المعروف - كذلك بابن حجر، وابن البَزار (ت ٧٤١ هـ. / ١٣٤١ م.) فإن اشتغاله بالتجارة لم يعقه عن تحصيل العلم، حيث تشير المصادر إلى أنه سمع من جماعة، منهم «أبو الفضل بن عساكر»، و«ابن القواس»، وغيرهما.. وأنجب أولاداً منهم: كمال الدين، ومحب الدين، وولي الدين، ونور الدين، وهو أصغرهم.

أسرته:

أما «نور الدين علي»[2] - والد مؤرخنا - (ت ٧٧٧ هـ. / ١٣٧٦ م.) فقد كان رئيساً محتشماً من أعيان تجار الكارم[3]، موصوفاً بالعلم والديانة والأمانة ومكارم الأخلاق، ومحبة الصالحين والمبالغة في تعظيمهم[4].. اهتم من بين أخوته بالاشتغال بالعلم[5] فسمع من «ابن سيد الناس» (ت ٧٣٤ هـ. / ١٣٣٤ م.) وطبقته، ولازم «البهاء بن عقيل» (ت ٧٦٩ هـ. / ١٣٦٨ م.)، وكان «ابن عقيل» يحبه ويعظمه، ويبالغ في الثناء عليه[6].

---

(١) ترجمه ابن حجر في المجمع المؤسس ١٤٣ أ مخط. الأحمدية، تبصير المنتبه ج ١ ص ٤١٤، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧ أ.

(٢) ترجمه ابن حجر في المجمع المؤسس ٣ ب، ٢٤٤ أ، إنباء الغمر ج ١ ص ١١٦ - ١١٧ تر ٤٣، تبصير المنتبه - في حرف الحاء المهملة ج ١ ص ٤١٥، علي حين ذكره في الدرر الكامنة وبيض له ج ٣ ص ١١٧، ابن تغري بردى. الدليل الشافي ق ٧٧، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧.

(٣) ابن خطيب الناصرية. الدر المنتخب ج ١ ق ١٠٦ ب، البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٣٦.

(٤) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ١١٦، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧.

(٥) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٤٣ أ، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧ أ.

(٦) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ١١٦، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧ أ، الذيل على رفع الإصر ص ٧٥.

وعلى الرغم من أنه لم يكن له بالحديث النبوي المام(١) فإنه كان قد مهر في الفقه والعربية والأدب. .(٢) وأجيز بالفتوى والقراءات، وحفظ القرآن الكريم(٣) وحفظ - كذلك - الحاوي الصغير(٤) ونقله(٥) كما كان له إستدراك على «الأذكار» للنووي (ت ٥٩٦ هـ. / ١٢٠٠ م.)(٦) ناهيك عن النظم الكثير السائر(٧). حيث خلف دواوين شعر منها «ديوان الحرم» مدائح نبوية ومكية في مجلدة - ذكره له ولده - كما كانت له صحبة ومطارحات مع «ابن نباته»(٨) (ت ٧٦٨ هـ. / ١٣٦٧ م). و«البرهان القيراطي» (ت ٧٨١ هـ. / ١٣٦٧ م). وناب عن «ابن عقيل»، ثم تُرِكَ وأقبل على شأنه مكثراً من الحج والمجاورة(٩).

تزوج من امرأة ثيب هي «تجار بنت أبي بكر بن الشمس محمد بن إبراهيم الزفتاوي» أخت «صلاح الدين» أحد التجار الكارمية(١٠). وكان قد أنجب من غيرها ولداً أثكله بعد أن قرأ الفقه، وفضل، وعرض المنهاج - فوجد عليه جداً(١١). أما هي فلقد استولدها وهو بطريق الحجاز - في رجب سنة سبعين -

---

(١) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٤٣ ب.

(٢) نفسه، إنباء الغمر ج ١ ص ١١٦، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧أ، الذيل على رفع الإصر ص ٧٥.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧ أ.

(٤) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ١١٧، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧ أ.

(٥) ابن حجر. تبصير المنتبه ج ١ ص ٤١٥.

(٦) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ١١٦.

(٧) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٤٤ أ، تبصير المنتبه ج ١ ص ٤١٥.

(٨) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ١١٦ - ١١٧، المجمع المؤسس ق ٢٤٤ أ.

(٩) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ١١٦، وج ٣ حاشية رقم ١ ص ٢٨٠، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧ أ، الذيل على رفع الإصر ص ٧٥.

(١٠) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧ ب، ١٩ ب.

(١١) ابن حجر. الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٣٢، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦ أ ولعل أمه هي أخت «علي بن عبد العزيز بن أحمد الخروبي» (ت ٨٠٢ هـ. / ١٤٠٠ م.) أحد أعيان التجار =

بنتاً، جاء اسمها «ست الركب» مناسباً لذلك[1]. كما استولدها ابناً - هو مؤرخنا - وكان قبله قد حضر إلى بعض المعتقدين بمصر[2] فبشره بخلف الله عليه قائلاً: «يخرج من ظهركم عالم يملأ الأرض علماً»[3].. بيد أن الوالد توفي، ولما يستكمل كلاهما - البنت والولد - سن الشباب، حيث كانت البنت عند فقد الوالد قد اكتمل سنها سبع سنين، كما كان عمر الولد أربعاً[4]. وكانت والدتهما قد سبقته إلى جوار ربها بمدة فعاشا يتيمين.

وكان طبيعياً أن يترجم مؤرخنا لأبيه بعد قائلاً: «وأنا الآن أعقله كالذي يتخيل الشيء ولا يتحققه»[5].

كما كان لهما أخ من أمهما اسمه «عبد الرحمن بن الشهاب أحمد بن محمد بن محمد بن عبد المهيمن البكري» ذكره في المجمع المؤسس - مشيراً إلى أنه مهر وحصل مالاً أصله من قبل أمه، فقدر الله تعالى موته - (ت ٨٠٩ هـ. / ١٤٠٧ م.) - فورثه أبوه فمزق ماله، وكان الأب قد ناب في القضاء واشتغل وسمع وعني بالنظر في كلام الصوفية ومقالة ابن عربي التي كان داعية لها[6].

ويبدو أن والدهما كان كلفاً بهما، حيث يشير ابن حجر إلى أن أباه قد حصل لابنته «ست الركب» في السنة التالية لمولدها إجازات اتصلت بمصر وتونس، ومكة، والمدينة، وحلب، ودمشق، وبعلبك، والمزة[7] كما اصطحبهما - قبل

= بمصر، حيث يشير ابن حجر في ترجمته إلى أن والده كان قد تزوج أخته، وماتت قبله - إنباء الغمر ج ٢ ص ١٢٣.

(١) نفسه ج١ ص ٥١٧، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧ ب.

(٢) هو «يحيى الصنافيري» (ت ٧٧٢ هـ. / ١٣٧١ م.) - ابن حجر. الدرر الكامنة ج ٤ تر ١١٩٩ ص ٤٣١.

(٣) نفسه ج ٤ ص ٤٣٢، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦ ب الذيل على رفع الإصر ص ٧٥.

(٤) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ١١٧.

(٥) نفسه.

(٦) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٤١ ب - ٤٢ أ.

(٧) نفسه ق ٢٢٧ أ، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٩.

موته ـ للحج والمجاورة بمكة، والقدس، والخليل[1]. وأوصى بولده كبير التجار «الزكي الخروبي» (ت ٧٨٧ هـ. / ١٣٨٦ م.)، والشيخ «شمس الدين بن القطان» (ت ٨١٣ هـ. /١٤١١ م.) لاختصاصه به، بعد أن ترك لهما ثروة لا بأس بها، بقيت في معظمها إلى أن رشد مؤرخنا.

على أن مصير البنت ـ بعد فقد الأب ـ قد آل إلى التنشئة الحسنة، حيث تعلمت الخط، وحفظت الكثير من القرآن الكريم، وأكثرت من مطالعة الكتب فمهرت في ذلك جداً، بحيث كان يظن من يراها تقرأ من الكتاب أنها تحفظه لجودة استخراجها، وتزوجت وهي صغيرة من «شمس الدين محمد بن السراج عبد العزيز الخروبي» فاستولدها ولداً وبنتاً[2]. أما الولد وهو «صلاح الدين» فمات قديماً، وأما البنت، وهي «فواز» فقدر لها السفر إلى الحجاز صحبة زوجها حيث اختل عقلها بمكة، واستمرت تهذي في الكلام جداً مع استحضار في أوقات العبادة حتى ماتت ـ سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ـ وصلى عليها خالها[3].

وظل «ابن حجر» يحمل لأخته إجلالاً وتقديراً، دفع به إلى الترجمة لها في موضعين من مؤلفاته، على فترتين متفاوتتين، مشيراً إلى ذلك بقوله: «كانت بي برة رفيقة محسنة، جزاها الله عني خيراً، فلقد انتفعت بها وبآدابها مع صغر سنها»[4]. وإلى أنها «كانت قارئة كاتبة أعجوبة في الذكاء، وهي أمي بعد أمي»[5]. ويظهر توجعه بفقدها قوله: «.. ماتت شابة في جمادي سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ـ عوضها الله الجنة»[6]. وقوله: «أصبت بها في جمادي الآخرة من هذه السنة»[7].

---

(١) المصدران السابقان: ق ٣١ أ، ١٧ ب ـ على التوالي.

(٢) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٧ أ، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٩ ب.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٩ ب ـ ٢٠ أ، الضوء اللامع ج ١٢ ص ١١٦ تر ٧٠٢.

(٤) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٧ أ.

(٥) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٥١٧ تر ٢٠.

(٦) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٧ أ.

(٧) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٥١٧ تر ٢٠.

أما مؤرخنا فقد نشأ ـ مع يتمه ـ في «غاية العفة والصيانة والرياسة»(١) في كنف أحد أوصيائه «الزكي الخروبي»(٢) حيث اعتني به ـ غاية العناية فأدخله المكتب بعد أن اكتمل سنه خمس سنوات(٣) فقرأ به على «الشمس العلاف»(٤) و «الشمس الأطروش»، لكنه لم يكمل القرآن الكريم حفظاً إلا عند «الصدر السفطي» (ت ٨٠٨ هـ. / ١٤٠٦ م.)(٥) وقد بلغ من العمر تسع سنوات(٦). ثم لمْ يتهيأ له أن يصلي به للناس التراويح ـ على جاري العادة ـ إلا سنة خمس وثمانين وثمانمائة ـ بمكة والقدس ـ وقد اكتمل عمره اثنتي عشرة سنة(٧) حيث كان صحبة وصيه في الحج والمجاورة بمكة والقدس سنتي: أربع، وخمس وثمانين وسبعمائة(٨). وهناك اشتغل بالإعادة(٩).

---

(١) البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٣٦، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٠ أ، الذيل على رفع الإصر ق ٧٥.

(٢) هو «أبو بكر بن علي بن أحمد بن محمد الخروبي» كبير التجار الكارمية في مصر على وقته ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٣٠٦ تر ٩، الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ تر ١٢٠٥، المجمع المؤسس ق ٢٢٢ ب.

(٣) ابن حجر. رفع الإصر ق ٣٧ أ، ابن فهد المكي. لحظ الألحاظ ص ٣٢٦، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٠ ب، الذيل على رفع الإصر ص ٧٥.

(٤) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٣٧١.

(٥) هو «محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق بن عيسى بن عبد العزيز بن عمران بن حجاج، الصدر السفطي» ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٤٨، السخاوي. الضوء اللامع ج ٩ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ تر ٥٥٦.

(٦) ابن حجر. رفع الإصر ق ٣٧ أ، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٠ ب، الذيل على رفع الإصر ص ٧٥، الضوء اللامع ج ٣ ص ٣٦، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٢ أ.

(٧) ابن حجر. رفع الإصر ق ٣٧ أ، إنباء الغمر ج ١ ص ٢٦١، ابن فهد المكي. لحظ الألحاظ ص ٣٢٧، البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ص ٣٧، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٠ ب. الذيل على رفع الإصر ص ٧٥.

(٨) ابن حجر. رفع الإصر ق ٣٧ أ، إنباء الغمر ج ١ ص ٢٦١، السخاوي الضوء اللامع ج ٣ ص ٣٦، الجواهر والدرر ق ٢٠ ب.

(٩) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٢٦١، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٠ ب.

ووصل اعتناء الوصي به حداً جعله يهيء له هناك الجو المناسب للإقبال على الاشتغال، فتخير له مكاناً ساعد على ذلك(1). كما قدر له أن يسمعه غالب صحيح البخاري على «العفيف النشاوري» (ت ٧٩٠ هـ. / ١٣٨٨ م.)(2) وقد تصادف وجوده هناك، فكان ـ بذلك ـ أول شيخ سمع «ابن حجر» عليه الحديث(3). كما كان «الجمال ابن ظهيرة» (ت ٨١٧ هـ. / ١٤١٥ م.)(4) ـ وقد قرأ عليه في عمدة الأحكام ـ أول شيخ بحث عليه في فقه الحديث(5).

وما هو إلا أن عاد صحبة وصيه إلى مصر ـ محل إقامته ـ سنة ست وثمانين وسبعمائة(6) ليحفظ كتباً من مختصرات العلوم كالعمدة في الأحكام(7)

---

(١) حيث كان محل السماع تحت سكن الخروبي ـ المذكور ـ في البيت الذي بباب الصفا على يمنة الخارج إلى الصفا، وكان به شباك مطل على المسجد الحرام، يشاهد من يجلس فيه الكعبة والركن الأسود، فكان المسمع والقارىء يجلسان عند الشباك، دون مصطبة تحت الشباك المذكور، كان يجلس عليها مؤدبه ومن يدرس معه ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٠ ب.

(٢) هو «عبدالله بن محمد بن محمد بن سليمان بن موسى النيسابوري الأصل ثم المكي، المعروف بالنشاوري» ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩، المجمع المؤسس ق ٨٣ ب ـ ٨٥ أ، الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ تر ٢٢٢٩، ابن طولون. القلائد الجوهرية ج ٢ ص ٤٥٤.

(٣) ابن حجر. رفع الإصر ق ٣٧ أ، إنباء الغمر ج ١ ص ٣٥٩، المجمع المؤسس ق ٨٤ ب، ابن فهد المكي. لحظ الألحاظ ص ٣٢٦، البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ص ٣٧، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٠ ب.

(٤) هو «محمد بن عبدالله بن ظهيرة بن أحمد بن عبدالله بن عطية بن ظهيرة بن مرزوق بن محمد بن سليمان المخزومي المكي الشافعي» ـ له ترجمة: في: المقريزي. السلوك ج ٤ ص ٢٦٩، ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٦٦؛ إنباء الغمر ج ١ ص ٤٥ ـ ٤٦، ابن فهد المكي. لحظ الألحاظ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥، السخاوي. الضوء اللامع ج ٨ ص ٩٢ ـ ٩٥.

(٥) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٦٦ أ، إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٦، السخاوي الجواهر والدرر ق ٢١ أ، الضوء اللامع ج ٨ ص ٩٤.

(٦) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٨٨، الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٥٠، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢١ أ، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٣ أ.

(٧) هو «العمدة في الأحكام في معالم الحلال والحرام عن خير الأنام» لابن سرور الجماعيلي المقدسي =

والحاوي الصغير ـ كتاب أبيه[1] ـ ومختصر ابن الحاجب الأصلي[2] والملحة للحريري[3] . . عرضها ـ على العادة ـ على جماعة من الأئمة كتبوا خطوطهم له بذلك[4]. كما تعلم الخط المنسوب على «أبي علي الزفتاوي» (ت ٨٠٦ هـ. / ١٤٠٤ م.)[5].

وظهر من مؤرخنا ـ حينئذ ـ ما ينبه إلى مستقبل باهر ينتظره، فلقد رزق في صغره سرعة الحفظ، فكان كل يوم يحفظ نصف حزب، وبلغ من أمره في ذلك أن حفظ سورة مريم في يوم واحد، كما كان أكثر الأيام يصحح الصفحة من الحاوي الصغير، ثم يقرؤها تأملاً مرة أخرى، ثم يعرضها في الثالثة من حفظه . . فقد كان حفظه تأملاً على طريقة الأذكياء[6].

ثم قدر له أن يقرأ القرآن ـ الكريم ـ تجويداً على «الشهاب الخيوطي» (ت ٨٠٧ هـ. / ١٤٠٥ م.)[7] آنذاك[8].

= «ت ٦٠٠ هـ. / ١٢٠٤ م.) ويحتوي على أحاديث الأحكام مما اتفق عليه البخاري ومسلم، واردة بترتيب كتب الفقه.

(١) هو مختصر أبيه من الحاوي الصغير ـ في الفقه الشافعي ـ للنجم القزويني (ت ٦٩٥ هـ. / ١٢٩٦ م.).

(٢) هو مختصر كتاب «منتهى السؤل والأمل في علم الأصول والجدل» لأبي عمرو ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ. / ١٢٤٨ م.).

(٣) منظومة في النحو تسمى «ملحة الإعراب» للقاسم الحريري (ت ٥١٦ هـ. / ١١٢٢ م.).

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢١ أ، التبر المسبوك ص ٢٣٠، الذيل على رفع الإصر ص ٧٥، الضوء اللامع ج ٣ ص ٣٦، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٣ أ.

(٥) هو «محمد بن أحمد بن علي، أبو علي الزفتاوي، ثم المصري المكتب» ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٥٥، الدرر الكامنة ج ٢ ص ٨٩، السخاوي الضوء اللامع ج ٧ ص ٢٤ تر ٤٦.

(٦) ابن فهد المكي. لحظ الألحاظ ص ٣٢٦، البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٣٦، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢١ أ، ابن طولون. القلائد الجوهرية ج ٢ ص ٤٥٤، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٣ أ.

(٧) هو «أحمد بن محمد بن الفقيه علي الخيوطي» ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢١٦.

(٨) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢١ أ، ابن طولون. القلائد الجوهرية ج ٢ ص ٤٥٤.

ويبدو أن وفاة «الزكي الخروبي» (ت ٧٨٧ هـ. / ١٣٨٦ م) كانت سبباً في انشغال «ابن حجر» عن الإشتغال مدة ثلاث سنوات، لم يقدر فيهن أن يباشره غيره أو يوجهه[١] إلى أن انتقل إلى وصاية «الشمس ابن القطان» (ت ٨١٣ هـ. / ١٤١١ م.)[٢] فحضر دروسه في الفقه وأصوله، والعربية، والحساب.. وغيرها وقرأ عليه شيئاً من الحاوي الصغير - مع كونه لم يحمد تصرفه في تركته[٣].

وهذه الفترة التي تخللت الإنتقال من وصي إلى وصي لم تخل من فائدة حقيقية فلقد اشتغل فيها بطلب ما غلب على العادة طلبه من أصل وفرع ولغة ونحوها[٤] كما حبب إليه النظر في التواريخ وأيام الناس، فأقبل على ذلك مطلعاً بالعارية مرة وبالأجرة أخرى[٥]. كما سمع فيها اتفاقاً من بعض المسندين[٦]. ونظر في فنون الأدب ففاق فيها حتى كان لا يسمع شعراً إلا ويستحضر من أين أخذه ناظمه وتولع بذلك وما زال يتبعه خاطره حتى فاق فيه وساد وطارح الأدباء، وقال الأدب شعراً ونثراً، وكُتِبَ عنه[٧].

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢١ أ، الذيل على رفع الإصر ص ٧٧، ابن طولون. القلائد الجوهرية ج ٢ ص ٤٥٤، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٣ أ.

(٢) هو «محمد بن علي بن محمد بن عمر بن عيسى بن محمد، الشيخ شمس الدين ابن القطان المصري الشافعي» - ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٤٧٦، المجمع المؤسس ق ٢٦٨ ب - ٢٦٩ أ.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢١ أ، الذيل على رفع الإصر ص ٧٧، الضوء اللامع ج ٣ ص ٣٧، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٣ أ.

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢١ ب.

(٥) وكان ذلك بترغيب غير واحد، منهم «البدر البشتكي» (ت ٨٣٠ هـ. / ١٤٢٧ م.) وقد أعانه بإعارة الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وغيرها - السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢١ ب، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٣ ب.

(٦) كالنجم ابن زين، والصلاح الزفتاوي، وأبي الفرج الغزي... - السخاوي الجواهر والدرر ق ٢١ ب، ابن طولون. القلائد الجوهرية ج ٢ ص ٤٥٤.

(٧) ابن فهد المكي. لحظ الألحاظ ص ٣٢٧، البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٣٦ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢١ ب، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٣ ب.

وهكـذا ـ فإن الفتـرة بين سنتي سبـع وسبعين وسبعمـائة، وست وتسعـين وسبعمائة تمثل الإرهاصات الأولى للتكوين الفكري لدى «ابن حجر» والتي اطلع فيها على الكثير من الكتب التقليدية السائد الإطلاع عليهـا وحفظهـا في عصره، شأنه في ذلـك شأن غيـره من النشيء المعتني به. فلما فـرغ من ذلك اتجـه بكليته سنة ست وتسعين وسبعمـائة ـ إلى العلم بمنهجيـة، يتعمق فيه عـلى جاري عـادة العلماء وقد فرغ من مرحلة الطلب المبـدئي، ولذا نجـده يكتب بخطه تجـاه هذا التاريخ:

«رفع الحجاب، وفتح الباب، وأقبل العزم المصمم عـلى التحصيل، ووفق للهداية إلى سواء السبيل»(١).

فاتجه إلى الأخذ عن مشايخ ذلك العصر، وقد بقي منهم بقايا(٢).

وهنا يمكن تفسير ذلك على خلاف ما ورد لدى بعض مراجع ترجمته(٣) من أن المقصود بذلك هو اندفاعـه بالكليـة إلى الحديث النبـوي، لأنه في هـذه الفترة وما يليها لم يقصر همته على الحديث النبوي ـ فقط ـ وإن جعل لتحصيله الصدارة بين العلوم والمعارف، وإنما كان الحرص على تحصيله مع الإلمام بغيـره على سبيـل التعمق فيها، والدليل على ذلك:

ـ هذا العدد الجم من المتخصصين الذين أخذ عنهم في آن واحد(٤).

ـ وهذا الكم الهائل، والمتنوع من صنوف المعرفـة التي حصلها في رحـلاته وغيـرها، حيث لم تكن منحصـرة في الحديث وعلومـه، وإنما تعـدتـه إلى اللغـة،

---

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٢ أ، الـذيل عـلى رفع الإصر ص ٧٩، عبـد الله بن زين. جمان الدرر ق ٣ ب.

(٢) نفسه.

(٣) د. شاكر محمود عبد المنعم. ابن حجر العسقلاني ودراسة مصنفاته ومنهجه في كتـابه الإصـابة ج ١ ص ٩٠ ـ ٩١.

(٤) أورد «ابن حجر» في «المجمع المؤسس» نحـواً من أربعمائـة وخمسين شيخـاً له بـالسماع والإجـازة الخاصة دون الإجازة العامة.

والأدب، والشعر، والفقه، والتفسير، والقراءات والتاريخ . . الخ .

ـ بالإضافة إلى عبارة السخاوي قرين هذا الموضع، ونصها: « . . . وأخذ بهمة وافرة، سليمة باهرة في طلب العلوم: منقولها ومعقولها، حتى بلغ الغاية القصوى، وصار كلامه مقبولاً عند أرباب سائر الطوائف، لا يعدون مقالته لشدة ذكائه، وقوة باعه، حتى كان حقيقاً بقول القائل:

وكان من العلوم بحيث يقضي ... له في كل علم بالجميع »[1]

ـ وقول البقاعي: « . . . فأطلق عنان عزمه نحو بقية العلوم . فأكب عليها: الفقه والنحو، والأصلين، وعلوم الأدب: المعاني والبيان . . . وغيرها ـ حتى مهر فيها »[2] .

ـ وقوله ابن فهد المكي: « . . . وجد في طلب العلوم فبلغ الغاية القصوى »[3] .

وهذا ـ لا شك ـ يشير إلى أن هذه الفترة تمثل اتجاهاً مغايراً لفترة الطلب الأولى ـ وهي فترة التثقيف الذاتي ـ إنها فترة الإختصاص بالعلم، وليس التخصص في فرع من فروعه .

---

(١) السخاوي . الجواهر والدرر ق ٢٦ أ، عبدالله بن زين . جمان الدرر ق ٧ أ .

(٢) البقاعي . عنوان الزمان ج ١ ق ٣٧ ـ ٣٨ .

(٣) ابن فهد المكي . لحظ الألحاظ ص ٢٣٠ .

الفصل الثاني

شيوخه وأساتذته

من حسن حظ مؤرخنا أن اجتمع له من الشيوخ الذين يُشار إليهم، ويُعَوَّلُ في حل المشكلات عليهم ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره، لأن كل واحدٍ منهم كان متبحراً ورأساً في فنه الذي آشتهر به لا يُلْحق فيه. . «فالبرهان التنوخي» (ت ٨٠٠ هـ. / ١٣٩٨ م.)[١] في معرفة القراءات وعلو سنده فيها، وتفرد بالكثير من المسموعات الحديثية و«الزين العراقي»[٢] (ت ٨٠٦ هـ. /

---

(١) هو «إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد المؤمن بن سعد بن علوان بن كامل التنوخي البعلي، ثم الشامي، برهان الدين».

اجتمع به «ابن حجر» وخرج له عشاريات مائة، والأربعين العشارية ومعجم شيوخه ـ المعجم الكبير ـ في أربعة وعشرين جزءاً، ففرح به وصار يتذكر مشايخه وعهده القديم، وقد حبب إليه السماع فانبسط به. ولازمه «ابن حجر» ثلاث سنوات وصل فيها عليه كثيراً من مسموعاته التي تفرد بها.

وأذن له بالإقراء سنة ست وتسعين وسبعمائة، ثم توفي في جمادي الأولى سنة ثمانمائة للهجرة.

(٢) هو «عبد الرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم، أبو الفضل العراقي، زين الدين».

توفي في الثامن من شعبان سنة ست وثمانمائة للهجرة عن أكثر من إحدى وثمانين سنة، بعد أن كان «ابن حجر» قد لازمه عشر سنين ـ تخلل في أثنائها رحلاته إلى الشام وغيرها ـ قرأ عليه فيها الكثير من المسانيد والأجزاء الحديثية، وبحث عليه في كثير من المسائل، وأخذ عنه جل مؤلفاته، وشهد له الشيخ في مواطن كثيرة بالحفظ، وكتب خطه له بذلك مراراً، وقدمه على ولده في الحفظ، واستخدمه في كتابة كثير من أماليه في غيبة ولده.

١٤٠٤ م) في معرفة الحديث ومتعلقاته، و«النور الهيثمي» (ت ٨٠٧ هـ. / ١٤٠٥ م.)(١) في حفظ المتون واستحضارها، «والسراج البلقيني» (ت ٨٠٥ هـ. / ١٤٠٣ م.)(٢) في سعة الحفظ وكثرة الإطلاع، و«السراج ابن الملقن» (ت ٨٠٤ هـ. / ١٤٠٢ م.)(٣) في كثرة التصانيف، «والمجد الشيرازي»

---

(١) هو «علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر بن عمر بن صالح الهيثمي نور الدين، أبو الحسن».

اجتمع به «ابن حجر» وقرأ عليه قريناً للعراقي كما قرأ عليه منفرداً: نحو النصف من مجمع الزوائد ـ له ـ ونحو الربع من زوائد مسند أحمد، وزوائد مسند جابر، ومسند أحمد.

وكان «ابن حجر» قد تتبع أوهامه في كتابه «مجمع الزوائد» فبلغه أن ذلك شق عليه ـ وكانت بينهما مودة ـ فتركه رعاية له. بل ربما عاتبه في ذلك.

(٢) هو «عمر بن رسلان بن نصير بن صالح بن شهاب بن عبدالخالق بن عبدالحق الكناني البلقيني، سراج الدين».

مات في حادي عشر ذي الحجة سنة خمس وثمانمائة بالقاهرة وابن حجر متغيب في الحج، فرثاه ـ عندما علم بموته ـ بمرثية تزيد على المائة بيت مطلعها:

يا عين جودي لفقد البحر بالمطر ... واذري الدموع ولا تبقي ولا تذري

لورد ترداد دمع ذاهباً سبقت ... شهب الدموع بعيني جريه النهر

(البسيط)

بل لقد وصلته ـ وهو هناك ـ رسالة فيها «حادثتان طامتان: موت البلقيني، ومحاصرة الفرنج للأسكندرية» عد أولهما أعظمهما.

لازمه «ابن حجر»، وسمع وقرأ عليه الكثير، وحضر دروسه في الفقه وخرج له أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً ـ حدث بها مراراً، وشهد له الشيخ بالحفظ، وأذن له بالإفتاء وكتب له جزءاً من مؤلفه «تعليق التعليق» وبلغ من إجلاله لابن حجر حداً جعله يتمادى في ركوعه وهو يصلي الظهر حتى يدرك الصلاة معه، وقد أحس به داخلاً.

(٣) هو عمر بن علي بن أحمد بن محمد بن عبدالله الأنصاري الأندلسي ثم المصري، سراج الدين، أبو الحسن ـ المعروف بابن الملقن»، نسبة إلى زوج أمه الشيخ عيسى المغربي ملقن القرآن في جامع ابن طولون.

صحبه «ابن حجر»، وسمع وقرأ عليه قطعة كبيرة من شرحه على المنهاج والسادس والسابع من أمالي المخلص، والمسلسل بالأولية بسماعه من أحمد بن كشتغدي، والخامس من مشيخة النجيب... وأجاز له.

(ت ٨١٧ هـ. / ١٤١٥ م.)[١] في حفظ اللغة والإطلاع عليها، و «الغماري» (ت ٨٠٢ هـ. / ١٤٠٠ م.)[٢] في معرفة العربية ومتعلقاتها، وحفظها، وكذا «المحب ابن هشام» (ت ٧٩٩ هـ. / ١٣٩٧ م.)[٣] وكان حسن التصرف فيها، و «العز ابن جماعة» (ت ٨١٩ هـ. / ١٤١٧ م.)[٤] في تفننه في علوم كثيرة، بحيث أنه كان يقول: «أنا اقرىء في خمسة عشر علماً لا يعرف علماء عصري

---

(١) هو «محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي، مجد الدين أبو طاهر الفيروزبادي».

مات باليمن ليلة العشرين من شوال سنة سبع عشرة وثمانمائة للهجرة.

لقيه «ابن حجر» في رحلتيه إلى اليمن، وأخذ عنه الكثير مما هو مدون في الفصل التالي من هذا الكتاب.

(٢) هو «محمد بن محمد بن علي بن عبد الرزاق، أبو عبد الله الغماري المصري». توفي في رجب سنة اثنين وثمانمائة للهجرة.

سمع عليه «ابن حجر» البردة بسماعه لها علي أبي حيان بسماعه من ناظمها، وأجاز له غير ذلك.

(٣) هو «محمد بن عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام، محب الدين». توفي في رجب سنة تسع وتسعين وسبعمائة للهجرة.

سمع عليه «ابن حجر» علوم الحديث لابن الصلاح، وحكايات أبي علي الفقيه، وبعض جزء الحسن بن عرفة، وجزء الحسن بن أيبك.

(٤) هو «محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة، عز الدين».

لازمه «ابن حجر» من سنة تسعين وسبعمائة إلى أن مات، وأشار إلى أنه كان يوده كثيراً ويشهد له في غيبته بالتقدم، ويتأدب معه إلى الغاية، كما كان «ابن حجر» يبالغ في تعظيمه ولايسميه في غيبته إلا بإمام الأئمة.

حصل «ابن حجر» منه إجازات له ولأولاده، وأخذ عنه: شرح منهاج الأصول، وجمع الجوامع، ومختصر ابن الحاجب، والمطول لسعد الدين، كما قرأ عليه الخامس من مسند السراج.. وتطارحا بأبيات من الشعر.

أسماءها»(١).

(١) ابن قاضي شهبة. طبقات الشافعية ق ١٨٢ أ، ١٩٧ أ، ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٢٥ أ، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٦ أ، الذيل على رفع الإصر ص ٧٩، الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٧، السيوطي. حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٣٨، بغية الوعاة ج ١ ص ٢٣٠، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٧ أ.

ويلاحظ الإقتصاد هنا في إيراد الشيوخ على أبرزهم حسب تنويه كل من «ابن حجر» وتلميذه «السخاوي» بهم، وإن كان قد ترجم لأكثر من أربعمائة وخمسين ومنهم من أكثر عنه، كما أن منهم من أخذ عنه حديثاً واحداً، أو بيتاً من الشعر، أو حكاية، أو مناماً. ومنهم من سمع عليه، ومنهم من سمع بقراءته، أما هؤلاء المترجم لهم ـ هنا ـ فهم في حقيقة الأمر الذين لازمهم وتردد عليهم أكثر من غيرهم وانتفع بهم فكانوا أقرب إلى الأساتيذ بمفهوم العصر، وأرسخ بالنسبة إلى الفهم.

والملاحظ فضلاً عن هذا أن العصر كان عصر الموسوعية في الفكر والإختصاص في العلم وليس التخصص في فرع من فروعه إهمالاً لسائر الفروع الأخرى للمعرفة ـ المعروفة آنذاك ـ مما يعسر معه تصنيف هؤلاء وغيرهم حسب العلوم، ليقال: إن «البلقيني» كان استاذاً لابن حجر في الفقه دون غيره، أو أن «التنوخي» كان استاذاً له في القراءات.. وهكذا فلقد أخذ عن هذا وذاك إلى جانب الفقه والقراءات علم الحديث، واللغة والأدب..

الفصل الثالث

رحلاته داخل القطر المصري وخارجه

كان لرغبة «ابن حجر» في تحصيل المعارف[1] وشغفه بالعلم مبكراً[2] - وحرصه على أن يكون بالحديث النبوي عالماً متبحراً ورأساً فيه لا يلحق -[3] الدافع على مواصلة العدو والترواح إلى الشيوخ والعلماء والمسندين بالبواكر والعشايا[4] للتخرج بهم، والإنتفاع بملازمتهم[5] والقراءة عليهم[6]. ولذا فإنه لم يكتف بتحصيل العلم، وجمع شتات المعرفة في موطنه الصغير - القاهرة ومصر - وحده، وإنما إنساح في أرض الله جامعاً لكل ذلك. . فعرفت له رحلات داخل مصر، وأخرى خارجها تمثلت في الإرتحال إلى:

---

(١) أشار ابن حجر إلى ذلك قائلاً:

وإذا الديار تنكرت سافرت في ... طلب المعارف هاجراً لدياري
وإذا أقمت فمؤنسي كتبي فلا ... أنفك في الحالين من أسفاري

(الكامل)

السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٦ ب، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٧ أ.

(٢) كان ذلك ابتداء بسنة خمس وثمانين وسبعمائة للهجرة، وهو ابن اثنتي عشرة سنة - السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢١ أ.

(٣) نفسه ق ٢٦ أ، ولعل هذا كان دافعاً لديه على شرب ماء زمزم لثلاث منها: أن ينال مرتبة الحافظ «الذهبي» في الحفظ، ثم شربه لينال مرتبه أعلى من ذلك - نفسه ق ٣٣ ب.

(٤) نفسه ق ٢٢ أ، الذيل على رفع الاصر ص ٧٨.

(٥) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٢ أ.

(٦) نفسه في مواضع متفرقة.

١ ـ الصعيد

وتمثل أولى رحلاته ـ سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ـ حيث سافر إلى «قوص» وغيرها من بلاد الصعيد. . لكنه لم يستفد بها شيئاً من المسموعات الحديثية بل لقي جماعة من أهل العلم منهم: «نور الدين»[١] قاضي «هو» و«ابن السراج» قاضي «قوص» وجماعة من أهل الأدب سمع من نظمهم[٢].

٢ ـ الأسكندرية

كما كانت له رحلة إلى الأسكندرية التي دخلها يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي القعدة سنة تسع وتسعين وسبعمائة، فأقام بها إلى أن رحلت هذه السنة ودخل في السنة التي تليها عدة أشهر[٣].

---

(١) هو «علي بن محمد بن النعمان الأنصاري الهوي» (ت ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م.) لقيه «ابن حجر» بهو ـ بالقرب من قوص ـ وكان يحكى عن «ابن السراج» قاضي «قوص» أنه كان في منزله فخرج عليه ثعبان مهول المنظر ففزع منه فضربه فقتله فاحتمل في الحال من مكانه ففقد من أهله، فأقام مع الجن إلى أن حملوه إلى قاضيهم، فادعى عليه ولي المقتول فأنكر، فقال له القاضي: «على أي صورة كان المقتول؟»، فقال: «في صورة ثعبان» فالتفت القاضي إلى من بجانبه فقال: «سمعت رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـيقول: من تزيا لكم فاقتلوه»، فأمر القاضي بإطلاق المذكور فرجعوا به إلى منزله. (ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٧٦ ـ ٧٧، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٦ ب).

كما ذكر له ما يفيد مصافحته لبعض أصحاب «أبي العباس الملثم» الذي قيل فيه أنه عمر وروي عن «معمر» الصحابي المختلق ـ وهو ما لم يعتمده ابن حجر، ولا تلميذاه البقاعي والسخاوي. (ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٧٧، لسان الميزان ج ٦ ص ٧١، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٦ ب).

ومن الغريب أن «ابن حجر» قد التقى بابن السراج وأخذ عنه شيئاً من نظمه، ولم يفد ما إذا كان قد واجهه بهذه الحكاية للتحقق من صحتها فضلاً عن نسبتها إليه ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٧٧.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٤١٩، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٦ ب عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٧.

(٣) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٤٩٥، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٧ ب.

وبها التقى بجماعة من المحدثين والمسندين منهم «ابن الخراط» (ت ٨٠٣ هـ. / ١٤٠١ م.)[١]، و«ابن سليمان الفيشي» (ت ٧٩٨ هـ. / ١٣٩٦ م.)[٢] و«ابن البوري» (ت ٨٠٢ هـ. / ١٤٠٠ م.)[٣] و«ابن يفتح الله» (ت ٧٩٩ هـ. / ١٣٩٧ م.)[٤]، و«ابن شافع الأزدي» (ت ؟؟)[٥] و«ابن الحسن التونسي» (ت ٨٠٣ هـ. / ١٤٠١ م.)[٦]، و«ابن موسى الأسكندراني» (ت ٧٩٨ هـ. / ١٣٩٦ م.)[٧] و«ابن الموفق» (ت ٧٩٩ هـ. / ١٣٩٧ م.)[٨]،

---

(١) هو «أحمد بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن عمر بن عبد القوي، التاج السكندري، المالكي، سبط الشاذلي، المعروف بابن الخراط».

سمع عليه: التيسير للداني، والموطأ، والشفاء، وترجمة القاضي عياض ودرء السمط في خبر السبط لابن الأبار - بسماعه للأخير علي محمد بن حبان عن مؤلفه، وبعض التقصي لابن عبدالبر، وسداسيات الرازي . . - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٤٠ ب، السخاوي. الضوء اللامع ج ٢ ص ٧٦.

(٢) هو «محمد بن أحمد بن سليمان الفيشي المرجاني، زين الدين الأسكندراني المالكي» - قرأ عليه جزءاً حديثياً خرجه الحافظ شرف الدين الدمياطي» - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٦٥ أ.

(٣) هو «محمد بن علي بن أحمد بن هبة الله بن البوري الأسكندراني» قرأ عليه المسلسل بالأولية بشرطه، تخريج حافظ الأسكندرية «منصور بن سالم»، وسداسيات الرازي بسماعه لها على مشايخ سبعة ذكرهم في معجمه وجزء عمر بن سينك بسماعه له علي أحمد بن عيسى بن سعد الحداد - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٦٨، السخاوي. الضوء اللامع ج ٨ ص ١٦٧.

(٤) هو «محمد بن محمد بن عبد الوهاب بن يفتح الله المالكي الأسكندراني» قرأ عليه مشيخة الجوهري الصغرى بسماعه لها على علي بن أحمد الفرضي - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٥٩ ب.

(٥) هو «أحمد بن محمد بن عبد الغني الأزدي السكندري، ويعرف بابن شافع» قرأ عليه مشيخة الرازي - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٤١ ب، السخاوي الضوء اللامع ج ٢ ص ١٢٥.

(٦) هو «محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن علي بن الفخر التونسي الأسكندراني» - قرأ عليه مشيخة الرازي بسماعه لها علي ابن المصفي وابن القرات - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٥٧ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ١٠، ص ٢١١.

(٧) هو «محمد بن أحمد بن عبد الرزاق بن موسى الأسكندراني، تاج الدين» آخر من يروي بها حديث السلفي بالسماع المتصل، قرأ عليه مشيخة وجيهية تخريج تقي الدين ابن عرام - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٦٤ أ، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٧ ب.

(٨) هو «محمد بن أحمد بن محمد بن الموفق، ناصر الدين بن جمال الدين بن البزار الأسكندراني «قرأ =

و «ابن قرطاس» (ت ٧٩٩ هـ/ ١٣٩٧ م)(١) و «الشمس الجزري» (ت ٨٣٤ هـ. / ١٤٣١ م.)(٢) وقد حضه على الرحلة - لا سيما - إلى دمشق . .(٣).

وهناك جمع ما وقع له من النظم والمراسلات في مؤلف سماه «الدرر المضية من فوائد أسكندرية»(٤) ثم رجع إلى مصر ليقيم بها حتى يوم الخميس الثاني والعشرين من شوال سنة تسع وتسعين وسبعمائة إلى أن ظهر منها قاصداً اليمن عن طريق الطور - راكباً البحر - في ذي الحجة ليصلها في السنة المقبلة(٥).

٣ - اليمن

ولما أن وصل «الطور» حتى لقي جماعة من العلماء «كالرضي الزبيدي» (ت ٨٢١ هـ. /١٤١٨ م.)(٦) الذي أنشده لنفسه لغزاً كتبه «ابن حجر» عنه في «التذكرة» كما أفاده عن بعض شيوخ اليمن(٧). و «الصلاح الأقفهسي»

= عليه مشيخة الرازي بسماعه من ابن المصفي وابن الفرات - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٦٥ أ - ١٦٦ أ، إنباء الغمر ج ١ ص ٥٣٩.

(١) هو «محمد بن أبي بكر بن محمد بن قرطاس الأسكندراني، ناصر الدين» قرأ عليه مشيخة أبي عبدالله الرازي بسماعه لها على ابن المصفي وابن الفرات - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٦٨.

(٢) هو «محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف بن الجزري» وكانت بينهما مراسلات، وسمع كل منهما على الآخر، وكتب في الاستدعاء إليه وروج له كتبه - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٤٩ ب - ٢٥٠ ب، إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٦٦ - ٤٦٨، النعيمي. الدارس ج ١ ص ٨، السخاوي الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٥٥ - ٢٦٠.

(٣) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٥٠ ب، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٧ ب.

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٧ ب.

(٥) نفسه، ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٥٣٠.

(٦) هو «أبو بكر بن أبي المعالي بن عبدالله الناشري» - قدم القاهرة صحبه «فاخر الطواشي» سفير الأشرف صاحب اليمن ورافق «ابن حجر» في عودته إلى زبيد، ولم يؤرخ لوفاته (المجمع المؤسس ق ٢٢٣، وكذا السخاوي. الضوء اللامع ج ١١ ص ٩٥ - ٩٦) وإن أشار إلى أن «العفيف الناشري» قد أرخ وفاته بسنة إحدى وعشرين وثمانمائة.

(٧) ابن حجر: المجمع المؤسس ق ٢٢٣ ب.

(ت ٨٢٠ هـ. / ١٤١٧ م.)[١] فسمع عليه جزءاً من حديث الإسواري عن حكايات العقلي[٢] و«النجم والمرجاني» (ت ٨٢٧ هـ. / ١٤٢٤ م.)[٣] - وكان قد مهر في العربية حتى لم يبق في بلاد الحجاز من يدانيه فيها، بيد أنه كان منجمعاً عن الناس منشغلاً بعياله - فسمع عليه حديثاً واحداً عن ابن مسعود، وكثيراً من إنشاده لنفسه ولغيره[٤]. ثم توجهوا إلى «ينبع» فلقي بها بعض[٥] من أخذ عنه عدة أحاديث من الترمذي.

وكان دخولهم اليمن في ربيع الأول سنة ثمانمائة، وقد استأنس برفقته وانتشرت الفوائد الأدبية وغيرها بينهم[٦].

وفي «اليمن» انساح «ابن حجر» بحثاً عن العلم والمعرفة، فحصل الكثير

---

(١) هو «خليل بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الأقفهسي» - رافقه في هذه الرحلة قاصداً المجاورة بمكة، فطلع من جدة إليها، وتوجه «ابن حجر» إلى اليمن - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٤ ب - ٢٢٥ أ، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٧ ب، الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٠٢، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧ ص ١٥٠، ويلاحظ تأرجح المصادر في تحديد سنة وفاته، حيث أرخها كل من ابن حجر. المجمع المؤسس - ق ٢٢٥ أ - وابن فهد المكي. لحظ الألحاظ - ص ٢٧٢ - والسخاوي. الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٠٢ بسنة ٨٢٠ هـ. / ١٤١٨ م.، بينما أرخها في السنة التي تليها كل من: ابن حجر - إنباء الغمر ج ٣ ص ١٨٠ - وإن تشكك فيها، والسيوطي. حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٦٣، ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٧٠، وابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧ ص ١٥٠.

(٢) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٥ أ.

(٣) هو «محمد بن أبي بكر بن علي بن يوسف المصري، ثم المكي، المعروف بالمرجاني» - ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٣٨، المجمع المؤسس ق ٢٦٢ ب، السخاوي. الضوء اللامع ص ١٨٢ - ١٨٣، الجواهر والدرر ق ٢٧ ب - ٢٨ أ.

(٤) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٦٢ ب.

(٥) أورد «السخاوي» اسمه على سبيل التشكك قائلاً: «... وممن لقيه بها لكن لا أتحقق أنه في هذه الخطرة: جار الله بن صالح بن أحمد الشيباني المكي - الجواهر والدرر ق ٢٨ أ.

(٦) نفسه.

مما التقطه من «تعز» و«زبيد» و«عدن» و«المهجم» و«وادي الخصيب». . وغيرها.

أما «تعز» فإنه لقي بها «ابن الخياط الشافعي» (ت ٨١١ هـ/ ١٤٠٩ م)[١] ـ وكان قد مهر في الفقه، وشارك في غيره، وتخرج به جماعة ـ[٢] فاجتمع به وسمع من فوائده[٣].

كما التقى في «زبيد» بكل من: «ابن عبد الصمد الجبرتي» (ت ٨٠٦ هـ. / ١٤٠٤ م.)[٤] ـ وكان لأهل زبيد فيه اعتقاد زائد، وله عند السلطان منزلة وكلمته لا ترد، ومنزله ملجأ لكل أحد ـ فحدثه عن الحافظ أبي بكر بن المحب وأبي محمد بن عساكر[٥]. و«أحمد بن أبي بكر الناشري» (ت ٨١٥ هـ. / ١٤١٣ م.)[٦] ـ وكانت إليه رياسة الفتوى ببلده ـ[٧] فاجتمع به واستفاد منه[٨]، و«الشريف ابن المقرىء» (ت ٨٣٧ هـ. / ١٣٣٤ م.)[٩] ـ وقد مهر في الفقه والعربية والأدب ـ[١٠] حيث استفاد منه الكثير، كما سمع هو منه كتابه «ضوء الشهاب المنتخب من نظمه» وطارحه بأبيات رائية، وأحسن له

---

(١) هو «أبو بكر بن محمد بن صالح الجيلي التعزي الشافعي».

(٢) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٣ ب، إنباء الغمر ج ٢ ص ٤٠٨، السخاوي. الضوء اللامع ج ١١ ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٣) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٣ ب، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٨ أ.

(٤) هو «إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الصمد الجبرتي».

(٥) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٠.

(٦) هو «أحمد بن أبي بكر بن علي بن محمد بن أبي بكر بن عبدالله بن عمر بن عبد الرحمن بن عبدالله ابن يعقوب الزبيدي، شهاب الدين الناشري».

(٧) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٠٩ ب، إنباء الغمر ج ٢ ص ٥٢٥.

(٨) نفسه، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٨ أ.

(٩) هو «إسماعيل بن محمد بن أبي بكر الحسيني».

(١٠) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٠ ب ـ ٢٢١ أ، إنباء الغمر ج ٣ ص ٥٢١، السخاوي. الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٥.

السفارة عند سلطان بلاده(1). و«عبد الرحمن بن محمد العلوي» (ت ٨٠٣ هـ. / ١٤٠١ م.، أو ٨٠٤ هـ. / ١٤٠٢.)(2) - وكان شاعراً من أعيان زبيد، وله وجاهة ورياسة - فسمع من فوائده، وتناول منه بديعيته التي عارض بها الحلي(3). «وأبا أحمد الشرجي» (ت ٨٠٢ هـ. / ١٤٠٠ م.)(4) - وكان أحد أئمة العربية الذين اشتغل السلطان الأشرف صاحب اليمن عليهم - فاجتمع به وسمع من فوائد، كما سمع هو عليه شيئاً من الحديث(5). و«الموفق أبا الحسن الخزرجي» (ت ٨١٢ هـ. / ١٤١٠ م.)(6) ! وكان ناظماً ناثراً - طارح «ابن حجر» برسالة له(7). و«الموفق الناشري» (ت ٨١٢ هـ. / ١٤١٠ م.)(8) - وكان له اشتغل بالأدب وفاق أقرانه، حيث كانوا يقترحون عليه الأشعار في المهمات فيأتي بها على أحسن وجه، مما جعله يستحوز على لقب شاعر اليمن في عصره(9) - فسمع «ابن حجر» من نظمه قليلاً(10). و«الشهاب الردادي» (ت ٨٢١ هـ. / ١٤١٨ م.)(11) - وكان شاعراً من غلاة الدعاة إلى

---

(١) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٢٢١ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٩٤.

(٢) هو «عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عمر بن علي بن عمر بن أبي بكر العلوي الزبيدي، وجيه الدين» - ويلاحظ تأرجح «ابن حجر» في تأريخ سنة وفاته - المجتمع المؤسس ق ٢٣٦ ب - وأن السخاوي لم يؤرخه - الضوء اللامع ج ٤ ص ١٥٤ - وإن أشار إلى تأريخ المقريزي لها في ربيع الأول عام ثلاثة وثمانمائة.

(٣) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٣٦ ب، السخاوي. الضوء اللامع ج ٤ ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٤) هو «عبد اللطيف بن أبي بكر بن أحمد بن عمر اليماني».

(٥) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٢، المجمع المؤسس ق ١٣٨ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ٤ ص ٣٢٥.

(٦) هو «علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي الخزرجي الزبيدي».

(٧) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٤٠ ب، إنباء الغمر ج ٢ ص ٤٤١، السخاوي الضوء اللامع ج ٥ ص ٢١٠.

(٨) هو «علي بن محمد بن إسماعيل بن أبي بكر بن عبدالله بن عمر بن عبد الرحمن الناشري».

(٩) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٤٤١، السخاوي. الضوء اللامع ج ٥ ص ٢٩١.

(١٠) نفسه، والمجمنع المؤسس ق ٢٤١ ب.

(١١) هو «أحمد بن أبي بكر بن محمد الرداد المالكي، شهاب الدين».

مقالة ابن عربي ـ فسمع من نظمه ومن فوائده، كما سمع هو من «ابن حجر» جزءاً حديثياً(١) .

على حين لقي «بعدن» «الرضى بن المستأذن» (ت ٨١٦ هـ/ ١٤١٤ م.)(٢) . وكان قد تعاني النظر في الأدب ومهر في القراءات وتكلم على الناس وخطب ـ فسمع من شعره(٣) كما سمع عنه من نظم القيراطي ـ باعتبار أنه لازمه وكتب عنه أكثر ديوانه الذي ابتدأه القيراطي لنفسه ـ(٤) وسمع هو من «ابن حجر» كثيراً(٥) وكتب عنه من تصانيفه «تعليق التعليق» و «تهذيب التهذيب» و «لسان الميزان»(٦) .

ولقي بها ـ كذلك ـ «ابن حيدر الشيرازي» (ت ٨١٧ هـ. / ١٤١٥ م.)(٧) فحدثه عن «ابن الجوخي»، وكان قد لقيه قبل بزبيد محدثاً عن ست الغرب بنت محمد بن الفخر بن البخاري(٨) .

كما التقى بالمهجم «بالتقي أحمد بن إبراهيم القوصي»(٩) فسمع منه حديثاً واحداً علقه في البلدانيات(١٠) . و «علي بن أحمد الصنعاني» (ت ٨٠٦ هـ/ ١٤٠٤ م.)(١١) فأنشده قصيدة رثى بها «البرهان المحلي» وفي آخرها مدح لولده(١٢) .

---

(١) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٠٩ أ.

(٢) هو «أبو بكر بن يوسف بن أبي الفتح العدني».

(٣) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٢٣، السخاوي. الضوء اللامع ج ١١ ص ٩٨.

(٤) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٤ أ.

(٥) ابن حجر. نفسه، إنباء الغمر ج ٣ ص ٢٣.

(٦) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٤ أ.

(٧) هو «عبد الرحمن بن حيدر بن علي بن أبي بكر الشيرازي الدهقلي، التاجر السفار».

(٨) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٤، المجمع المؤسس ق ٣٣٤ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ٤ ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٩) هو «أحمد بن إبراهيم بن أحمد، شهاب الدين القوصي اليماني الشافعي». لم تعرف سنة وفاته.

(١٠) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٠١ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ١ ص ١٩٤.

(١١) لم يزد كل من «ابن حجر» و «السخاوي» عن هذا في اسمه.

(١٢) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٣٩ ب، السخاوي. الضوء اللامع ج ٥ ص ٥٩٠.

على حين التقى في وادي الخصيب «بالجمال المصري» (ت ٨٢٠ هـ. / ١٤١٨ م.)[١] وسمع منه قليلاً[٢].

والتقى في زبيد ووادي الخصيب «بالمجد الفيروزبادي» (ت ٨١٧ هـ. / ١٤١٥ م.)[٣] ـ وهو من هو ـ فناوله جل القاموس المحيط ـ لتعذر اكتماله عنده، وأذن له مع المناولة في روايته عنه، وقرأ عليه من حديثه عدة أجزاء والمسلسل بالأولية بسماعه من السبكي، وأنشده لنفسه، كما أفاده عن «رتن الهندي»، الذي تشكك «الذهبي» في وجوده وصحبته، وكتب له تقريظاً على «تعليق التعليق»[٤].

على حين التقى في زبيد وتعز «بالنفيس العلوي» (ت ٨٢٥ هـ/ ١٤٢٢ م.)[٥] ـ محدث اليمن المنعوت من الفيروزبادي بإمام أهل السنة ـ[٦] فأعجب «ابن حجر» بحرصه على محبة الحديث واستمراره على ملازمته له قراءة ومطالعة ونسخاً واستنساخاً ومقابلة، وسمع منه جزءاً خرجه له من حديثه، كما سمع هو «المائة العشارية» له، وحدث بها «ابن حجر» هناك[٧].

كما خرج «ابن حجر» وهو باليمن من مرويات نفسه إلى جانب ذلك ـ الأربعين المهذبة بالأحاديث الملقبة إجابة له، وكتب بخطه «التقييد» لابن نقطة

---

(١) هو «محمد بن أبي بكر بن علي بن يوسف بن إبراهيم بن موسى بن ضرغام بن حميد، الجمال أبو عبدالله الأنصاري الدروي المصري، ثم المالكي الزبيدي الشافعي» ـ ترجمه ابن حجر في المجمع المؤسس ق ٢٦٣ أ، إنباء الغمر ج ٣ ص ١٥٠ ـ ١٥١، السخاوي. الضوء اللامع ج ٧ ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٦٣ أ.

(٣) مرت ترجمته.

(٤) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٥٠، المجمع المؤسس ق ١٧٧ أ، وما بعدها، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٨، الضوء اللامع ج ١٠ ص ٨٦.

(٥) هو «سليمان بن إبراهيم بن عمر بن علي بن عمر، نفيس الدين أبو الربيع بن البرهان أبي إسحق العكي العدني التعزي الزبيدي الحنفي».

(٦) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٢٨٦.

(٧) نفسه، السخاوي. الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

و «فصل الربيع في فضل البديع»، وحدث بمشيخة الفخر ابن البخاري، والمائة العشاريات لشيخه «التنوخي»، و «الحصن الحصين في الأدعية» للشمس الجزري فروجه له قبل دخوله إليهم[1].

ولما تسامع صاحب اليمن[2] به خطبه للاجتماع به فالتقى «ابن حجر» به وامتدحه، وأهدى إليه نسخة من «خريدة القصر» للعماد الكاتب بخط «الكمال ابن الفوطي» في أربع مجلدات، بالإضافة إلى تذكرته الأدبية بخطه في أربعين مجلداً لطافٍ[3] ـ فأثابه ثواباً عظيماً، ولاقى عنده رواجاً واحتفالاً[4].

كما اتصل «بـابن جميع» (ت ٨٠٣ هـ. / ١٤٠١ م.)[5] المفوض إليه أمر عدن، حيث سر به، وبالغ في الإحسان إليه لكونه كان صديق خاله قديماً[6].

وبعدها رجع «ابن حجر» من اليمن صحبة المحمل المجهز من قبل صاحبها إلى مكة التي دخلها سنة ثمانمائة ليحج حجة الإسلام وقد إزدادت معارفه وتوثقت صلاته وصداقاته، وانتشرت علومه ولطائفه[7].

على أن «ابن حجر» قد توجه إلى اليمن للمرة الثانية ـ سنة ست وثمانمائة ـ بعد أن جاور بمكة، ويشير «السخاوي» إلى أنه قد واجهته ـ في هذه المرة ـ متاعب جمة، نتيجة لغرق المركب الذي كان يقله إلى اليمن، حيث غرق معه ما اصطحبه «ابن حجر» من الأمتعة والنقد والكتب، ووديعة لبعض أصحابه.. فأقام ببعض الجزر ـ هناك ـ ملتمساً إخراجها فخرج أكثر ما غرق وصولح ـ عما جرت العادة بأخذه مما طلع بعد الغرق ـ وتوجه إلى «اليمن» ليلتقي

---

(١) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٥٠ ب، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٨ ب.

(٢) هو «إسماعيل بن عباس بن علي بن داود بن عمر بن علي بن رسول، الملك الأشرف الغساني ـ صاحب كتاب «العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك» (ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م.).

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٩ ب.

(٤) نفسه ق ٢٨ ب، ٢٩ ب.

(٥) هو «علي بن يحيى الطائي الصعدي».

(٦) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ١٧٦، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٨ ب.

(٧) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٩ أ.

ببعض الذين أخذ عنهم في المرة الأولى وغيرهم، فأخذ عنهم وأخذوا عنه.[1]

ويعزو «السخاوي» ـ نقلاً عن شيخه ـ هذا الغرق إلى عين من استعرض كتبه وتعجب من كثرة ما فيها بخطه[2] ولكنه لا يشير إلى ظروف هذا الغرق وملابسات استنقاذ شيخه ـ خاصة وأنه لم يكن يحسن السباحة ـ[3] وجملة ما افتقده من جراء هذه الكارثة مما غرق أو صولح عليه بعد إخراجه، وطرق هذه المصالحة وشرائطها.

٤ ـ الحجاز

وطبيعي أن تكون «لابن حجر» وغيره من العلماء والمحدثين رحلات إلى الحجاز للحج والمجاورة، حيث الفرصة سانحة للإشتغال والمذاكرة على من يصادفونه هناك من العلماء والشيوخ والمحدثين والمسندين..

ولذا تشير المصادر إلى أن «ابن حجر» كان قد قدم الحجاز للحج والمجاورة والأشغال لأكثر من مرة[4] التقى خلالها «بمنى»[5] و «مكة»[6]

---

(١) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٠ ب، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٢٠ ب.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٢٠ ب.

(٣) نفسه ق ٢٩ ب ـ حيث اتفق له ـ بعد ذلك ـ وهو راجع من الخانقاة الركنية أن سقط من تحته بعض ألواح المركب فسقط في الماء بثيابه فسارع أهل المركب لطلوعه.

(٤) قدم «ابن حجر» الحجاز ـ طفلاً ـ صحبة والده وقد جاور هناك، ثم قدر له أن يفد عليه صحبة وصيه «الزكي الخروبي» ـ حدثاً ـ وأن يجاور بمكة، وبعدها حج حجة الإسلام سنة ثمانمائة، بعد أن كان قد ارتحل إلى اليمن للمرة الأولى، وفي عودته منها للمرة الثانية حج ـ كذلك ـ سنة خمس وثمانمائة، وجاور بمكة بعض سنة ست، كما اتيحت له فرصة السفر إلى الحجاز للحج والاشتغال سنة خمس عشرة وثمانمائة، وكانت آخر مرة حج فيها سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وفيها نزل بالمدرسة الأفضلية ـ أنزله فيها المحب ابن ظهيرة قاضي مكة ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٢ ب، ٢٢٣ أ إنباء الغمر ج ١ ص ٢٦١، ج ٢ ص ١٢٦، ج ٣ ص ٢٥٠، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٩.

(٥) لقي بها «أبا بكر بن حسين بن عمر بن عبدالله المراغي» (ت ٨١٦ هـ. / ١٤١٤ م.) ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٢٣، السخاوي. الضوء اللامع ج ١١ ص ٢٨ ـ ٣١، وكذا لقيه بالمدينة المنورة ومكة.

(٦) لقي بها:

محمد بن علي بن محمد بن علي بن ضرغام، الشهير بابن سكر» (ت ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م) ـ ابن =

و «المدينة»(1) . . بجماعة من فضلاء الحجاز وأعيانها وطلبتها قرأ عليهم وقرأوا

= حجر. المجمع المؤسس ق ١٧٣ ب ١٧٥ أ، إنباء الغمر ج ٢ ص ٨٥، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٠ أ.

و «ست الكل بنت أحمد بن إمام الدين محمد القسطلانية المكية» (ت ٨٠٣ هـ. / ١٤٠١ م.) - ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ١٦٤، السخاوي الضوء اللامع ج ١٢ ص ٥٧.

و «إبراهيم بن محمد بن صديق بن إبراهيم بن يوسف الدمشقي» (ت ٨٠٦ هـ. / ١٤٠٤ م.) - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٤ أ، إنباء الغمر ج ٢ ص ٢٧٠ - ٢٧١، السخاوي. الضوء اللامع ج ٢ ص ١٤٧ - ١٤٨.

و «محمد بن عمر بن علي بن عمر بن محمد بن السعيد، أبا الطيب السحولي» (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م.) - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٧٦ أ، إنباء الغمر ج ٢ ص ٣١٣، السخاوي. الضوء اللامع ج ٨ ص ٢٥١.

و «محمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الطبري الشافعي» (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) - ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٣٧٣، المجمع المؤسس ق ١٦٥ ب، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٠ أ، الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

و «ظهيرة بن حسين بن علي بن أحمد بن عطية بن ظهيرة القرشي» (ت ٨١٩ هـ / ١٤١٧ م.) - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٦٦ ب، إنباء الغمر ج ٣ ص ١٧٠، السخاوي. الضوء اللامع ج ٤ ص ١٥.

و «خليل بن هرون بن مهدي بن عيسى بن محمد الجزائري المغربي» (ت ٨٢٦ هـ. / ١٤٢٣ م.) - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٤٤ ب، السخاوي. الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

و «علي بن أحمد بن محمد بن سلامة بن عطوف السلمي المكي، نور الدين ابن سلامة» (ت ٨٢٨ هـ. / ١٤٢٥ م.) - ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٥٦، ٣٥٧، المجمع المؤسس ق ٢٣٩، السخاوي. الضوء اللامع ج ٥ ص ١٨٣ - ١٨٤.

(١) لقي بها:

«محمد بن معالي بن عمر بن عبد العزيز بن سند، الشمس الحراني» (ت ٨٠٩ هـ. / ١٤٠٧ م.) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٧١ أ، إنباء الغمر ج ٢ ص ٣٧٥، السخاوي. الضوء اللامع ج ١٠ ص ٥١ - ٥٢.

=

عليـه، وحملوا عنه بعض تصانيفه وغيرها. [1]

كما كان كثيراً ما يحدث في موسم الحج ببعض مروياته[2] أو يرشد من يصادفه ـ هناك ـ إلى المعروف له من المسندين ـ القادمين للحج والمجاورة ـ فيسمعون عليه ويأخذون عنه. [3]

٥ ـ الشام

خرج «ابن حجر» من القاهرة ـ عصر يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وثمانمائة ـ قاصداً بلاد الشام للأخذ عن من بها من الشيوخ والمحدثين والمسندين[4]. وكان وصوله إليها في الحادي والعشرين من رمضان من نفس السنة[5] حيث ظل مقيماً بها مائة يوم[6] آخرها غرة المحرم سنة ثلاث

= و «محمد بن أحمد بن عبدالله القزويني» (ت ٨١١ هـ. / ١٤٠٩ م.) ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٥٨ ب، إنباء الغمر ج ٢ ص ٤١٤ السخاوي. الضوء اللامع ج ٧ ص ١٠٥.

و «عبد الرحمن بن علي بن يوسف بن الحسن بن محمود الزرندي» (ت ٨١٧ هـ. / ١٤١٥ م.) ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٣٤ ب، إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٤ ـ ٤٥، السخاوي. الضوء اللامع ج ٤ ص ١٠٥ ـ ١٠٦، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧ ص ١٢٥.

(١) حيث أخذوا عنه هناك ـ المسلسل بالأولية، وبعضاً من ترجمة البخاري التي ذكرها في مقدمة شرحه، وقصيدة له ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٠ أ.

(٢) من ذلك تحديثه ـ هناك ـ بجزء من تصانيفه في الحج، وبالأربعين المتباينة، وتخريج الأربعين النووية، والكلام على حديث القضاة كلها تخريجه ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٠ أ.

(٣) من ذلك إرشاده لجمع كبير من قضاة مكة وأعيانها وطلبتها إلى المسند الرحلة «زين الدين ابن طولوبغا السيفي البكري» (ت ٨٢٥ هـ. / ١٤٢٢ م.) وكان قدم للحج، فأخذوا عنه شيئاً من مروياته ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٠ أ، وله ترجمة في ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٢٨٧ السخاوي. الضوء اللامع ج ٤ ص ١٣٢.

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٠ ب.

(٥) نفسه ق ١٣٢ أ.

(٦) نفسه.

وثمانمائة ـ بعدما تواتـرت الأخبار بقـرب مجيء المغول إليهـا ـ[1] فآثـر العود إلى القاهرة وقد إتسعت معارفه كثيراً، بما أخذه عن العلماء بهـا، أو في الطريق إليهـا سواء في «سرياقوس»[2] أو المرج[3] أو «قطية»[4] أو «غزة»[5] أو «نـابلس»[6] أو

---

(١) المصدر السابق، وابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ١١٠، ١٣٣.

(٢) كان ممن لقيه بها:

«سليمان بن عبد النـاصر بن إبراهيم الابشيـطي الشافعي» (ت ٨١١ هـ. / ١٤٠٩ م.) ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٦٤ ب، إنباء الغمر ج ٢ ص ٤٠٩ تر ٢٠، السخاوي. الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

(٣) لقي بها:

«محمد بن أبي الزين أبا الطيب القيرواني المغربي المالكي» (ت ٨٠٦ هـ. /١٤٠٤ م.) ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ٢٦٤ أ، السخاوي. الضوء اللامع ص ٢٤٧ / ٦).

(٤) بالفتح ثم السكون وباء مفتوحة، قـرية في طـريق مصر في وسط الرمـل قرب الفـرما ـ يـاقوت. معجم البلدان ج ٤ ص ٣٧٨.

سـمـع بهـا عـلي «محمـد بـن أحمـد بـن عـلي بـن أبي عـبـدالله محمـد بـن محمـد بـن عبـد الـرحمن، التقي الفـاسي (ت ٨٣٢ هـ. / ١٤٢٩ م.) ـ ابن حجـر. إنبـاء الغمـر ج ٣ ص ٤٢٩ تر ١٧، السخاوي الضوء اللامع ج ٧ ص ١٨ ـ ٢٠ ـ وكان مـرافقاً لـه في هذه الـرحلة هو وقريب «ابن حجر» الزين شعبان ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٠ ب.

(٥) وممن سمع عليه بها:

أحمد بن محمد بن عثمان بن علي بن عبدالله الخليلي» (ت ٨٠٥ هـ. / ١٤٠٣ م) ـ ابن حجـر. المجمـع المؤسس ق ٤٢، إنبـاء الغمـر ج ٢ ص ٢٤٠ تـر ٥، السخـاوي. الضـوء الـلامـع ج ٢ ص ٤٠٢.

و «إبـراهيم بن محمـد بن بهـادر بن عبـدالله بن أحمـد الغـزي» المعـروف بـابن زقـاعـة (ت ٨١٦ هـ. / ١٤١٤ م.) ـ ابن حجـر. إنبـاء الغمـر ج ٣ ص ١٧ تـر ٢، المجمـع المؤسس ق ٢٠٠ ب، ٢٠١ أ، السخاوي الضوء اللامع ج ١ ص ١٣٠ ـ ١٣٤.

(٦) وممن لقيه بهـا:

«إبـراهيم» و «علي» ابنـا «محمد بن إبـراهيم النـابلسي العـطار المعـروف بـابن العفيف الجعـدي الحلبي» ـ ابن حجـر. المجمع المؤسس ق ١٣ ب، ١٤ أ، ٢٤١ ب، السخـاوي. الضوء الـلامع ج ٥ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

و «أبا بكر بن علي بن أبي بكر بن الحكم، سيف الدين، وتقي الدين النابلسي الحنبلي ـ المعروف =

«الرملة»[1] أو «بيت المقدس»[2] أو «الخليل»[3] أو «دمشق» و «صالحيتها»[4] أو

= بابن الحكم» ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٢ ب، السخاوي. الضوء اللامع ج ١١ ص ٥١.

و «أحمد بن محمد بن عبد القادر بن عثمان بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة بن سلطان بن سرور النابلسي الحنبلي، شهاب الدين ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢١٦ ب، السخاوي. الضوء اللامع ج ٢ ص ١٢٥.

و «عيسى بن علي بن محمد بن غانم الشريف المقدسي» ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٤٦ ب، السخاوي. الضوء اللامع ج ـ٦ ص ١٥٥.

(١) لقي بها:

«أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر الأيكي الفاسي، المقلب بابن زغلش»: (ت ٨٠٣ هـ. / ١٤٠١ م.) ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ تر ١٦، المجمع المؤسس ق ٣٩، السخاوي. الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٥٥، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٥.

و «عبدالله بن سليمان بن عبدالله بن حرز الله، الجمال الأجاري، ثم المقدسي، المكي، المعروف بابن سحارة» ـ السخاوي. الضوء اللامع ج ٥ ص ٢٠ ـ ٢١.

(٢) لقي به:

«أبا بكر بن عثمان بن خليل الحوراني، تقي الدين المقدسي. (ت ٨٠٤ ـ٧٨/١٤٠٢ م.) ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٢١١ تر ١٠، السخاوي. الضوء اللامع ج ١١ ص ٤٦.

و «صالح بن خليل بن سالم بن عبد الناصر بن محمد بن سالم المغربي» (ت ٨٠٤ هـ. /١٤٠٢ م.) ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٦٦ أ، إنباء الغمر ج ٢ ص ٢١٣ تر ١٦، السخاوي. الضوء اللامع ج ٣ ص ٣١١.

و «عبد الرحمن بن محمد بن حامد بن أحمد بن عبد الرحمن بن حميد المقدسي، المعروف بابن حامد» (ت ٨٠٧ هـ. /١٤٠٥ م.) ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٩٨ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ٤ ص ١٢٧.

و «محمد بن إسماعيل بن علي بن الحسن بن علي القلقشندي» (ت ٨٠٩ هـ. /١٤٠٧ م.) ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٣٧٣ تر ٢٦، المجمع المؤسس ق ١٦٧ ب، السخاوي. الضوء اللامع ج ٧ ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

و «عبد الهادي بن عبدالله بن خليل بن علي بن عمر بن مسعود البساطي المقدسي»=

= (ت ٨٠٩ هـ. /١٤٠٧ م.) ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٣٧٠، المجمع المؤسس ق ٢٣٨ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ٥ ص ٩١ ـ ٩٢.

و «محمد بن عمر بن عيسى بن موسى البصري الدمشقي، المعروف بابن القزع» (ت ٨١١ هـ. /١٤٠٩ م.) ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٧٦ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ٧ ص ٢٥٣.

و «أحمد بن حمد بن علي بن محمد بن أحمد بن مثبت المالكي» (ت ٨٠٣ هـ. /١٤٠١ م.) ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٤٣ أ.

و « أحمد بن ناصر بن خليفة بن فرج بن عبدالله بن يحيى بن عبد الرحمن المقدسي الباعوني» (ت ٨١٦ هـ. /١٤١٤ م.) ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٢٠ ـ ٢٢، المجمع المؤسس ق ٢١٩ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٣١ ـ ٢٣٣.

و «حسن بن موسى بن إبراهيم بن مكي المقدسي الشافعي» (ت ٨١٧ هـ. /١٤١٥ م.) ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٣، المجمع المؤسس ق ٥٨ ب، السخاوي. الضوء اللامع ج ٣ ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

و «أحمد بن محمد بن عبد الكريم، الشهاب التزمنتي» ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢١٧ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ٢ ص ١٢٥.

و «غزال القلقشندية» ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٢٦ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ١٢ ص ٨٥.

وكان قد رحل من القاهرة إلى القدس للقاء «أحمد بن خليل بن كيكلدي العلائي المقدسي» (ت ٨٠٢ هـ. /١٤٠٠ م). بسبب ظهور سماع له في سنن ابن ماجة عن الحجار فبلغه وفاته وهو بالرحلة، فعرج عن القدس إلى دمشق ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ١١٤، المجمع المؤسس ق ٣١ أ، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣١ ب.

(٣) لقي بها:

«محمد بن محمد بن علي بن يحيى بن زكريا المنيحي المقدسي الحنفي» ـ السخاوي. الضوء اللامع ج ٩ ص ١٦٦.

(٤) الصالحية مدينة ممتدة في سفح جبل قاسيون تشرف على دمشق وضواحيها، إسلامية محدثة في أواخر القرن السادس الهجري / الحادي عشر الميلادي، اختلف في سبب تسميتها، فقيل لكونها بسفح قاسيون وهو معروف بجبل الصالحين، وقيل نسبة إلى الصالحيين لصلاح من كان ابتدأ وضعها، وقيل لأن الذين وضعوها كانوا بمسجد أبي صالح فنسبت إليه ـ ابن طولون. القلائد الجوهرية ص ٦٤ وما بعدها، القلقشندي. صبح الأعشى ج ٤ ص ٩٤.

«الـزعفران»[1] أو «النيـرب»[2]. . واستطاع بـذلك أن يصـل الكثير من الكتب

= لقي بهما:

«أحمـد بن علي بن محمـد بن عـلي بن أحمـد بن عـلي بن يـوسف بن يـونس الـدمشقي الحنفي، المعروف بابن عبـد الخالق» (ت ٨٠٢ هـ. / ١٤٠٠ م.) - ابن حجـر. إنباء الغمـر ج ٢ ص ١١٥ تر ١٦، المجمع المؤسس ق ٣٤ أ، ١٣٦ أ.

و «أبا بكر بن عبدالله بن العماد أبي بكر بن أحمد بن عبد المجيد بن عبد الهادي الصـالحـي»، و «خـديجة بنت إبـراهيم بن إسحاق الـدمشقيـة»، و «داود بن أحمـد بن عـلي بـن حـمزة البقـاعي الصالحي» و «عبدالله بن محمـد بن أحمد بن عبـدالله المقدسي»، و «فـاطمة بنت محمـد بن أحمد بن محمد بن عثمان بن المنجا»، و «فاطمـة بنت محمد بن عبـد الهادي»، و «محمـد بن عبد الـرحمن بن الحافظ أبي عبدالله الـذهبي»، و «محمد بن محمـد بن محمد بن قـوام»، و «محمد بن محمـد بن منيع الصالحي الوراق» - ابن حجر. إنباء الغمر، وفيات سنة ٨٠٣ هـ. / ١٤٠١ م.)، المجمع المؤسس في مـواضـع متفـرقـة، الـدرر الكـامنـة ج ٢ ص ١٤٧ - و «أبـا الخـير البقـاعي الـدمشقي» (ت ٨٠٦ هـ. / ١٤٠٤ م.) - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢١ ب.

و «أنس بن علي بن محمد بن أحمد بن سعيد بن سـالم الأنصاري» (ت ٨٠٧ هـ. / ١٤٠٥ م.) - نفسه ق ٢٢١ ب - ٢٢٢ أ.

و «عبـد الـرحمن بـن يـوسف بـن أحمـد الـكـفـيـري، زيـن الـديـن الـدمـشـقـي» (ت ٨٠٩ هـ. / ١٤٠٧ م) - نفسه ق ٢٣٧ أ.

و «عائشة بنت محمد بن عبد الهادي الصالحيـة» (ت ٨١٦ هـ. / ١٤١٤ م.) - ابن حجر. إنبـاء الغمر ج ٣ ص ٢٥ تر ١٦، السخاوي. الضوء اللامع ج ١٢ ص ٨١.

و «عبـد القـادر بن محمـد بن إبـراهيم بن عبـدالله بن إبـراهـيم بـن يـوسف الأرمـوي» (ت ٨٢٤ هـ. / ١٤٢١ م.) - ابن حجر. إنباء الغمـر ج ٣ ص ٢٦٠ تر ١٠، السخـاوي. الضوء اللامع ج ٤ ص ٢٦١.

(١) لقي بها:

«أحمـد بن إسمـاعيـل بن خليفـة الحسبـاني ثم الـدمشقي، شـهـاب الـدين» (ت ٨١٥ هـ. / ١٤١٣ م.) - ابن حجر. إنباء الغمـر ج ٢ ص ٥٢٣ تر ٣ السخـاوي. الضوء الـلامع ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٩.

(٢) النيرب: بالفتح ثم السكون وفتح الراء، وباء موحدة - قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين - ياقوت. معجم البلدان ج ٥ ص ٣٣٠.

الكبار والأجزاء الصغار وغيرها مما كان قد إنقطع من مدد متطاولة واحتيج في وصله للقراءة بتوالي ثلاث إجازات أو أكثر(١).

كما حصل جملة مستكثرة من الكتب، منها ما يكون في مجلدة ضخمة أو أكثر ومنها ما يكون في مجلدة لطيفة(٢) ـ حتى لقد قاربت مجتمعة حوالي ألف جزء حديثي(٣).

وساعده على ذلك أمور ـ قل أن تجتمع في غيره ـ أشار «السخاوي» إليها، وهي:

= لقي بها: «ابن الكفري» (ت ٨٠٣ هـ./١٤٠١ م.) ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص١٦٩ تر ٥٥، السخاوي. الضوء اللامع ج ٥ ص ٢٦٦.

و «أنس بن علي بن محمد بن أحمد بن سعيد بن سالم الأنصاري» (ت ٨٠٧ هـ./١٤٠٥ م.) ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٣٠٠ تر ٣.

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣١ أ.

(٢) حيث حصل ثلاث مجلدات من المعجم الأوسط للطبراني، والصغير بتمامه في مجلد، ومن الدعاء له مجلدة، والمعرفة لابن مندة أربعة مجلدات، والسنن للدارقطني في اثنتين، ومسند مسدد، والموطأ لأبي مصعب ـ كل واحد منها في مجلد ـ ومن صحيح ابن خزيمة، وابن حبان مجلد، ومن المختارة للعقيلي خمسة، ومن الاستيعاب لابن عبد البر واحد، والطهور لأبي عبيد، والذكر لجعفر العرباني، وفضائل الأوقات للبيهقي، والإيمان لابن مندة، ومكارم الأخلاق للخرائطي ـ كل واحد في مجلد ـ ومسند الدارمي ـ مجلد ـ وقطعة من مساوىء الأخلاق للخرائطي، والخراج ليحيى بن آدم، ومشيخه الباغيان، والشمائل للترمذي، والأدب للبيهقي وعلوم الحديث للحاكم، والإرشاد للخليلي، وحديث قتيبة للعيار واختلاف الحديث لابن قتيبة، وأدب الحكماء، وذم الكلام للهروي، والسنن للشافعي ـ رواية ابن عبد الحكم ـ وغرائب شعبة لابن مندة ـ كل واحد في مجلد، ومن مشيخة مسعود الثقفي مجلد، ومن مسند أبي يعلى الموصلي مجلد، والكنجروديات في نسختين مجلد.. نحو الثلاثين مجلداً ضخمة تكون نحو أربعمائة وخمسين جزءاً خارجاً عن الأجزاء الحديثية، والفوائد النثرية، والسمات التي يلحقها في تصانيفه ونحوها ثمانية مجلدات فأكثر، وطرف كتاب المختارة لابن عبد الواحد المقدسي في مجلد ضخم. ـ ابن حجر. المعجم المفهرس، مخط. دار الكتب رقم ٨٢ مصطلح ـ وفيه إسناداته لها، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢.

(٣) السخاوي: نفسه ق ٣٢ أ.

* ذكاؤه الوقاد، ومعرفته بالإنتقاء والإستيعاب(١).
* سرعة القراءة مع حسنها(٢).

* سرعة الكتابة مع شغل الوقت بغيرها، حيث لم يمنعه فهم ما يسمعه مما لا يدخل في موضوعها عن ممارستها معه(٣).

* إعانة رفقته له بالقراءة، والكتابة، والعارية، والمذاكرة، والتنبية على السلامة(٤).

* صرف همته إلى المطالعة، والقراءة، والسماع، والتصنيف، والإفادة، بحيث لم يكن يخلي لحظة من أوقاته من شيء من ذلك، حتى في حال أكله وتوجهه وهو سالك(٥).

* تفرس الشيوخ فيه النجابة وحثهم له على الإشتغال وانقيادهم له، وكانوا قبل عسرى التحديث(٦).

مما جعله يستحوذ على السبق بين علماء عصره ومحدثيه الذين شهدوا له بذلك وبالتقدم في فنونه إلى أعلى رتبة. .(٧)

٦ ـ حلب

كان «ابن حجر» ـ وهو بدمشق ـ قد عزم على التوجه إلى حلب للأخذ عن خاتمة المسندين بها «عمر بن أيدغمش» (ت ٨٠١ هـ. / ١٣٩٩ م.)(٨) فبلغه وفاته فتخلف عن التوجه إليها(٩). ثم قدر له ـ بعد ذلك ـ السفر إليها سنة ست

(١) المصدر السابق ق ٣٤، ٤٠ ب.
(٢) نفسه ق ٣٢ أ ـ حيث يذكر أمثلة لذلك.
(٣) نفسه ق ٣٤ ـ حيث يذكر أمثلة لذلك.
(٤) نفسه ق ٣٤ ب.
(٥) نفسه ق ٣٥ ب.
(٦) نفسه ق ٣٥ أ ـ ٣٦ ب.
(٧) نفسه ق ٣٥ ب.
(٨) هو «عمر بن أيد غمش النصيبي الحلبي، ويعرف بالكبير» ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩، السخاوي. الضوء اللامع ج ٦ ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٩) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٧٨، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٧ أ.

وثلاثين وثمانمائة صحبة السلطان «الأشرف برسباي» (ت ٨٤١ هـ. / ١٤٣٨ م.) في السفرة الشمالية لدفع أذى التركمان المتغلبين على بلاد آمد وماردين. . وغيرها من البلاد الشمالية بعد الكائنة اللنكية[1] ـ وقد كثر إفسادهم ونهبهم وقطعهم للطرق، وكان إبتداء السفر من الريدانية بعد صلاة الجمعة من يوم التاسع عشر من رجب ووصلوا إلى الشام في النصف من شعبان[2] فنزل بالمدرسة العادلية الصغري[3] حيث لم يخل سفره من فائدة[4] فلقد سمع وكتب وهو بالطريق إلى الشام ـ في بلبيس[5] والصالحية[6] وبيسان[7]

(١) حيث تغلب تيمورلنك والمغول على دمشق، وحلب سنة ٨٠٣ هـ. /١٤٠١ م.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٩٢ ـ ٤٩٤، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٨ أ، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٩ ب ـ ويلاحظ أن «ابن حجر» قد أورد تقريراً مفصلاً عن الرحلة في حوليتي: ست، وسبع وثلاثين وثمانمائة من كتابه «إنباء الغمر».

(٣) كانت تقع داخل باب الفرج شرقي باب القلعة الشرقي قبلي الدماغية والعمادية ثم حرقت بعد سنة ١٩١٠ م. ولم يبق منها سوى بعض جدرانها وكانت داراً لابن سونك حولتها «زهرة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب «مدفناً ومدرسة ومواضع للسكني، شارطة للمدرسة مدرساً ومعيداً وإماماً ومؤدباً وقيماً وعشرين فقيهاً، جاعلة لمصالحها ومصارفها أوقافاً كثيرة. ـ ابن شداد. الأعلاق الخطيرة ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ص ٣٤٣، النعيمي. الدارس ج ١ ص ٣٦، أبو شامة. ذيل الروضتين ص ١٣٨، ٢١٢.

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٧ أ.

(٥) كتب بها حديثاً دار في المناظرة بينه وبين «محمد بن أحمد بن عثمان بن نعيم البساطي، شمس الدين» (ت ٨٤٢ هـ. /١٤٣٩ م.) ـ له ترجمة في: المقريزي. السلوك ج ٤ ص ١٥٠، ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٥٧ أ، إنباء الغمر ج ٩ ص ٨٢ ـ ٨٥، ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٤٦٦، السخاوي. الضوء اللامع ج ٧ ص ٥ ـ ٨، الذيل على رفع الإصر ص ٢٢٠ ـ ٢٣٧، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٦) كتب بها حكاية عن نائبه قاضي المنصورة «محمد بن أحمد بن كميل بن عوض بن راشد بن عمرو بن الشمس المنصوري الشافعي» (ت ٨٤٨ هـ. /١٤٤٥ م.) ـ له ترجمة في: ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٥٨ أ، إنباء الغمر ج ٩ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، السخاوي. التبر المسبوك ص ١١٠ ـ ١١٢، الضوء اللامع ج ٧ ص ٢٨ ـ ٣٠، ابن العماد الحنبلي. شذارت الذهب ج ٧ ص ٣٢٦.

(٧) بيسان: بالفتح ثم السكون وسين مهملة ونون ـ مدينة بين حوران وفلسطين ـ ياقوت. معجم البلدان ج ١ ص ٥٢٧.

والخربة[1] ـ الكثير عن رفقته من القضاة والشيوخ المرافقين للعسكر المصري ـ على جاري العادة في ذلك[2].

كما سمع ـ كذلك ـ حال مقامه بالشام غير واحد من الشيوخ والأدباء بدمشق[3] وحماه[4]

= أخذ بها حديثاً من سنن أبي داود بسند بغدادي إلى الخطيب وبعضاً من خصائص الترك عن «أحمد بن نصرالله بن أحمد بن عثمان بن محمد بن عمر البغدادي التستري الحنبلي، محب الدين» (ت ٨٤٥ هـ. /١٤٤٢ م.) ـ له ترجمة في: المقريزي. السلوك ج ٤ ص ١٢٣١ ـ ١٢٣٢، ابن حجر. إنباء الغمر ج ٩ ص ٢٣٩ ـ ٢٤١، المجمع المؤسس ق ٢١٩، ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤، السخاوي الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٩، الذيل على رفع الإصر ص ١٠٩ ـ ١٢٢، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(١) بالتحريك، أشار «ياقوت» إلى أنها أرض مما يلي ضرية، سميت بذلك لأن «خربة بنت قنص بن معد بن عدنان أم بكر بنت ربيعة بن نزار» نزلته فسمي بها (كذا) ـ ياقوت. معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٥.

أخذ بها حكاية عن القاضي «عز الدين بن عبد العزيز بن علي بن العز الحنبلي» معزوة إلى «ابن الديري» عن «البساطي» بشأن «ابن تيمية» ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٧. .

(٢) نفسه ق ٣٧ أ.

(٣) سمع بها علي «عائشة بنت إبراهيم بن خليل البعلبكية» أخت الشيخ جمال الدين الشرايحي (ت ٨٤٢ هـ. /١٤٣٩ م.) مع أخيها ـ منتقي الذهبي من مشيخة الفخر بسماعها للمشيخة علي ابن أميلة، والمسلسل بالأولية بشرطها بسماعها علي ابن الصيرفي وابن المحب ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٤٧ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ١٢ ص ٧٣، الجواهر والدرر ق ٣٨ ب.

(٤) لقي بها «أبا بكر بن علي بن علي بن عبدالله، التقي الحموي الحنفي الأزدي» (ت ٨٣٧ هـ. /١٤٣٤م.) ـ له ترجمة في: المقريزي. السلوك ج ٤ ص ٩٢٣، ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٢٣ أ، إنباء الغمر ج ٣ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣، ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ١٨٩ ـ ١٩٢، ابن الصيرفي. نزهة النفوس والأبدان ج ٣ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦، السخاوي. الضوء اللامع ج ١١ ص ٥٣ ـ ٥٦، الجواهر والدرر ق ٣٩ أ، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ ـ وكان قد عمل البديعة على طريقة العز الموصلي وشرحها في ثلاثة مجلدات سمع «ابن حجر» منها أكثرها وكتب عنه، كما كتب هو عن «ابن حجر»، فلما =

وحمص(١) ـ إلى أن كـان يوم السبت الخـامس من رمضان، وقد وصل الجمع إلى حلب، فنزل علي «ابن خطيب الناصرية» (ت ٨٤٣ هـ. / ١٤٤٠ م.) قـاضي حـلب ـ آنـذاك ـ مقيماً بها خمسة عشر يوماً(٢) سمع أثناءها بحلب(٣)

= تـوجه «ابن حجـر» في هذه السفرة إلى حلب سمع من نـظم «ابن حجة» ـ السخـاوي. الجواهـر والدرر ق ٣٩ أ، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٩ أ.

كما لقي بها: «علي بن يوسف بن مكتوم بن ثابت بن ربيع الشيباني الرحبي الحلي الشافعي» فكتب عنه جزءاً فيه عشرة أحاديث من عشرة الحداد وغيرها ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٩ أ، الضوء اللامع ج ٦ ص ٥٤ ـ ٥٥.

ولقي بها ـ كذلك ـ «محمد بن أحمد بن أبي بكر بن محمد الطائي البياني الحموي الشافعي، ويعرف بابن الأشقر» (ت ٨٥٠ هـ. /١٤٤٧ م.) فأخذ عنه حديثاً من البخاري ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٩ أ، الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٢٩ ـ ٣٠٠، التبر المسبوك.

(١) لقي بها «محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن القواس المخزومي الحمصي» وكتب عنه حديثين سمعهما من شخيه «ابن زهرة» عن النبي ﷺ في المنام.. ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٩ أ، الضوء اللامع ج ٩ ص ١٩٤.

(٢) ابن خطيب الناصرية. الدر المنتخب ج١ ق١٠٧ أ، ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣، ص ٤٩٥، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٩ أ.

(٣) سمع بها عشرة الحداد على «أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عمر بن عبد العزيز بن أبي جرادة العقيلي الحنفي، المعروف بابن العديم» (ت ٨٢٧ هـ. /١٤٢٤ م.) ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٠٧ ب، السخاوي الضوء اللامع ج ١ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢، الجواهر والدرر ق ٣٩ أ.

كما سمع بها المسلسل بالأولية، ومشخة ابن البخاري ـ تخريج ابن الظاهري ـ وقد احضرت له من دمشق لعدم توفرها ـ آنذاك ـ بحلب على «إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي، سبط ابن العجمي، برهان الدين المحدث، المعروف بالقف» (ت ٨٤١ هـ. /١٤٣٨ م.). ـ ابن حجر المجمع المؤسس ق ١٩٩ أ ـ ٢٠٠ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ١ ص ١٣٨ ـ ١٤٥، الجواهر والدرر ق ٣٩، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

وسمع بها ـ كذلك ـ بعض عشرة الحداد على «علي بن محمد بن سعد بن محمد بن علي بن عثمان بن إسماعيل بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب، المعروف بابن خطيب الناصرية» (ت ٨٤٣ هـ. /١٤٤٠ م.) ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ١٩ ص ١١٥ ـ ١١٦، المجمع المؤسس ق ٢٤١ ب ٢٣٢ أ، ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠، السخاوي. =

وظاهرها من القرى - كالبيرة[1] وعينتاب[2] وزاوية خضر[3] وصرخد[4] والسحلولية[5] والباب وبزاعة[6]

= الضوء اللامع ج ٥، ص ٣٠٣ - ٣٠٧، الجواهر والدرر ق ٣٩ ب، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٤٧.

(١) لقي بها «كمال الدين محمد بن محمد بن ناصر الدين محمد بن البارزي» (ت ٨٥٦ هـ. /١٤٥٦ م.) وسمع من لفظة قصيدة الأديب «شيخ علي» التي امتدح بها «البدر ابن الشهاب محمود» - بسماعه لها من ناظمها - وما ناقضها به «ابن المنجم» - ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة ج ١٦ ص ١٣ - ١٨، السخاوي. الضوء اللامع ج ٩ ص ٢٣٦ - ٢٣٩، الجواهر والدرر ق ٤٠ أ، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧، ص ٢٩٠.

(٢) سمع بها حديثاً من مسند أحمد، وأخرين من صحيح مسلم على «محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف، المعروف بالبدر العيني، والعينتابي» (ت ٨٥٥ هـ. /١٤٥١ م.) - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٧١ ب، ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة ج ١٦ ص ١٨ - ١١، السخاوي. الضوء اللامع ج ١٠ ص ١٣١ - ١٣٥، التبر المسبوك ص ٣٧٥ - ٣٨٠، الجواهر والدرر ق ٤٠، الذيل على رفع الإصر ص ٤٢٨ - ٤٤٠، السيوطي. نظم العقيان ص ١٧٤، بغية الوعاة ج ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ص ٢٨٦ - ٧/٢٨٨، وكان «ابن حجر» قد وصل إليها صحبة البدر العيني ليأكل ضيافته ببلده - ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٩٦.

(٣) لقي بها:

«الشريف يحيى بن أحمد بن عمر بن يوسف بن عبد الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم الحموي، المعروف بابن العطار» (ت ٨٥٣ هـ. /١٤٥٠ م.) وكتب عنه من شعره، ومن شعر غيره، كما كتب هو عن «ابن حجر» - ابن حجر. المجمع المؤسس ٢٧٤، ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٥٤٤ - ٥٤٦، السخاوي. الضوء اللامع ج ١٠، ص ٢١٧ - ٢٦١، الجواهر والدرر ق ٤١ أم.

(٤) كتب بالقرب منها مناماً رواه له «ابن العطار» - المذكور. السخاوي الجواهر والدرر ق ١٤١ أ.

(٥) سمع بالقرب منها جزءاً فيه منتقى الحارث، ومنتقى العلم لأبي حنيفة وأبياتاً من الشعر للسراج البلقيني - على «ابراهيم بن علي بن ناصر، برهان الدين الدمياطي الحلبي الشافعي» (ت ٨٤٧ هـ. /١٤٤٤ م.) - السخاوي. الجواهر والدرر ق ٤١ أ، الضوء اللامع ج ١ ص ٩٩.

(٦) الباب: وتعرف بباب بزاعة، بليدة في طرف وادي بطنان من أعمال حلب بينها وبين منبج نحو ميلين وإلى حلب عشرة أميال - ابن شاهنشاه. تقويم البلدان ص ٣٦٦، ياقوت. معجم البلدان ج ١ ص ٣٠٣، البغدادي. مراصد الإطلاع ج ١ ص ١٤٢. =

وسرد[1] - الكثير مما جمعه في تذكرته المسماة «جلب حلب» المحتوية على أربعة أجزاء حديثية[2] بالإضافة إلى ما يزيد على المجلدين مما انتقاه أو لخصه هناك. .[3] ثم عاد صحبة العسكر المصري الذي دخل القاهرة يوم العشرين من المحرم سنة سبع وثلاثين وثمانمائة[4] وقد حدث هناك[5] وعقد مجالس الإملاء بدمشق وحلب[6] وخطب بالسلطان - في وداع السنة -[7] بجامع بني أمية[8] وصلى بالناس صلاة كسوف - بالجامع الكبير

= وبزاعة: بالضم والكسر، والقصر، بليدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب، بينهما وبين كل واحدة منهما مرحلة. - ابن شاهنشاه تقويم البلدان ص ٣٦٦ - ٣٦٧، ياقوت. معجم البلدان ج ١ ص ٤٠٩، البغدادي. مراصد الإطلاع ج ١ ص ١٩٢. دائرة المعارف الإسلامية ج ٧ ص ١٩٨.

سمع بها شيئاً من أربعين القاضي المرداوي على «محمد بن أبي بكر بن أحمد بن علي بن إسماعيل الحسني الحموي، المعروف بابن الرسام» (ت ٨٤٤ هـ./١٤٤١ م.) - ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٠٨ ب - ٢٠٩ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٥٠، الجواهر والدرر ق ٤١ أ، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(١) سمع بها حديثاً من عشرة الحداد على «عمربن أحمد بن صالح بن أحمد بن عمر بن يوسف، المعروف بابن السفاح» (٨٦٦ هـ./١٤٦٢ م.) - السخاوي. الجواهر والدرر ق ٤١ أ، الضوء اللامع ج ٦ ص ٦٨ - ٦٩.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٧ ب.

(٣) من ذلك: منتقى شرح البخاري للبرهان الحلبي، ومنتقى تاريخ قزوين للرافعي - المسمى التدوين - ومنتقى زوائد الألغاز للغزي، وتلخيص ثبت البرهان الحلبي، وما علقه من تاريخ حلب - المسمى الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب - لابن خطيب الناصرية. - ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٥، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٤١.

(٤) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٥١٠.

(٥) روى لأهل الشام جزء أبي الجهم، وحدث بحلب بكتاب المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي، وقرىء عليه كتاب الأربعين لابن المجبر - السخاوي. الجواهر والدرر ق ٤٠ أ.

(٦) ابن خطيب الناصرية. الدر المنتخب ق ١٠٧ أ وما بعدها، ابن حجر، إنباءالغمر ج ٣ ص ٤٩٤، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٨ ب، ٤٠ ب.

(٧) تقليد متبع، يشبه في أيامنا الاحتفال بمقدم عام هجري جديد «عيد رأس السنة الهجرية».

(٨) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٤١ أ.

بحلب ـ فما سلم إلا وقد انجلت الشمس وغربت[1] كما نبه ـ أثناء مقامه هناك ـ على فساد ما بثه «الشمس الفرياني»[2] من الأسانيد المركبة المختلقة، فرجع الكثيرون عن الرواية عنه . . [3].

(١) ابن حجر. إنباءالغمر ج ٣ ص ٤٩٧ .

(٢) هو « محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عبدالله بن أبي القاسم عبد الرحمن بن علي بن الحسين اللخمي الفرياني ـ نسبة لفريانة إحدى مدائن أفريقية» .

(٣) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٩ ص ٢٢٦ ـ ٢٨٨ ، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ص ٨، ١١، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٤١ ب، ٤٢ أ، الضوء اللامع ج ٧ ص ٦٧ ـ ٧٠ .

الفصل الرابع

وظائفه

أولاً - الإملاء:

الإملاء أعلى مراتب الرواية والسماع، وفيه أحسن وجوه التحمل وأقواها، لا يتصدى له إلا المحدث العارف. ولذا نجده قد انقطعت مجالسه بعد «ابن الصلاح» (ت ٦٤٣ هـ. / ١٢٤٥ م.) إلى أواخر أيام الحافظ «أبي الفضل العراقي» (ت ٨٠٦ هـ. / ١٤٠٤ م.) الذي افتتحها سنة خمس وتسعين وسبعمائة ممليًا إلى سنة وفاته أربعمائة مجلس وبضعة عشر مجلساً، ثم أملى «أبو زرعة» - ولده - (ت ٨٢٦ هـ. / ١٤٢٣ م.) إلى أن مات أكثر من ألف مجلس[(١)]. كما شرع الحافظ «ابن حجر» في عقد مجالس الإملاء إبتداء بسنة ثمان وثمانمائة، وانتهاء بسنة اثنتين وخمسين وثمانمائة - وهي السنة التي توفي فيها - فزادات مجالسه على ألف مجلس.[(٢)] احتوتها بعض النسخ في عشر مجلدات[(٣)].

---

(١) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٠٠ أ، السيوطي. تدريب الراوي ج ١ ص ١٣٩.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥١، الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٩، الذيل على رفع الإصر ص ٨٦، التبر المسبوك ص ٢٣٠، ابن طولون. القلائد الجوهرية ج ٢ ص ٤٥٥ - ٤٥٦، السيوطي. تدريب الراوي ج ٢ ص ١٣٩، حسن المحاضرة ج ٣ ص ٣٦٣، نظم العقيان ص ٥٠، طبقات الحفاظ ص ٤٨، ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٨١.. ويلاحظ أن «ابن حجر» قد أشار في شعبان سنة تسع وأربعين وثمانمائة إلى اقتراب مجالسه من الألف، ولم يكن - بعد - قد فرغ منها قائلاً:

يقول راجي إله الحق أحمد من ... أملي حديث نبي الحق متصلاً

تدنو من الألف إن عُدَّتْ مجالسه ... فالسدس منها بلا قيد لها حصلا

[من البسيط]

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥١ ب.

ومجلس الإملاء لا يقع إلا في يوم واحد من الأسبوع[1] تراوح لدى «ابن حجر» بين «الثلاثاء» و «الجمعة»[2] ولا يتعين له إلا مستمل محصل يبلغ عن المملي إذا كثر الجمع على عادة الحفاظ[3] ـ وهم لدى «ابن حجر» يزيدون على مائة وخمسين نفساً ـ[4] وهو ما يفسر إنتقاء جماعة من علية أصحابه للقيام بهذه المهمة، منهم: «الشهاب البوصيري»، و «العز البغدادي»، و «الكمال ابن التيمي»، و «الفخر ابن درباس»، و «الزين العقبي»، و «الزين ابن خضر العثماني»، و «النور المارديني» و «الشمس ابن قمر».. وغيرهم. وكثيراً ما كان يسعى من دونهم في ذلك فلا يجابون.

وقد يكون محل عقد مجلس الإملاء في بيت المملي أو في غيره من المدارس والقاعات، ولذا اختار «ابن حجر» لأماليه أماكن متعددة هي «الشيخونية» و «البيبرسية»، و «الجمالية المستجدة» برحبة العيد و «المدرسة المنكوتمرية» المجاورة لمنزله، و «دار الحديث الكاملية»، ومنزله على شاطيء النيل بمصر.

كما لم تقتصر أماليه على «القاهرة» و «مصر» وحدهما، وإنما امتد بها إلى «دمشق» و «حلب».[5]

وقد يكون الإملاء من كتاب يقرأ فيه المملى أو من حفظه وهو لدى «ابن حجر» كان مخرجاً كله من حفظه مهذباً محرراً متقناً. فكان منه ما هو مقيد بكتاب لا يتعداه إلى غير موضوعه، كما كان له مجالس مطلقة لم يتقيد فيها بكتاب، حيث يكون حرصه في الغالب الأعم على المناسبات في الأزمان والوقائع[6] وهذه وتلك تكون كثيرة النفع لاحتوائها على الكثير من الفوائد

(١) السيوطي. تدريب الراوي ج ٢ ص ١٣٩.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٢٤، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥١ أ.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥١، السيوطي. تدريب الراوي ج ٢ ص ١٣٣.

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٢ أ.

(٥) ابن خطيب الناصرية. الدر المنتخب ج ١ ق ١٠٧ ب، ١٠٨ أ، ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٩٤، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٨ أ، ١٥١ أ.

(٦) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥١ أ، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٦٩ ب.

الحديثية من أبحاث وفوائد مهمة ونكت نفيسة، مع تحري علو السند، وقصر المتن، والتعريف بالمروي عنهم من الشيوخ وغيرهم، والمستفاد من الحديث، والتنبيه على صحته، وما فيه من علو وفائدة: وضبط مشكل، ومراغاة لما يحتمله العقل والفهم من حاضر مجالسه[1].

على أن هذه المجالس - غالباً - ما كانت تستفتح بقراءة قاريء حسن الصوت لسورة الأعلى[2] والصلاة على رسول الله ﷺ والدعاء له وللحاضرين والأئمة الماضيين[3]. وتختم - خاصة في المجالس المطلقة - بإنشادات من نظمه[4] أو ببعض الحكايات والنوادر والانشادات التي القصد منها ترويح القلوب ابتغاء لطرف الحكمة[5]. فإذا ما نجز مجلس الإملاء وقد تحرر في كراسة قوبلت على الأصل الذي حرره، قصداً للغاية في الإتقان[6].

ثانياً - التدريس:

حث الإسلام على العلم والتعلم وغدت وظيفة التدريس فيه من الوظائف السنية التي يتمتع مزاولها بمكانة عظيمة في النفوس، حتى لقد تواترت الأخبار عن «أبي الأسود الدؤلي» بقوله: «ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك»[7].

---

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥١ ب، السيوطي. تدريب الراوي ج ٢ ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥١ ب، عبد الله بن زين. جمان الدرر ق ٦٩ أ.
ويشير «السخاوي» إلى أن «ابن حجر» قد استفسر منه عن خصوصية سورة الأعلى دون غيرها، فقال: «قد تبعت في ذلك شيخنا العراقي وفيها من المناسبة قوله: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾، وقوله: ﴿فذكر﴾ وقوله: ﴿صحف إبراهيم وموسى﴾...».

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥١ ب، السيوطي. تدريب الراوي ج ٢ ص ١٣٥.

(٤) ابن خطيب الناصرية. الدر المنتخب ج ١ ق ١٠٨ أ. السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥١ ب، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٦٩ أ.

(٥) السيوطي. تدريب الراوي ج ٢ ص ١٣٨.

(٦) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥١ ب، السيوطي. تدريب الراوي ج ٢ ص ١٣٩.

(٧) ابن جماعة. تذكرة السامع والمتكلم ص ١٠.

ولقد كان هذا مدركاً لدى القائمين على أمر مصر، وأهلها ـ بحيث نهضت مصر برسالتها في نشر العلم واحتضان أهله، فكانت بمدنها الكبرى من الأسكندرية شمالاً حتى قوص جنوباً محطاً لكثير من العلماء مشارقة ومغاربة على حد سواء[1]. بما يتحملون من العلم، أو يحملون من مادته. خاصة بعد سقوط بغداد (٦٥٦ هـ. / ١٢٥٨ م.) واتلاف التتار للكتب والمكتبات. فظهرت مصر قلعة للإسلام، ومنارة لنشر ثقافته، وهو ما يفهم من قول «ابن خلدون»: «. . . ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر»[2] وقوله: «. . . ونفقت بها ـ أي بمصر ـ أسواق العلوم، وزخرت بحارها»[3]. بحيث استكثر السلاطين، والملوك والأمراء، والصلحاء، والعلماء . . . بها من المدارس، والزوايا، والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة. فكان من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها[4] سواء تلك الموقوفة على تدريس بعض العلوم التي لا يجوز أن تكون محلاً لتدريس غيرها أم تلك التي تجمع بين تداريس مختلفة. . كما لم تكن المدارس وحدها وقفاً على العلم والتعلم، بل لقد تعداها التدريس إلى القباب والجوامع.

وكان للمدرس شروطه في المدرسة التي يجعلها محلاً لتدريسه، كما كان للمدرسة شروطها في المدرس الذي لم يكن يختار إلا من مشاهير المعلمين لمعتبرين الذين يجب أن تتوفر فيهم شروط معينة بحيث لا يقبل عليه الطلبة ما لم يكن محلاً لهذه الشروط وأهلاً لها. وهذا يفسر لنا حرص «ابن حجر» وعنايته بتحصيل أكبر قدر من الإجازات العلمية من جلة علماء عصره. ناهيك عن كثرة طلبته «بحيث كان رؤوس العلماء من كل مذهب تلامذته، ولم يجتمع عند أحد مجموعهم»[5]. ويفسر لنا ـ كذلك ـ إختصاصه بالتدريس في أماكن متعددة كانت محلاً لتداريس في علوم شرعية منها:

---

(١) ابن خلدون. المقدمة ص ٤٣٥، د. محمد زغلول سلام. الأدب في العصر المملوكي ج ١ ص ١٠٧.

(٢) ابن خلدون. المقدمة ص ٤٣٤.

(٣) نفسه ص ٤٣٥.

(٤) القلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج ٣ ص ٣٦٤.

(٥) السخاوي. الذيل على رفع الإصر ص ٨٦.

«التفسير» بالمدرسة الحسنية[1]، والقبة المنصورية[2]، و«الحديث» بالشيخونية[3]، وقبة الخانقاة البيبرسية[4]، والجمالية المستجدة[5]، وجامع ابن طولون[6]،

---

(١) كان ابتداء تدريس «ابن حجر» بها سنة تسع وعشرين وثمانمائة من أجل أنه اطلع على كتاب وقفها فوجد فيه مدرساً للتفسير وآخر للحديث، ولم يجد بها أحداً، بل كانا شاغرين من عهد الواقف، فعندما علم ذلك التمس من الناظرين عليها تقريره في التفسير وتقرير ولده في الحديث، وأن يأذنا لولده في الإستنابة، ففوضا إليهما ذلك. فباشر كلتا الوظيفتين، الأولى بطريق الأصالة، والأخرى نيابة عن ولده، إلى أن رغب عن التفسير لبعض جماعته «الزين السندبيسي» - السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٢ ب.

(٢) قام «ابن حجر» بالتدريس فيها بعد أن رغب له عنه «الشيخ شمس الدين البرماوي» بمال عوضه «النجم ابن حجي» تبرعاً عن «ابن حجر»، وذلك في سفر البرماوي لدمشق صحبة النجم المذكور واستمر بيده حتى مات ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ١٩٦، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٢ بـ ١٥٣ أ.

(٣) كان ابتداء تدريس «ابن حجر» بها في شوال سنة ثمان وثمانمائة ـ في الحديث والفقه ـ عوضاً عن الشيخ «الشمس ابن معبد المدني المالكي» بحكم نزوله عنه، وهي أول مكان ولي «ابن حجر» فيه تدريس الحديث. ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٣٢٤، البقاعي. عنوان الزمان ق ٣٨، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٣ أ.

(٤) وكان ابتداء تدريسه بها بعد وفاة «النور الرشيدي» سنة ثلاث عشرة وثمانمائة، بعد ولاية «ابن حجر» لمشيخة الصوفية ونظرها بيسير، وأناب عنه فيها «البرهان ابن خضر»، ومن بعده «الشمس ابن حيان» ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٤٧٣ البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٣٨ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٤ أ.

(٥) ولاه. تدريس الحديث بها أول ما فتحت واقفها «جمال الدين يوسف البيري» (ت ٨١٢ هـ. / ١٤١٠ م.) في رجب سنة إحدى عشرة وثمانمائة فاستقر يدرس بها إلى أن نزل عنها ـ عن الوظيفة ـ لبعض جماعته «ابن خلف الله الشمني» سنة تسع عشرة وثمانمائة لتشاغله عنها بدرس الفقه بالشيوخونية ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٩٩، ج٢ ص ٤٥٥-٤٤٨، ج٣ ص ١٨٥، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٤ أ.

(٦) ولي «ابن حجر» التدريس به عوضاً عن «التقي علي» حفيد «ابن العراقي» بحكم وفاته ـ سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ـ وكان كتب له تفويضاً به بعد وفاة جده في ذي القعدة سنة ست وعشرين وثمانمائة، واستمر بيده حتى مات ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٤ ب ـ وإن خرج عنه نظره للقاضي «علم الدين البلقيني» (ت ٨٦٨ هـ. / ١٤٦٤ م.) وكذا نظر الناصرية ليسكت عن طلب =

والقبة المنصورية[1]. ومشيخة الحديث بالمدرسة الزينية[2]، ومشيخة إسماع الحديث بالمحمودية[3]، و «الفقه بالشيخونية[4] والشريفية الفخرية[5] والكهارية[6] والمؤيدية[7]

= العود للقضاء والسعي فيه ففوض «ابن حجر» له ذلك راضياً، وأخذ توقيعاً سلطانياً - ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣، ص ٤٧٤، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٤ أ، الذيل على رفع الإصر ص ٨١ - ٨٢.

(١) تولى «ابن حجر» التدريس بها عوضاً عن «صدر الدين أحمد بن جمال الدين محمود بن العجمي»، ثم رغب عنه «للبدر ابن الأمانة»، وذلك حين رغب عن درس الفقه بالشيخونية - ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ١٩٦، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٤ ب.

(٢) ولي الحديث بها بعد الفراغ من عمارتها في رجب سنة إحدى وخمسين وثمانمائة - قبل موته بيسير - بالتماس الواقف وغيره من حاشيته قصداً لحصول التجمل بابن حجر. فلما توفي لم يقرر صاحبها فيها أحداً، قائلاً: «إنما فعلت ذلك لأتشرف به» - السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٤ ب.

(٣) ولي «ابن حجر» التدريس بها في ربيع الأول سنة تسع وثمانمائة بعد وفاة «البدر الطنبدي» وكان يستخلف فيها من اختاره من طلبته - السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٤ ب.

(٤) رغب له عنها - بمال - الشيخ «النور اللواتي الأبياري» (ت ٨١٤ هـ. / ١٤١٢ م.) سنة إحدى عشرة وثمانمائة بعد أن استقر فيها، ودرس بها يوماً واحداً، فلما أصبح «ابن حجر» قاضياً نزل عنها سنة سبع وعشرين وثمانمائة - ابن حجر. المجمع المؤسس ٢٤٠ ب، إنباء الغمر ج ٢، ص ٥٠٠ السخاوي. الضوء اللامع ج ٥، ص ٣٠ الجواهر والدرر ق ١٥٥ ب.

(٥) ولي «ابن حجر» تدريس الفقه بها سنة ثمان وثمانمائة عوضاً عن «الزين حرمي»، ثم رغب عنها فيما بعد «للنور القمني» - السخاوي الجواهر والدرر ق ١٥٥ ب.

(٦) ثم رغب عنها «لابن الأمانة» - السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٥ ب.

(٧) استقر «ابن حجر» في تدريس الشافعية بها، وخلع عليه بحضرة السلطان، فدرس بالمحراب يوم الخميس ثالث عشر وأقبل السلطان ليحضر عنده وهو في إلقاء الدرس ومنعه من القيام له، فلم يقم، واستمر فيما هو بصدده، وجلس السلطان عنده ملياً - المقريزي. الخطط ج ٢ ص ٣٢٨ - ٣٣٠، ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٥٦ - ٥٧، ١٩٣ ، البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٤٠ السيوطي. حسن المحاضرة ص ٢٧٢ - ٢٧٣ - وهي معروفة الآن - بجامع المؤيد بجوار باب زويلة بالغورية - ويشير «ابن حجر» إلى أنه في ربيع الأول سنة سبع وعشرين وثمانمائة أنهى الشيخ «شمس الدين الهرماوي» إلى السلطان أن شرط المؤيد أن لا يكون المدرس بها قاضياً، وأعانه قوم آخرون، فانتزع تدريس الشافعي بالمؤيدية منه، فسعى «ابن حجر» إلى أن =

والخروبية البدرية(١)، والصالحية النجمية(٢) والصلاحية المجاورة لقبة الإمام الشافعي، ونظرها(٣).

ثالثاً ـ الإفتاء:

ولي «ابن حجر» إفتاء دار العدل(٤) سنة إحدى عشرة وثمانمائة واستمرت هذه الوظيفة معه حتى مات(٥). فكان إلى فتاويه النهاية في الإيجاز مع حصول الغرض، لا سيما في المسائل التي لا نقل فيها، فإنه كان أحسن علماء عصره تصرفاً وتخريجاً على القوانين المحررة بالدلائل المعتبرة. وهو فقيه النفس(٦). حيث كان يكتب منها في اليوم ـ غالباً ـ أكثر من ثلاثين فتيا(٧) وقل أن يمضي له يوم لا يكتب في المجلس الواحد على نحو عشرين فتيا(٨). بل لقد توافرت له الكتابة على

= أظهر كتاب الوقف وقد سكت عن الشرط المذكور فأعيد ذلك له، وعوض «الهرماوي» بأن ينوب عن حفيد العراقي في جهاته بثلث المعلوم، فباشر ذلك ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٣٥، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٥ ب.

(١) ولي ابن حجر التدريس بها في ثامن عشر رمضان سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة، برغبة «ابن أبي الحسن» له عنه، ثم نزل عنه فيها بعد ـ البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٣٢، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٥ ب.

(٢) كان ابتداء تدريس «ابن حجر» بها سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة عوضاً عن حفيد الولي العراقي، ثم صار بعد ذلك مضافاً لوظيفة القضاء، لكنه لما انفصل «ابن حجر» عن القضاء آخر مرة انتزع له تدريسها تطييباً لخاطره، وليس خلعة لذلك ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٦ أ.

(٣) تلقاها «ابن حجر» عن «العلاء القلقشندي» فباشرها بحكم انفصاله عنها يوم الاثنين ثاني عشر رجب سنة ست وأربعين وثمانمائة، وتألم العلاء لذلك، ولما رجع «الونائي» من الشام منفصلاً عن قضائها سعى في تدريسها لكونها وظيفة صهره «التلواني» فتركه «ابن حجر» له اختياراً في صفر سنة ثمان وأربعين وثمانمائة ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٦.

(٤) نفسه ق ١٥٦ ب، الذيل على رفع الإصر ص ٨٥، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٦٩ ب.

(٥) السخاوي. الجوهر والدرر ق ١٥٦ ب.

(٦) نفسه ق ١٦١ أ، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٧٠ ب.

(٧) نفسه.

(٨) البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٥٤.

الفتيا وهو على راحلته مسافراً(١). أو وهو متشاغل بغيرهـا من الحديث. .(٢) ممـا يشير إلى تمكنه من مادتها. وقد سبقت الإشارة إلى صرف همته إلى الفقـه بتوجيـه أحد أساتذته وقد تفرس النجابة فيه(٣). وشربـه لماء زمـزم في تيسير أمـر الفتاوى عليه(٤). وإجازة أعلام عصره له بالفتيا.

وعلى الرغم من كل هذا، وعـلى الرغم من حـرصه عـلى ألا يحابي بـالفتيا أحداً ولو عظم(٥) فإنه قد انتقض بعض فتاويه، وعـدد البعض الخطأ في بعضهـا على حين أقر «ابن حجر» نفسه ـ بذلك ـ في صدر مصنف له وقع في مجلدة جمـع فيهـا مهم فتـاويـه سمـاه «عجب الـدهـر في فتـاوي شهـر»(٦) كـما أن تلميـذه

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦١ أ.

(٢) البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٥٤.

(٣) حيث يشير السخاوي إلى أن الإمـام «محب الدين بن الـواحدي المـالكي» كان قـد رآه حثيثاً عـلى سماع الحديث وكتابته، فقال له: «إصرف بعض هذه الهمة إلى الفقه فإنني أرى بطريق الفراسة أن علماء هذا البلد سينقرضون وسيحتاج إليك، فلا تقصر بنفسك». ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٦ أ ـ ويعقب «ابن حجـر» على ذلـك قائـلاً: «. . . فنفعتني كلمته، ولا أزال أتـرحم عليـه بهـذا السبب» ـ البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٣٨، ٣٩.

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦١ أ.

(٥) نفســه ق ١٦١ ب، عبـدالله بن زين. جمـان الـدرر ق ٧٠ ب ـ ومن ذلـك مـا أورده «ابـن حجـر» في إنباء الغمـر بشأن كتـابـة محضر بتكفير «قـرا يـوسف» وولـده وإثبـاتـه عـلى القضاة، والطواف به على المشايخ ليكتبوا في ظاهـره بتصويب الحكم المذكور، وإلزام السلطان وكاتب السر له بذلك، ومدافعته لهم، حيث لم يف بمـا عهد إليـه ـ تقديماً لحق الله تعالى ـ وعـدم المحـابـاة في دينـه ـ ابن حجـر. إنبـاء الغمـر ج ٣ ص ٢٢٢، السخـاوي. الجـواهـر والـدرر ق ١٦١ ب، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٧٠ ب ـ وكذا توقفه في الفتيـا بالإذن «لشـاه رخ» في كسوة الكعبة مشيراً إلى أنه إن خشي منه الفتنة فيجاب دفعاً للضرر ـ السخاوي الجواهر والدرر ق ١٦١ ب ـ ومخـالفته و«البسـاطي» للقاضي «الجـلال البلقيني» في إحدى فتـاويه ـ عـلى الرغم من اختصاصه به، وقبولـه الإنابـة عنه في القضـاء ـ مما جعـل «الجلال» يتغير، وإن احتشم مع «ابن حجر» واستضعف جانب غيره ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٢ أ.

(٦) السخاوي. الجواهـر والدرر ق ١٦١ ب، عبـدالله بن زين. جمان الـدرر ق ٧٠ ب ـ حيث أورد «ابن حجر» في صدر كتابه قوله: «. . . أما بعد ـ فإن من غلب عليـه الحسد، ووقف عـلى فتـوى=

«السخاوي» قد علل لذلك قائلاً: «. . فمن يفتي في الشهر بأكثر من ثلاثمائة لا يستغرب إذا أخطأ منها في ثلاثة، بل في ثلاثين»(١).

ويبدو أن الفتاوى كانت ترد إليه من مواضع شتى، متضمنة موضوعات حديثية أو فقهية، نثرية وشعرية، وأن ردوده عليها كانت مناسبة لذات مادتها(٢). كما كان يرى منه العجب في معرفة مقاصد السائلين من عباراتهم المعجرفة وحروفهم المقلمة(٣). فإن عمي عليه المراد، كتب تحت السؤال أو بجانبه: «يكتبها طالب علم»، وقد يعلم أن مذهبه ـ وهو الشافعي ـ لا يوافق غرض السائل فيرشده لمن عنده ما ينفعه، أو يطلع على تعنت السائل، فلا يكتب قصداً لردع من هذا سبيله، لكن ترك الكتابة مع ذلك في النادر(٤).

وما من شك في أن تقلده لوظيفة الإفتاء قد جعله يتصل إتصالاً مباشراً بالكثير من أحداث عصره ويشارك في بعضها، فضلاً عن إحتكاكه ـ عن قرب ـ ببعض السلاطين وغيرهم من أرباب الدولة، ناهيك عن سائر طبقات مجتمعه مما انعكس على الكثيرمن كتاباته، خاصة التاريخي منها.

رابعاً ـ القضاء:

عرض على «ابن حجر» النيابة في القضاء ـ قبل القرن ـ فامتنع من القبول، لأنه ـ حينئذ ـ كان لا يؤثر على الإشتغال بعلم الحديث شيئاً(٥). كما كان له في فعله هذا سلف.

مخطىء وقع عند كاتبها ذهول عن تقييد ما يوهم الإطلاق فيه فشنع عليَّ في ذلك، وبالغ مع أنه عند التأمل لا يخفي المراد، فلما بلغني ذلك حداني على تدوين ما يقع لي من الأسئلة في شهر واحد ليعذر من يقف عليها فيراها وصوابها أكبر من خطئها، فإن الإنسان طبع على النسيان، والسعيد من غلب صوابه على خطئه».

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦١ أ.

(٢) نفسه ق ٢٣٢ أ وما بعدها ـ الباب السادس في سياق شيء من بليغ كلامه نظماً ونثراً.

(٣) نفسه ق ٢٣٢ أ وما بعدها.

(٤) نفسه ق ١٦٢ أ.

(٥) حيث أشار «السخاوي» إلى أن القاضي «صدر الدين محمد بن الشريف إبراهيم بن إسحاق بن =

بيد أن موقفه من القضاء بدأ يتغير حثيثاً نتيجة لإسناد بعض المهام المتعلقة بالقضاء إليه، وهي:

أ ـ إسناد المؤيد شيخ إليه الحكم في قضية خاصة، وهي الفصل بين «الهروي» ـ قاضي القضاة الشافعية آنذاك ـ وبين خصومه من الخليليين والمقادسة، وذلك سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة[1].

ب ـ قبوله النيابة في القضاء عن القاضي «جلال الدين البلقيني» (ت ٨٢٤ هـ. / ١٤٢١ م.) وكان بينهما من الود ما اشتهر ـ بعد الحاج وتكرير

= إبراهيم المناوي» (ت ٨٠٣ هـ. /١٤٠١ م.) ـ له ترجمة في: ابن قاضي شهبة. طبقات الشافعية ق ١٩٢ ب ـ ١٩٣ أ، وابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٢، والمجمع المؤسس ق ١٦٦ ب ـ ١٦٧ أ، السخاوي. الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠، الذيل على رفع الإصر ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ج ٧ ص ٣٤ ـ قد عرض على «ابن حجر» النيابة عنه في القضاء ـ قبل القرن ـ فامتنع ـ الجواهر والدرر ق ١٦٢، الذيل على رفع الإصر ص ٨٠، الضوء اللامع ج ٣، ص ٣٨، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٧٠ ب ـ كما كان هناك من يشعر بأن «ابن حجر» كان قد عرض عليه النيابة في القضاء في كل من الأيام المؤيدية والظاهرية ططر ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٢ ب، الذيل على رفع الإصر ص ٨٠.

كما يشير «ابن حجر» إلى أن «المؤيد شيخ» كان قد عرض عليه منصب القضاء مراراً فامتنع وأصر على الإمتناع، فأراده على ذلك ورغبه فيه حتى صرح بأن للقاضي بدمشق في الشهر عشرة آلاف درهم فضة معاليم قضاء وأنظار إذا كان رجلاً جيداً، فإن كان غير ذلك كان ضعف ذلك فأصر على الإمتناع وبالغ في الاستعفاء ـ إنباء الغمر ج ٣ ص ٩٥ ـ ٩٦ ـ وأن الناصر بن الأشرف ملك اليمن كان قد ترك قضاءها شاغراً بعد وفاة المجد الفيروزبادي ـ مدة سنتين ـ ينتظر قدومه عليه ليوليه إياه فلم يجبه إلى ذلك ـ إنباء الغمر ج ٣ ص ١٧٨، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧٤ أ.

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٢ ب، ١٧٥ أ، الذيل على رفع الإصر ص ٨٠ ـ ويشير «ابن حجر» إلى ذلك قائلاً: «. . . فلما كان في الثامن من شهر ربيع الأول قدم طائفة من الخليل والقدس صحبة الناظر عليهم. . . فشكوا منه أنه أخذ منهم مالاً عظيماً في أيام نظره، فابتليت بالحكم بينهم بأمر السلطان، فتوجه الحكم على الهروي فخرج في الترسيم. . .» ـ إنباء الغمر ج ٣ ص ١٩٠.

سؤال من القاضي له في ذلك(١). وإن لم يباشر من الأحكام إلا اليسير مما لا يستغني فيه عنه(٢).

جـ ـ إجابته التماس القاضي «ولي الدين ابن العراقي» (ت ٨٢٦ هـ. / ١٤٢٣ م.) في النيابة عنه، وكان قد استقر في القضاء بعد وفاة ابن البلقيني ـ دفعاً منه لتوهم مزية للقاضي «جلال الدين» عليه(٣).

د ـ على أن سؤال القاضي «علم الدين صالح بن البلقيني» (ت ٨٦٨ هـ. / ١٤٦٤ م.) له في تنفيذ مكتوب الخشابية، وإجابة «ابن حجر» له كان سبباً مباشراً في ولوج «ابن حجر» إلى القضاء، وقد تغير موقفه كلية منه، لأنه وجد في هذا الموقف من الإستفزاز ما دفعه إلى التلبس بالقضاء على إعتبار أنه كان قد أستشير في ولاية «العلم» للقضاء فامتدحه، كما كان «العلم» ممن قرأ عليه في محاسن الإصطلاح ناهيك عن كونه ابناً لشيخه «السراج البلقيني»، وأخا لعزيز عليه هو «الجلال البلقيني» وهو ما دفع «بابن حجر» إلى تنفيذ ما أسند إليه ظناً منه أن في إسناد تنفيذه إليه تشريفاً من القاضي له «لعلو منزلته» وأن ليس في هذا كبير أمر ـ فلم يتوهم أنه يترفع عليه بذلك، فما كان إلا اليسير حتى رأى منه ما لم يألفه منه قبل(٤). وكان هذا سبباً للإجابة حين عُرِضَ عليه قضاء الديار المصرية فاستمر فيه ـ بتفويض من الملك «الأشرف برسباي» ـ يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة سبع وعشرين وثمانمائة ـ بعد إنفصال «العلم» المذكور(٥).

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٢ ب، الذيل على رفع الإصر ص ٨٠، الضوء اللامع ج ٢، ص ٣٨. عبدالله بن زين. جمان الدرر ص ٧٠ ب.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٢ ب.

(٣) نفسه.

(٤) ابن حجر. رفع الإصر ج ٢ ص ٢٥٨، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٢ ب.

(٥) ابن خطيب الناصرية. الدر المنتخب ق ١٠٨ ب، ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣، ص ٣٣٤، رفع الإصر ج ١، ص ٨٨، ٢/٢٥٨، ابن فهد المكي. لحظ الألحاظ ص ٣٣٠، ابن تغري بردي. حوادث الدهور ج ١ ص ١٤٧ (مختارات بوبر)، المنهل الصافي ج ١، ق ٦١ ب، البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٤٦، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٢ ب، الذيل على رفع الإصر ص ٨٠، الضوء اللامع =

وظل يُصْرف ويُعَـاد إليه(١) إلى أن عـزل نفسه في الخـاس والعشرين من جمـادي الآخرة سنة اثنتين وخمسين وثمانمائـة(٢) فاستمـر منفصلاً عنـه، مخلصاً في عـدم العود إليه ـ من كثرة ما تـوالي عليه من الإنكـار والمحن بسببه(٣) ـ حتى مـات(٤) فكانت مدة ولايته في المرار كلها تزيد على إحدى وعشرين سنة بأشهر(٥).

وعـلى الرغم من أنـه كانت لـديه درايـة بالأحكـام، وخبرة بـالمصطلح(٦) ومباشرة مع الديـانة والتحـري في الأحكام الشـرعية(٧) ونـزاهة وتـواضع زائـد، واستجلاب لخاطر الصغير قبل الكبير، وتصميم عـلى الأمور، وإحسـان للفقـراء والطلبة، فـإن ذلك كله كـان بنكد وعنـاد وتعب وكثرة معـاد وقلة منصف(٨) مما جعل «ابن حجر» يندم على قبوله وظيفة القضاء، لكون أرباب الدولة لا يفرقون بين أولي الفضل وغيـرهـم ويبالغـون في اللوم حيث ردت اشاراتهم، وإن لم تكن على وفق الحق، بل يعادون على ذلك، واحتياج القاضي بسببه إلى مـداراة الكبير والصغير بحيث لا يمكنه مـع ذلك القيـام بكل مـا يرومـه على وجـه العدل، ممـا جعله يصرح بأنه جني على نفسـه بتقلده أمـرهـم(٩) وأنه مـا بقيت شعرة في بـدنه تقبل اسم القضاء(١٠).

= ج ٢، ص ٣٨، السيـوطي. نظم العقيـان ص ٤٦، ابن العماد الحنبـلي. شذرات الـذهب ج ٧ ص ٢٧٠.

(١) السخاوي. الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٨، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٧٠.

(٢) ابن تغري بردي. المنهـل الصافي ج ١ ق ٦٢ أ، النجـوم الزاهـرة ج ١٥ ص ٣٨٣. السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٦ أ، الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٨.

(٣) السخاوي. الذيل على رفع الإصر ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٦ أ، الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٨.

(٥) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٧ أ.

(٦) نفسه.

(٧) ابن خطيب الناصرية. الدر المنتخب ق ١٠٨ ب.

(٨) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٢ أ.

(٩) نفسه ق ١٦٣ أ، الذيل على رفع الإصر ص ٨٠ ـ ٨١، الضوء الـلامع ج ٢، ص ٣٨، عبـدالله ابن زين. جمان الدرر ق ٧٠ ب.

(١٠) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٦ أ، الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٨.

وهنا تجدر الإشارة إلى أمور متعلقة بتلبس «ابن حجر» بالقضاء، وهي:

أولاً - أن «ابن حجر» وقد حقق الغاية من توليه القضاء - وهي رد ما انتقص من كرامته بالإنابة عن «العلم البلقيني» في بعض المهام لم يكن حريصاً على الإستمرار فيه، ولذا صرح في غير موضع بأن القضاء والقدر هو الذي أوقعه في القضاء[1] وبأنه ما سر بالولاية، ولكن ساءه العزل[2] وبأن المحرك له على البقاء فيه هو ولده، بل كثيراً ما كان الولد يسعى في ذلك ويتكلف من غير علم الوالد إلى أن يجاب[3]. وهذا ينفي إدعاء «ابن فهد المكي» تكالب «ابن حجر» على المنصب وبذله فيه. .[4].

(١) المصدر السابق ص ١٦٣ أ، ج ٢ ص ٣٨ على التوالي.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٦ ب.

(٣) نفسه ق ١٦٦ أ.

(٤) حيث يشير إلى ذلك قائلاً: «. . . وكان يتخلله في غضون ذلك من الملك قلة رضى ويشاع صرفه، فيهدي إليه ما يليق به من المال فيرده في المنصب، فلو تنزه عنه ولزم الاشتغال بالعلم ليلاً ونهاراً وحج إلى بيت الله وزار قبر نبيه ﷺ وجاور بالحرمين الشريفين لأزداد بذلك رفعة ووجاهة عند الله - تعالى - والمسلمين، لكنه عجن قلبه بمحبة ذلك وفتن فيه بولده، فأوقعه في المهالك. . » - لحظ الألحاظ ص ٣٣٠ - ٣٣١.

وينافي ذلك ما عرف من تصرفات «ابن حجر» إزاء المنصب، مما سجل في غيره من المصادر، حيث يشير «السخاوي» إلى أن دوادار السلطان قد تكلم مع «ابن حجر» بعد صرفه عن القضاء في وزن مال ليعود، فامتنع من ذلك منشداً:

الدوايدار قال لي	أنا أقضي مآربك
قم زن المال قلت: لا	حفظ الله جانبك

(من الخفيف)

ويعلق «السخاوي» على ذلك قائلاً: «. . .على أن شيخنا لم يكن يتوقف عن البذل، بحيث أنه كان يكلفه في أيام الظاهر - فقط - ثلاثة عشر ألف دينار، من خالص ماله من ذلك ستة، وباقية كان من فائض الأوقاف ويشهد عليه بوصوله إليه، وأن يصرفه في مصارفه.

كما أن «ابن حجر» كان قد كتب مما يتعلق بذلك قوله: «. . . نبذل في القضاء المال لأجل عزل زيد، فيبقي أن يؤجر لا أن يؤزر، والأعمال بالنيات» - السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٣ ب.

ويضاف إلى ذلك أنه روسل بالإجتماع بالسلطان بعد عزله في خامس عشر ذي القعدة سنة =

ثانياً ـ أن «ابن حجر» لم يحرص على المنصب حرصه على صون كرامته وعدم إهدارها، ولذا فإنه لم يلتفت لتهديد جاهل[1] بل لقد كان في تصيرفاته مع أرباب الدولة ما يشير إلى تصلبه في الحق واجلاله لذاته، ويكفي الإشارة في هذا الصدد إلى أمور منها:

* مبادرته بعزل نفسه للتكلم في نزاهة القضاء بحضرة السلطان[2].

* إزعاجه للسلطان ـ بعد إخراج مشيخة البيبرسية عنه ـ ونهره لكاتب السرودوادار السلطان لتكلمه معه بالتركية، تعمية «لابن حجر» عن مرادهم[3].

= ست وأربعين وثمانمائة، وكان قد صمم على عدم القبول من أول يوم فاجتمع به القاضي المالكي وبلغه عن جماعة ما يقتضي التخويف والتهديد إذا استمر على الإعراض بما يخشى منه على المال والولد والعرض فقبل على ذلك ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٩ ص ١٨٨ ـ ١٨٩، السخاوي الجواهر والدرر ق ١٦٤ ب، الذيل على رفع الإصر ص ٨٣.

كما أنه عزل نفسه من القضاء عندما حضر من القاضي المالكي بحضرة السلطان كلام لا يليق به، واشتد في ترفعه وامتناعه من العود إلى المنصب مما أوجد السلطان عليه. ـ البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٤٦.

(١) حيث يشير «السخاوي» إلى أن السلطان قرر بعض الأمراء في شيء من الأنظار التي استرجعها «ابن حجر» وجاءه الرسول عن السلطان بأنه إن لم يجب لذلك وإلا.. وسكت الرسول، فبادر «ابن حجر» بعزل نفسه قائلاً: «عثر الحمار بشهوة المكاري» ـ الجواهر والدرر ق ١٦٤ ب، الذيل على رفع الأصر ص ٨٣.

(٢) حيث يشير «ابن حجر» إلى أنه في التاسع من ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة قرىء تقليد السلطان «الظاهر جقمق» بالقصر وجرى كلام يتعلق بالقضاء، فقال الشافعي: عزلت نفسي، فقال له السلطان: أعدتك. فقبل، وخلع عليه وعلى رفقته ورسم بإعادة الأوقاف التي خرجت عن الشافعي.. فاعيدت بتوقيع جديد، وفي يوم الاثنين سلخه حضر لتهنئة السلطان بالشهر الجديد فسأل السلطان أن يشهد على نفسه بما فوض له من الولاية والأنظار وغيرها فأشهد على نفسه بذلك بحضرة القضاء ـ إنباء الغمر ج ٩ ص ٤٢، ٤٦. وأكد عليه في أن لا يقبل رسالة مشجوة ولا يؤجر وقفاً لذي جاه لسؤاله له في التأكيد عليه بذلك لينتفع به في الوصول إلى غرض الحق ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٤، الذيل على رفع الإصر ص ٨٢.

(٣) حيث يشير «السخاوي» إلى أن «ابن حجر» كان قد اتفق طلوعه إلى السلطان في بعض القضايا فأظهر ما عنده من التأثر وشافه الظاهر بقوله: أعطيت وظيفتي من لا يدري إسلام، وكذا نهر ابن =

* عتابه العنيف للسلطان إلى الحد الذي أخجله منه فاندفع يعيده إلى وظيفته في اليوم التالي(١).

* رسالته الجريئة إلى السلطان، وقد هضم حقه وأخذ في مقاهرته(٢). بل، والسعي في عزل السلطان دفعاً للظلم والجور(٣).

= البارزي ودولت بأي لكونه تكلم مع السلطان ـ حينئذ ـ بالتركي، وانزعج السلطان من ذلك كله حتى صارت ركبته تهتز.

ويعلق على ذلك بقوله: «... وأظنه كان سبباً لعزله من وظيفة القضاء عن قرب... بل ما كفه عنه إلا الله ـ عز وجل ـ وما صدر كل هذا من شيخنا إلا وقد بلغت الروح الترقوة » ـ الجواهر والدرر ق ١٥٨ أ.

(١) يشير «السخاوي» إلى أنه ـ بعد عزل «ابن حجر» عن القضاء «بالعلم البلقيني» ـ راسله السلطان في الطلوع إليه للسلام عليه ومحادثته جرياً على عادة «ابن البلقيني» في أيام بطالته، فلم يسع «ابن حجر» إلا الإمتثال على طريق الإعتدال، فلما اجتمعا أخذ السلطان في التشوق إليه بعد مزيد من الإقبال عليه، لكن «ابن حجر» اشتد عليه بما انشده من شعر في موضع العتب، مما جعل السلطان يطرق رأسه خجلاً، فبادر «ابن حجر» عند ذلك فقرأ الفاتحة ودعا وانصرف، فلما ولي راسله السلطان بالطلوع من غده ليعيده إلى وظيفته، وقد كان ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٤ أ.

(٢) وكان ذلك بعد سقوط منارة الفخرية القديمة، وتغيظ السلطان عليه ظناً منه أن الناظرعلى المدرسة ينوب عنه، وقد انكشف الغطاء بأنه ليس في ذلك ولاية ولا نيابة، ولا عرف بشيء من ذلك منذ ولي وإلى تاريخه. لكن انتهز الأعداء الفرصة وأوصلوا إلى السلطان ما أوغر صدره عليه فغضب زيادة على الغضب الأول وراسله بأن ينعزل عن الحكم، ويغرم دية الموتى. ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٩، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٥ أ، الذيل على رفع الإصر ص ٨٣ ـ ٨٤ ـ ولهذا راسله «ابن حجر» مع «العلاء بن أقبرس» بقوله: «القاضي جلال الدين البلقيني قتيل ططر، والقاضي ولي الدين ابن العراقي قتيل الأشرف برسباي، وأنا قتيلك، وأرجو أن الله ـ تعالى ـ يقضي للمظلوم من الظالم»، أو معنى هذا، وإن لم تصله الرسالة لإشارة «العلاء» بذلك إلى الخليفة، واستشارته في تبليغها، ومنعه إياه من ذلك خشية على «ابن حجر» ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٤ ب.

(٣) حيث يشير «ابن حجر» إلى ذلك قائلاً: «... ثم إن بعضهم أغرى السلطان بأن قال له: إن فلاناً يتبجح بكذا، وينسب السلطان إلى الظلم والجور ونحو ذلك ـ إنباء الغمر ج ٩ ص ٢٣٣.

ثـالثـاً ـ أن تلبسـه بـالقضـاء جعله يتصل بسـائـر طبقـات مجتمعـه ابتـداء بالسلاطين ومروراً برجالات الدولة والعلماء، وانتهـاء بالعـامة من النـاس، وهذا وإن كان قد أعطاه رؤية صادقة لحال مجتمعه بدت في كتابـاته ـ خـاصة التـاريخي منها ـ فإنه ـ لا شك ـ قد أكسبه عـداء الكثيرين لـه سواء بتصـرفاتـه المتصلبة في الحق التي لا تخشى في الله لومة لائم، أم بكتاباته عنهم ـ خاصة فيما يكتبه متعلقاً بـاستقراراتهم الـوظيفية، وجـرحهم وتعديلهم ـ نـاهيك عن العـداء المتولـد من تغايرهم على المنصب الواحد[1].

رابعاً ـ أن تلبسه بالقضاء أفسح له المجال لاظهار قومات في الله ـ تعـالى ـ ما كان لهـا أن تنطلق لإفـادة مجتمعه وقـد ظهر من خـلالها «ابن حجـر» مصلحاً إجتماعياً، وحلقة وصل بين الحكام والمحكومين لولا شغله لهذا المنصب ومعاناته فيه . .

من ذلك :

* ما تعلق بمجلس أخذ الزكاة من التجار[2].
* تكلمه مع السلطان بشأن قناديل رمضان[3].

= كما يشير السخـاوي إلى أن «ابن حجر» قـد التمس من رفيقه القـاضي الحنفي «سعد الدين ابن الديري» أن ينفذ ما يصدر منه بخلع السلطان فنم القاضي عنه بصفاء الخاطر، لا قصداً للأذية، مما أوغر السلطان علي «ابن حجر» ـ الجواهر والدرر ق ١٦٥ أ.

(١) بالإضافة إلى ما مر يمكن الوقوف على مـوقفه من كـل من «العلم البلقيني» و «الشمس الهروي» في كتابته عنهما في إنباء الغمر والمجمع المؤسس مقارناً بكتابات سواه.

(٢) عقد هذا المجلس في السنة الأولى من ولايته، فقـام مع التجـار قصداً لعـدم تطرق الـظلم عليهم وأيدهم، فتبعه المـالكي والحنفي وانفرجت عنهم وعن غيـرهـم ـ ابن حجر. إنبـاء الغمر ج ٣ ص ٣٢٧، السخاوي الجواهر والدرر ق ١٦٧ أ.

(٣) كان تكلمه مـع السلطان في أن لا تطفـأ القناديـل في رمضان إلا قبـل طلوع الفجر لمـا يحصل من الإجحاف بالناس ممن ينام ثم يستيقظ وهو عطشان حيث يمنع من الشرب ظناً منه أن ذلك حرام. ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٨٣، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٧ ب.

* ما تعلق بشأن إبطال إدارة المحمل[1].
* إصلاح اضطراب قيمة النقد[2].
* حماية الأوقاف[3].
* بالإضافة إلى بعض الأحكام والتصرفات الصادرة عنه بخصوص كائنة

---

(١) يشير «ابن حجر» إلى ذلك قائلاً: «. . . التمس الشيخ علاء الدين. . . البخاري من السلطان أن يبطل إدارة المحمل حسماً لمادة الفساد الذي جرت العادة بوقوعه في الليل والنهار من ارتكاب المنكرات والتجاهر بالمعاصي، فأمر السلطان بجمع القضاة وكاتب السر وأن يتوجهوا إلى الشيخ علاء الدين فيتكلموا معه في هذه المسألة، فوقع الكلام فقلت: ينبغي أن ينظر في السبب في هذه الإدارة ليعمل بما فيه المصلحة منها، ويزال ما فيه المفسدة، وذلك أن الأصل فيه إعلام أهل الآفاق أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمنة، وأن من شاء أن يحج فلا يتأخر لخشية خوف الطريق. . .

فالإدارة لعلها لا بأس بها لهذا المعنى، وما يترتب عليها من المفاسد يمكن إزالته بأن يبطل الأمر بزينة الحوانيت، فإنها السبب في جلوس الناس فيها، وكثرة ما يوقد فيها من الشموع والقناديل، ويجتمع فيها من أهل الفساد، فإذا ترك هذا وأمر السلطان من تعاطي إدارة المحمل من غير تقدم إعلام الناس بذلك حصل الجمع بين المصلحتين وانفصل المجلس على ذلك» ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٨ أ.

(٢) يشير «ابن حجر» إلى ذلك قائلاً: «. . . وفي هذا الشهر ـ ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة ـ نودي على الفلوس أن يباع الرطل المنتقي منها بثمانية عشر درهماً، ففرح من كان عنده منها حاصل، وحزن من عليه منها دين لما يقاسونه من نواب الحكم في إلزامهم إعطاء ذلك بالوزن الأول. وفيه بخس كثير، وبينت أن ذلك لا يلزم على الإطلاق، بل لا بد فيه من شروط. واقتضى الحال كتابة مراسيم للشهود أن لا يكتبوا وثيقة في معاملة ولا صداق ولا غيره إلا بأحد النقدين: الذهب والفضة بسبب شدة اختلال أحوال الناس واختلاف الفلوس التي صارت هي النقد عندهم في عرفهم. . . فحسمت هذه المادة من هذا التاريخ على يد من وفقه الله لذلك وهو كاتبه ـ أي ابن حجر ـ وتمادي الاختلاف بسبب ما كان كتب أولاً، فلم يزل يضمحل بحمد الله تعالى» ـ إنباء الغمر ج ٣ ص ٤١٩.

(٣) يراجع إلى جانب ما مر موقفه من تجديد الجوانب التي فيها السيوفيين والصيارفة بظاهر الصاغة وعلوها ـ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٨ ب ـ وقيامه بتبييض الحوانيت المجاورة للكاملية ـ وكانت تحت نظره في جملة أوقاف البيبرسية ـ وكانت قبل مع كونها محكمة البناء ـ شعثة، مما جعل بعض الأعيان يحسن للأشرف برسباي أخذها، فلما صارت تضيء بذلك كفو عنها ـ نفسه.

«الميموني»[١] والكشف عن دور العبادة الخاصة بالذميين[٢].

خامساً - أن «ابن حجر» قد تحرى - قدر المستطاع - الدقة في إختيار الوكلاء والنواب والأمناء عنه في القضاء، والذين راعى فيهم أن يكونوا من علية أصحابه - وقد حصل جلهم بعد على المناصب الرفيعة في الدولة - وكان كثيراً ما يرسل إليهم مراسيمه بالتحذير والإنذار والتخويف من غضب الله، وأنه لا يأخذ في أجرة اليمين ولا الدرهم الواحد وفي الثبوت والعقود لا يتعدى إلى القدر الزائد، ويؤكد في ذلك كله غاية التأكيد، ويتفقد أحوالهم.. لكنه مع ذلك لم يكن راضياً عنهم بحيث أنه كان يقول بآخرة: «ليس في نوابي من يفتح عليه العين» كما أنهم كانوا يكلفونه مرة للتغبين عليهم، ومرة للدعاء لهم[٣].

---

(١) هو الشيخ «شمس الدين بن الشيخ سراج الدين بن عمر الميموني» وكان القاضي التفهيني قد غضب منه فادعى عليه بالزندقة وحكم بسفك دمه وقال للحنفي: نفذ لي. فقال: حتى ينفذ الشافعي، فامتنع ابن حجر من التنفيذ عندما سأله السلطان ذلك، قائلاً: «وقعت عندي ريبة تمنع من تنفيذ الحكم، فإني أعرف هذا الرجل وقد ذكر لي أن في عقله خللاً والقاضي سارع فيه بالحكم في حالة غضب». وطال البحث في ذلك وآل الأمر إلى أن انفك من القتل على يد «ابن حجر» قصداً للحق - ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٤٩، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٧ ب.

(٢) كانت مواقفه بهذا الصدد متعددة ومعتدلة، ومنها قوله بشأن ما أحدث من تجديد بناء بعض الأديرة: «... فلما تأملت المحضرين وشاهدت الأمكنة المجددة أغنت المشاهدة عن الخبر، وظهر الحق... لكن رأيت الغوغاء قد اجتمعوا ومعهم المساحي والمعاول، فلو أذنت بهدم شيء ما لهدمت الكنيسة كلها، ونهب ما فيها، وكان ذلك وقت العصر، فقلت لهم: لا بد من كشف كنيسة النصارى حتى ينظر ماأحدثوا - أيضاً - ويهدم الجميع. فأعجبهم ذلك، وافترقوا على العود في أول النهار، ثم استوفى الشافعي - أي ابن حجر - والحنبلي الشروط في المسألة، وحكم بهدم ما أحدث... واتصل ذلك بالسلطان، وكبت عند الإفتراق: أمرت الوالي أن يزيل ما أحدثوه من الأبنية الجديدة كلها بالليل. ففعل ذلك وانحسمت المادة بعون الله تعالى» - ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٣) السخاوي: الجواهر والدرر ق ١٧٢ ب - ١٧٣ ب.

خامساً ـ الخطابة والإمامة والوعظ:

تولي «ابن حجر» وظيفة الخطابة بالجامع الأزهر[1] برغبة «ابن رزين»[2] له عنها سنة تسع عشرة وثمانمائة ـ ربما بمشاركة غيره له في ريعها[3] ـ ثم الخطابة بجامع عمرو بن العاص[4] ـ وفي آخر يوم من رمضان سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة، بعد أن قايض الشيخ «شمس الدين محمد بن يحيى» بما كان معه من خطابة الجامع الأزهر، بما معه من نصف خطابة جامع عمرو ـ[5] ثم استعمل الوظيفة ـ بعد ذلك ـ باستنزال «البدر ابن البرماوي» عن نصفها الآخر[6]. وقد ينوب عنه في الخطابة به أيام تلبسه بالقضاء وغيره موقعه «ناصر الدين ابن المهندس المصري»[7].

وكان طبيعياً أن يخطب بالسلطان بجامع القلعة أيام تلبسه بالقضاء على جاري عادة قضاة الشافعية ـ آنذاك ـ وربما أناب عنه في ذلك غيره[8]. وأن

---

(١) هو أول مسجد أسسّ بالقاهرة، أنشأه القائد «جوهر الصقلي» مولى الخليفة الفاطمي «المعز لدين الله» لما اختط القاهرة، وكان ابتداء البناء فيه يوم السبت لست بقين من جمادي الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وكمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وستين وثلاثمائة ـ المقريزي. الخطط ج ٢ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٧.

(٢) هو «التاج محمد بن علاء الدين محمد بن محمد بن محمد بن عبد المحسن بن عبد اللطيف بن قاضي القضاة تقي الدين محمد بن العامري الحموي» (ت ٨١٩ هـ./١٤١٧ م.) ـ السخاوي. الضوء اللامع ج ٩ ص ٢٣٥ تر ٥٨٠.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٨ أ، الضوء اللامع ص ٩/٢٣٥.

(٤) ويعرف بالجامع العتيق، وهو أول مسجد أسس بالديار المصرية بعد الفتح ـ المقريزي. الخطط ج ٢ ص ٢٤٦ ـ ٢٥٦.

(٥) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٥٥١، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٩ أ.

(٦) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٩ أ.

(٧) هو «محمد بن أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر بن عثمان بن أبي بكر، الشمس التميمي المصري» (ت ٨٥٥ هـ./١٤٥١ م.) ـ السخاوي. الضوء اللامع ج ٧ ص ٧١ ـ ٧٢ تر ١٣٣، الجواهر والدرر ق ١٥٨ ب، ١٥٩ أ.

(٨) المصدر السابق، حيث ذكر من نوابه ـ كذلك ـ «أبو العباس الزركشي» و«الصدر ابن روق»، و«الصلاح السيوطي»..

يخطب به ـ كذلك ـ عندما صحبه في سفرة آمد[1].

كما كان إليه وظيفة الوعظ بجامع الظاهر بالحسينية[2]، تلقاها عن الشيخ «نور الدين الرشيدي» بحكم وفاته[3] فكان يستخلف فيها غيره[4].

ولقد كان لمنصب الخطابة خطره ووقعه في النفوس، لاتصاله المباشر بسائر طبقات مجتمعه، لأنه لم يكن منصباً دينياً بحتاً، وإنما كان له إلى جانب ذلك أبعاد حيزها دائرة مجتمعه بأكملها. ولذا نجدنا مع «ابن حجر» وقد نهج به نهجاً إجتماعياً صرفاً:

* فهو يتمثل ـ من خلاله ـ ما يصدر من أوامر يرى فيها اعزازاً لدينه وإن رفضها غيره[5].

* وينبه على مكانة العلماء وينزلهم منازلهم، وتكثر بسببه الصلاة على الغائبين من العلماء والصالحين المتوفين[6].

* ويشتد إنكاره وهو على المنبر على من يدخل من العوام فيجلس فإذا

---

(١) راجع الفصل الثالث من هذا الباب.

(٢) كان يقع خارج القاهرة، اهتم السلطان الملك «الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري» بعمارته في ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة ـ المقريزي ج ٢ الخطط ٢٩٩ ـ ٣٠٣.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٢ ب.

(٤) ومن نوابه فيه: «الشهاب الطنبدي»، و«ابن الضياء الحنبلي» و«البرهان البقاعي» ـ نفسه.

(٥) من ذلك ما أورده «ابن حجر» في إنباءالغمر قائلاً: «. . . وفي هذا الشهر ـ أي رجب سنة تسع عشرة وثمانمائة ـ أمر السلطان الخطباء إذا وصلوا إلى الدعاء في الخطبة أن يهبطوا درجة أدباً ليكون اسم الله ورسوله في مكان أعلى من المكان الذي فيه السلطان، فصنع ذلك كاتبه ـ أي ابن حجر ـ في الجامع الأزهر. . . وبلغ ذلك القاضي جلال الدين (البلقيني) فما أعجبه كونه لم يبدأ بذلك، فلم يفعل ذلك في جامع القلعة، فأرسل السلطان يسأله عن ذلك، فقال: لم يثبت ذلك في السنة. فسكت عنه وترك فعل ذلك بعد ذلك، وكان مقصد السلطان في ذلك جميلاً» ـ إنباء الغمر ج ٣، ص ٩٢ ـ ٩٣، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٨ ب.

(٦) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣، ص ٢٦٤، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٨ ب.

تمت الخطبة الأولى قام فصلى، وينكر ما تفعله الجهال من كتابة أوراق في آخر جمعة من رمضان والخطيب على المنبر يسمونها حفيظة رمضان، ويبالغ في ذلك[١].

* ويعمل على إبطال ما تعود من شرب المشروب بجامع القلعة[٢].

* وينبه بين يدي السلطان والأمراء ورجالات الدولة على أن من لغا ـ من اللغو ـ لا جمعة له[٣]. ويفصل بين حديث من رواية البخاري، وعبارة تسبقه لتوهم السلطان أنها من نفس الحديث[٤].

* ويصلي بالناس صلاة خسوف أو كسوف فينجلي الأمر، ولله الحمد[٥].

* ويذيع على الناس في خطبة الجمعة ما يصله من أخبار سياسية[٦].

ومع كل هذا كان لخطبه صدع في القلوب، ويزداد وهو على المنبر من المهابة والنور والخفر بما لا مزيد عليه[٧].

---

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٩ أ، عبدالله بن زين. جمان الدرر ق ٧٠ أ.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٩ أ، ولم يفصح عن كيفيته، ولعله «الشراب التمربغاوي» الوارد لدى ابن حجر في الإنباء ـ ج ١ ص ٤٨٧ ـ على الكيفية الآتية: «. . . وفيه بدأ الظاهر بشرب الشراب التمربغاوي وصفته أن يعمل لكل رطل زبيب أربعون رطل ماء ويدفن في زبل الخيل إلى أن يشتد. . ».

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٩ أ.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه ق ١٥٨ ب.

(٦) من ذلك قراءة « ابن حجر» ـ على الناس من فوق منبر الجامع الأزهر سنة خمس عشرة وثمانمائة ـ كتاب الخليفة ـ المستعين بالله ـ بعد سلطنته، وقد قتل الناصر فرج ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٥٠٩ ـ وقراءته كتاب السلطان الملك «المؤيد شيخ» بشرح سيرته في السفرة إلى بلاد الروم سنة عشرين وثمانمائة ـ نفسه ج ٣، ص ١٤٢، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٨ ب.

(٧) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٢ أ.

وظائف أخرى

١ـ مشيخة البيبرسية ونظرها

ولي «ابن حجر» مشيخة البيبرسية ونظرها[١] برغبة «العلاء الحلبي» له عنها في ثالث ربيع الأول سنة ثلاث عشرة وثمانمائة، ثم سعي «الشمس» أخو «جمال الدين الاستادار» إلى أن اشترك معه في المشيخة سنة خمس عشرة وثمانمائة، ثم انتزعها منه كلها سنة ست عشرة[٢] بعد أن كتب «لابن حجر» توقيعاً بها في مستهل جمادي الأولى سنة خمس عشرة وثمانمائة من الخليفة حملاً على ما بيده من المستندات الشرعية[٣]. ثم اعيدت «لابن حجر» سنة ثمان عشرة

(١) استتبع انتشار التصوف في مصر، وكثرة الصوفية بها في عصر سلاطين المماليك ـ إنشاء الخنقاوات (= بيوت الصوفية) وتعددها، وجرت العادة بأن يعين لكل خانقاة شيخ يشترط فيه أن يكون من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ، بشرط أن لا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة له. كما اتخذ لها ناظراً مهمته النظر في مصالح الخانقاة والإشراف على أوقافها وصيانتها والعمل على زيادة ريعها وتمييز مالها وتنفيذ شروط الواقف بخصوصها، ومراقبة أرباب وظائفها.

وقد تجمع الوظيفتان في يد شخص واحد كما هو مبين في المتن.

(د. سعيد عبد الفتاح عاشور. العصر المماليكي ص ٣٤١، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٦٨ ـ ١٧٥، د. حسن الباشا. الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ٢٦٧، وما بعدها، ج ٣ ص ١١٧٧ وما بعدها).

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٥١٦، العيني. عقد الجمان ج ١٩ ق ١٢٤ أ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٧ أ.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٧ أ.

وثمانمائة، حيث كتب السلطان الملك «المؤيد شيخ المحمودي» له توقيعاً بها في ثاني عشر ربيع الآخر من السنة، ولبس بها خلعة وحضرها وصرف أخو «جمال الدين» منها، ثم عوض بعد سنتين بمشيخة سعيد السعداء بعد موت «البلالي»[1] بعناية «ططر» قبل أن يتسلطن[2]. واستمرت بيد «ابن حجر» إلى أن قرر «الظاهر ططر» فيها «الشمس القاياتي» (ت ٨٥٠ هـ. /١٤٤٧ م.) يوم الثلاثاء العشرين من جمادي الأولى سنة تسع وأربعين وثمانمائة[3]. ثم أعيد «ابن حجر» إلى المشيخة في أوائل ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين لكن تدبير ولده فيها كان سبباً في عزله عنها، وإن لم يخرج النظر عليها عنه[4].

ويشير «السخاوي» إلى أن «ابن حجر» قد رتب أسماء المستحقين بها على الحروف مما احتذي في ترتيب ديوان الجيش، وكثير من مستحقي المدارس ونحوهم. . وكانوا قبل في تعب زائد[5].

٢ ـ خزن الكتب

أسند إليه مهمة خزن الكتب بالمدرسة المحمودية[6] الكائنة بالموازنين وكانت تحتوي على أنفس الكتب الموجودة ـ آنذاك ـ في القاهرة، والتي كان قد جمعها «البرهان ابن جماعة» (ت ٧٩٠ هـ. /١٣٨٨ م.)[7] طوال حياته. فعمل

(١) هو «محمد بن علي بن جعفر العجلوني» (ت ٨٢٠ هـ. /١٤١٨ م.) تولى مشيخة سعيد السعداء سنة تسعين وسبعمائة وما بعدها مدة ثلاثين سنة، وحتى وفاته ـ السخاوي. الضوء اللامع ج ٨ ص ٤٣٩، وحاشية إنباء الغمر ج ٣ ص ٦٣.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٦٢ ـ ٦٣، العيني. عقد الجمان ج ١٩، ق ١٢٤ أ السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٧ أ.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧٥ أ، الضوء اللامع ج ٨ ص ٢١٣.

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٧ ب ـ ١٥٨ أ.

(٥) نفسه ق ١٥٨ أ.

(٦) راجع بشأنها: السيوطي. بذل المجهود في خزانة محمود. نشرة فؤاد السيد ـ مجلة معهد إحياء المخطوطات العربية.

(٧) سترد ترجمته في العلاقة بين التراجم والحوادث من هذا البحث.

«ابن حجر» لها فهرستاً على الحروف في أسماء التصانيف، وآخر على الفنون، وكان يقيم بها في الأسبوع ـ غالباً ـ يوماً واحداً. وتيسر على يديه عود أشياء مما كان ضاع منها ـ قبل ـ كما كان كثيراً ما يفتديها بكتبه[1].

وما من شك في أنه قد انتفع كثيراً بكتبها، حيث كان يكتب في مدة الأسبوع قائمة بما يحتاجه من المراجعة ليتذكره في يوم حلوله بها[2]. كما تنعكس قيمتها المدركة لديه على ما أورده بشأنها في ترجمته «للبرهان» المذكور[3].

٣ ـ النظر على حمام ابن الكويك

كما استمر بيده النظر على حمام ابن الكويك[4] بتفويض من «التقي المقريزي» (ت ٨٤٥ هـ. / ١٤٤٢ م.) ـ الذي كان إليه النظر عليه قبله ـ حتى وفاته ويشير «السخاوى» إلى أن «العلم البلقيني» قد رام أخذه منه في بعض عزلاته متمسكاً بأنه من متعلقات القضاء، فأرسل إليه «ابن حجر» بتفويض «المقريزي» له فسكت[5].

وظائف رشح لها ولم يقبلها:

كما رشح لبعض الوظائف التي لم يقبل تقلدها: كالتوجه عن السلطان الملك «المؤيد شيخ المحمودي» في الرسلية إلى اليمن ـ سنة تسع عشرة وثمانمائة[6] ـ وتولي قضاء دمشق ـ في عهده كذلك[7] ـ وتولى قضاء اليمن وكتابة سرها للملك الأشرف صاحبها[8].

---

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٩٥ ب.

(٢) نفسه.

(٣) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٤) كانت تقع فيما بين حارة زويلة ودرب شمس الدولة، أنشأها الوزير «عباس» أحد وزراء الدولة الفاطمية لدارة، ثم جددها أحد التجار سنة تسع وأربعين وسبعمائة فعرفت باسمه ـ المقريزي. الخطط ج ٢ ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٥) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٥٨ أ.

(٦) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣، ص ٨٨، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧٤ أ.

(٧) نفسه ج ٣ ص ٩٥ ـ ٩٦ في ١٧٤ أ، على التوالي.

(٨) نفسه ج ٣ ص ١٧٨، ق ١٧٤ أ ـ على التوالي.

الفصل الخامس

حياته الإجتماعية

زوجاته :

تزوج «ابن حجر» أولى زوجاته «أنس»[1] ابنة القاضي «كريم الدين عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي طالب بن سيدهم النستراوي الأصل المصري» ـ في شعبان سنة ثمان وتسعين وسبعمائة للهجرة[2] ـ بإشارة العلامة «ابن القطان» ـ وصيه[3].

فاعتنى بها، وأسمعها الحديث المسلسل بالأولية على شيخه «الزين العراقي»، و«الشريف ابن الكويك»، وحصل لها جملة من الإجازات باستدعاءات عدد من الحفاظ والمسندين «كأبي الخير ابن الحافظ العلائي»، و«أبي هريرة ابن الحافظ الذهبي». . وغيرهما من المصريين والشاميين والمكيين واليمنيين. .[4] كما استصحبها معه إلى الحج سنة خمس عشرة وثمانمائة، وأذن لها

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٩ ص ٢٤٠، وهي أصغر خمس بنات مات عنهن أبوهن، هن: «خديجة» (ت ٨٥٣ هـ. / ١٤٥٠ م.) و«آمنة» (ت ٨٦٥ هـ. / ١٤٦١ م.) و«فاطمة» (ت ٨٤٩ هـ. / ١٤٤٦ م.) و«فرح» (ت ٨٦٣ هـ. / ١٤٥٩ م.)، وهي.

(٢) نفسه ج ١ ص ٥١٣، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٦ أ.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٦ أ.

(٤) ابن حجر. المجمع المؤسس في مواضع متفرقة، السخاوي. الجواهر والدرر. ق ٣٢٦، الضوء اللامع ج ١٢ ص ١١.

بعد ذلك في الحج سنة أربع وثلاثين وثمانمائة ـ فحجت بمفردها وجاورت ومعها سبطها وهو صغير(١).

ويشير «السخاوي» إلى أنها حدثت بحضور زوجها وبعده، وقرأ عليها الفضلاء، فكان يقرأ عليها العلامة «ابن خضر»(٢) صحيح البخاري في رجب وشعبان من كل سنة، ومن بعده سبطها، وفي يوم الختم تحتفل بأنواع الحلوى والفاكهة وغيرها، ويهرع الكبار والصغار لحضور هذا اليوم ـ وهو قبل رمضان ـ بين يدي زوجها(٣).

كما خرج لها «السخاوي» أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً قراءة عليها بحضور زوجها بعد أن أسلف «ابن حجر» لها بالإعلام بذلك قائلاً على سبيل المداعبة: «قد صرت شيخة»(٤).

ولقد استولدها عدة بنات هن: «زين خاتون»، و«فرحة»، و«غالية» و«رابعة»، و«فاطمة»، ولم تلد ولداً ذكراً(٥).

وكان كثير التبجيل والتعظيم لها، وكانت هي عظيمة الرغبة فيه.

ولم تزل بعده على جلالها وتصونها، لم يضبط لها هفوة ولا زلة بل مات كل أولادها بين يديها فتصبرت واحتسبت إلى أن ماتت(٦) وكانت قبل قد أوقفت ما بقي من أملاكها ورزقها على سبطها وذريته، ووهبت وتصدقت بما بقي تحت يديها على من لديه أعواز ممن يدخلن عليها من الأهل والعجائز(٧).

السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٧ أ، الضوء اللامع ج ١٢ ص ١١.

هو «إبراهيم بن خضر بن أحمد بن عثمان بن كريم الدين بن جامع بن محمد» (ت ٨٥٢ هـ. / ١٤٤٩ م.) ـ السخاوي. الضوء اللامع ج ١ ص ٤٣ ـ ٤٧.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٧ أ، الضوء اللامع ج ١٢ ص ١١.

(٤) نفسه.

(٥) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٧ أ.

(٦) نفسه ـ وكان موتها في ربيع الأول سنة سبع وستين وثمانمائة ـ الضوء اللامع ج ١٢ ص ١١.

(٧) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٧ أ.

كما تـزوج من أرملة «الـزين أبي بكـر الأمشـاطي» (ت ٨٣٣ هـ. / ١٤٣٠ م.) وعتيقة العلامة «نظام الدين يحيى بن سيف الدين الصيرفي»[١] - في مجاورة أم أولاده - سنة أربع وثلاثين وثمانمائة، وأنزلها بقـاعة المشيخـة البيبرسيـة واستولدها في السنة التالية لدخولـه بها بنتاً أسماهـا «آمنة» مـاتت في ثالث عشر شوال سنة ست وثلاثين وثمانمائة، وبموتهـا طلقت أمها، فـإنه كـان علق طلاقهـا عند سفره إلى آمد على موتها[٢].

أما «ليلى» فإنه تزوجها حيث سـافر مـع «الأشرف بـرسباي» إلى آمـد سنة ست وثلاثين وثمانمائة، وكانت ثيباً ذات ولدين بالغين[٣] واستمـرت معه إلى أن سافر من حلب ففـارقها دون أن يعلمهـا بالـطلاق، وإنما أسـره لبعض خواصـه ملتمسـاً منه أن لا يعلمهـا بـذلـك إلا بعـد مضي المـدة، وكـان قـد عجـل لهـا النفقة[٤].

ويبدو أن التطليق كان ترفقاً منه بها كي لا يشعرها بوحشـة مفارقـة الأهل والوطن مما يجعلهـا متضررة بشبكتـه[٥]. ولذا نجـده وقد وجـد فيها رغبـة قويـة ظاهراً وباطناً يرسل إلى بعض الحلبيـين من أخصائـه في تجهيزهـا له إن اختـارت وإعلامها بالحامل على تطليقها، واعداً إياها بكل جميل، فهي إن قدمت عليـه «لا يكون عنده أعز منها، وينزلها أحسن المنازل، ويعوضها عن كل شيء من الفرش والأمتعة ولا يحوجها لشيء». كما نعتها بقوله: «. . . نعم المرأة عقلاً وحسن خلق وخلق[٦] مما استرق قلبها، فقدمت مصر فاستعادها بعد أن أنزلها بقاعة المشيخـة البيبرسية واحتفل بشأنها. واستمرت في عصمته حتى سافرت إلى حلب في زيـارة

---

(١) هو «يحيى بن يوسف بن محمد بن عيسى النظام السيفي الصيـرفي» - ابن حجر. إنبـاء الغمر ج ٣ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ السخاوي. الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٣١.

(٣) نفسه، الضوء اللامع ج ١٢ ص ١٢٣.

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٣١ ب.

(٥) نفسه ق ٤٣ أ، ٣٣١ ب.

(٦) نفسه ق ٣٣١ ب - نقلاً عن رسالة «ابن حجر» بشأنها.

أهلها في منتصف شوال سنة إحدى وأربعين وثمانمائة ففارقها بعد أن أكملت في عصمته خمس سنين سواء(١). ثم عادت في رجب من السنة التي تليها فأعادها إلى عصمته واستمرت معه حتى مات وورثته، ولم يرزق منها أولاداً، وتأخرت بعده دهراً وتزوجت عدة أزواج، ثم ماتت في منتصف رجب سنة إحدى وثمانين وثمانمائة(٢). وقد قاربت الثمانين(٣).

كما أن «ابن حجر» نتيجة لكثرة ما تلده أم أولاده من الإناث أحب أن يكون له ولد ذكر، فاختار التسري. وكان لزوجته جارية تترية اسمها «خاص ترك» فوقع في خاطره الميل إليها، فاقتضي رأيه أن أظهر تغيظاً منها بسبب تقصيرها في بعض الخدمة، وحلف أنها لا تقيم بمنزله، فبادرت زوجته إلى بيعها بعد أن أمرها أن تأمر القاصد بعدم التوقف في بيعها بأي ثمن كان، قائلاً: «وكل ما رمته من الزيادة على ذلك أقوم لك به» ففعلت، وأرسل هو الشيخ «شمس الدين ابن الضياء الحنبلي» فاشتراها له بطريق الوكالة، وأقامت ببعض الأماكن حتى استبرأها ثم وطئها فحملت له بولده القاضي «بدر الدين أبي المعالي محمد» وكان مولده في ثامن عشر صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة، واستدعي

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٩ ص ٩.

(٢) نفسه، ويلاحظ شدة تولع ابن حجر بها من خلال ما أورده «السخاوي» ـ في الباب الثاني من الجواهر والدرر ـ له من شعر فيها، وهو كثير منه:

رحلت وخلفت الحبيب بداره ... برغمي ولم أجنح إلى غيره ميلاً
أشاغل نفسي بالحديث تعللاً ... نهاري وليلي أحن إلى ليلى

(من الطويل)

(الجواهر والدرر ق ٤٣ أ، الضوء اللامع ج ١٢ ص ١٢٣).

وقوله:

قف واستمع طرباً خليلي بالدجا ... باتت معانقتي ولكن في الكرى
وجرى بدمعي رقصة بخيالها ... أترى دري ذاك الرقيب بما جرى

(من الكامل)

(الجواهر والدرر ق ٤٣ ب).

(٣) السخاوي. الضوء اللامع ج ١٢ ص ١٢٣.

بالطلبة ونحوهم يوم السابع إلى منزل أم أولاده وعمل لهم شواء فكانت العقيقة عندها وهي لا تشعر، حتى بلغها الخبر قبل إنفصال الولد عن الرضاع، فركبت وأمها من فورها إلى المكان الذي كانا به، واحضرتها معهما إلى منزلها فتركتهما ببعض المنازل إلى أن حضر «ابن حجر» ـ وليس عنده شعور بما وقع ـ فاستخبرته عن ذلك «فما اعترف ولا أنكر»، لكن أجاب بما يفهم منه الإنكار فقامت وأحضرت الولد وأمه فسقط في يده. ولم تزل به حتى نزل عنها لمن تزوجها بعده(1).

أولاده:

أنجب «ابن حجر» خمس بنات وولداً واحداً، أما البنات فهن:

زين خاتون:

هي بكر أولاده، ولدت في رجب سنة اثنتين وثمانمائة، واعتني بها أبوها فعلمها الكتابة والقراءة، واستجاز لها في سنة مولدها كثيراً من المسندين من أهل دمشق وأسمعها على «الزين العراقي» و«النور الهيثمي» و«الجلال ابن خطيب داريا» و«الشريف ابن الكويك»(2). وزوجها بالأمير «شاهين الكركي» (ت ٨٦٠ هـ. /١٤٥٦ م.) فاستولدها عدة أولاد ماتوا في حياة أبيهم ولم يتأخر منهم إلا «أبو المحاسن يوسف» المعروف بسبط ابن حجر(3).

ماتت بالطاعون وهي حامل سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة(4).

فرحة:

ولدت في الرابع والعشرين من رجب سنة أربع وثمانمائة(5) وحصل لها

(1) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٩ ب.

(2) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٤٥ تر ١٧، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٦ ب، الضوء اللامع ج ١٢ ص ٥١ تر ٣٠١.

(3) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٦ ب.

(4) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٤٥، السخاوي. الضوء اللامع ج ١٢ ص ٥١، الجواهر والدرر ق ٣٢٦ ب.

(5) السخاوي. والجواهر والدرر ق ٣٢٦ ب، الضوء اللامع ج ١٢ ص ١١٥ تر ٢٩٧.

أبوها إجازات في سنة سبع وثمانمائة فما بعدها[1] وأسمعها من «ابن الكويك» وغيره[2]. وزوجها شيخ الشيوخ «محب الدين ابن الأشقر» فاستولدها ولداً مات صغيراً في حياة أمه[3] وكانت وفاتها في تاسع ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ـ عن ثلاث وعشرين سنة وتسعة أشهر ـ بعد أنْ حجت في العام الماضي قبله مع زوجها ورجعت موعوكة[4].

غالية:

مولدها في ذي القعدة سنة سبع وثمانمائة، استجيز لها جماعة، وماتت وفاطمة ـ الآتية ـ بالطاعون في ربيع الأول سنة تسع وثمانمائة مع بعض عمال أبيها[5].

رابعة:

ولدت في رجب سنة إحدى عشرة وثمانمائة[6] وأسمعها والدها في سنة خمس عشرة على الشيخ «زين الدين ابن حسين المراغي» بمكة[7] وأجاز لها جمع من الشاميين والمصريين.[8] وتزوجها «الشهاب ابن مكنون» ودخل بها بكراً بنت خمس عشرة سنة فولدت منه بنتاً[9] سماها «غالية» ماتت في حياتهما بعد أن

(١) ابن حجر. المجمع المؤسس في مواضع متفرقة، السخاوي. المصدران السابقان.

(٢) السخاوي. الضوء اللامع ج ١٢ ص ١١٥.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٦ ب.

(٤) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٥٨، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٦ ب، الضوء اللامع ج ١٢ ص ١١٥.

(٥) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٧٨، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٧ أ، الضوء اللامع ج ٢ ص ٨٥ تر ٥٢١.

(٦) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٢٥، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٧ أ. الضوء اللامع ص ٣٤ تر ١٩٩.

(٧) نفسه.

(٨) ابن حجر. المجمع المؤسس في مواضع متفرقة، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٧ أ، الضوء اللامع ج ١٢ ص ٣٤.

(٩) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٧٤.

استدعى لها الشيخ «رضوان» وغيره[1] ثم مات زوجها عنها في رمضان سنة تسع وعشرين وثمانمائة فتزوجها «المحب ابن الأشقر» واستمرت حتى ماتت عنده سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة[2].

فاطمة:

ولدت في ربيع الآخر سنة سبع عشرة وثمانمائة، وأجاز لها جماعة، وماتت وهي طفلة في الطاعون في ربيع الأول سنة تسع عشرة[3].

ولده:

أما «بدر الدين أبو المعالي محمد» فإنه ولد في ثامن عشر صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة، وشغله والده بحفظ القرآن - الكريم - فحفظه وصلى بالناس - على جاري العادة - في رمضان سنة ست وعشرين وثمانمائة بالخانقاة الركنية البيبرسية وأسمعه والده الحديث على «الشهاب الواسطي»، و«الفخر الدنديلي» وغيره.. وأجاز له باستدعاء والده في سنة مولده فيما بعدها - جماعة من مسندي الشام ومصر وغيرهم، ومنهم «عائشة بنت عبد الهادي» و«أبو بكر الحسن المراغي» وغيرهما.. كما صنف «ابن حجر» لأجله كتابه «بلوغ المرام من أدلة الأحكام»[4] وكتب هو عن والده كثيراً من مجالس الإملاء، ولازم مجلسه حتى سمع عليه شيئاً كثيراً. ولما ترعرع اشتغل بالقيام بأمر القضاء، والأوقاف - استنزالاً من والده له قصداً للدربة والتمرن في المباشرة بها[5] - وولي في حياة أبيه

---

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٧ أ.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٢٥، ٣٧٤ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٧ أ.

(٣) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٨٧، السخاوي. الضوء اللامع ج ١٢ ص ٨٨ الجواهر والدرر ق ٢٣٧ أ.

(٤) أشار «ابن حجر» في مقدمته إلى أنه «... مختصر يشتمل على أصول الأدلة الحديثية للأحكام الشرعية»، كما أشار إلى الغاية من تأليفه قائلاً: «... ليصير من يحفظه من بين أقرانه نابغاً، ويستعين به الطالب المبتدىء ولا يستغني عنه الراغب المنتهي» - وهو مطبوع بتحقيق رضوان محمد رضوان ط. بيروت.

(٥) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧٠ ب.

عدة وظائف أجلها: مشيخة الخانقاة البيبرسية، وتدريس الحديث بالحسينية ـ ناب عنه فيها أبوه ـ والإمامة بجامع ابن طولون. وحج في حياة أبيه وبعده، وأنشأ عدة أماكن، وحدث بالكثير، وكتب على الاستدعاءات، واشترك مع السخاوي في مقابلة بعض تصانيف أبيه، ولما مات أبوه ما التفت لشيء من وظائفه، حتى ولا ما يصلح أن يكون باسمه، بل لقد عرضت عليه حسبة القاهرة ومصر فما وافق لأن «همته لم تكن منصرفة لشيء من ذلك»(١).

مات مبطوناً سنة تسع وستين وثمانمائة في السادس عشر من جمادي الثانية بعد أن اشتد به الوعك وقاسى شدائد أقام فيها أزيد من مائة يوم وفتحت في أعضائه عدة أماكن، وقد خلف ـ رحمه الله ـ زوجة وولداً(٢).

وعلى الرغم من هجو «السبط» له(٣). وعدم رضي «ابن فهد المكي» عنه(٤) ونعت «ابن تغري بردى» إياه بالجهل وسوء السيرة(٥) امتدحه «السخاوي» في موضعين من مؤلفاته بقوله: «وكان حسن الشكالة متكرماً على عياله قل أن يكون في معناه من نظرائه مثله»(٦) وقوله: «.. وكان حسن الشكالة قوي النفس شهماً متكرماً على عياله»(٧). وإن انتقده لتفريطه في تصانيف أبيه قائلاً: «.. لكن ـ عفا الله عنه ـ ضيع ما كان أولى به الحرص على بقائه من تصانيف أبيه وغيرها مما كتبه بخطه، ونقل أكثر ذلك لناظر الخاص... وتفرقت شذراً مذراً»(٨). كما أشار في موضع آخر إلى تلبسه بمحنة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه ق ٣٣١ أ، ـ وكان مولد ولده «علي» في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، واحضر مجلس جده وتردد إليه بعض الفقهاء للتعليم وغيره، ومات أبوه في حياته.

(٣) نفسه ق ٣٣٠ ب.

(٤) ابن فهد المكي. لحظ الألحاظ ص ٣٣١.

(٥) ابن تغري بردى. النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٥٣٣.

(٦) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٣٠ أ.

(٧) السخاوي. الضوء اللامع ج ٧ ص ٢٠.

(٨) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٣٠ أ.

أبيه، حيث طلب الولد مع جماعة المباشرين لجامع ابن طولون واحتجزوا على ذمة التحقيق ورام السلطان ضربه، فكان في ذلك القهر لوالده بسببه «فإنه كان في ضيق صدر زائد وألم شديد وتأوه كبير، وكل يوم يسمع من الأخبار ما لا يسمعه بالأمس، وكان يتوجه إليه في الجمعة يوماً وأكثر إلى المكان الذي يكون فيه..»[1] بل لقد عمل «ابن حجر» الأب لهذه المناسبة جزءاً سماه «ردع المجرم عن سب المسلم» جمع فيه أربعين حديثاً منتقاة من كتب الصحاح والسنن في تعظيم المسلم والزجر عن سبه وظن السوء به وتعمد ظلمه وحربه لعظة من بسط لسانه ويده في المسلمين مع قلة علمه واعوجاجه[2].

---

(١) المصدر السابق ق ١٧١ أ.

(٢) نفسه ق ١٧١ ب، التبر المسبوك ص ٢٠٣، الضوء اللامع ج ٧ ص ١٢٠.

الفصل السادس

علاقته بشخصيات عصره

أولاً ـ علاقاته بالشيوخ والأساتيذ:

أخذ «ابن حجر» علومه ومعارفه عن عدد وفير من الشيوخ والعلماء والمحدثين والمسندين، على اختلاف بينهم في العلم المحمول، والطباع والأمزجة، والسن. . . مما جعله يسلك معهم مسلكاً يحقق له مرامه، ويحصل به مأمله، رسخه في نفسه آداب الحديث النبوي الذي تحمله. فكان كثيراً ما يهضم نفسه ـ على جاري عادة أهل العلم والدين[1]. في الوقت الذي يبالغ فيه في تعظيم شيخه في حضوره وغيبته[2]. ويهش في وجه من يستقدمه من المسندين ليأخذ عنه، ويكرمه ويجلسه على بساطه الذي يصلي عليه[3] أو يخرج مسرعاً إلى الباب لتلقيه[4]. وأحياناً كان يقبل يده إذا لقيه[5]. ولا يتحاشى عن التقاط الفائدة أو السماع ممن هو أعلى منه سنداً ولو كان دون مرتبته، لا يصده عن ذلك علو منصبه، بل يتظاهر بفعله مع إمكان خلاف ذلك. .[6].

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٣ أ، التبر المسبوك ص ٢٣٠.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ١١٦، السخاوي. الضوء اللامع ج ٧ ص ١٧٣.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٨ ب.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

(٦) نفسه ق ٣٩ ب.

وربما وجد ثقلاً وتعسراً لدى الشيخ المسموع عليه فما يزال به يحركه بالقراءة كلمة كلمة حتى يظهر من طواعيته له الأمر العجيب، أو يخرج له مشيخة ليتذكر بها مشايخه وعهده القديم فيحبب إليه السماع وينبسط له[1].

ولم يتوقف إجلاله لشيوخه وأساتذته على حياتهم، وإنما امتد ذلك إليهم وقد انتقلوا من دنياه: بالتنبيه على مكانتهم وقيمتهم العلمية في ترجماتهم من مؤلفاته، وقد راعي - قدر المستطاع - شعورهم إلى الحد الذي جعله يتتبع أوهام «الهيثمي» في كتابه «مجمع الزوائد» ليفردها في كتاب، فما أن علم الشيخ بذلك وشق عليه حتى تركه «ابن حجر» مراعاة له[2]. وفي بره للأبناء حتى ولو وقع أذى الأبناء به[3].

من ذلك أنه بلغ برغبة السلطان «الظاهر جقمق» في الإقدام على أمور مهولة في كل من «العلم البلقيني» و«التاج البلقيني» - وبينهما وبين «ابن حجر» ما كان من المنافسة التي وصلت إلى حد العداء في كثير من الأحيان - فطلع من فوره إلى السلطان متوسلاً إليه بكل طريق في إبطال ذلك، مع مشقة إبطال ذلك في أحدهما على السلطان، بل لقد رام السلطان إحراق قريب لهما بالنار، لوشاية فيه، فشفع فيه «ابن حجر» حتى بطل ذلك - كل هذا إجلالاً «للسراج البلقيني» في ذريته وأهله[4].

واتفق أن حلف السلطان ليضربن شخصاً من أبناء العلماء ألف عصا، فراجعه «ابن حجر» في الصفح عنه، وأنه يكفر عن يمينه، فامتنع، فلا زال يتلطف به حتى أمر بجمع عيدان ضربه بها دفعة واحدة بعد أن قرأ قوله تعالى: ﴿وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث﴾ (٤٤: ص)[5].

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٢٣، المجمع المؤسس ق ٢ أ وما بعدها السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٥ ب.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٣٤١٠ السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٧٧ أ.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٧٧ أ.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه ق ٢٧٧ ب.

ويقابل ذلك على الجانب الآخر تعظيم شيوخه وأساتذته له إلى الحد الذي يجعل أحدهم يوده كثيراً ويشهد له في غيبته بالتقدم ويتأدب معه إلى الغاية[1]. أو يشهد له بالتقدم في الفن[2]. ويقدمه فيه على ولده[3]. أو يحس بدخوله وهو ما زال يصلي فيتمادى في الركوع حتى يدرك معه صلاة الظهر[4]. أو يغضب من تتبعه وغيره لفتواه ومخالفتهما له، لكنه يحتشم معه وإن استضعف جانب غيره[5].

كما كانوا كثيراً ما يراجعونه فيما غمض عليهم من مسائل العلم ومبهماته فيوافيهم بما يفيدون منه[6]. ويقرظون كتاباته بعبارات التبجيل والتعظيم[7].

ثانياً ـ علاقاته بالأقران:

أثارت تلك المنزلة التي استحوز عليها «ابن حجر» في مجتمعه، وتوليه الكثير من الولايات الدينية والوظائف العلمية بعض أقرانه من أعلام عصره فاندفعوا منافسين له في كل هذا، راغبين في انتزاع ما يقدرون على انتزاعه من وظائفه.

فكان من أعظم معانديه «علم الدين صالح البلقيني»[8] (ت ٨٦٨ هـ. / ١٤٦٤ م.) الذي وصلت المنافسة بينه وبين «ابن حجر» حداً جعلها تمتد إلى ما بعد موته. فكان من مظاهرها:

١ ـ إسناده إلى «ابن حجر» تنفيذ مكتوب الخشابية ـ في توليه للقضاء»

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ١١٦.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٣١٠.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٢٢٧.
(٤) نفسه ج ٢ ص ٢٤٧.
(٥) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٦٢ أ.
(٦) نفسه ق ٤ ب.
(٧) ابن حجر. إنباء العمر ج ٢ ص ٣٧٤.
(٨) السخاوي. الذيل على رفع الإصر ص ٢٨٦.

وإجابة «ابن حجر» إلى ذلك ظناً منه أن في إسناده إليه ذلك تشريفاً من القاضي له لعلو منزلته فما كان يتوهم «ابن حجر» أن «ابن البلقيني» بذلك يترفع عليه، فما كان إلا اليسير حتى أدرك ذلك وعهد منه ما لم يألفه قبل، مما كان سبباً في إجابته حين عرض عليه منصب القضاء والاستقرار فيه بعد عزل «ابن البلقيني»، حيث ظلا يتنافسان على المنصب ويتعاقبان فيه إلى أن رغب «ابن حجر» عن القضاء وصرح له - في محنته بولده - بأنه لم تعد في بدنه شعرة تقبل اسم القضاء - على نحو ما مر بك آنفاً.

٢ - محاولة «ابن البلقيني» انتزاع الكثير من وظائف «ابن حجر»، ومن ذلك أخذه منه نظر جامع ابن طولون، ونظر الناصرية ليسكت عن طلب العود للقضاء والسعي فيه، وتفويض «ابن حجر» له ذلك وأخذه توقيعاً سلطانياً ثم سعيه بعدها عليه في المنصب، بل ورفضه الشكر لابن حجر عليه إجابة للسلطان مما كان سبباً في عزل «ابن حجر» له - من النظر عليهما - فما بالي بذلك واستمر يتحدث فيهما افتياتاً من غير مبالاة(١). وكذا رغبته في انتزاع النظر على حمام ابن الكويك منه(٢).

٣ - تزيينه لكل من «الشمس القاياتي» و«السفطي» انتزاع بعض الوظائف من «ابن حجر» - على نحو ما مر بك آنفاً.

٤ - حرصه على الزواج من أرملة «ابن حجر» - بعد موته - وخطبته لها مع إرسال المهر إليها، وكاد يحصل له ذلك لولا اجتماع «السخاوي» به رغبة منه في إبطال ذلك إلى أن صرح «العلم البلقيني» له بالرجوع عنه واستعاد ما دفع لها.

٥ - تتبعه فيما كتبه في معجمه بشأن ذويه وانتقاده له بعبارات ساقطة أثارت حفيظة «ابن حجر» وانعكست هي وتصرفاته الآنف ذكرها على كتاباته بشأنه في كل من «إنباء الغمر» و«رفع الإصر»، حيث جاء في إنباء الغمر

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٧٤.

(٢) راجع ص ٧٩ من هذا البحث.

قوله: «. . وفي السادس من ذي الحجة صرف القاضي ولي الدين العراقي عن قضاء الشافعية واستقر عوضه علم الدين صالح بن شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين، وكان أخوه جلال الدين لما مات نظمت:

مات جلال الدين قالوا: ابنه يخلفه أو فالأخ الراجح
فقلت: تاج الدين لا لائق لمنصب الحكم ولا صالح
(من السريع)

فكان كما قلت، فإنه تولى وظهر منه التهور والإقدام على ما لا يليق وتناول المال من أي جهة كانت حلالاً أم حراماً ما لا كان يظن به ولا ألف الناس نظيره من أحد ممن ولي قضاء الشافعية في الدولة التركية»(1).

وكان وصفه له وبعض أقاربه في «الإنباء» بالعقارب(2) ونعته له فيه بالحمق(3).

ويزيد ذلك تفسيراً ما جاء في رفع الإصر من قوله فيه بشأن ذلك:

«. . فما كان إلا أن استقر في المنصب فشمخت نفسه فرأى غيره منه ما لا يرى وسار سيرة عجيبة يجمع بين دناءة النفس والطمع والحمق. . . وقدروقوع الطاعون الفاشي في ثاني ولاياته فتسلط في تحصيل الأموال من التركات وكتب مرسوماً استكتب فيه خطوط جميع شهود المراكز، أن لا يشهد أحد منهم في الوصية حتى يوصي الموصي فيها للحرمين بشيء، فكان الرجل يوصي بما تسمح به نفسه ويموت من يومه غالباً. فيرسل نقيبه فيقبض ما أوصى به. ولم يحصل لأهل الحرمين من ذلك الدرهم الفرد ولا وجدنا في حساب السنة التي باشرها أنه ورد للحرمين شيء، إلا من جهة واحدة من بلد بالريف بمبلغ تافه مبلغه فضة أربعمائة درهم، ولعله حصل من الجهة المذكورة وحدها عشرة أضعافها ذهباً.

---

(1) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(2) نفسه ج ٣ ص ١٦٤.
(3) نفسه ج ٣ ص ٤٧٤.

وأما أوقاف الحرمين والصدقات فتحيل على الانفراد بها كل حيلة. وأما المدارس ومتحصلها فلم يصرف للطلبة إلا اليسير. .»[١].

ومع ذلك يشير «السخاوي» إلى أن «الظاهر جقمق» كان قد أمر بخروج «العلم البلقيني» من القاهرة منعزلاً فتوجه مع نقيب الجيش فأقام بالمدرسة الحجازية بالقرب من بيته تمهيداً لتنفيذ ذلك لولا شفاعة ابن حجر التي ردته إلى بيته[٢].

كما كان من منافسيه كذلك «الشمس القاياتي» (ت ٨٥٠ هـ. / ١٤٤٧ م.) الذي كان قد استقر في منصب القضاء تلو عزل «ابن حجر» منه حادي عشر المحرم سنة تسع وأربعين وثمانمائة - في حادثة سقوط منارة الفخرية وتغيظ السلطان عليه - حيث سعى في انتزاع البيبرسية منه وتم له ذلك في العشرين من جمادي الأولى سنة تسع وأربعين وثمانمائة مما كان سبباً في تحول «ابن حجر» بأولاده منها وتحويل مجلس املائه إلى الكمالية، وعدم حمد العقلاء للقاياتي هذا المسلك منه[٣]. بل لقد نغص على «ابن حجر» عيشه بسبب تعرضه لولده وأمره بالترسيم عليه بسبب عمل حساب جامع ابن طولون وغيره، كما صار كل قليل يشكو «ابن حجر» من غير تحقق[٤]. ومع ذلك فإن «ابن حجر» قد ترجمه بعد موته مادحاً، حيث جاء في «الإنباء» بشأنه:

«. . باشر القضاء بنزاهة وعفة ولم يأذن لأحد من النواب إلا لعدد قليل ويتثبت في الأحكام جداً وفي جميع أموره»[٥].

ومن هؤلاء - كذلك - «السفطي» (٨٥٤ هـ. / ١٤٥١ م.) حيث تعوض

(١) ابن حجر. رفع الإصر ج ٢ ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٧٧ أ، الذيل على رفع الإصر ص ١٦٤.

(٣) السخاوي. الذيل على رفع الإصر ص ٢٨٦.

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧١ ب، الذيل على رفع الإصر ص ٢٨٤ - ٢٧٦، الضوء اللامع ج ٣ ص ٢١٣ تر ٥٥٦.

(٥) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٩ ص ٢٤٧.

لولده بالترسيم قاصداً بذلك إبعاد ابن حجر عن المنصب لينفرد به، واتهمه زوراً فعمل «ابن حجر» في ذلك ـ كما سلف القول ـ جزءاً سماه «ردع المجرم في الذب عن عرض المسلم». بل لقد انتزع من «ابن حجر» علاوة على ذلك تدريس الصالحية والنظر عليها ووليها فدعا عليه «ابن حجر» بإنقضاء الأجل في عامه فتم له ذلك بعد أن أهين «السفطي» وامتحن وسجن في حبس أولي الجرائم(١).

ومن بين هؤلاء ـ كذلك ـ البدر العيني (ت ٨٥٥ هـ./١٤٥١ م.) الذي كانت بينه وبين «ابن حجر» صداقة اقتضت استضافته لابن حجر في بلدته ـ عين تاب ـ في سفرتيهما إلى حلب صحبة السلطان ـ لأكل ضيافته ـ وتلبية «ابن حجر» لذلك، وأخذ كل منهما عن صاحبه سواء في المناظرة أو فيما ترك من المؤلفات ولكن انقلبت هذه العلاقة إلى حد السقوط والإسفاف في بعض مواضع منها:

١ ـ إنتهاز كل منهما لبعض المناسبات في التعريض شعراً بصاحبه(٢).

---

(١) السخاوي. الذيل على رفع الإصر ص ٢٤٩ ـ ٢٥٤، الضوء اللامع تر ٢٥٦ ج ٧ ص ١٢٠، الجواهر والدرر ق ١٧١ أ.

(٢) من ذلك إنشاد «ابن حجر» في مجلس «المؤيد شيخ المحمودي» وقد مالت المئذنة التي بنيت على البرج الشمالي بباب زويلة للجامع المؤيدي وكادت أن تسقط:

لجامع مولانا المؤيد رونق ... منارته بالحسن تزهو وبالزين
تقول وقد مالت عن القصد: أمهلوا ... فليس على جسمي أضر من العين

(من الطويل)

فأراد بعض الجلساء العبث «بالبدر العيني» فذكروا له أن «ابن حجر» عرض به فغضب واستعان بمن نظم له ما نسب لنفسه من نقضهما بقوله:

منارة كعروس الحسن إذ جليت ... وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا: أصيب بعين. قلت: ذا غلط ... ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

ويعلق «ابن حجر» ـ إنباء الغمر ج ٣ ص ١٤٥، على ذلك قائلاً: «... قلت: هما للشيخ العلامة كمال الدين النواجي، عفا الله عنهم أجمعين.

٢ ـ تتبع «العيني» ابن حجر في مؤلفه «عمدة القاري» الذي شرح به «صحيح البخاري» آخذاً عليه ما يرى من المآخذ في «فتح الباري» مما جعل «ابن حجر» يتعرض له منتصفاً لنفسه في كتابين هما:

* الاستنصار على الطاعن المعثار، وقد بين فيه ما نسبه «العيني» إليه مما زعم إنتقاده في خصوص خطبة كتابه، ووافقه علماء ذلك العصر على ما أورد فيه مشيرين إلى فساد انتقاد «العيني» مصوبين صنيع «ابن حجر».

* «إنتقاض الإعتراض» الذي رد به على انتقادات «العيني» له في شرحه للبخاري.

٣ ـ بل لقد تتبع «ابن حجر» ما نظمه العيني في «السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي»[١] محصياً ما وقع فيه من الأخطاء في مؤلف أسماه: «قذي العين في نظم غراب البين»[٢].

كما كان من بين المنافسين «لابن حجر» في وظائفه أو مركزه العلمي كل من «الشمس الهروي» (ت ٨٢٩ هـ. / ١٤٢٦ م.) وقد جرت بينهما مناظرات بحضرة السلطان بان فيها خطأ «الهروي» وارتفعت بسببها منزلة «ابن حجر» في عين السلطان[٣]. و«الشمس الهرماوي» وقد أنهى إل السلطان أن شرط المؤيد أن لا يكون في المؤيدية مدرساً قاضياً وأعانه على ذلك قوم آخرون، فانتزع من «ابن حجر» تدريس الشافعية بها إلى أن سعى في إظهار كتاب الوقف وقد سكت

---

(١) السخاوي. الذيل على رفع الإصر ص ٤٣٦ وما بعدها، الضوء اللامع تر ٥٤٥ ج ١٠ ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) حاجي خليفة. كشف الظنون ج ٢ ص ٩٩٠ وفيه قوله: «... وقد جرد الشيخ شهاب الدين ابن حجر منها ـ أي من سيرة الملك المؤيد ـ الأبيات الركيكة بلا وزن فبلغت نحو أربعمائة بيت في كتاب وسماه قذي العين من نظم غراب البين ـ وكان بينهما منافسة».

(٣) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٥٨ وما بعدها، وهو غير «شمس الدين محمد الهروي الذي أشار «ابن حجر» في حوادث حولية سبع وثلاثين وثمانمائة إلى أنه أراد أن ينتقص من قدره بإغراء بعض الناس، فأبى الله ذلك وحاق المكر السيء بأهله ـ نفسه ج ٣ ص ٥١٥.

عن الشرط المذكور فاعيدت إليه[1]. و«الونائي» وقد سعي في انتزاع تدريس الصلاحية من «ابن حجر» في عوده من الشام منصرفاً عن قضائها وتنازل «ابن حجر» له عنها برغبته[2]، وسعي «البهاء ابن حجي» على «ابن حجر» جهراً في توليه لمنصب القضاء وإن لم يصب مرماه[3]. . . مما مر بك آنفاً في موضعه من هذا البحث.

ثالثاً ـ علاقاته بطلبته وتلامذته:

كثيراً ما كان «ابن حجر» يرشد طلبته إلى المحدثين والمسندين ويحضهم على القراءة عليهم، والتحمل عنهم، وربما شكوا إليه جفوة بعضهم وعدم طواعيته لهم في القراءة، فيكتب له يرغبه في التحديث، ويحضه عليه مؤكداً في الاهتمام بشأن تلامذته[4]. مع حرصه على عدم ذكر تلميذه وإن صغر إلا بصاحبنا فلان[5]. وغالباً ما كان يعين الطالب بالكتابة بيده لما يرومه من أجوبة لبعض المسائل أو سرد للأسانيد. .[6] فإذا ما قصده أحدهم وقد فرغ من درسه وهم بدخول بيته وقف له لا يفارقه حتى يكون هو المفارق وإن امتد وقوفهما إلى أبعد من ساعة[7]. كما كان كثير العارية لهم بكتبه ـ التي غالباً ما كان يفتدي بها كتب الأوقاف ـ حتى لقد ضاع منها بسبب ذلك ما يزيد على مائة وخمسين سفراً التمسها في السوق فلم يحصل معظمها[8]. بل ربما طلب منه أحدهم نسخة من بعض الأجزاء الحديثية مفردة التماساً للخفة، حيث توجهه إلى مكان بعيد فما يتيسر له إذ ذاك طلبه فيعمد إلى قطع نسخة من مجموع بخطه ليرسلها إليه[9].

(١) انظر ص ٦١ ـ ٦٢ حاشية رقم ٧ من هذا البحث.

(٢) انظر ص ٦٢ من هذا البحث.

(٣) السخاوي. الذيل على رفع الإصر ص ٨١.

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٧٩ أ.

(٥) نفسه ق ٢٨٠ ب.

(٦) نفسه ق ٢٧٨ ب.

(٧) نفسه ق ٢٨٠ أ.

(٨) نفسه ق ٢٧٩ أ.

(٩) نفسه ق ٢٧٨ ب.

وغالباً ما كان يقصده طلبته وقد استعاروا من غيره كتاباً فقد - رجاء تفريج كربهم لدى المعير بما استكتبهم إياه فيقوم لهم بذلك[1]. وكثيراً ما كان يتفقد الطلبة - لا سيما الغرباء والوافدين عليه - منفقاً فيهم، معيناً لهم بكتبه وهداياه وما شاكل ذلك، ويكتب لطلبته في الإجازات وغيرها ما يكون مشجعاً لهم على الانكباب على العلم وقد شحذت هممهم[2] ويقوم - كذلك - بعيادتهم في مرضهم[3] - ويصبر عليهم في حال مرضه. فلقد مكث في مرض موته مدة وهو لا يعلم به بعض من يقرأ عليه ليلاً مراعاة لخاطره مع تحمله لكبير مشقة في ذلك، إلى أن أعيا فأعلمه بلطف[4].

(١) من ذلك أن أحد تلامذته «العز الحسني» قد استكتبه «التاج البلقيني» في كتاب استعاره من والده، وقد ضاع من تحت يد الناسخ فخشي من القاضي، وذكر ذلك «لابن حجر» فقام معه في الفحص عنه عند الكتبيين ونحوهم رجاء الظفر به ليزول ما عند تلميذه من الكرب بسبب فقده، لكن مع كبير الجهد المبذول لم يدركه، فحينئذ حصل نسخة منه وعاونه بورق أو ثمنه حتى جدد منه نسخة.

وقريب الشبه من ذلك ضياع مجلد من «تاريخ الإسلام للذهبي» من نسخة «الزيني عبد الباسط» وهي بخط «البدر البشتكي» فلما بلغه علم ذلك ممن ضاع المجلد منه بادر وأخذ المحل من نسخة الأصل بالمحمودية وتوجه به مع الورق وأجرة النسخ إلى «البشتكي» فشرع في تكملته واتفق قبل انقضاء الكتابة أن وجد المجلد فامتنع من إعلام البدر بذلك حتى لا يتعطل عليه ما كتب - السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٧٦ أ.

(٢) من ذلك ما كتبه لمحمد بن بدل بن محمد، البدر الأردبيلي التبريزي، وقد عرض جملة من الكتب عليه، وقرأ عليه قطعة جيدة من أول البخاري قائلاً: «... الشيخ الفاضل، الحفظة الكامل، العالم الباهر الماهر، مفخرة أهل مصره، وغرة نجوم عصره»، وقوله: «... أعانه الله على الانتفاع بما حفظه، وأوزعه شكر نعمته لما أودعه واستحفظه» - السخاوي الضوء اللامع ج ٧ ص ١٤٩ تر ٣٧٢.

ووصفه كتابة للبهاء العلقمي في عرضه «بالحُفَظَة المهرة، أعجوبة العصر ذكاء، نادرة الدهر نجابة ورواء، أسعد الله جده، وأقر به عين أبيه، ورحم جده» - السخاوي. نفسه ج ٧ ص ٢١٨.

ووصفه لابن الزين المشهدي (ت ٨٨٩ هـ. / ١٤٨٤ م.) «بالفاضل العلامة البارع المحدث المفنن فخر المدرسين عمدة المتفننين» - نفسه ج ٧ ص ١٨٠.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٧٦ ب - ٣٧٧ أ.

(٤) نفسه ق ٢٧٨ أ.

الفصل السابع

مقومات شخصيته

صفاته الخَلْقِية والخُلقية:

كان «ابن حجر» ـ رحمه الله ـ ربعة، أبيض اللون، منور الصورة، مليح الشكل، صبيح الوجه، كث اللحية أبيضها، حسن الشيبة نيرها، صحيح السمع والبصر، ثابت الأسنان نقيها، صغير الفم، قوي البنية، عالي الهمة، خفيف المشية[1] ذا رشاقة زائدة[2] شجي الصوت، جيد الذكاء، عظيم الحذق، كثير الصمت لضرورة، شديد الحياء ـ يتعبه الحلاق قليل الدربة من أجل إدارة رأسه فلا يضيق به.. لكن يحكي لصحبه أنه لو دار لكان أسهل، ويتنور بيده، ويقص شاربه وأظافره بنفسه، ويتولى غالباً حمل الإبريق للوضوء ونحوه، وصب الماء على جسده مع وجود من يكفيه المؤنة في ذلك، قليل الدخول إلى الحمام ـ لا يواجه أحداً بمكروه مع الصدع بالحق، وقوة النفس فيه، مفشياً للسلام، لا يتأنق في مأكله ومشربه، ولا في آنيته، يأكل العلقة من الطعام، واليسير من

---

(١) أشار «السخاوي» إلى أن «ابن حجر» كان خفيف المشية ولو عند إقباله على الملوك ونحوهم، وقيامهم له بمجرد بصرهم عليه، فإنه لا يزيد على المعتاد... وربما نقم الأعداء عليه ذلك ـ المصدر السابق.

(٢) أشار «السخاوي» إلى أنه ما كان أرشق من «ابن حجر» في الجلوس على الحجر وهو يتوضأ، وإلى أنه قبيل وفاته صعد لعيادة أحدهم فصار يقصد درجتين درجتين مشيراً إلى أن ذلك أروح له ـ نفسه.

الغذاء، لكنه يتقوى بالسكر، ويميل إلى القصب ميلاً قوياً، قصير الشارب، حسن العمة، ظريف العذبة، لا يتأنق في الرفيع من الثياب، مع بصر جيد في تفضيل ملبسه، خبيراً بأمور دينه ودنياه، ذا عقل وحلم ودربة بالأحكام والمداراة للناس، قليل الرغبة في العمارة، بل وفي شراء العقار يحتال في الأماكن التي يأخذ فيها المسكن على الذهب بجعله في إناء قبل وضع شيء فيه، ثم يختم عليه بما يكون حائلاً بينه وبين ما يوضع فيه، ثم يملأ بما يكون مناسباً للظرف من سمن ونحوه... فلا يفطن إليه[1]. منبسطاً في التنزه مع صحبه ورفقته وربما لاعبهم[2].

تواضعه مع معرفته لقدر نفسه:

أثارت مقدرة «ابن حجر» العلمية، وتحصيله للعلم على هذه الصورة المبسوطة في البحث بعض تلامذته ـ الأمير تغري برمش الفقيه (ت ٨٥٢ هـ. /١٤٤٩ م.) ـ فسأله مرة: «هل رأيت مثل نفسك؟»، فقال له: «قال الله تعالى: **﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾**» (النجم: ٣٢)[3].

كما سأله بعض أصحابه: «أنت أحفظ أم الذهبي؟» فسكت، فما كان ذلك إلا تواضعاً منه، لأنه ـ رحمه الله ـ حكي أنه شرب ماء زمزم لما حج لينال مرتبة الحافظ الذهبي، قال: ثم حججت بعد مدة فوجدت من نفسي طلب المزيد على تلك المنزلة، فسألته رتبة أعلى منها. وقد تحقق رجاؤه، وشهد له بذلك غير واحد[4].

ولما تحول من الكاملية إلى البيبرسية لقيه أحد نزلائها قائلاً: «يا سيدي

---

(١) ابن تغري بردى. المنهل الصافي ج ١ ق ١٦٢ أ، النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٥٣٣، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٨٠ أ ـ ٢٨١ ب، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٧٣.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٨٢ أ.

(٣) نفسه ق ٣٣ ب، التبر المسبوك ص ٢٣٠، الذيل على رفع الإصر ص ٨٦.

(٤) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٣ ب، السيوطي. طبقات الحفاظ ص ٣٨٠.

وحشت الكاملية»، فأجابه: «الكاملية مشتقة من الكمال» ـ يعني ولست كاملاً[1].

ولكنه مع تواضعه، كثيراً ما كان ينوه بمكانته العلمية، ولا يصبر على من يحاول انتقاضها أو تصغير جانبه، من ذلك ما كان بينه وبين «الشمس الهروي»، وما شعر به بعد إسناد «العلم البلقيني» إليه تنفيذ مكتوب الخشابية، ويوم عزله السلطان عن مشيخة البيبرسية، وعندما أراد بعض الرفاق تعمية يوم الختم ـ ختم صحيح البخاري ـ عليه كي لا ينفرد بالمجلس دونه ـ على نحو ما هو بين في العلاقة بالأقران من هذا البحث.

ضبطه للسانه وكظمه لغيظه:

كما كان كاظماً للغيظ، لا يظهر عليه الغضب إلا نادراً، جلداً على ريب الزمان، متلقياً له بصدره[2].

ومن أمثلة ذلك أن بعض خصومه عقب على مؤلفه «المجمع المؤسس بالمعجم المفهرس» في تصنيف جمعه، وبالغ في ذكره بألفاظ لا يقابله عليها إلا الذي أنطقه بها فاطلع «ابن حجر» على ذلك، فكتب عليه ما نصه: «لا شكوى إلا إلى الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله، واشتمل هذا التصنيف على نسبة مصنف الأصل إلى أشياء نسبه المعترض عليها إليها، لا تجتمع في آدمي ـ فيما يغلب على الظن ـ فلله الأمر، وسردها وهو نحو خمسين صفحة خارجة عن السب والدعاء عليه، وكذا سب ولده والدعاء عليه، فلم يتعرض «ابن حجر» له بلفظة فاحشة ولا بكلمة سوء ولا تشاغل بردها، بل وكل الأمر إلى من يجازي المسيء، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً[3].

وكان بعض الشعراء قد عاون في المصنف ـ المشار إليه ـ على الرغم من

---

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٨٠ ب.

(٢) البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٥٥.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٨٦ ب.

وصل «ابن حجر» له، وبالغ في هجوه، فلما احتمل أتباع «ابن حجر» وولده وأمروا باحضاره، فاحضر، وبلغه ذلك فتغيظ عليهم وأمرهم بصرفه مكرماً بعد أن أنعم عليه بشيء من الدنيا، وضبط ما يحصل له منه فكان ألف درهم كل شهر[1].

وذهب يوماً إلى مدرسته لالقاء درسه ـ على جاري عادته ـ فوقف من وراء الشباك معتوه يسمى «العرباني» و«ابن حجر» في المنكوتمرية في تلامذته، فأخذ المعتوه في السب الفاحش والألفاظ القبيحة، فقال: نقوم إلى أن يفرغ أو يروح. ونهض فدخل من باب الخلوة ورد بابها يسيراً، فترك المعتوه الشباك وانصرف، فظن «ابن حجر» توجهه بالكلية ففتح باب الخلوة ووقف، وإذا بالمعتوه قد أقبل من باب المدرسة، وزاد على ما كان عليه. فقال: ما بقي إلا الانصراف، وأغلق الباب وترك المخبول فيما هو فيه ساعة، ولم يمكن ـ مع كل هذا ـ أحداً من التعرض له، بل سمع به تلك الليلة وقد أمسكه بعضهم بأعوان الوالي ـ لا لهذا السبب ـ فأرسل إليه وأطلقه[2].

واجتاز ـ يوماً ـ في طائفة من جماعته بباب جامع الغمري، فبدت من شخص وقف ببابه ـ يوصف بالجذب ـ كلمات فيها: «عمائم كالأبراج، وأكمام كالأخراج والعلم عند الله»، فرام بعض جماعته منه تعذيره بالحبس ونحوه فامتنع قائلاً: هذا مجذوب يسلم له حاله.

هذا مع من أصابه الجذب أو غيره الخبل، وأضعافه مع الحاسدين وغيرهم من المنافسين على المنصب، الذين نازعوه مكانته العلمية وهم دونه، أو في وظائفه وقد شق على أنفسهم أن لا يكونوا هم المستأثرين بمعاليمها، مما فصل في موضعه من هذا البحث.

تحريه في مأكله ومشربه:

حرص «ابن حجر» قدر مستطاعه على أن لا يأكل حراماً، أو ما فيه شبهة

(١) المصدر السابق ق ٢٦٩ ب.

(٢) نفسه ق ٢٧٠.

الحرام ولذا فإنه كان يتحرى في وظائفه ما كان أقرب إلى الحلال ليأكل من معاليمها، بل لقد كان يميز المعاليم بعضها من بعض بالإشارة بنقطة أو نقطتين. ونحو ذلك[1]. ولا يتناول شيئاً مما يهدي لبيته[2]. فإذا ما اضطر إلى الحضور في الولائم والمهمات ونحوها ـ مما الغالب على أربابها عدم التوقي ـ يوهم أنه يأكل، وربما أعطى هذا وهذا ممن يكون جالساً على السماط من الأتباع ونحوهم مما بين يديه بحيث يسر صاحب المهم ـ غالباً ـ أما هو فلا يدخل في جوفه من ذلك شيئاً البتة[3].

وتشير المصادر إلى أن السلطان كان قد رتب له في السفرة الشمالية وأثناء المقام بحلب راتباً من اللحم يؤتى إليه به كل يوم، فكان لا يأكله، ولكن يشتري له غيره إلى أن فني ماله ـ هناك ـ فعمل حينئذ البقسماط يأكله بسكر ونحوه، ومن معه يأكلون اللحم المرتب لهم على السفرة التي يأكل السلطان عليها[4].

كما كان يتعفف عن تعاطي معلوم الخطابة بالقلعة أيام قضائه بسبب ضعف الوقف[5].

وكان يعطي خادمه ما يشتري به له شيئاً من المأكل ويوصيه أن لا يكلف البائع لأكثر مما يعطيه باختياره[6]. ويسأله مع ذلك عن مصدر أكلته، فإذا ما نسي السؤال واستطاب الأكل منه ـ ظناً منه أنه مما جرت العادة بأكله يلقي الله في خاطره السؤال عنه قبل تمام أكله، فإذا ما ذكرت له جهته التي لا يحب الأكل منها استدعي بطست وقال: أفعل كما فعل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ثم يتقيأ ما في بطنه[7].

---

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٦٧ ب.

(٢) البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٥٥، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٦٦ ب.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٦٦ ب، ٢٦٧ ب.

(٤) البقاعي. عنوان الزمان ج ١ ق ٥٥، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٦٧ ضاً.

(٥) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٦٧ أ.

(٦) نفسه ق ٢٦٧ ب.

(٧) نفسه ق ٢٦٦ أ.

بره وتصدقه:

أما بره وتصدقه على خلق الله - على اختلاف طبقاتهم - فقد وردت فيه روايات وقصص متعددة، مفادها أنه كان كثير البر مواظباً على الصدقة.

من ذلك أنه كان يعطي بعض جماعته مالاً جزيلاً ليفرقه على طلبته ونحوهم ويدفع هو لجماعة آخرين، كما كان يجتمع عنده الفقراء في يوم من السنة معلوم فيتولى - غالباً - بنفسه التفرقة عليهم، أو بحضوره، ويتفقد أناساً من المعتبرين في العلم وغيرهم بالإرسال إلى محالهم، ويتفقد - كذلك - في كل قليل المحابيس ويصالح عنهم من ماله، ويحسن للفقراء من الجيران، ويشتري في رمضان عسلاً وسكراً تفرق على الناس توسعة في نفقة الشهر، وفي العيد الزبيب وغيره، وفي عيد الأضحى يرسل بالضحايا إلى الفقراء والمحتاجين، أو يفرق فيهم ما يساوي مائة دينار ويبالغ في إخفاء كل هذا نشداناً لحصول صدقة السر[١].

وربما ضيع بعضُ ماله، أو سرقه من جانبه لاعواز لديه[٢] فلا يعذر هذا ولا يكشف ستر ذاك مع تحققه لفعلها ومعاينته له.

إكثاره من العبادة وعدم تخلية وقته منها:

وطبيعي أن يكون «ابن حجر» وقد حاز لقب شيخ الإسلام، والحافظ والمحدث حتى صار علماً عليه - ملازماً للعبادة، ومثلاً يقتدي به، فلقد كان قواماً بالليل متهجداً حتى في حال سفره وترحاله، واشتداد المرض به إلى أن عجز عن ذلك تماماً[٣] لا يترك جمعة ولا جماعة إلا قهراً عنه[٤] كثير الصوم[٥] حريصاً على عدم تخلية وقته من العبادة[٦]. .

---

(١) المصدر السابق ق ٢٧٤ ب - ٢٧٥ ب.

(٢) نفسه ق ٢٧٨ أ.

(٣) نفسه ق ٢٨٦ أ، ٣٢٠ ب.

(٤) نفسه ق ٣٢٠ أ.

(٥) ابن تغري بردى. النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٥٣٣.

(٦) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٥ أ - وفيه أمثلة لذلك.

ولعل هذا هو الدافع لدى «ابن تغري بردى» إلى القول فيه: «... وبالجملة فإنه أحد من أدركنا من الأفراد»[1].

الموضوعية والإنصاف في البحث:

على الرغم من أن ثقافة «ابن حجر» وعلومه كانت سلفية، وغالب قضايا وتصرفات مجتمعه كانت كذلك، فإنه قد انسلخ بفكره من بيئته وصار سباقاً لعصره في التحرر، والتحرز عن التعصب الذي كثيراً ما أهلك العلماء، وأوقع بهم في زلات كثيرة عرفت بالكائنات التي عقدت لها المجالس، واحتوت أخبارها مصنفات التاريخ في عصرها، وحوكم فيها الكثيرون منهم فأهينوا وعذبوا، أو لقوا حتفهم. . لكنه كان على خلاف ذلك - حال تلبسه بالقضاء وغيره من المناصب المشاركة في الحكم على هؤلاء وغيرهم - يتحرز عن التعصب والانقياد للإجماع الخاطىء، ميالاً إلى الحق بل والمعاداة فيه - على نحو ما أثبت في تلبسه بالقضاء من هذا الباب.

ويضاف إلى ذلك أنه كان منصفاً في البحث ولو على نفسه، لا يستنكف من سماع الفائدة ولو من صغار الناس أو آحاد الطلبة، بل يستحسنها ويأمر الحاضرين بسماعها[2].

---

(١) ابن تغري بردى. النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٥٣٣.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٢٨٦ أ.

الفصل الثامن

مرضه ووفاته

ابتدأ المرض بـابن حجر ـ رحمه الله ـ في ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة للهجرة[1] بعد أن فرغ من مجلس الإملاء ـ يوم الثلاثاء الموافق الحادي عشر من الشهر ـ ورجع إلى منزل أم أولاده ـ وكان قبل قد تعشى عند إحدى زوجاته. ـ فقدمت له العشاء فما امتنع من الأكل مراعاة لخاطر أهله، فثقل ذلك عليه وتغير مزاجه وأصبح ضعيف الحركة، وإن استمر مكتوماً ولا يعلم به أحد. . . يطلع إلى المدرسة للصلوات والإقراء، بل لقد حضر في اليوم المناظر آخر مجالس إملائه على الرغم من توعكه. فلما اشتد به الوعك، وتضرر بالكتمان كثيراً أفصح عن مرضه، وخشي الأطباء أن يناولوه مسهلاً لأجل سنه، فأشير بلبن الحليب فتناوله فلانت الطبيعة قليلاً، وأدى ذلك إلى نشاط يسير ونوع خفة، سر «ابن حجر» بهما. . لكن عاوده الكتمان، وتزايد به الألم وصار «يحس شيئاً ثقيلاً على معدته» فتخلف عن صلاة عيد الأضحى، وهو الذي لم يترك جمعة ولا جماعة، وإن تمكن في اليوم الثالث بعده من صلاة الجمعة برواق البسملة من جامع الحاكم، والتوجه إلى إحدى زوجاته حيث استعطف خاطرها في انقطاعه عنها وحاللها واسترضاها، وكأنه كان قد شعر بدنو أجله. .[2]

(١) ابن فهد المكي. الحظ الألحاظ ص ٣٣٧، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣١٩ أ.

(٢) نفسه ص ٣٣٩، ق ٣١٩ أ ـ على التوالي ـ. . حيث أشار «السخاوي» (الجواهر والدرر ق ٣٢٠ أ) إلى أن «ابن حجر» ـ رحمه الله ـ كان «إذا خبر بالمنامات وشبهها مما يدل على صحته. . يقول: أما أنا فلا أراني إلا في تناقص، وما أظن الأجل إلا قد قرب، ثم ينشد: =

وبعدها تزايد به المرض، وتردد إليه الأطباء، وصار مشغولاً بمطالعة «القانون» وغيره من كتب الفن، ومناظرة الأطباء. .[1] لكن ما أفاد، لقد عظم الكرب، واشتد الخطب[2] وعجز «ابن حجر» حتى عن التوضوء، وصار يصلي الفرض جالساً، وترك قيام الليل وانتابه الصرع[3]. فهرع الناس كبارهم وصغارهم من: أمراء، وقضاة، ومباشرين، وعلماء، وطلبة، وصلحاء. . إليه أفواجاً لعيادته والسلام عليه[4] وما أن كانت ليلة السبت من أواخر ذي الحجة بعد العشاء بنحو ساعة[5] وقد جلس من حوله سبطه وبعض أصحابه يقرأون «يس»

= ثاء الثلاثين مني أوهنت بدني فكيف حالي بعد ثاء الثمانينا

ويقول: اللهم حرمتني عافيتك، فلا تحرمني عفوك».

كما يشير «ابن فهد المكي». (لحظ الألحاظ ص ٣٣٩) إلى أن «ابن حجر» في أواخر مرضه بأيام يسيرة عاده قاضي القضاة «سعد الدين ابن الديري الحنفي» فسأله عن حاله، فأنشده أربعة أبيات من قصيدة للإمام أبي القاسم الزمخشري، وهي:

قرب الرحيل إلى ديار الآخرة فاجعل الهي خير عمري آخره

وارحم مبيتي في القبور ووحدتي وارحم عظامي حين تبقى ناخرة

فأنا المسكين الذي أيامه ولت بأوزار غدت متواترة

فلئن رحمت فأنت أكرم راحم فبحار جودك يا إلهي زاخرة

(من الكامل).

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٠ أ.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ق ٣٢٠ ب.

(٤) نفسه ق ٣٢١ أ - حيث عد «السخاوي» ممن حضر إليه: الأمير دولات باي والقاضي ولي الدين السفطي، والشريف يحيى بن العطار، والقاضي كمال الدين البارزي، والقاضي بدر الدين العيني، والشيخ مدين، والبدر ابن التنسي.

(٥) اختلفت المصادر في تحديد يوم الوفاة، فبينما يشير «ابن طولون» - القلائد الجوهرية ج ٢ ص ٤٥٦ - و «السيوطي» - نظم العقيان ص ٥١ - إلى أن وفاته كانت في الثامن عشر من ذي الحجة، نرى أن «ابن إياس» - بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ - يجعلها في التاسع عشر من ذي الحجة، على حين أن «ابن فهد المكي» - لحظ الألحاظ ص ٣٣٧ - و «ابن تغري بردى» - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٧٤، والمنهل الصافي ج ٢ ص ٦٢ أ - و «السخاوي» - الجواهر والدرر ق ٣٢١ ب، =

مرة، ويعيدون أخرى إلى قوله تعالى: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ - حتى فارقت الروح الجسد إلى بارئها فتولى أحدهم تغميضه، وشغل ولده - في اليوم التالي لموته - بتجهيزه وغسله.

وكانت تلك ساعة عظيمة، وأمراً مهولاً.. لقد وقع النوح في سائر النواحي - حتى من أهل الذمة - وقفلت الأسواق، وغلقت الحوانيت[1] وشوهدت له جنازة - لم تكن بعد جنازة «ابن تيمية» إلى وقته أخفل منها[2]..، وحرز من مشي فيها بنحو خمسين ألفاً أو يزيدون، وقد تولى من بينهم الأمراء مقدمو الألوف - حمل نعشه، وجهد الشخص الشديد الذي يتمكن من الوصول إلى نعشه أن يمس النعش برأس أصبعه[3].

مشت تلك الجنازة المهيبة في خفر وسكون وجلال شاقة طريقها نحو مصلي المؤمني[4]. وهناك افترق الناس سماطين ليجتاز النعش من بينهما إلى حيث تلقى

= والتبر المسبوك ص ٢٣٣ - و«ابن العماد الحنبلي» - شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٧٣ - يجعلون وفاته في الثامن والعشرين من ذي الحجة.

وهي نقول لا يرتاح إلى إثبات أحدها لوقوع هذا الاختلاف والتضارب فيها، فضلاً عن أن بعض من أرخ ليوم الوفاة قد أسقط اليوم من ترجمته لابن حجر في موضع آخر من مؤلفاته مكتفياً بقوله: «توفي في ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة» - ابن تغري بردى. الدليل الشافي ق ١٢ أ السخاوي. الضوء اللامع ج ٢ ص ٤٠، السيوطي. حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٦٤، ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٨١ - وتابعهم على ذلك «الشوكاني» - البدر الطالع ج ١ ص ٩٢.

كما أن بعضهم قد ناقض نفسه في موضع آخر (ابن تغري بردى. حوادث الدهور (مختارات بوبر) ج ١ ص ٤٠) حيث جعله يوم الثامن عشر من ذي الحجة.

(١) ابن تغري بردى. المنهل الصافي ج ١ ص ٦٢، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢١ ب.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٢ أ.

(٣) ابن تغري بردى. النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٥٣٣، المنهل الصافي ج ١ ق ٦٢، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٢ أ، السيوطي. حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٦٣، طبقات الحفاظ ص ٣٨٢.

(٤) تقع مصلي المؤمني تحت القلعة بالرمل، وهي منسوبة إلى منشئها الأمير سيف الدين بكتمر بن =

السلطان لـه، وقد أشـار إلى أمير المؤمنين ـ الخليفة العبـاسي ـ بـالتقـدم للصـلاة عليه[1]. وبعدها توجهوا به إلى المحل الذي عين لدفنه[2] فدفن هناك[3]. وأقام الـطلبة والقـراء والوعـاظ على قبـره أسبوعـاً لعمل الختمـات وانشاد المـراثي على كثرتها[4] وقد أعطى بتربته من المآكل وشبهها شيء كثير[5].

أما خارج وطنـه، فكانت صـلاة الغائب عليـه «بمكة»، و «بيت المقـدس» و «الخليل»، و «حلب» و «دمشق». . وغيرها[6].

ولمحبة الناس إياه ظنوا أن الخضر ـ عليه السلام ـ قد شهد جنازتـه[7] كما نسبوا إليه جملة من المنامات التي رويت له في حياته وبعد موته[8] وترنموا بصـوت

= عبدالله المؤمني ـ علي باشا مبارك. الخطط التوفيقية. ج ٥ ص ١٢٣.

(١) ابن فهـد المكي. لحظ الألحـاظ ص ٣٣٧، ابن تغـري بـردي. المنهـل الصـافي ج ١ ق ٦٢ أ، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٢ أ، التبر السبوك ص ٢٣٣، الذيل عـلى رفع الإصر ص ٨٨، الضوء اللامع ج ٢ ص ٤٠، ابن طولون. القلائد الجوهرية ج ٢ ص ٤٥٦.

(٢) وهو «تبربة بني الخروبي المقابلة لجامع الديلمي والسروتين بين تربة الإمام الشـافعي والشيخ مسلم السلمي ـ ابن فهد المكي. لحظ الألحاظ ص ٣٣٨، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٢ أ، التبـر المسبوك ص ٢٢٣، الذيل على رفع الإصر ص ٨٨ ـ ٨٩، ويلاحظ أن قبـره يتبع ـ حـالياً ـ قـارفة سيد عسل. ـ شاكر محمود. ابن حجر العسقلاني ودراسة مصنفاته. . ج ١ ص ١٩٤.

(٣) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٢ أ.

(٤) ذكر «السخاوي» في الجواهر والدرر فيضاً من مراثي الشعراء فيه منسوبة إلى كل من «الشيخ محيي الـدين الكـافيـاجي»، و «بـرهــان الـدين البقــاعي» و «ابن أبي السعـود المنـوفي»، و «الشهـاب الحجازي»، و «الشهاب المنصوري»، و «أبي هريرة بن النقاش الأصم» و «ابن الأوجـاقي» و «ابن عـامـر الأشليمي»، و «الـزين ابن عبد المـطلب»، و «الشمس البهـرسي»، و «القيم القـالاتي»، و «المحب ابن القطان»، و «سبط ابن حجر». .

(٥) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٢ ب.

(٦) نفسه.

(٧) نفسه ق ٣٢٢ أ، التبر المسبوك ص ٢٣٣.

(٨) البقاعي. عنوان الزمان ص ٥٩ ـ ٦١، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٣ أ ـ ٣٢٤ ب.

مفعم بالحزن والأسى بمرثية بعضهم فيه[1] وقد سحت أجفانهم دمعاً[2].

---

(١) هو «أبو الطيب أحمد بن محمد بن علي الأنصاري الخزرجي، المعروف بالشيخ شهاب الدين الحجازي» (ت ٨٧٥ هـ. / ١٤٧١ م.)، ومرثيته في «ابن حجر» مطلعها:

كل البرية للمنية صائرة وقفولها شيئاً فشيئاً سائرة
والنفس إن رضيت بذا ربحت وإن لم ترض كانت عند ذلك خاسرة

(من الكامل)

وقد ذاعت بخصوصية الوعاظ والعامة لها، بحيث لم يشتهر غيرها. ابن فهد المكي. لحظ الألحاظ ص ٣٣٩، السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٢ ب، الضوء اللامع ج ٢ ص ١٤٧، السيوطي. حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧٣ - ٥٧٤.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ٣٢٢ ب.

الباب الثاني

منهج «ابن حجر العسقلاني» في كتابه «الإنباء»

الفصل الأول : الخطة العامة للكتاب
الفصل الثاني : طبيعة الكتاب وأسس انتقاء مادته
الفصل الثالث : العلاقة بين الترجمات والحوادث في الكتاب
الفصل الرابع : مصادر مادة الكتاب
الفصل الخامس : النقد التأريخي في الكتاب
الفصل السادس: العلاقة بين «الإنباء» والمؤلفات التأريخية الأخرى لابن حجر العسقلاني

الفصل الأول

الخطة العامة للكتاب

وصف الكتاب

يعد «إنباء الغمر» من أهم ما خلف «ابن حجر» من مؤلفات تاريخية لكونه الكتاب الوحيد الذي اشتمل على الحوادث والتراجم، وكان «ابن حجر» معاصراً لحيزه الزماني، مشاركاً للكثير من حوادثه، مدركاً لمعظمه، مما جعله ينفرد بذلك عن مؤلفين له معاصرين هما «ذيل الدرر»، و «المجمع المؤسس»، حيث اقتصرا على التراجم، إهمالاً لذكر الحوادث فيهما تفصيلاً ـ وإن وردت عرضاً في التراجم باعتبارها مشكلة لبعض عناصره، مكونة لمادتها.

ويبدو أن «ابن حجر» لم يشرع في تدوين حولياته حال وقوع حوادثها أو حدوث وفياتها، وإنما كان ذلك يحدث ـ غالباً ـ بعد انقضاء أمد طويل على وقوعها[1] كما أنه كان دائب الرجوع إلى حولياته، معدلاً ـ سواء بالإضافة أو

(١) يتأيد ذلك بقوله في ترجمة «ابن خطيب القلعة الحموي» (ت ٧٧٤ هـ. / ١٣٧٣ م.): «. . . وآخر من بقي ممن أخذ عنه: موقع الحكم بحماه، شرف الدين بن المغيزل، لقيته في سنة ست وثلاثين وثمانمائة بها ـ ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٥٥ تر ٤٧، وقوله في ترجمة «ابن الصائغ الحنفي» (ت ٧٧٦ هـ. / ١٣٧٥ م.): «. . . وأدركت أنا في الجامع نحو هذا العدد لكنهم لا يحضرون أصلاً، بل يأخذون المعلوم من وقف الجامع، ثم قطعوا في أواخر دولة الأشرف، ثم أعيد بعضهم في دولة الظاهر» ـ نفسه ج ١ ص ٩٥ ـ ٩٦، وقوله في حوادث حولية إحدى وثمانين وسبعمائة: «. . . واستقر تدريس الحديث بيده، ثم استقر فيه ولده إلى أن صار إلى كاتبه» ـ نفسه ج ١ ص ١٩٥، وقوله في حوادث حولية ثمان وثمانين وثمانمائة: «. . . وفي شعبان أسلم نصراني يقال

بالحذف ـ ولذا فإن صفحات الكتاب قد تداخلت المعلومات فيها في مواضع كثيرة، من إحالات في المتن إلى تتمات في سائر الجوانب، وإضافات لترجمات فاته تدوينها في صلب الكتاب ومتن الصفحات، أو كثير من الحوادث التي اطلع عليها في كتب ومؤلفات الغير كابن خطيب الناصرية ـ على سبيل المثال[1].

كما كان كثير الضرب على المعلومات الواردة في المتن وجوانب الصفحات ـ كذلك ـ حتى لقد وصل به الأمر في ذلك إلى الضرب على كثير من الترجمات المكتملة لتأتي وقد عدلت في زوايا الصفحات المضروب عليها فيها ـ في ثوب جديد كماً وكيفاً.

كما كان كثيراً ما ينص على الترتيب[2] أو التحويل إلى حولية أخرى[3] وقد دون إحدى الترجمات في غير موضعها من الوفيات سهواً.

= له ميخائيل من أهل مصر، فقرر ناظر المتجر السلطاني، وحصل للناس منه ضرر كبير، وسيأتي ما آل إليه أمره في سنة تسع وثمانين» ـ نفسه ج ١ ص ٣١٧، وقوله في حوادث حولية تسع وثمانين وسبعمائة: «. . . وفيها ضربت الفلوس التي أحدثها جركس الخليلي، وجعل اسم السلطان في دائرة فتفاءلوا له من ذلك بالحبس، فوقع عن قرب، ووقع نظيره لولده الناصر فرج في الدنانير الناصرية» ـ نفسه ج ١ ص ٣٣٥، وقوله في حوادث حولية اثنتين وتسعين وسبعمائة: «. . . وفي صبيحة هذا اليوم ـ عاشر صفر ـ استقر كريم الدين بن عبد العزيز ـ الذي تزوجت أنا ابنته بعد هذا بست سنين ـ ناظر الجيش. . .» ـ نفسه ج ١ ص ٣٨٤ ـ ٣٩٥، وقوله في حوادث حولية سبع وتسعين وسبعمائة: «. . . وفيه أمر شيخ ـ الذي صار بعد ذلك سلطاناً (أمير) أربعين، وأمر نوروز تقدمة ألف» ـ نفسه ج ١ ص ٤٨٧، وقوله: «. . . وفي آخر هذه السنة رحلت إلى ثغر الأسكندرية فسمعت بها من. . . وأقمت بها إلى أن رحلت هذه السنة، ودخل في السنة التي تليها عدة أشهر» نفسه ج ١ ص ٤٩٥.

(١) نفسه ج ١ ص ٥.

(٢) نفسه ق ٦٦ ب (هامش أيمن) حيث ينص في ترجمة «إبراهيم بن سرايا الكفرماوي» (ت ٧٨٦ هـ/ ١٣٨٥ م.) إلى ضرورة ترتيبها، ويقابلها في مطبوعة القاهرج ١ ص ٢٩٢ ترا.

(٣) نفسه ق ٦٣ ب، حيث أشار في ترجمته «لا سماعيل بن بردس» (ت ٧٨٦ هـ/ ١٣٨٥ م.) ـ وقد وردت ضمن وفيات حولية خمس وثمانين وسبعمائة ـ إلى ضرورة التحويل، ويقابلها في مطبوعة القاهرة ج ١ ص ٢٩٢ تر ٥.

كل هذا ـ لا شك ـ جعل مؤلفه مختل الترتيب، وإن ظهر ذلك جلياً في القسم الخاص بتدوين الوفيات من كل حولية. بل لقد أتت آخر حوليات الكتاب، حولية خمسين وثمانمائة ـ مختلة الترتيب، مخالفة للمنهج المتبع في الحوليات السابقة لها حيث تداخلت فيها المعلومات، واختلطت فيها الحوادث بالترجمات.

وهذا يشير ـ دون أدنى شك ـ إلى أن «ابن حجر» قد ترك كتابه في المسودة، وإلى أنه لم يكن قد أكمله بعد، وإلا لما وقف به عند نهاية حولية خمسين وثمانمائة، ولما أتت هذه الحولية على تلك الكيفية.

وتلك مسئولية القيت على عاتق نساخ الكتاب وناشريه، فاضطلعوا بذلك وراعوا رغبة المؤلف في الترتيب والتبويب ـ قدر الإمكان.

تاريخ كتابة الإنباء:

لا يعرف ابتداء « ابن حجر» بالكتابة في «إنباء الغمر»، وإن كان أقدم تاريخ ورد في المتن مؤرخاً لمادته يرجع إلى «شعبان سنة ست وثلاثين وثمانمائة»، كما لا يعرف تاريخ الفراغ من كتابة آخر حولياته، وهو لا يريب بعد الخمسين وثمانمائة أو في نهايتها.

عنوان الكتاب:

لا يحتاج عنوان الكتاب وهو: «إنباء الغمر بأنباء العمر» إلى تحقيق أو جهد في نسبته إلى المؤلف، وانتساب الكتاب إليه، ذلك أن «ابن حجر» قد أثبته في خطبة الكتاب، وبقي الكتاب إلى وقتنا في صورته الأولى بخط مصنفه، ولكن قد يكون في حاجة إلى زيادة توضيح وتفسير.

فالغمر ، جمع غمر ـ بفتح الغين أو كسرها أو ضمها، وجواز تحريك ميم المفرد ـ وهو: غير المجرب للأمور(١).

والإنباء ـ بكسر الهمزة ـ إخبار المتكلم سواه الخبر(٢).

---

(١) ابن منظور. لسان العرب ج ٦ ص ٤٣١٥.

(٢) نفسه.

والأنباء، جمع نبأ، وهي الأخبار التي ينبيء بها المتكلم غيره[1].

وعلى ذلك فالمعنى الذي يتضمنه العنوان هو:

«إخبار اللاحقين بأخبار عصره».

النسق الفني للإنباء

.. هكذا ترك «ابن حجر» كتابه «إنباء الغمر» مسودة لم يمهله الأجل ليبيضها أو يكملها، فكانت تلك مسئولية ملقاة على عاتق النساخ الذين وجدوا أمامهم كماً هائلاً من الورق والمعلومات، فلم يتيسر لهم تخريجه إلا في مجلدتين أو ثلاث دون مراعاة لرغبة المؤلف في تجزيء الكتاب، ذلك أن «ابن حجر» قد نص على تجزيء الكتاب ـ في ذيل حولية ثمانمائة ـ قائلاً: «.. الثاني من إنباء الغمر للفقير إلى عفو ربه القدير أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الأصل المصري، فيه أول سنة إحدى وثمانمائة»[2]. وهو ما يشير إلى أنه كان ينتوي تخريجه في مجلدتين تستفتح ثانيتهما بحولية إحدى وثمانمائة للهجرة باعتبارها بداية لقرن هجري جديد.

وتلك رغبة متعلقة بنظرة شمولية لديه عالج بها التأريخ لعصره، واقتضته أن يخرج مؤلفاً مستقلاً لأعلام قرن كامل، أرخ فيه لهذا القرن من خلال تراجم الأعلام[3] لأن دراسة قرن كامل تكون أقرب إلى الرؤية على اعتبار طول المدة بما يبدو فيها من العوامل الفاعلة والمنفعلة في الحوادث، مما يتيح فرصة للحكم الشمولي على هذا القرن أو ذاك.

وإن كان قد تأتي له هذا في «الدرر الكامنة» ـ باعتباره شاهد عيان لفترة من نهايته ـ لا بأس بها ـ وباطلاعه على مراجع التأريخ لهذا القرن ـ فإنه من غير المعقول أن يتأتى له ذلك بالنسبة للقرن التاسع الهجري، فتلك مسألة آجال.

---

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٣٢٩٥.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٣٥.

(٣) هو كتاب «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، وسوف يرد التعريف به.

ولذا فإنه قد سلك طريقاً وسطاً، فخرج الكتاب على سنوات العمر، ثم عمد بعد ذلك إلى التأريخ للقرن التاسع الهجري.

ولا محل للتساؤل ـ هنا ـ عن عزوفه في الجزء الأول من الكتاب عن التأريخ بداية بالقرن الثامن ما دامت المسألة مسألة تأريخ في وحدات زمانية أمدها مائة عام، لأن «ابن حجر» كان قد أرخ لهذا القرن ـ الثامن ـ حقيقة من خلال الترجمة لأعلامه في «الدرر الكامنة» مما يجعله في غير حاجة إلى سرد حوليات له على النحو الوارد في «الإنباء»، كما أن ابتداء «الإنباء» بالتأريخ للقرن الثامن كله عمل غير ذي جدوى بالنسبة له، فالكتاب بصورته التي أرادها له مؤلفه «يحسن من حيث الحوادث أن يكون ذيلاً على تاريخ الحافظ عماد الدين بن كثير فإنه انتهى في ذيل تاريخه إلى هذه السنة ـ ٧٧٣ هـ. ـ ومن حيث الوفيات أن يكون ذيلاً على الوفيات التي جمعها الحافظ تقي الدين ابن رافع، فإنها انتهت ـ أيضاً ـ إلى أوائل هذه السنة»[1].

ويتأيد ذلك ـ كذلك ـ فضلاً عن وجود عبارته آنفة الذكر ـ في ذيل حولية ثمانمائة ـ بافتتاحية حولية إحدى وثمانمائة بما يشير إلى بداية فعلية لمجلدة تالية عن استهلال بالبسملة والحمدلة متبوع بقائمة استقرارات وظيفية يأتي على رأسها السلاطين والملوك وغيرهم من أرباب الدولة والمتغلبين عليها لتكون بمثابة تعريف بأبرز الشخصيات التي سوف تسند إليها الأعمال الجارية على مسرح الحوادث في العالم الإسلامي للوقوف على دور كل وتفهمه من خلال حوليات تالية، وبعدها نجده يفصل بين قائمة الاستقرارات ـ تلك ـ وبين ما سوف يتبعها من تسلسل للحوادث الفرادى قائلاً: «ذكر الحوادث فيها . .»[2] وهو ما نعدم نظيره في حوليات: سابقة أو لاحقة على هذه الحولية، اللهم إلا في حولية ثلاث وسبعين وسبعمائة المتصدرة لحوليات الكتاب كله، حيث استهلت بقائمة مثيلة لتلك، ثم اتعبت بقوله: «. . فمن الحوادث في هذه السنة . .»[3].

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٥.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٧.

(٣) نفسه ج ١ ص ٩.

ولو لم يكن البدء الآنف الذكر مقصوداً منه لهذا الغرض لتكرر ذلك في حوليات لاحقة لحولية إحدى وثمانمائة، فوجد على غراره وما ألحق به ثالث ورابع من «إنباء الغمر». . وهكذا.

لكن هذا التجزيء يجعل المجلدة الأولى من الكتاب غير متناسقة مع لاحقتها من حيث عدّ الأوراق فيهما، فضلاً عن الحوليات في كل، حيث أن المجلدة الأولى وقد ابتدأت بعد المقدمة بحولية ثلاث وسبعين وسبعمائة، وانتهت بحولية ثمانمائة قد احتوت على ثمان وعشرين حولية فقط، على حين أن المجلدة الثانية وقد ابتدأت بحولية إحدى وثمانمائة وانتهت بحولية خمسين وثمانمائة قد احتوت على خمسين حولية، وهو ما لا يتأتى معه التناسق الفني بين المجلدتين.

وهذه النظرة الفنية لم تكن تعنيه البتة، فتجزيء الكتاب لا يخضع لديه للشكلية البحتة التي يراعي فيها التنسيق الفني بين مجلدتيه، وإنما هي مسألة منهج توجهه نظرة تأريخية شمولية ملحة على هذا التجزيء، وتظهر ـ كذلك ـ في العمد إلى الشمول الموضعي لموضوعات حوادث حولياته.

ويؤيد ذلك أنه لم يراع التناسق بين عدد الصفحات أو كمية المعلومات الواردة في الحوليات ـ فرادى، فقد تطول حولية[1] وتقصر أخرى[2] وتكون ثالثة ربعة لا هي بالطويلة ولا بالقصيرة. .[3] فضلاً عن إغفال النسق الفني في البناء الداخلي للحولية منفردة، حيث لا يوجد مثل هذا التناسق بين التراجم والحوادث من حيث المساحة الشاغلة لها، والعدّ فيهما، كما يلاحظ تباين ذلك في النوع الواحد، فقد يقصر الترجمة أو الخبر ليشغلا أقل من السطر[4] وقد

---

(١) من نماذج ذلك حولية ثلاث وثمانمائة للهجرة.

(٢) من نماذج ذلك حولية خمسين وثمانمائة للهجرة.

(٣) من نماذج ذلك حولية إحدى وعشرين وثمانمائة للهجرة.

(٤) كنحو قوله في وفيات حولية خمس وسبعين وسبعمائة: «عمر بن تقي الدين السعودي، شيخ خانقاة بكتمر. مات في ذي الحجة» ـ إنباء الغمر ج ١ ص ٦٧ تر ٢٤ ـ وقوله في وفيات حولية ثمان وسبعين وسبعمائة: «إبراهيم بن عبدالله العجمي، أحد من كان يعتقد بدمشق» ـ نفسه ج ١ تر ٣ ص ١٣٤ ـ وقوله في حوادث حولية اثنتي عشرة وثمانمائة: «. . . وفي تاسعه صرف =

يطولها ليزيدا على الصفحة. .[1].

وهذا طبيعي لدى كتاب الحوليات الإسلامية التقليديين ـ بصفة عامة ـ ومنهم «ابن حجر»، لأن ذلك خاضع قبل كل شيء لطبيعة كاتبها، وتوفره على المصادر، وتوفر المصادر له، فضلاً عن نوع المعلومة المدونة، وجدارتها بالتسجيل على الإسهاب أو الإقتضاب حسب مقاييسه هو، ومفهومه للتأريخ، وتفهمه لها. بل لا يتأتى ذلك للمؤرخ الحديث والمعاصر إلا بتكلف ربما أفسد عليه ما يناط به من عمل.

وهكذا فإن هذه النظرة المنهجية لديه لم تكن ـ للأسف ـ متفهمة لدى نساخ الكتاب وناشريه، فتخطوا التقسيم المعتبر لدى كاتبه إلى تقسيمات أخرى على نحو ما هو بين قبل.

هذا من حيث تجزيء الكتاب، أما من حيث تنظيمه فإن «ابن حجر» قد رتبه على مقدمة[2] تتبعها معلومات نظمت على الحوليات المتتابعة الإفراد ابتداء بحولية ثلاث وسبعين وسبعمائة ـ وهي سنة مولده ـ وإنتهاء بحولية خمسين وثمانمائة ـ أي قبل وفاته بنحو عامين ـ مراعياً فيها أن تذكر الحوادث وتراجم

= ابن شعبان عن الحسبة، وأعيد الطويل». . هكذا مجرداً ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٤٣٢ ـ على عكس ما فعل بغيره من الاستقرارات الوظيفية المتعلقة بالبرهان ابن جماعة وغيره ـ راجع: العلاقة بين الترجمات والحوادث من هذا الباب.

(١) من نماذج الترجمات المطولات في «الإنباء» ترجمته لابن حجي الحسباني ـ ج ٣ تر ٦ ص ١٨ ـ ٢٠ ـ والمجد الفيروزبادي ج ٢ تر ١٦ ص ٤٧ ـ ٥٠ ـ والعجل بن نعير ـ ج ٣ تر ٢٠ ص ٢٦ ـ ٢٧ ـ وفتح الله بن نفيس ج ٣ تر ٢٤ ص ٢٩ ـ ٣٠.

ومن نماذج الحوادث المطولات ما تعلق بسفرة آمد (السفرة الشمالية) ـ نفسه ج ٢ ص ٤٩٢. وما بعدها، وغزوة رودس ـ نفسه ج ٩ ص ٢٠٠ وما بعدها.

(٢) وتحتوي على البسملة والدعاء والشهادتين، ونسبة الكتاب إلى مؤلفه ثم تعريف بالكتاب وبمصادره والهدف منه، والإشارة إلى تعديله لمادته بعد اطلاعه على ذيل ابن خطيب الناصرية على تاريخ ابن العديم في سفرة آمد.

الوفيات منفصلة عن الأخرى من حيث النسق الترتيبي[1] ولـذا نجده يفصـل بـين الحوادث والتـراجم في الحوليـة الواحـدة بعنوانـات هي: «ذكر من مـات في سنة...»، «ذكر من مات سنة... من الأعيان»، ذكر من مـات سنـة... من الأكابر»، «ذكر من مات في هـذه السنة من الأكـابر»، عـلى أن عبارة «ذكـر من مات سنة... من الأعيان» غالبة الشيوع في مؤلفه.

وقد تكون لبعض الحوليات طبيعة خاصـة تقتضيه التمييـز بين نـوعين من تراجم الوفيـات الكائنـة فيها، عـلى نحو مـا فعل بـوفيات حـولية ثمـان وسبعين وسبعمائة، حيث وردت تحت عنوانين هما: «ذكر من مات في سنة ثمـان وسبعين وسبعمائـة من الأعيان»[2]، «وفيها مات من الأمراء:...»[3] وما فعـل بوفيـات حولية ثمانمائة، حيث وردت الوفيات موزعـة فيها عـلى عنوانـين هما: «ذكـر من مـات في سنة ثمـانمائـة من الأعيان»[4]، «ذكـر من مـات في سنـة ثمـانمـائـة من الأجناد»[5].

ويلحق بهـذا البناء الـداخلي للحـوليات ـ فيـما يختص بتراجم الـوفيـات ـ تنظيم التراجم والوفيات في الحولية الـواحدة عـلى حروف الهجـاء[6] معتبراً اسم المترجم له فحسب، وليس اسم الشهـرة سواء كـانت الشهرة في لقبـه أم كنيته، اللهم إلا إذا غـاب عنه اسم المتـرجـم له، أو تخـوف من أن يسبب ذلك لبسـاً لدى مطالـع حوليـاته[7] وهـذا لا يتأتى معـه التسلسل التـأريخي للوفيات داخـل

(١) وإن ترجم لبعض الوفيات في القسم الخاص بالحوادث من حوليات الكتاب ـ راجع: العلاقة بين التراجم والحوادث من هذا الباب.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ١٣٤.

(٣) نفسه ج ١ ص ١٣٧، ١٣٩.

(٤) نفسه ج ٢ ص ٢٢.

(٥) نفسه ج ٢ ص ٢٣.

(٦) وإن اختل ذلك في بعض مواضع منها وفيات حولية ٨١٣ هـ. ـ نفسه ج ٢ ص ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

(٧) وأكثر ذلك يتعلق بـالمعتقدين (المتصوفة) وأمـراء المماليك، ومنه التـرجمة عـلى اسم الشهرة مغفـلاً الاسم الأصـلي لكـل من «حسـام الـدين الصفـدي» ـ نفسـه ج ٣ تـر ١٣ ص ٢٤ ـ و«نجم ابن =

الحولية الواحدة حسب الأيام والشهور المتعاقبة ـ الواقع فيها الوفاة ـ على نحو ما ورد لدى مصادر معاصرة له[1] وإن تميز بسهولة الكشف عن المترجم له إذا ما عرفت سنة الوفاة واسم المترجم له على الصواب.

أما الحوادث فإنه راعى فيها أن تأتي متتابعة التسلسل في صدر حولياتها وقد فصل بين حولية وأخرى بقوله: «سنة (كذا)».

لكن قد تتصدر بعض الحوادث حولية بعينها باعتبار نوعيتها المغايرة لسائر الحوادث المتتابعة الإفراد، أو لغلبتها على فكر المؤرخ أو عصره. وهنا نجده قد فصل بين تلك الحوادث المتميزة وبين غيرها من الحوادث المتعاقبة بما يشير إلى ذلك، كنحو قوله في حولية ثلاث وتسعين وسبعمائة وقد تصدرتها «الأخبار المنطاشية»: «ذكر بقية الحوادث الكائنة في هذه السنة»[2] وقوله في حوادث حولية ثلاث وثمانمائة وقد تصدرتها أخبار «تمرلنك»: «ومن الحوادث غير قصة

= عبدالله القابوني» ـ نفسه ج ٣ ص ٨٤ تر ١٧ ـ و «شاهين الأفرم» ـ نفسه ج ٣ تر ٦ ص ٤٣ و «نوروز» ـ نفسه ج ٣ تر ١٧ ص ٥٠ ـ ٥١ وقد يترجم للوفاة في موضعين: على الاسم، ثم على اسم الشهرة، أو العكس ـ مع الإحالة في الموضع الثاني على الموضع الأول، كما فعل بترجمته «لعبدالله بن محمد بن سهل المرسي المغربي» وقد ترجم على الاسم ـ نفسه ج ١ تر ٢١ ص ١٨٤ ـ ثم على اسم الشهرة محيلاً على الأول قائلاً: «نهار الذي كان يعتقد بالأسكندرية، وهو عبدالله تقدم» ـ نفسه ج ١ تر ٤٢ ص ١٨٩ ـ وترجمته لقرا يوسف ـ ضمن وفيات حولية ثلاث وعشرين وثمانمائة تحت اسم «قرا يوسف بن قرا محمد التركماني» ـ نفسه ج ٣ تر ٨ ص ٢٣٠ ـ ثم الترجمة له في موضع آخر بالإحالة قائلاً: «يوسف قرا محمد التركماني المعروف بقرا يوسف بن بيرم خجا. تقدم في قرا يوسف» نفسه ج ٣ تر ٢٣ ص ٢٣٦ ـ وترجمته لكل من: «أحمد بن محمد بن موسى بن سند» ـ نفسه ج ١ تر ٩ ص ٥١٥ ـ و «صدقة بن محمد فتح الدين» ـ نفسه ج ١ تر ٢٤ ص ٥١٧ ـ ضمن وفيات حولية ثمان وتسعين وسبعمائة ـ ثم العود للترجمة لهما ثانياً ـ في الحولية نفسها ـ على اسم الشهرة محيلاً على الأول قائلاً: «أبو سعد بن سند، اسمه محمد. أبو دقن، اسمه صدقة. تقدما» ـ نفسه ج ١ تر ٥١، ٥٢ ص ٥٢١.

(١) كما فعل المقريزي في «السلوك»، وابن حجي في تاريخه، وصاحب حوليات دمشقية ـ نشرة د. حسن حبشي.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٤١٤.

تمرلنك»(١) وقوله في حوادث حولية اثنتي عشرة وثمانمائة، وحولية ثلاث عشرة وثمانمائة: «ذكر حوادث أخرى غير ما تعلق بالمتغلبين»، «ذكر الحوادث الخارجة عن حروب المتغلبين»(٢) وقد أفرد صدريها للصراع بين «شيخ المحمودي» وغيره من كبار أمراء المماليك ونواب السلطنة، وبين «الناصر فرج» وحربه لهم. وقوله في حوادث حولية ثمان وعشرين وثمانمائة: «ذكر غزاة قبرس الأولى»(٣) ليفصل بين أخبارها وما سبقها من الأخبار الفرادى المتوالية التتابع، وقوله في حوادث حولية ست وثلاثين وثمانمائة: «ذكر السفرة الشمالية»(٤) مميزاً لها عن حوادث أخرى تسبقها، ثم اتبعها بنوع آخر من الحوادث المعنونة بقوله: «ذكر الحوادث في غيبة السلطان الأشرف بالقاهرة»(٥). وجمعه لحوادث تعلقت بغزو رودس سنة سبع وأربعين وثمانمائة في موضع واحد لتتبعها حوادث ذات نوعية مغايرة وقد سبقت بقوله: «ومن الحوادث بعد أن سافر الغزاة. . .»(٦). . . وهكذا.

لكن ـ مع ذلك ـ فإن الملاحظ من استقراء الحوادث ومقابلتها بمثيلاتها في كتابات غيره من المؤرخين المعاصرين:

١ ـ أنه لم يكن دقيقاً في تأريخ أو عرض الكثير من حوادث كتابه.

٢ ـ أن التأريخ والعرض للحوادث لم يسر على وتيرة واحدة.

وحتى لا يطول الحديث في هذا الموضوع ويخرج بنا عن الخطة العامة للبحث فإنه سوف يكتفي باختيار خمس حوليات لدراستها كمثال ـ للتدليل على هذه الملحوظة وهي سنة ٧٧٣ هـ. ـ على اعتبار أنها أولى حوليات الكتاب، والمقطوع به أن دور «ابن حجر» فيها كان دور الناقل من كتابات سواه، ولم

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤١.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٣٠، ٤٥٩ ـ على التوالي.
(٣) نفسه ج ٣ ص ٣٤٦.
(٤) نفسه ج ٣ ص ٤٩٢.
(٥) نفسه ج ٣ ص ٥٠٠.
(٦) نفسه ج ٩ ص ٢٠٠.

يعاين أحداث هذه السنة لكونه ولد فيها ـ وسنة ٨٠٠ هـ. ـ باعتبار أنها تمثل نهاية القرن ويمكن أن يقال فيها أن «ابن حجر» قد مزج فيها بين ما التقطه بنفسه من الحوادث وبين ما أخذه من بطون الكتب ـ وسنوات متأخرة من حوليات كتابه يكتفي فيها بسنة ٨٤٥ هـ. ـ لأن لها طابعاً خاصاً ـ وسنة ٨٤٩ هـ. ، وسنة ٨٥٠ هـ. ـ وتمثلان أخريات حوليات الكتاب.

حيث نجده قد نهج في **حولية ثلاث وسبعين وسبعمائة للهجرة** نهجاً هو:

* ـ إغفال تأريخ الحوادث بنسبتها إلى اليوم أو الشهر الذي وقعت فيه باستثناء ثلاثة مواضع ـ اكتفاء بنسبتها إلى السنة، قائلاً: «. . . فمن الحوادث في هذه السنة. . .»[1]، أو«وفيها. . .»[2] أو«وفي هذه السنة. . .»[3] أو «واتفق في هذه الأيام. . .»[4].

٢ ـ أما المواضع المؤرخة، فقد أتى موضع منها مؤرخاً بنسبة الحدث إلى الشهر دون تحديد اليوم قائلاً: «وفي صفر. . .»[5] بينما أرخ باليوم في الموضع الثاني، وبالليلة في الموضع الثالث قائلاً: «. . . وفي أول يوم من جمادي الآخرة. . .»[6]، «وفي ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول. . .»[7].

أما **حولية ثمانمائة للهجرة**، فإنه قد اتبع فيها نهجاً أكثر وضوحاً في عدم الدقة من هذا وهو:

١ ـ اختلال تسلسل الأيام في الشهر الواحد، ومن أمثلة ذلك ما ورد بخصوص الحوادث التي أرخها بذي الحجة، حيث أتت على النحو التالي:

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٩.

(٢) نفسه ج ١ ص ٩، ١٠، ١٢، ١٤، ١٥، ١٦.

(٣) نفسه ج ١ ص ١٧.

(٤) نفسه ج ١ ص ١٩.

(٥) نفسه ج ١ ص ١١.

(٦) نفسه ج ١ ص ١٦.

(٧) نفسه ج ١ ص ١٧.

- في أواخر ذي الحجة[1].
- في سابع عشري ذي الحجة[2].
- في السابع والعشرين من ذي الحجة[3].
في الثالث من ذي الحجة[4] .
- في أول يوم من ذي الحجة.
- فلما كان في الثامن من ذي الحجة.

٢ - الاختلال في تتابع الشهور في الحولية الواحدة:

حيث وردت الشهور المرتبة للحوادث على النحو التالي: (بعد اسقاط الحوادث المنسوبة إلى السنة دون تأريخ باليوم والشهر):

المحرم / صفر / شعبان / ربيع الأول / صفر / جمادى الأولى / جمادى الآخرة / شعبان / رمضان / شوال / ذي القعدة / ذي الحجة / ربيع الأول / جمادى الأولى / ربيع الآخر.

ومعنى ذلك:

أ - أن حوادث شهر صفر قد أتت في ثلاثة مواضع من الحولية: بعد المحرم مباشرة، لتقطعها حوادث شعبان وربيع الأول.

ب - أن حوادث شهر شعبان أتت في موضعين: بعد صفر مباشرة، ثم ليعترضها أشهر: ربيع الأول، وصفر، وربيع الأول، وصفر، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة، - بحوادثها.

جـ - أن حوادث شهر ربيع الأول قد أتت في مواضع ثلاثة: في موضعين يعترضهما شهر صفر بحوادثه، ثم بعد الشهور التالية بما تحمله من الحوادث المؤرخة بها: صفر - جمادى الأولى - جمادى الآخرة - شعبان - رمضان - شوال - ذي القعدة - ذي الحجة.

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٢١.
(٤) نفسه.

د ـ أن حوادث جمادي الآخرة قد أتت في موضعين تفصل بينهما حوادث: جمادي الآخرة ـ شعبان ـ رمضان ـ شوال ـ ذي القعدة ـ ذي الحجة ـ ربيع الأول.

ومعنى ذلك أنه لا يمكن الكشف عن حادث وقع في أي من شهور السنة بدون قراءة الحولية بتمامها للوقوف على المطلوب منها. كما أن هذا ربما يشير إلى أن مفهومه من التأريخ للحوادث هو مجرد إثباتها في حيز الحول الواقعة فيه دون تتابع أو ترتيب زمني يسير فيه على وتيرة واحدة[1].

٣ ـ أن «ابن حجر» قد أغفل تأريخ الحوادث تأريخاً تاماً اكتفاء بنسبتها إلى الشهر الواقعة فيه، أو بنسبتها إلى السنة متجاهلاً التأريخ باليوم والشهر ـ ومن أمثلة الاتجاه الأول ـ التأريخ بالشهر مع إغفال اليوم: «في المحرم...»[2]، «... في ربيع الأول»[3]، «في صفر...»[4]، «في جمادي الآخرة...»[5]، «في شعبان...»[6]، «في رمضان...»[7]، «في شوال...»[8]، «في ذي القعدة...»[9]. ـ ومن أمثلة الاتجاه الثاني، وهو نسبة الحوادث إلى سنة وقوعها مع إغفال اليوم والشهر قوله: «وفي هذه السنة...»[10]، «وفيها...»[11].

(١) ربما وقع ذلك في الكتاب لتركه له في المسودة، وهي صورة لفكره وقت التأليف الأول للمعلومات، وهذه الدراسة الوصفية مبنية عليها لأنها العمل الراهن الواقعي، أما ما كان في الغيب لو عاش «ابن حجر» لتصنيفه في المبيضة فلا يمكن إدراكه ليوصف. ويلاحظ أن مثل ذلك المثبت في المتن قد وقع في كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز، الذي جمع تلاميذه أوراق مسودته ونشروها بعده.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٨.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه ج ٢ ص ١١.

(٦) نفسه ج ٢ ص ١٢.

(٧) نفسه.

(٨) نفسه ج ٢ ص ١٤.

(٩) نفسه ج ٢ ص ١٦.

(١٠) نفسه ج ٢ ص ٩.

(١١) نفسه ج ٢ ص ٩، ١٢، ١٤، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٢.

٤ ـ كما قد تأتي الحوادث مؤرخة تقريبياً ـ منسوبة إلى أوائل أو وسط أو أواخر الشهر ـ وليس على وجه الدقة، كنحو قوله:

«وفي أوائل ذي القعدة...»[١]، «وفي وسط هذا الشهر...»[٢] «وفي أواخر ذي الحجة..»[٣].

٥ ـ لكن على العكس من ذلك قد أتت بعض الحوادث المؤرخة باليوم والشهر نحو قوله: «وفي الثامن من المحرم...»[٤]، وقوله: «وفي العشرين من ربيع الأول...»[٥]،أو باليوم والشهر واليوم من الأسبوع، كنحو قوله: «وفي ليلة الجمعة ثامن شعبان...»[٦]، أو باليوم والشهر الهجري مقابلاً بالشهر القبطي، كنحو قوله: «وفي سابع عشر صفر الموافق الثالث عشر (من) هاتور...»[٧]. وقد يكون التأريخ ـ كذلك ـ بالوقت من اليوم حسب توقيت الصلوات، كنحو قوله: «فلما كان في الثامن من ذي الحجة العصر...»[٨].

أما حولية خمس وأربعين وثمانمائة فإنه لم يخل التأريخ باليوم والشهر من السنة بحدث واحد.

وكذا حولية تسع وأربعين وثمانمائة، إذا ما استثنى موضعان أرخ فيهما بالشهر دون تحديد اليوم قائلاً: وفيه... (أي في المحرم)»[٩] وقوله: «وفي هذا الشهر..»[١٠].

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٥.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٢٠.
(٤) نفسه ج ٢ ص ٧.
(٥) نفسه ج ٢ ص ١٠.
(٦) نفسه ج ٢ ص ١٢.
(٧) نفسه ج ٢ ص ١٠.
(٨) نفسه ج ٢ ص ٧٢١
(٩) نفسه ج ٩ ص ٢٣١.
(١٠) نفسه ج ٩ ص ٢٣٥.

أما حولية خمسين وثمانمائة فإنه قد أرخ فيها الحوادث تأريخاً كاملاً مع ملاحظة أنه قد أدمج فيها الوفيات المؤرخة على أنها من الحوادث الواقعة في هذه السنة[1].

من كل هذا نصل إلى الآتي:

١ ـ أن «ابن حجر» قد أتى بحوادثه مسلسلة الحوليات والشهور والأيام من داخلها على التتابع في الحوادث المتأخرة جداً من حوليات كتابه، أما المتقدمة منه فإنها لم تؤرخ على وتيرة واحدة، حيث ظهر فيها الآتي:

أ ـ الاختلال في تتابع الأيام والشهور.

ب ـ التأريخ بالتقريب مغفلاً الدقة ـ أحياناً ـ ودقيقاً في كثير منها حيث لم يكتف بالتأريخ بالشهر أو بتجزئته إلى أول وآخر ووسط أو باليوم أو الليلة، وإنما بما يقابله من شهور السنة القبطية خاصة في الحوادث المتعلقة بالنيل أو الأرصاد والأفلاك. وقد يؤرخ ـ كذلك ـ بالوقت تبعاً لمواعيد الصلاة كالعصر[2] أو ما كان قبل صلاة الجمعة، أو أواخر النهار[3].

٢ ـ أنه قد نقل بعض الحوادث من حولياتها إلى حوليات أخرى غير الواقعة فيها أو كررها، وهو ما سوف يبحث في موضوع الدقة في النقل من الفصل الخاص بالمصادر من هذا البحث.

النسق التعبيري للكتاب

كان لاطلاع «ابن حجر» على الكثير من علوم ومعارف عصره، وتمهره فيها خاصة فيما تعلق بالعربية ـ أدباً ونحواً وصرفاً وبلاغةً ـ وإنشاده للشعر وروايته له واطلاعه على نماذج أدبية وأساليب متعددة لكتاب مختلفين، وأخذه

---

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ٢٤٥ ـ ٢٥١.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢١، ٣٩، ٤٨، ٩٣.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٢٠٨.

جل مادة كتابه عنهم ـ أثره في إسلوب «الإنباء»، حيث بدت عباراته وضاحة، عالية الأسلوب تامة المعنى، متخيرة الألفاظ، فصيحتها. . مما جعل أسلوبه يتيمز بخصائص منها:

١ ـ فصاحة اللفظ ومعجميته:

كنحو: قوله: «صفعة»[١]، «رجيفة»[٢]، «الكامن»[٣]، «فسخطوها»[٤]، «تبطل»[٥]، «يتعانى المتجر»[٦]، «اشتوروا»[٧]، «يتفلل»[٨]، «عنوة»[٩]، «انهبط»[١٠]، «جأر»[١١]، «مزجى البضاعة»[١٢]، «أججوا ناراً»[١٣]، «شذر مذر»[١٤] . .

٢ ـ تخير الأساليب البلاغية نشداناً لعلو الإسلوب والمحافظة على بلاغته:

كنحو قوله في حولية ست وثمانمائة على سبيل الطباق: «. . . وفيها مات محمد سلطان بن تنكر بن اللنك. . . فمات بعد الوصول والظفر بابن عثمان،

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٨، والصفع بسط الرجل كفه ليضرب بها قفا الانسان أو بدنه ـ ابن منظور. لسان العرب ج ٤ ص ٢٤٦١.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٩، أي فزعه ـ ابن منظور ج ٣ ص ١٥٩٥.

(٣) نفسه ج ٢ ص ١٠، أي المختفي ـ ابن منظور ج ٥ ص ٣٩٣٣.

(٤) نفسه ج ٢ ص ١٨، أي استقلوها ـ ابن منظور ج ٣ ص ١٩٦٤.

(٥) نفسه ج ٢ ص ٤٤، أي تعطيل ذلك ـ ابن منظور ج ١ ص ٣٠٣.

(٦) نفسه ج ٢ ص ٤٢، أي يتحمله على شدة ـ ابن منظور ج ٤ ص ١٣٤٦.

(٧) نفسه ج ٢ ص ١٣٤، أي تشاوروا ـ ابن منظور ج ٤ ص ٢٣٥٨.

(٨) نفسه ج ٢ ص ١٤٥، أي تفلتوا منهزمين ـ ابن منظور ج ٥ ص ٥٤٦٦.

(٩) نفسه ج ٢ ص ٢٠٨، أي قهراً ـ ابن منظور ج ٤ ص ٣١٤٤.

(١٠) نفسه ج ٢ ص ٢٥٩، أي انخفض ـ ابن منظور ج ٦ ص ٤٦٠٥.

(١١) نفسه ج ٢ ص ٢٦٩، أي رفع صوته ـ ابن منظور ج ١ ص ٥٢٨.

(١٢) نفسه ج ٣ ص ٤٦، أي قليل البضاعة (من العلم) ـ ابن منظور ج ٣ ص ١٨١٥.

(١٣) نفسه ج ٣ ص ٦٩، أي ألهبها وأشعلها ـ ابن منظور ج ١ ص ٣٠.

(١٤) نفسه ج ٢ ص ٢٢٦، أي ذهبوا في كل وجه ـ ابن منظور ج ٤ ص ٢٢٢٠.

فبدل فرح اللنك ترحاً وحزن عليه حزناً عظيماً»[1]، وقوله بشأن سيل مكة - ضمن حوادث حولية اثنتين وثمانمائة - على سبيل التشبيه فالإستعارة: «. . . وفي ليلة الخمس العاشر من جمادي الأولى حصل بمكة مطر عظيم انصب كأفواه القرب، ثم هجم السيل فامتلأ المسجد حتى بلغ إلى القناديل، وامتلأ، ودخل الكعبة من شق الباب»[2]. وقوله في ترجمة «المجد الفيروزبادي» - ضمن وفيات حولية سبع عشرة وثمانمائة - على سبيل إستعمال الصفة للمبالغة في الكثرة: «. . . ولقي بغيرها - أي بغير مكة - من البلاد جمعاً جماً من الفضلاء، وحمل عنهم شيئاً كثيراً»[3]، وقوله في حوادث حولية أربع وثمانمائة مستعملاً جناس الإشتقاق فالمبالغة والإستعارة: «. . . فأخذ - تمرلنك - بغداد عنوة يوم الأضحى، فضحى بذبح المسلمين إلى أن جرت بدمائهم دجلة، وبنيت برؤوسهم عدة مسلات»[4].

٣ - تضمين العبارات بعض التعبيرات البليغة، شائعة الإستعمال لدى بلغاء الكتاب:

كنحو قوله: «. . . ودبت عقارب التشاحن بينهم إلى أن دبر الأمراء الجدد الأمر»[5]، وقوله: «. . . فتزايد البلاء على أهل البلد، وندموا حيث لا ينفع الندم»[6]، وقوله: «. . . وفيه - أي في ذي القعدة سنة أربع وثمانمائة - خرج الأمراء عن بكرة أبيهم»[7]، وقوله: «. . . فقيل أرادوا بذلك قص جناحه»[8]، وقوله: «. . . وعادوا بخفي حنين»[9].

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٨.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٩٨.
(٣) نفسه ج ٣ ص ٥٠.
(٤) نفسه ج ٣ ص ٢٠٨.
(٥) نفسه ج ٢ ص ٩٤ - ٩٥.
(٦) نفسه ج ٢ ص ١٣٨.
(٧) نفسه ج ٢ ص ٢٠٧.
(٨) نفسه ج ٢ ص ٦٩.
(٩) نفسه ج ٣ ص ٦٩.

٤ ـ تـوارد الكثير من اصـطلاحــات وتعبيــرات العصر في سيـاق عباراته:

ومن ذلـك قـولـه: «خلع عليه»[١]، «انكسر»[٢]، «نفي بـطالاً»[٣]، «ضـرب مـقـتـرحـاً»[٤]، «عـصـر»[٥]، «وسـط»[٦]، «الـتـسـعيط»[٧]، «سمر»[٨]، «رسـم عليه»[٩]، «الكشف عما استولى عليـه»[١٠]، «جرس»[١١]، «نودي عليه»[١٢]، «دق الكوسات»[١٣]، «صناجق»[١٤]، «الكتابيـة الصغار»[١٥]، «مغل الأمراء»[١٦]، «سماط»[١٧]، «تفصيلة»[١٨]، «مراسيم بمساميح»[١٩]، «ميسم اللحم»[٢٠].

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠١.
(٢) نفسه ج ٢ ص ١٦.
(٣) نفسه ج ٢ ص ١٩.
(٤) نفسه ج ٢ ص ١٠٤.
(٥) نفسه ج ٢ ص ١١٢.
(٦) نفسه ج ٢ ص ١٨.
(٧) نفسه ج ٢ ص ٨.
(٨) نفسه ج ٢ ص ٢٠.
(٩) نفسه ج ٢ ص ٢٠٠.
(١٠) نفسه ج ٢ ص ٢٠٠.
(١١) نفسه ج ٢ ص ١٠٤.
(١٢) نفسه ج ٢ ص ٢٠١.
(١٣) نفسه ج ٢ ص ٩٥.
(١٤) نفسه ج ٢ ص ١٢.
(١٥) نفسه ج ٢ ص ٢٠.
(١٦) نفسه ج ٢ ص ٩٤.
(١٧) نفسه ج ٢ ص ١٢.
(١٨) نفسه ج ٢ ص ٢٣٧.
(١٩) نفسه ج ٢ ص ٢٣٨.
(٢٠) نفسه ج ٢ ص ٢٠٧.

٥ - التأثر بالقرآن الكريم والإقتباس منه:

كنحو قوله: «. . . ويحتمل الصحة ليقضي الأمر المقدم: إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً»(١)، وقوله: «. . . وفيه هرب نجم الدين ابن حجي مغاضباً لنائبها»(٢)، وقوله: «. . . فلما جن عليهم الليل. . .»(٣)، وقوله: «. . . مات بسبب صاعقة سقطت على حصنه المسمي قوارير من زجاج فارتاع من صوتها فتوعك ثم مات في سادس عشر جمادي الآخرة. قال الله تعالى (و) تبارك: «ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء»(٤).

٦ - تضمين الكتاب الكثير من أبيات الشعر، سواء من انشاده(٥) أو روايته عن غيره:

بل وتوجيه تلك الشواهد الشعرية وجهة تأريخية نقدية.

٧ - الابتعاد عن السجع والتكلف في اللفظ:

الذي غالباً ما أفسد المعنى وأغلق العبارة لدى غيره من المؤرخين(٦) - وإن حافظ في مواضع متعددة من «الإنباء» على منقوله المسجوع، على الرغم من عمده إلى التصرف في النسق التعبيري المصاحب لكثير من منقولاته»(٧).

ومن أمثلة ذلك قوله - نقلاً عن ابن حبيب - في ترجمة «البهاء السبكي»

---

(١) المصدر السابق ج ١، ص ١٩، ويقابلها: سورة آل عمران، آية ١٧٨.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٣٧، ويقابلها: سورة الأنبياء، آية ٧٨.

(٣) نفسه ج ٢ ص ١٩٥، ويقابلها سورة الأنعام، آية ٧٦.

(٤) نفسه ج ٢ ص ٣٣١، ويقابلها: سورة الرعد، الآية ١٣.

(٥) كنحو ما ورد من شعر له في رثاء الزين العراقي - نفسه ج ٢ ص ٢٧٧، والسراج البلقيني والعراقي - نفسه ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ - وقوله في التاج والعلم البلقينيين - ضمن حوادث حولية خمس وعشرين وثمانمائة - نفسه ج ٣ ص ٢٨٠، وقوله معرضاً بالعيني في مناسبة سقوط منارة المؤيدية - نفسه ج ٣ ص ١٤٦.

(٦) كابن حبيب في كتابه «درة الأسلاك في دولة الأتراك.

(٧) راجع الفصل المعقود للمصادر من هذا البحث.

(ت ٧٧٣ هـ. /١٣٧٢ م.): «.. وقال ابن حبيب: إمام علم، زاخر اليم، مقرون الجم، وفضله مبذول لمن قصد وأم، وقلمه كم باب عدل فتح، وكم شمل معروف منح»[١].

والحق أن «ابن حجر» كان معجباً بكل أسلوب أدبي يبتعد به كاتبه عن اللحن الظاهر، ولعل هذا كان دافعاً له على انتقاد «البدر العيني» في مقدمة «الإنباء»[٢]، بل والتصرف في النسق التعبيري للعديد من منقولاته عن مصادره ارتقاء بعبارتها.

٨ ـ استعمال المختصرات في التراجم والحوادث:

سواء في الإسناد إلى المصادر، أو في الألفاظ والتعبيرات المؤدية للمعنى، كنحو قوله: «قال القاضي في الذيل»[٣] مشيراً بذلك إلى قاضي حلب «علاء الدين بن خطيب الناصرية» في مؤلفه «الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب» الذي ذيل به على تاريخ «ابن العديم»[٤]، وقوله في حوادث حولية ثمانمائة: «... ووصل تغري بردى ـ الذي كان نائب حلب **فأعطي إقطاع شيخ الصفوي**، ونفي **شيخ** إلى القدس بطالاً، واستمر بيبرس ـ ابن أخت السلطان ـ أمير مجلس عوضاً عن **الصفوي**»[٥]. ويلاحظ الإختصار في الاسم على الشق الأول منه، فالثاني على التتابع، ويمثله قوله: «تمرلنك»[٦]، و«تمر»[٧]، و«اللنك»[٨]،،

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٢٣.

(٢) نفسه ج ١ ص ٤، حيث ورد فيها قوله: «... وربما قلده ـ أي ربما قلد العيني ابن دقماق ـ فيما يهم فيه حتى في اللحن الظاهر، مثل أخلع على فلان».

(٣) نفسه ج ٣ ص ٣٩٦.

(٤) راجع: طرق الإسناد إلى المصادر من هذا البحث.

(٥) نفسه ج ٢ ص ٨.

(٦) نفسه ج ٢ ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٧) نفسه ج ٢ ص ٢٢٥.

(٨) نفسه ج ٢ ص ١٨.

والنسب إليه في قوله: «ابن اللنك»[1]، و«ولد تمر»[2]، وقوله: «اللنكية»[3] و«التمرية»[4].

٩ ـ المزاوجة في التدوين التأريخي بين الأرقام والحروف:

ومنه قوله في ترجمة «الجمال المكي» (ت ٨١٥ هـ. / ٢١٤١٣ م.): «. . . ولد سنة ٧٤٢ . . . ومات في سابع شهر رجب سنة **خمس عشرة وثمانمائة**»[5].

١٠ ـ ضبط الأسماء في الأعلام والأنساب والأمكنة بالحروف وليس شكلاً بالقلم:

كنحو قوله: «جمال الدين المكي الحلوي ـ بفتح المهملة واللام الخفيفة ـ المعروف بابن العليف ـ بمهملة ولام وفاء مصغر . . .»[6]، وقوله: «. . . عبدالله بن عمر بن مجلي بن عبد الحافظ البيتليدي ـ بفتح الموحدة وسكون التحتانية، وفتح المثناة بعدها لام مكسورة خفيفة ثم تحتانية ساكنة»[7]، وقوله: «. . . وهو من شقان ـ بضم المعجمة، وتشديد القاف وآخره نون ـ من السواحل بين جدة وحلي»[8]، وقوله «. . . محمد بن أبي بكر المالكي الكتامي ـ بضم الكاف وتخفيف المثناة ـ إلى حارة كتامة من القاهرة»[9].

١١ ـ الإفصاح عن رأيه وانفعالاته بعبارات وألفاظ سافرة:

كنحو قوله: «. . . فإن الأيام لم تمض إلا قليلاً حتى طرق (تمرلنك)

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٨.

(٢) نفسه ج ٢ ص ١٩.

(٣) نفسه ج ٢ ص ١٥٩.

(٤) نفسه ج ٢ ص ٢٣٦.

(٥) نفسه ج ٢ ص ٥٣٢.

(٦) نفسه ج ٢ ص ٥٣٢.

(٧) نفسه ج ١ ص ٥١٨.

(٨) نفسه ج ١ ص ٤١.

(٩) نفسه ج ٩ ص ٨٥.

البلاد، **فلا حول ولا قوة إلا بالله**»(١)، وقوله: «. . . فدخل الفرنج البلد في شعبان من هذه السنة ـ سنة سبع عشرة وثمانمائة ـ ونقلوا ما كان بها حتى الكتب العلمية. . . **وتركوها قاعاً** خراباً، ومع ذلك فهي بأيديهم فلا قوة إلا بالله»(٢). وقوله: «. . . وفيها ـ أي في سنة سبع وثمانمائة ـ مات **الطاغية** تمرلنك الخارجي. . . فأخذه أسر البول فتمادى به حتى **هلك** بالقولنج **وأراح الله منه**»(٣)، **وقوله**: «. . . **الحطي الحبشي**،ملك الحبشة الكافر، **لا رحم الله فيه بغرز ابرة**»(٤).

كما أن من التعبيرات ما يظهر **تطهيره من بعضهم**، نحو قوله: «. . . وكان مشئوم النقيبة، ما كان في عسكر قط إلا انهزم، ولا حفظ له أنه ظافر في وقعة قط»(٥)، ومنها قوله **مبيناً عن شماتته**: «. . . فاستخلص منه أموالاً جمة، منها في يوم واحد مائة وخمسون ألف دينار، وأخرجت ذخائره على النحو الذي كان هو يدبره في أمر محمود سواء»(٦).

١٢ ـ استعمال اصطلاحات ومختصرات المحدثين:

كنحو قوله في روايته للخبر في بعض المواضع: «أخبرني ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم الحنفي إذناً، وكتبته من خطه، قال: أخبرني الشيخ شمس الدين بن الصائغ أنه شاهد بجامع عمرو أكثر من خمسين متصدراً يقرأ عليهم الناس العلوم. قلت: وأدركت أنا في الجامع. . .»(٧)،وقوله تبياناً لمرويات إحدى ترجمات وفياته(٨): «. . . وقرأ على أحمد بن العماد وأبي بكر بن العز ـ

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١١٠.
(٢) نفسه ج ١ ص ٤١.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٢٩٩.
(٤) نفسه ج ٣ ص ٥٦٢.
(٥) نفسه ج ٥١.
(٦) نفسه ج ٢ ص ١٢.
(٧) نفسه ج ١ ص ٩٥ تر ٧٦.
(٨) نفسه ج ٩ ص ١٧٨ فيما يختص بابن الطحان الحنبلي (ت ٨٤٥ هـ./١٤٤٢ م).

شيخنا بالإجازة ـ ومحمد بن الرشيد وعبد الرحمن ـ ابن السبط ـ كتاب التوكل لابن أبي الدنيا، قالا: أنا العماد أبو عبدالله محمد بن يعقوب الجرائدي، ويحيى ابن سعد، **قالا أنا** عبد الرحمن بن مكي وعلي بن أبي بكر بن يوسف بن عبد القادر الخليلي جزءاً في فضل ركعتي الفجر وغير ذلك من أمالي القاضي أبي عبدالله المحاملي: **أنا** محمد بن غازي بن الحجازي **أنا يحيى بن محمد القرشي أنا** عبد الصمد بن محمد الأنصاري **أنا** عبد الكريم بن الخضر السلمي أنا الخطيب بسنده»(١).

١٣ ـ التكرار: ويأخذ أشكالاً ثلاثة هي:

أولاً ـ تكرار عنصر الخبر مما يتسبب في ركاكة بعض العبارات، كنحو قوله: «. . .واستقر ولده برهان الدين ـ واسمه أحمد الحنفي ـ في امرتها، وكان برهان الدين واسمه أحمد الحنفي اشتغل ببلاده»(٢).

ثانياً ـ تكرير الخبر في أكثر من موضع ـ في الحولية ـ واهماً، كنحو قوله في حوادث حولية أربع وتسعين وسبعمائة: «. . . وفيه ـ من صفر منها ـ جهز حسن الكجكيني بهدية إلى صاحب الروم»(٣) ثم عوده إلى إثبات الخبر ـ في الحولية نفسها ـ بالصورة التالية: «. . . وفيها أرسل السلطان نائب الكرك حسن الكجكيني إلى ابن عثمان صاحب الروم بهدايا جليلة»(٤).

ثالثاً: الخطأ في التأريخ بنقل الخبر من حوليته إلى غيرها، فيكون بذلك قد أرخ له في موضعين: الأول على وجه الصواب، والثاني مجانب له، كنحو قوله في حولية ثمانمائة: «. . . وفي جمادى الأولى انتزع السلطان الأسكندرية من ابن الطبلاوي وأعيدت لناظر الخاص»(٥) ثم عوده إلى ذكر ذلك في الحولية التالي لها ـ سنة ٨٠١ قائلاً: «. . . وفي جمادي الآخرة انتزع السلطان الأسكندرية من ابن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٠.

(٣) نفسه ج ١ ص ٤٣٤.

(٤) نفسه ج ١ ص ٤٣٩.

(٥) نفسه ج ٢ ص ٢١.

الطبلاوي وأعادها لناظر الخاص». . [1] ويلاحظ التباين في التأريخ فيهما ـ فضلاً عن اختلاف الإسناد إلى الحول الواقع فيه الحدث ـ في الشهر كذلك.

١٤ـ التبييض لمواضع كثيرة في الكتاب:

ولما كان «ابن حجر» قد ترك «الإنباء» في مسودته، فإنه من الطبيعي أن ترد فيه مواضع وقد تركت فيها فراغات لاكمالها ـ فيما بعد ـ فكان منها ما تعلق باكتمال الخبر وتتميمه، كنحو قوله: «. . . وفي هذا اليوم ـ أول المحرم سنة سبع عشرة وثمانمائة ـ هبت ريح شديدة تلاها رعد عظيم وبرق ومطر وبرد ملأ وجه الأرض، كل واحدة قدر. . . وأكبر من ذلك»[2]. ومنها ما تعلق باكتمال اسم المترجم له، كنحو قوله: «. . . أحمد بن. . . البشبيشي»[3]، ومنها ما تعلق بضبط التواريخ سواء في المولد ـ نحو قوله: «. . . ومولده في . . . وخمس وسبعمائة»[4]، أو الوفاة ـ كنحو قوله: «. . . وقد تقدمت وفاته في. . .»[5] ـ أو الاستقرار في الوظيفة ـ كنحو قوله: «. . . وكان استقر في التوقيع سنة. . . فأقام في ذلك. . . أربعين سنة»[6]، أو ضبط تاريخ أعمالهم ـ كنحو قوله: «. . . فثارت بينهما الفتنة في شوال. . . وكان لهم وقعة»[7] ـ ومنها ما تعلق بتقدير ثقافة المترجم له وتقييد شيوخه، كنحو قوله: «. . . وسمع الحديث من. . . وتقدم في الفقه»[8]

١٥ ـ التناقض في بعض التراكيب والعبارات:

ومنها قوله: «. . . وفي أولها ـ أول سنة خمس وثمانمائة ـ استولى تمرلنك

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٨.
(٢) نفسه ج ٣ ص ٣٥.
(٣) نفسه ج ١ ص ٤٩٧ تر ٨.
(٤) نفسه ج ٩ ص ١٩٤.
(٥) نفسه ج ٣ ص ٤٠٩ تر ٦.
(٦) نفسه ج ٩ ص ١٨١.
(٧) نفسه ج ٢ ص ٣٦٥ تر ١٤.
(٨) نفسه ج ٣ ص ٣٧٩ تر ٩.

على أبي يزيد بن عثمان وأسره وأسر ولده موسى، ثم قتل أبو يزيد. . . ومات أبو يزيد بن مراد في أسر تمر، وكان مطلقاً فأدركه أجله إما من القهر أو من غيره»[1].

١٦ ـ الشمول الموضوعي:

لما كانت نظرة «ابن حجر» للتأريخ نظرة شمولية، فإنه كان دائب الخروج على تنظيم حولياته، عمداً إلى إعطاء نظرة شمولية يكتمل فيها الحدث بتتابعه وتسلسل عناصره في موضع واحد، حيث يعمد إلى الربط بين عناصر الخبر الواحد لتكتمل صورته، وإن تفرقت عناصره في حوليات مختلفة متخطياً بذلك الحيز الزماني الذي اختط لمادة كتابه، وهو مع هذا مدرك لذلك ملح عليه، مشير إليه.

والدليل على ذلك قوله ـ في حوادث حولية ثلاث وسبعين وسبعمائة ـ بخصوص تملك «تمرلنك» وقد أتى في موضع واحد بحوادث متعلقة بذلك امتدت بين حوليتي ثمان وعشرين وسبعمائة، وثلاث وسبعين وسبعمائة المؤرخة بها: «. . . وسيأتي ذلك في ترجمته سنة سبع وسبعين وسبعمائة وإنما جمعت هذه الأخبار مع أنها لم تكن في سنة واحدة لتسهل معرفتها على من أراد أن يعرف أولية اللنك»[2].

وهو بهذا يكون قد أشار إلى مبتغاه من الشمول الموضعي لموضوع حوادثه:

ـ معرفة أولية الخبر بضم عناصره وتفسيره.

ـ تواليه.

ولذاك فإنه ـ غالباً ـ ما يشير في ثنايا مثل تلك المواضع إلى السببية كنحو قوله: «وكان السبب. . .»[3]، «والسبب في ذلك. . .»[4]، وكان أصل

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(٢) نفسه ج ١ ص ٢١.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٩.

(٤) نفسه ج ٢ ص ٢٦٤.

ذلـك. . .»[1]، «وأصـل ذلـك. . .»[2].

وقد يكون الهدف من الشمول الموضعي لموضوع الحوادث هو توجيهها وجهة نقدية، حيث لايكون فيها متتبعاً لتسلسل عناصره، وإنما مفصحاً عن حال المتعلق به الحدث، كنحو قوله ـ في حوادث حولية سبع وثمانمائة بخصوص زواج «شيخ المحمودي» من أخت «الناصر فرج» لأمه: «. . . وفيها في جمادي الأولى جهزت بنت تنم، وهي أخت الناصر لأمه إلى الشام، وتلقاها زوجها ـ نائب الشام ـ شيخ، فدخلت في جمادي الآخرة، فدخل بها وأولدها ومات عنها، وتزوجت بعده بعض الأمراء الصغار، وماتت في عصمته سنة ست وثلاثين»[3]. وهو هنا يتتبع حالة ولا يدون خبراً، وإلا لما ورد الخبر على هذه الصورة بين زفاف فترمل فزواج فموت. .

وقد يكون الشمول الموضعي لموضوع الحدث موظفاً للإبانة عن تعاطفه مع إحدى الشخصيات السياسية، والتأثير على مطالع تاريخه وقد تقرر لديه دوافع ذلك استناداً إلى مظاهر طبيعية، كنحو قوله في حوادث حولية أربع وثمانمائة: «. . .وفي رجب منها ظهر كوكب كبير قدر الثريا له ذؤابة ظاهرة النور جداً، فاستمر يطلع ويغيب، ونوره قوي يُرى مع ضوء القمر حتى رؤي بالنهار في أوائل شعبان، فأوله بعض الناس بظهور ملك شيخ المحمودي، فإنه نقل في هذه السنة بعد خلاص يشبك إلى نيابة دمشق عوضاً عن آقبغا الجمالي في ذي القعدة، وقرر في نيابة طرابلس بعد دمرداش، واستقر قدم شيخ بدمشق فلم يزل يترقى بعد ذلك حتى ولي السلطنة، واستمر بعد هذه الحادثة عشرين سنة ـ كما سيأتي تفصيله ـ أميراً وسلطاناً. . .»[4].

وهو بهذا لا يسجل أرصاداً فلكياً، وإنما يوظفه لخدمة غرض نقدي بحت كما يظهر من سياق العبارة، ومن تخير ألفاظها.

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٢.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٣٢.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٢٩٨.

(٤) نفسه ج ٢ ص ٢٠٦.

وقد يكون الشمول الموضعي متعلقاً برواية الأخبار وتتبع الإخبار عنها والتأريخ لها كنحوقوله: «. . . وكانت الوقعة في خامس عشر ذي القعدة ووصل خبرها إلى الشام في ذي الحجة، ووصل إلى مصر في أواخرها»(١).

كما أن «ابن حجر» في طريقه إلى الشمولية التأريخية قد اتبع طريقة تقليدية لدى الكتاب الحوليين، لم تخرجه عن التنظيم الحولي المعتبر لديهم، وهي الإحالة في التراجم والحوادث على معلومات فائتة أو لاحقة في كل، وهو ما سوف يدرس تفصيلاً في العلاقة بين التراجم والحوادث من هذا الفصل.

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٥٧.

الفصل الثاني

طبيعة الكتاب وأسس انتقاء مادته

طبيعة الحوادث وأسس انتقاء مادتها:

اشتمل «الإنباء» على الحوادث الواقعة في الفترة من سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، إلى سنة خمسين وثمانمائة، أي الفترة الأخيرة من حكم السلطان «الأشرف شعبان»، و «الظاهر برقوق»، و «الناصر فرج»، و «المؤيد شيخ المحمودي» و «الظاهر ططر» و «الأشرف برسباي»، وجزء من سلطنة «الظاهر جقمق».

ولم يقف «ابن حجر» به عند الحوادث السياسية ـ فقط ـ وإنما تناول معها الأوضاع السياسية، والإدارية، والإقتصادية، والإجتماعية، والدينية، والثقافية.. ليس في مصر والشام وحدهما، بل وفي الحجاز، والعراق، واليمن، والمغرب العربي، وسائر بلدان العالم التي كانت لها علاقات بالمجتمع الإسلامي ـ إذ ذاك ـ أو بدولة المماليك على وقته، عامداً إلى إيجاد نوع من الشمول النوعي، والشمول المكاني لحوادث حولياته، وإن استأثرت حوادث دولة المماليك ـ في هذه الفترة ـ بالحيز الكبير من كتابه، باعتبار أنها دولة الخلافة، وباعتبار أن «ابن حجر» قد ولد على أرضها، ونشأ فيها، وعاش في كنفها.

كما أنه لم يفرد مكان الصدارة في حولياته لنوع معين من الحوادث، وإنما كان ذلك قسمة مشتركة بين سائر الأنواع الواردة في كتابه، المشتكلة لمادته، اللهم

إلا أن تكون لمثل تلك الحوادث المفردة بالصدارة في بعض الحوليات غلبة على عصره أو فكره، لما لها من تأثير على الرأي العام في وقته(١).

ولذا نجده يعني إبتداء بأولى حوليات الكتاب، وانتهاء بآخر حولياته بإيراد قوائم الإستقرارات الوظيفية، وما يطرأ عليها من تغيرات، باعتبار أن تلك الوظائف أو المناصب سوف يكون لها تأثير في تحريك الكثير من الحوادث المنسوبة إلى شاغليها.

كما أورد الكثير مما تعلق بترقي أو عزل الأمراء والجند(٢).

ويلاحظ أن «ابن حجر» لم يورد هذه الإستقرارات - في كثير من الأحيان مجردة، وإنما كان معنياً بالكشف عن ما يعتريها من الإختلال أو الإستقرار والإنتظام معللاً وناقداً، ومن أمثلة ذلك قوله في حوادث حولية تسع وثمانمائة: «. . . ووقع في هذه السنة، والتي قبلها، والتي بعدها من تلاعب الجهلة بمنصب الحسبة ما يتعجب من سماعه، حتى إنه في الشهر الواحد يليه ثلاثة أو أربعة، وسبب ذلك أنهم فرضوا على المنصب مالاً مقرراً، فكان من قام في نفسه أن يليه يزن المبلغ المذكور ويُخْلَع عليه، ثم يقول آخر فيزن ويُصْرَف الذي قبله، واستمر هذا الأمر في أكثر دولة الناصر فرج»(٣).

كما كان حريصاً على ذكر ما تعلق بهذه الوظائف من رسوم تقضي باستحداث منصب - كنحو قوله في حوادث حولية اثنتين وثمانين وسبعمائة: «. . . وفي الثالث من ذي الحجة أفرد (الظاهر برقوق) للذخيرة والمتجر، وخاص الخاص، والمستأجرات والأملاك - ناظراً، وهو أول من أفرد بذلك»(٤) - أو الجمع بين

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢، ص ١٣٣ - ١٤٠، حيث أفرد بالصدارة في حولية اثنتين وثمانمائة غلبة المغول على حلب ودمشق، ثم أتبع ذلك بباقي الحوادث وقد عنونت بقوله: «ومن الحوادث غير قصة تمرلنك. . .».

(٢) نفسه ج ١ ص ١٣١، ١٥٦، ٢٣٢.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٣٦٠.

(٤) نفسه ج ١ ص ٢١٩.

وظيفتين على غير عادة ـ كنحو قوله في حوادث حولية ست عشرة وثمانمائة: «. . . وأضيفت الحسبة إلى صدر الدين بن الأدمي، وهو أول من جمع بين القضاء والحسبة»[1] أو تبطيل بعض الوظائف ـ كنحو قوله في حوادث حولية ست وثمانمائة: «. . . وفيها رسم بإبطال القاضيين: المالكي والحنبلي من القدس، فأبطلا منه، ومن غزة»[2].

لكن مع هذا فإنه لا يمكن أن نستخرج قوائم استقرارية مطردة ومنتظمة لتلك الوظائف أو المناصب الواردة في حوادث حولياته فيما عدا منصبي الخلافة والسلطنة.

كما أورد الكثير مما تعلق بالناحية السياسية، سواء فيما يخص علاقات الدولة المملوكية بالمغول والصليبيين (الفرنج) والتركمان والحبشة وأولاد الكنز والعراق. . موردا تفصيلات عن هذه النواحي، وما يحدث فيها من تقلبات سياسية وعسكرية، وإتصالات بالدولة المملوكية، سواء بالإغارة والحروب أم بالتراسل وبتادل الهدايا والزيارات.

كما كان معنياً بذكر الكثير مما تعلق بالناحية السياسية داخلياً، سواء بالنسبة للتغاير على منصب السلطنة، نتيجة لوفاة سلطان سابق وتقليد سلطان لاحق بعهد منه أو نتيجة لتغلب مدبر المملكة أو أتابك العسكر على المنصب أو بخروج بعضهم على سلطانه وحربه، مما يؤدي إلى عزله وسجنه أو قتله وتولي غيره.

وكذا الإفصاح عن إطاعة الأمراء ونواب السلطنة للسلاطين، وعلامة هذه الطاعة أو تأليبهم على السلطان، وتطاولهم عليه، وانتقاصهم من السلطنة المركزية بالعاصمة. مشيراً إلى ما يتبع ذلك من التغاير في كثير من المناصب، وإنزال الكثير من أنواع العقوبات كالقبض[3] والسجن أو الحبس[4]

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١١.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٦٧.

(٣) نفسه ج ١ ص ١٥٦.

(٤) نفسه ج ١ ص ١٥٤.

والاعتقال[١] أو النفي[٢] والإهانة[٣] والضرب[٤] والتقييد بقيد ثقيل[٥] والتسمير[٦] والتوسيط[٧] والعصر[٨] والتسعيط[٩].. فضلاً عن الحوطة على الموجود[١٠] والمصادرات[١١]. وهو ما يتبع في مثل هذه الحالات، وفي حالات التقصير والعزل من بعض المناصب في الإدارة المملوكية.

كما أبرز الكثير من أعمال السلاطين تصدياً لمثل تلك الحالات، وكذا ما يقع في أيامهم من حروب أو إغارات العربان على تخوم البلاد وإفسادهم فيها وتصديهم لهم، وما يكون في عهدهم من الفتوحات.

وأبان عن تصرفاتهم ـ وكذا الأمراء والمماليك ـ المتصلة بالشرع والدين من إعزاز لجانبه أو انتقاص له وتطاول عليه وما يكون من الجور والفساد الواقع من المماليك أو أرباب المناصب والولايات وتشكي الأهالي منهم للسلطان أو ثوراتهم عليهم.

وهو مع هذا لا يغفل رد فعل مثل تلك الحوادث السياسية وغيرها لدى الرأي العام (رجل الشارع) ووقعها على أنفس الناس.

كما اهتم بإبراز أعمال السلاطين والأمراء فيما يختص بالعمارة والبناء، سواء ببناء المدارس أو الجوامع والوكالات والحمامات وبعض البيمارستانات

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٧٠.
(٢) نفسه ج ١ ص ٤٥.
(٣) نفسه ج ١ ص ١٧٠.
(٤) نفسه ج ١ ص ٢١٦.
(٥) نفسه ج ١ ص ٢٧٦.
(٦) نفسه ج ١ ص ١٥٨.
(٧) نفسه ج ١ ص ١٧٢.
(٨) نفسه ج ٢ ص ١٢.
(٩) نفسه.
(١٠) نفسه ج ١ ص ٢١٦.
(١١) نفسه ج ١ ص ١٧٠.

والأبراج والأسوار والجسور والقناطر والترع وما يستجد من العمارة أو إصلاح للقلعة أو تجديد لحكر.

وهو مع هذا لم يغفل الجانب الخاص من حياة السلاطين، ذاكراً لمرضهم[١] وتعافيهم[٢] وسرحاتهم (تنزهاتهم)[٣] وخروجهم للصيد[٤] وحضورهم المواكب[٥] والأعياد[٦] والموالد[٧] وإقامة الزينات لهم[٨] وما يقع لهم ولكبار موظفيهم من الزيجات[٩] وما يتبع ذلك من التبشير بإنجاب الذكور (الأولاد)[١٠] وعمل المهمات لطهورهم (ختانهم)[١١] وكذا لعبهم بالأكرة[١٢] والرمح[١٣] وغيره.. وشربهم المسكرات[١٤] وعيادتهم المرضى من الخاصة[١٥] والعامة بالمارستان[١٦].

كما اهتم بإثبات الكثير من المراسم الصادرة عن الإدارة المملوكية فيما يتعلق بتمايز الأشراف[١٧] أو ما يستجد من اللباس لكبار الأمراء[١٨] أو التغاير في

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٧، ٥٣٠، ج ٢ ص ٣٨، ٢٩٩، ج ٣ ص ٣١٨، ١٥٤.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٣١٦، ج ٣ ص ٢١٧.

(٣) نفسه ج ١ ص ٢٦٢، ج ٣ ص ١٥، ١٥٥، ٢٠١، ٣٠٠.

(٤) نفسه ج ٣ ص ٤٥٥.

(٥) نفسه ج ١ ص ٥٢٤.

(٦) نفسه ج ٣ ص ٢٠٢.

(٧) نفسه ج ١ ص ٤٨٧، ج ٣ ص ١٦٢، ٣٠٠.

(٨) نفسه ج ٢ ص ٩، ٣٧.

(٩) نفسه ج ١ ص ٣١٢، ٢/١٩٩، ٢/٢٣٩، ٢/٥١٥، ٣/١٣..

(١٠) نفسه ج ٣ ص ١٦٢.

(١١) نفسه ج ١ ص ١٠٣، ج ٢ ص ١٤.

(١٢) نفسه ج ٢ ص ١٥.

(١٣) نفسه ج ١ ص ٢٣١.

(١٤) نفسه ج ١ ص ٣٥١، ٤٨٧.

(١٥) نفسه ج ١ ص ٣٨٦، ٥٢٧.

(١٦) نفسه ج ٣ ص ١٦٣.

(١٧) نفسه ج ١ ص ١٠.

(١٨) نفسه ج ١ ص ١٥.

اللباس تبعاً للإختلاف في الفصول[1] أو تحديد عدد الشهود ونواب الحكم[2] أو إستعمال دواب الحمل والإنتقال[3] أو شرب مشروب جديد[4] أو تقييد زواج بعض الطوائف[5] أو تبطيل بعض المكوس والضمانات[6] أو تسعير بعض السلع[7] أو تحجير بعض الأصناف[8] أو عدم البيع بالنسيئة (بالأجل)[9] أو القيود على بعض الموظفين ـ كمباشرة الديوان، وقد صدر مرسول بعدم إسنادها إلى نصراني[10] ـ أو كيفية الدعاء في خطبة الجمعة للسلطان[11]، بل، وحتى ما يخص مسك الكلاب.[12].

وكذا تسجيل أحوال النيل والحالة الإقتصادية في مصر والقاهرة[13] والشام[14] ودمشق[15] وحلب[16] والحجاز[17].

وما يتبع ذلك من إختلاف وتغاير في أسعار بعض العملات[18] أو الشروع

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٠.

(٢) نفسه ج ١ ص ٢١٨.

(٣) نفسه ج ١ ص ٤٠٢.

(٤) نفسه ج ١ ص ٣٥١.

(٥) نفسه ج ٣ ص ٩٠.

(٦) نفسه ج ٢ ص ٢٣٨.

(٧) نفسه ج ٢ ص ٢٣٨.

(٨) نفسه ج ٣ ص ٤٢٣.

(٩) نفسه ج ٣ ص ٢٧٢.

(١٠) نفسه ج ٣ ص ٢٧١.

(١١) نفسه ج ٣ ص ٩٢.

(١٢) نفسه ج ١ ص ١٩١.

(١٣) نفسه ج ١ ص ١١٥، ١/٢٥٧..

(١٤) نفسه ج ١ ص ٣٤٩.

(١٥) نفسه ج ١ ص ٢١٨.

(١٦) نفسه ج ١ ص ٧٦.

(١٧) نفسه ج ١ ص ٢٣٦.

(١٨) نفسه ج ٢، ص ٣٧، ٤٦١، ٤٨٧.

في تبـطيلها[١] واستجـداد عملات أخـرى[٢] أو حدوث زيف فيهـا يؤدي بها إلى الفساد[٣].

وما يكون من مجاعات يعـز فيها القـوت وتؤكل الميتـة، فضلاً عن القـطط والكـلاب[٤] ويتخطف فيهـا الخبز من أسـطح الأفران[٥] والغـلال من المـراكب بـالمواني‌ء[٦] ومـا تتخذه الـدولـة، وأهـل المـروءة من تـدابـير لمعـالجـة مثـل تلك الحـالات، سواء بـالنفقة في الفقـراء والمحتاجـين[٧] أو بجلب الحبوب من أمـاكن توفرها، والإلزام ببيعها ولو بالخسران[٨] وكـذا الزام الميـاسير من النـاس بإطعـام المحتاجين، كـل حسب ما يحتمـل ويطيق[٩]، وفك المحبوسـين على الديون[١٠] وتكفين الموتى من الطرحاء والفقراء ودفنهم[١١].

ومـا يصـاحب ذلـك في بعض الأحيـان من تعـديـلات في الإستقـرارات الوظيفية خاصة منصب المحتسب[١٢] إرضاء للعامة وتسكيناً للحال.

واهتم ـ كذلك ـ بذكر بعض النكبات المتسببة عن الفيضـانات المفرطة[١٣]

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٠١.
(٢) نفسه ج ١ ص ٣٣٥، ج ٢ ص ٤٠٣، ج ٣ ص ١٢٥.
(٣) نفسـه ج ١ ص ٤٣٩، ج ٢ ص ٥١.
(٤) نفسه ج ١ ص ١٠٤، ١٣٢.
(٥) نفسه ج ٣ ص ٦٩.
(٦) نفسه ج ٣ ص ٧٠.
(٧) نفسه ج ١ ص ٥٠٧، ٥٠٨، ج ٢ ص ٣٨، ج ٣ ص ٨٥.
(٨) نفسه ج ٣ ص ٧٢.
(٩) نفسه ج ١ ص ٧١.
(١٠) نفسه ج ٢ ص ٢٥٣.
(١١) نفسه ج ٢ ص ٢٦٠.
(١٢) نفسـه ج ١ ص ٥٩.
(١٣) نفسه ج ١ ص ٦٢، ٦٣.

والحرائق[١] وتهدم بعض المباني والدور[٢] وخسوف بعض المدن[٣] والطواعين والأمراض[٤] وما يصاحب ذلك من غلاء في أسعار البطيخ وبعض المرطبات، والسكر النبات، والزيت الحار، أو إختفاء وندرة كل باعتبار أنها من الأدوية المستخدمة في العلاج، وكذا تزايد الموتى في الكبار والصغار من الإنسان والحيوان[٥].

كما اهتم بأمر الحاج وما يتبع ذلك من تجهيز الكسوة[٦] وتجديد ثوب المحمل[٧] وإدارته[٨] والعادة في ذلك[٩] وتعيين أمير الحاج[١٠] وعودة مبشرة[١١] وحج بعض الشخصيات الهامة[١٢] وما يصادف الحجيج من مشاق: كالأمطار والسيول[١٣] أو العطش والحر[١٤] أو النهب في الطريق[١٥] أو الإزدحام المفضي إلى الموت[١٦] أو ما قد يصادفهم هناك من الغلاء المفرط[١٧]. أو يقع لهم من مضايقات أمير الحاج عينه[١٨].

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٥.
(٢) نفسه ج ٣ ص ٧٤.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٣٥٩.
(٤) نفسه ج ٣ ص ١٤.
(٥) نفسه ج ٣ ص ١٤٣.
(٦) نفسه ج ١ ص ٤٠١، ج ٣ ص ٢٠٠.
(٧) نفسه ج ١ ص ٢٧٧.
(٨) نفسه ج ٣ ص ٥٥١.
(٩) نفسه ج ٣ ص ١٣٥.
(١٠) نفسه.
(١١) نفسه ج ٣ ص ٢٧٩.
(١٢) نفسه ج ٣ ص ٧٧.
(١٣) نفسه ج ١ ص ٣٤٧.
(١٤) نفسه ج ١ ص ٣٣.
(١٥) نفسه ج ١ ص ١٠٦، ١٠٧.
(١٦) نفسه ج ١ ص ٢٦٠.
(١٧) نفسه ج ١ ص ١٩٠.
(١٨) نفسه ج ١ ص ١٧.

كما كان مهتماً بالإفصاح عن مجهودات الدولة حيال إصلاح طريق الحاج وتجديد عمارة مناسكه[1] وكذا بيان ما قد يحدث من التنازع بشأن كسوة الكعبة[2]. . بالإضافة إلى تسجيل خروج الركب الرجبي[3].

ولم يخل حوادث حولياته من إثبات ما تعلق بظهور البدع كادعاء أحدهم النبوة[4] أو ظهور بعض الخوارج[5] أو المستخفين بعقول الناس المغررين بهم[6].

وكذا ما يقع من التنافس على الولايات الدينية[7] والتحاسد بين العلماء إلى الحد المؤدي إلى الإنحطاط والإسفاف[8] وما يتبع ذلك من رمي بالكفر[9] والزندقة[10] وعقد المجالس لبحث الكائنات، وإجراء المحاكمات[11].

كما أبان عن الكثير مما تعلق بالعوام (الزعر) سواء فيما يختص بعلاقاتهم بالسلطات، حيث نصرتهم لبعض المتخاصمين والمحاربين بانحيازهم لجانبهم والرمي على سواهم ونقض داره ونهبه[12] أو فيما يتعلق بفضولهم في تناقل الأخبار واشاعتها[13] أو ما يكون من خروجهم عن الشرع، كنحو تزوج إمرأة برجلين في

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٣٦، ج ٣ ص ٥٤٢.
(٢) نفسه ج ١ ص ١٧٨.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٢٧٥.
(٤) نفسه ج ١ ص ١٩٦.
(٥) نفسه ج ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧.
(٦) نفسه ج ٣ ص ٩٩.
(٧) نفسه ج ١ ص ١٧٨.
(٨) نفسه ج ١ ص ٢٩٠.
(٩) نفسه ج ١ ص ٢٦٢.
(١٠) نفسه ج ١ ٧٦.
(١١) نفسه ج ١ ص ٩.
(١٢) نفسه ج ١ ص ١٩٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٣١٧.
(١٣) نفسه ج ١ ص ١٥١، ١٩١.

آن واحد، شارطة لأحدهما الليل والآخر النهار[1] أو إشاعتهم الفساد وتكالبهم عليه في الحفلات العامة، وموالد بعض الصلحاء[2] أو ممارستهم للفسق والفجور في سلم الجامع في جرأة يتعجب منها[3] أو إشاعتهم الفساد وبثهم الزعر والرعب في القلوب نتيجة لما يتخطفونه وقت الفوضى وأيام الانحلال[4] وتخطفهم الأطفال وخنقهم طمعاً في ملبوسهم[5] واحتيالهم في إخراج الضائع[6] وكذا التكلم من وراء حائط إيهاماً بتحضير جان[7] طلباً للرزق بغير الطريق الحلال.

واهتم - كذلك - بإثبات الكثير مما تعلق بأهل الذمة (اليهود والنصارى) من أحكام سواء فيما يختص بهدم بعض كنائسهم أو أديرتهم[8] أو التضييق عليهم في بعض الأوقات[9] أو دخولهم الإسلام، ثم إرتدادهم عنه، وما يتبع ذلك من تطبيق أحكام شرعية عليهم[10] أو إنصافهم في قضاياهم وإن كان في ذلك إثارة للشعور العام[11] أو تجاوزهم للحد المسكوت عليه[12] وما يقوم به بعض رهبانهم من مباريات فكرية مع المسلمين.[13] وكذا حفلات عرسهم وأعيادهم[14].

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٨.
(٢) نفسه ج ١ ص ٣٥١.
(٣) نفسه ج ١ ص ٤٩٧.
(٤) نفسه ج ١ ص ٢٣٧، ٣١٧.
(٥) نفسه ج ١ ص ٦١.
(٦) نفسه ج ١ ص ١٣٠.
(٧) نفسه ج ١ ص ١٩٨
(٨) نفسه ج ١ ص ١٧٧
(٩) نفسه ج ١ ص ٢٢٠.
(١٠) نفسه ج ١ ص ٩.
(١١) نفسه ج ١ ص ٤٨٩.
(١٢) نفسه ج ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٤.
(١٣) نفسه ج ١ ص ٤٥٧.
(١٤) نفسه ج ١ ص ٢٧٣.

كما أورد الكثير مما تعلق بترجمته الذاتيـة من زواج، ورحلة في طلب العلم وحـج ومجاورة، وتـولى بعض المناصب، والمخـاصمـة فيـه . . عـلى نحـو مـا مـر آنفـاً.

وكذا الكثير مما تعلق بالظواهر المناخية والطبيعية ، كالحر الشديد(١) والبرد القـارس(٢) والريـاح والعواصف(٣) والأمـطار والسيول(٤) ومـا يصاحبهـا من رعـد وبرق أو سقـوط برد وتـزلق طرقـات والخوض في الـوحل والمـاء، وتصـدع الدور، وإتلاف الزروع. وكذا كسـوف الشمس وخسوف القمـر(٥). وظهور أو إحتفـاء النجوم والكـواكب وغيرهـا من المذنبـات(٦). وتحديـد بدايـات ونهايات الشهور العربية بترائي الهـلال(٧).

ومع ذلك فإن «ابن حجر» قد إهتم بذكـر بعض الحوادث الغـريبة التي لا نعـدم لها نـظيراً في كتـابات سـواه من كتاب الحـوليات الإسـلامية التقليـديـين: معاصرين وسابقين(٨)، يسند بعضها إلى مصدره، ناعتاً لها بأنها من العجائب أو

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٣.

(٢) نفسه ج ١ ص ٣٦٤.

(٣) نفسه ج ١ ص ٦٢.

(٤) نفسه ج ١ ص ٢١٧.

(٥) نـفـسـه ج ١ ص ١٣٠.

(٦) نفسه ج ١ ص ١٧٥.

(٧) نفسه ج ٣ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

(٨) من ذلك ما ورد في كنـز الدرر ج ٧ ص ٣٤٢، ٣٤٣ ـ لابن أيبـك الدواداري مسنـداً إلى رسول ملك التتـار من ذكر لبعض العجـائب والمستغربـات ومنها وجـود أقوام ليس لهم رؤوس، وأعينهم وأفمامهم في مناكبهم، بالإضافة إلى زراعة بعضهم في الأرض بزراً يتولد منه الغنم كما يتولـد دود الحرير، وهذا النوع المتولد لا يعيش سوى شهرين على شاكلة النباتات ولا يتناسل.

وما أورده المقريزي ـ السلوك ج ٤ ص ٩٢١ ـ ضمن حوادث حولية سبع وثلاثـين وثمانمـائة من أنه «طلق رجل من بني مهدي بأرض البلقاء امرأته وهي حامل فنكحها رجـل غيره، ثم فـارقها، فنكحها رجل ثالث، فولدت عنده ضفدعاً في قدر الطفل، فأخذوه ودفنوه خوف العار». .

المستغربات. . من ذلك ما ورد في حوادث حولية ثمانين وسبعمائة من بعث الحياة في ميت بعد إدخاله القبر وصيرورته يحدث الناس بما رأى وعاين(1). وما ورد في حوادث حولية اثنتين وثمانين وسبعماثة من انقلاب وجه عابث بإمام جماعة وهو يصلي إلى وجه خنزير(2). وما ورد في حوادث حولية ثلاث عشرة وثمانمائة من شرب رجلين من العوام الخمر وقد أصبحا محروقين، ولم يوجد منهما نار ولا أثر حريق في غير يديهما وبعض ثيابهما وقد مات أحدهما وفي الآخر رمق. .(3) وما ورد في حوادث حولية ست وسبعين وسبعمائة من تحول بنت إلى ذكر بعد إكتمال سنها خمس عشرة سة(4). وما ورد في حوادث حولية ثلاث وعشرين وثمانمائة من ذبح جمل بغزة فأضاء اللحم كما تضيء الشموع(5). وما ورد في حوادث حولية ست وسبعين وسبعمائة من أمطار السماء ـ بشيزر ـ ثعابين(6).

ويلحق بذلك ـ كذلك ـ ولادات غريبة الكيفية شاعت في ثنايا حوادث بعض حوليات الكتاب، ومنها ما ورد في حولية عشرين وثمانمائة من ولادة جاموس بلقيس لمولود «برأسين وعينين وأربعة أيدي وسلسلتي ظهر ودبر واحد ورجلين اثنتين لا غير وفرج واحد أنثى والذنب مفروق باثنين»(7). وما ورد في حوادث حولية خمس وعشرين وثمانمائة من ولادة فاطمة بنت القاضي جلال الدين البلقيني ولداً «خنثى له ذكر وفرج أنثى. . . وقيل إن له يدين زائدتين ثابتتين في كتفه، وفي رأسه قرنان كقرني الثور»(8). وما ورد في حوادث حولية سبع وثلاثين وثمانمائة من ولادة امرأة ـ كانت قد طلقت وهي حامل فكتمت حملها وتزوجت

---

(1) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ١٧٨.

(2) نفسه ج ١ ص ٢١٠.

(3) نفسه ج ٢ ص ٤٥٩.

(4) نفسه ج ١ ص ٧٣ ـ ٧٤.

(5) نفسه ج ٣ ص ٢٢٤.

(6) نفسه ج ١ ص ٧٣.

(7) نفسه ج ٣ ص ١٣٧.

(8) نفسه ج ٣ ص ٢٦٦.

ثم طلقها الزوج فتزوجت بثالث ـ مولوداً صورته صورة الضفدع في قدر الطفل»[1].

والملاحظ أن الغالبية العظمى لهذا النوع من الحوادث إنما تعبر عن شعور ديني من نوع خاص هو السائد في عصره، فهي تمثل كرامات لبعض المتقهدين[2] أو عقوبة لفساد ليكون في ذلك عبرة وعظة، أو تستر على فعل جاهل. . وإن كان منها ما يرد على سبيل الطرفة والتندر، ومنها ما لا يتوقع حدوثه حتى من بعض معاصريه الذين إنتقدوه لا يراد مثل هذه الوقائع العجيبة.

ويبدو أن «ابن حجر» قد أدرك تطرق الشك إلى تصديقها، مما دفعه إلى العمد في إسنادها إلى مصادرها ـ في الغالب الأعم ـ نصاً على أنها من العجائب أو مستغربات الحدوث. حتى يبريء ساحته منها.

ونتيجة لثقافته التاريخية الواسعة، وولعه بالتاريخ منذ صباه ـ على نحو ما أوضحت في ترجمته ـ فإنه قد وجد في بعض أحداث عصره مناسبة للمقارنة بينها وبين مثيلاتها في سنوات أخرى فائتة، فاعتمد في ذلك بعض المصادر المتقدمة، من ذلك قوله في حوادث حولية ست وسبعين وسبعمائة بشأن بنت تذكرت: «. . . **وفيها**: أحضر عيسى بن باب جك وإلى الأشمونين وكان يسكن عند جامع آل ملك بالحسينية إلى الأمير منجك بنتاً له عمرها خمس عشرة سنة فذكر أنها لم تزل بنتاً إلى هذه الغاية فأنسد الفرج وظهر لها ذكر وأنثيان واحتلمت فشاهدوها وأمر بإلباسها لبس الرجال وسماها محمداً وأمرها بلزوم خدمته، وأقطعها إقطاعاً وشاهدها جماعة من أصحابنا. رأيت بخط ابن دقماق: رأيته غير مرة وتكلمت معه. **وقصتها شبيهة بالقصة التي ذكرها ابن كثير** في أواخر ذيل تاريخه من وقوع نحو ذلك بدمشق، وأنه كلمها بعد أن صارت رجلاً ووجد في الكلام أنوثة ووفور الحياءالذي طبع عليه النساء باق. **قلت: ووقع في عصرنا نظير ذلك في**

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥١٢.

(٢) نفسه ج ١ ص ٥٠ تر ٣١ فيما يخص الكازروني

سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة»[١]. وهو بذلك يربط بين ثلاث وقائع متماثلة حدثت في أزمنة متفاوتة ساقتها إليه إطلاعاته على مصادرها فأثبتها جرياً على معهوده في العمد إلى الشمول الموضعي والموضوعي للكثير من مادة كتابه.

وقد تكون المقابلة بين حادثتين سابقة ولاحقة بينهما فاصل زمني كبير يزيد على قرن من الزمان، ليس بغية الشمول الموضعي أو الموضوعي، أو الجميع بين حادثتين متماثلتين على سبيل الطرفة والتندر، وإنما لتوكيد خبر قد يتطرق الشك إليه لاستغراب حدوثه، فضلاً عن توثيق مصدره، ومثال ذلك قوله بخصوص برد حوران ـ ضمن حوادث حولية ست وعشرين وثمانمائة: «... وفي العشر الأواخر من المحرم وقع في ضواحي حوران برد كبار على صورة خشاش الأرض، والماء كخنفسة... وغير ذلك، هكذا ذكر علاء الدين ابن أبي الشوارب الشاد بتلك الناحية أنه شاهد ذلك. **وقد ذكر الحافظ علم الدين البرزالي في تاريخه في حوادثه في سنة عشر وسبعمائة** أنه وقع ببارين ـ من عمل حماه ـ برد كبار على صفة حيوانات مثل حية وسبع وعقرب وطيور مختلفة وصفة رجال في أوساطهم شبه حوائص، وأنه أثبت محضراً على قاضي الناحية واتصل بقاضي حماه»[٢].

كما أن عمده إلى تعديل رجال عصره ـ الواردين ضمن وفياتها ـ وتقييمه لثقافتهم وبمعنى أعم: النقد التأريخي في أرحب صوره، جعله يقابل بين عملين أدبيين لما في مخيلته من ثقافة أدبية واسعة أبت عليه إلا أن تتظهر في بعض الجوانب من كتاباته، ومن أمثلة ذلك قوله في حوادث حولية ثلاث وثمانين وسبعمائة بخصوص كائنة «ابن القماح البزار»: «... وكانت سلامته من القطع[٣] من العجائب، وفي ذلك يقول بدر الدين ابن الصاحب مضمناً، وكان بلغه أنه عثر فانكسرت يده:

قالوا بأنَّ يد القمّاح قد كُسِرَت ... فأعلنت أُختها بالوَيْل والغِيَر

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) نفسه ج ٣ ص ٢٩٨.

(٣) أي قطع اليد جزاء بما سرق.

تـأخُّـر القـطع عنهـا وهْي سـارقـة فجاءَهـا الكسر يستقصي عن الخبـر

(من البسيط)

وقد اهتدم ذلك برمته من البيتين السائرين في تاريخ ابن خلكان:

إن العمـادَ بن جبريـلٍ أَخَـا علمٍ لـه يـدٌ أصبحَتْ مـذمومـة الأثـرِ
تـأخُّـر القـطعُ عنهـا وهي سـارقـة فجاءَها الكسرُ يستقصي عن الخبر»[١]

طبيعة التراجم وأسس انتقاء مادتها:

أشار «ابن حجر» في مقدمة كتابه إلى أنه سوف يفصّل «في كل سنة أحوال الـدول من وفيات الأعيـان»[٢]، وأورد في كل حـوليـة عنـوانـات تنـدرج تحتهـا ترجمات الوفيات مشيراً إلى أنها سوف تكون «للأعيان» أو «للأكابر».. وهـو بهذا يشـير إلى أن أولى خـطوات «الإنتقـاء» هي الشهـرة، أيـاً كـانت في المنصب أو الوظيفة أو الحرفة، في العلم أو الجهل به، في الحفظ وجوده القريحة، في الريـاسة والوجاهة، في اللعب والتمهر فيه، في الإلتزام بالدين أو في التهتك فيه والخـروج عليه.

وتلك نظرة نسبية لا تخضع لمعيار واحـد تقاس بـه، فما يـراه «ابن حجر» جديراً بالإنتفاء والتسجيل على أنه من المشاهير أو الأعيان، قد يراه غيره **هملاً** بين الناس أو قد يقـره عليه، ولـذا تفاوتت التـرجمات من حيث العـدد وتغايـرت في الحولية الواحدة المسجلة لدى مصادر معاصرة.

على أنه يمكن أن نميز له في هذا الموضع منهجاً في إنتقاء الترجمات وإيرادهـا يضيف إلى عامل الشهرة عوامل أخرى، وهي:

---

(١) المصدر السابق ج ١، ص ٢٣٧، ويقابلها في المصـدر ابن خلكان. وفيات الأعيـان ج ١ ص ٣٤ تـر٧) والبيتان لأبي محمـد عبـد الحكم بن إبـراهيم بن منصـور بن مسلم العـراقي في العمـاد بن جبريل المعروف بابن أخي العلم ـ وكان صاحب ديوان بيت المال بمصر، وكان قد وقع فانكسـرت يده.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٤.

١ ـ الشمول النوعي :

بمعنى أنه لم يقصر ترجمات الوفيات على نوع واحد من الأعلام المشاهير سواء في الجنس أو في الأصل أو في الديانة أو في المذهب أو في المنصب أو في الوظيفة، أو في الحرفة، أو في العلم والمعرفة.. ولذا نجده يترجم للرجال وللنساء، للمسلمين وللأقباط، للمشتركين معه في المذهب الشافعي وللمتمذهبين بغيره، وإن اختلف معهم في الأهواء والنحلة، للمتمسكين بالدين المحافظين عليه وللماجنين المتهتكين فيه.

بل لقد ترجم لكل فئات الناس ـ تقريباً ـ من خلفاء[١] وسلاطين وملوك[٢] ونواب سلطنة وولاة أقاليم[٣] ومتغلبين على البلاد[٤] وكشاف[٥] وأمراء[٦] ووزراء[٧] وحجاب[٨] ودويدارية[٩] ونظار[١٠] ونقباء[١١] وموقعين[١٢] ومباشرين[١٣] وغيرهم من أرباب الوظائف في الإدارة المملوكية[١٤]، بالإضافة إلى

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٤٤٥ تر ١٩.

(٢) نفسه ج ١ ص ٤٦٧ تر ٤٥، ٤٧٨.

(٣) نفسه ج ١ ص ٤٦٢ تر ٣٢.

(٤) نفسه ج ١ ص ٤٧٩ تر ٤.

(٥) نفسه ج ١ ص ٢٨٤ تر ٢٥.

(٦) نفسه ج ١ ص ٤٨٠ تر ١٢.

(٧) نفسه ج ١ ص ٤٦٦ تر ٤٦.

(٨) نفسه ج ٣ ص ٥٠٧ تر ١٢.

(٩) نفسه ج ١ ص ٤٦٨ تر ٤٦.

(١٠) نفسه ج ١ ص ٥٣٦ تر ٢٨.

(١١) ومنهم «نقباء الحكم» ـ ج ١ تر ١٧ ص ٥١٦ ـ و«نقباء الأشراف» ـ ج ١ ص ٤٩٦ ـ و«نقباء المذاهب ـ ج ٣ ص ٤٤ ص ١٢١.

(١٢) نفسه ج ١ تر ٢٩ ص ٤٦٣.

(١٣) نفسه ج ٣ ص ٢٣ ـ ٢٤ تر ١٢.

(١٤) ومنهم: المهمندار ـ نفسه ج ٣ ص ٢٢١ تر ٢٨ ـ والإستادار ـ نفسه ج ١ ص ٥٤٢ تر ٥٥ ـ ووكيل بيت المال ـ نفسه ج ٣ تر ١٥ ص ٥٢٨ ـ وشاد المراكز ـ نفسه ج ١ ص ٥٤٠ تر ٤٦ ـ وشاد الخاص ـ نفسه ج ١ تر ١٢ ص ٥٣٣ ـ وشاد الواحات ـ نفسه تر ١٦ ج ١ ص ٥١٦ ـ وشاد=

القضاة[1] ونـواب الحكم[2] والشـهود أو العـدول[3] والمحتسبين[4] والفقهاء[5] والمحدثين والمسندين[6] والمدرسين[7] والمعيدين[8] وأئمة المساجد[9] والخطبـاء[10] والقـراء[11] والمؤذنـين[12] وخدام الصـوفيـة[13] والمعتقـدين[14] ومتـولّي عقـود الأنكحـة[15] والأطبـاء[16] والكحالين[17] والعلماء[18] والأدباء[19] والشعراء[20]

= الشربخاناه ـ المصدر السابق ج ٣ تر ١٥ ص ١٠٧ ـ وشاد الزردخاناه ـ نفسه ج ٣ ص ١١٤ تـر ٢٨ ـ والخازندار ـ نفسـه ج ١ ص ١٨٢ تر ١٠ ـ ومقـدم المماليـك ـ نفسه ج ١ ص ١٠٠ ج ٢ تـر ٩٦، ص ١٢٥ تر ٧٦ ـ ومقدم البـريديـة ـ نفسه ج ١ تـر ١٠ ص ٣٨٤ ـ والزمـام ـ نفسه ج ١ تـر ٣٣ ص ٣٨٨.

(١) نفسه ج ١ تر ٣٧ ص ٥٠٣.

(٢) نفسه ص ١/٥٠١ تر ٢٩.

(٣) نفسه ج ١ ص ٤٨٢ تر ٢١.

(٤) نفسه تر ٣ ج ١ ص ٤٩٦.

(٥) نفسه ج ١ ص ٤٥٨ تر ٣.

(٦) نفسه تر ٨ ص ٥٣٢.

(٧) نفســه ج ١ ص ٥٠٤.

(٨) نفسه ج ١ ص ٥٣٨ تر ٣٩.

(٩) نفسه ج ١ ص ٥١٤ تر ٥.

(١٠) نفسه ج ١ ص ٤٥٨.

(١١) نفسه ج ١ ص ٤٩٧ تر ٦.

(١٢) نفسه ج ٣ ص ١٢٠ تر ٤٢.

(١٣) نفسه ج ١ ص ٤٨٢ تر ٢٠.

(١٤) نفسه ج ١ ص ٤٨٠ تر ٧.

(١٥) نفسه ج ٢ ص ٣١٣ تر ٢٣.

(١٦) نفسه ج ١ ص ٤٨١ تر ١٧.

(١٧) نفسه ج ١ ص ٥١٤ تر ٨.

(١٨) نفسه ج ١ ص ٥٢١ تر ٤٦.

(١٩) نفسه ج ١ ص ٣٦٧ تر ٤٣.

(٢٠) نفسه ج ٢ ص ٥٣٢ ـ ٥٣٣ تر ٢٥.

والمؤرخين[1] وندماء السلاطين[2] والمغنين[3] والنساخ[4] والوراقين[5] وأصحاب الحرف والأصناف[6] والتجار[7] والحمالين[8]... من ذوي قرباه، أو ممن لا تجمعهم به علاقة[9] ممن جمعتهم حوادث عالمه واندرجت وفياتهم تحت السنة التي أرخوا بها.

لكن مع ذلك فإنه قد آثر المحدثين والمسندرين بالكثير كما وكيفاً بحكم الإنتماء إليهم، ولقد أفصح عن ذلك إبتداء، حيث قال في مقدمة «الإنباء» «... مستوعباً لرواة الحديث، خصوصاً من لقيته أو أجاز لي»[10].

٢ ـ الشمولي المكاني:

كان لولع «ابن حجر» بالحديث النبوي، وحرصه على تقييد الرواية والسماع، والارتحال في سبيل ذلك ـ داخلياً وخارجياً ـ وظروف عصره التي أوجدت في مصر المملوكية جمعاً من العلماء في كافة المهارات والتخصصات ومن مختلف الجنسيات، وإطلاعه على كتابات مؤرخين مختلفي الجنسيات بين مصريين ودمشقيين، وحلبيين، ومغاربة، ومكيين.. أثره في نوعيات التراجم الواردة في «الإنباء»، حيث لم تكن الترجمة فيه وقفاً على المصريين وإنما نجده قد ترجم فيه الكركي والمقدسي والصوري والبعلبكي والدمشقي والهمذاني، ولكل من شهر في حيز العالم الإسلامي ـ شرقه وغربه ـ ما دام قد إطلع على ترجمته وضبط

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٨١ تر ١٦.

(٢) نفسه ج ١ ص ٥٣٣ تر ١٣.

(٣) نفسه ج ١ ص ١٦٣ ـ ١٦٤ تر ١٩.

(٤) نفسه ج ٢ ص ٣١٣ تر ٤.

(٥) نفسه ج ١ ص ٥١٨ تر ٢٦.

(٦) نفسه ج ١ ص ٤٦٣ تر ٢٧.

(٧) نفسه ج ١ ص ٥٣١ تر ٢.

(٨) نفسه ج ١ ص ٥٤٣ تر ٥٨.

(٩) راجع: المشاهدة والمشاركة من الفصل الخاص بالمصادر من هذا الباب.

(١٠) نفسه ج ١ ص ٤.

سنة وفاته. بل لقد كان حريصاً على ذلك إلى حد مراسلة المؤرخين في تلك البلدان لضبط وفيات مشهوريها والوقف على ترجماتهم.(١)

عناصر الترجمات

أدى التباين في ترجمات «الإنباء» بين الطول والقصر، والإقتضاب والإسهاب والإختلاف في نوعية الأعلام المترجم لهم، ومدى توفر مصادر ترجمتهم لدى «ابن حجر» وتوفره على مصادره، وصلته بالمترجم لهم، وطبيعة علاقاته بهم.. إلى الإختلال والتباين في مادة الترجمات.. لكن مع ذلك فإنه يمكن التعرف على السمات العامة المقدرة لديه في بناء هذه المادة المشكلة للتراجم في «الإنباء» من خلال دراسة ترجمات «الإنباء» ككل للوقوف على عناصرها، مع ملاحظة أن تلك العناصر لا تجتمع في موضع واحد ـ غالباً ـ وإنما يرد أكثرها في ترجمة، وبعضها في أخرى، كما أن هذا لا يخضع للإسهاب أو الإختصار في مادة الترجمات، فقد تحتوي ترجمة طويلة على عناصر أقل من مثيلتها القصيرة، حيث أن الطول والقصر في الترجمات راجع قبل كل شيء إلى التبسط والإسهاب، أو الإقتضاب والإمساك في العنصر الوارد فيها وليس إلى عدد العناصر الحاوية لها. كما أن هذه العناصر لا ترد ـ عادة ـ مرتبة في سائر الترجمات حسب ورودها هنا.

فإذا ما تقرر هذا، فإنه يمكن الإشارة إلى أن أهم عناصر الترجمات لديه هي:

١ ـ الاسم:

وهو غالباً ما يتصدر الترجمة وقد تسلسل ليشمل: إسم المترجم له فوالده فأجداده، كنحو قوله: «أحمد بن حجي بن موسى بن أحمد بن سيد بن غشم بن عزوان بن علي بن سرور بن مشرف بن تركي»(٣)، أو يرد ثلاثياً، وقد ذكر فيه إسم المترجم له فوالده فجده، كنحو قوله: «أحمد بن علي بن السيس»(٣)، وقد

(١) راجع الفصل الخاص بالمصادر من هذا الباب للوقوف على المساءلة والمكاتبة وعلاقاتها بذلك.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ١٨ تر ٦.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٢٠ تر ٧.

يرد ثنائياً ليحتوي على إسم المترجم له فوالده، كنحو قوله: «جابر بن عبدالله»(١). وقد يقتصر في الإسم على العلم المترجم له فحسب مغفلاً إسم الأب والجد، كنحو قوله: «أحمد الخالدي(٢)، وقوله: «أسنبغا الزردكاش»(٣).

ولعل هذا كان متوقفاً على صلته بالمترجم لهم لديه، وتوفره على مصادر ترجماتهم، فالملاحظ أن الترجمات التي وردت الأسماء فيها مطولات وقد تسلسل النسب فيها، من بين هؤلاء الذين أجازوا له، أو لغيرهم ممن ترجمهم «ابن حجر» عنهم.

كما يلاحظ أن «ابن حجر» كان دقيقاً في إثبات الإسم وتتبع سلسلة النسب، حتى مع أخذه لمادته عن المترجم له عينه، ومن الأمثلة الدالة على ذلك قوله في ترجمة «المجد الفيروزبادي (ت ٨١٧ هـ. / ١٤١٥ م.): «. . . كان يرفع نسبه للشيخ أبي إسحاق الشيرازي - صاحب التنبيه - ويذكر أن عبد عمر أبا بكر بن أحمد بن أحمد بن فضل الله بن الشيخ أبي إسحاق، ولم أزل أسمع مشايخنا يطعنون في ذلك مستندين إلى أن أبا إسحق لم يعقب، ثم ارتقى الشيخ مجد الدين درجة فادعى بعد أن ولي القضاء باليمن مدة طويلة أنه من ذرية أبي بكر الصديق، وزاد إلى أن قرأت بخطه لبعض نوابه في بعض كتبه: محمد الصديقي. ولم يكن مدفوعاً عن معرفة، إلا أن النفس تأبى قبول ذلك»(٤).

٢ - اللقب:

كما كان «ابن حجر» حريصاً على إيراد الألقاب مع ما يضاف إليها كنحو قوله: «رضي الدين»(٥)، «حسام الدين» ، «عفيف الدين»(٧)، وليس

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٣ تر ١٢.
(٢) نفسه ج ٣ ص ٢٢ تر ٩.
(٣) نفسه ج ٣ ص ٧٧ تر ٣.
(٤) نفسه ج ٣ ص ٤٧ تر ٣.
(٥) نفسه ج ٢ ص ٢٣ تر ١١.
(٦) نفسه ج ٣ ص ٢٤ تر ١٣.
(٧) نفسه ج ٣ ص ٢٥ تر ١٧.

«الرضى»، و«الحسام»، و «العفيف»، كما اعتاد كثير من المؤرخين.

وهو غالباً ـ ما يقتصر على لقب المترجم له فحسب، وإن تسلسلت الألقاب في بعض مواضع لترد رباعية، كنحو قوله: «عز الدين بن شرف الدين ابن عز الدين بن بدر الدين»(1)، أو ثلاثية، كنحو قوله: «عفيف الدين بن القاضي تقي الدين بن الشيخ شهاب الدين»(2)، أو ثنائية ـ مكتفياً فيهما بلقب المترجم له ووالده ـ كنحو قوله: «شهاب الدين بن علاء الدين»(3).

٣ ـ الكنية:

وترد الكنية وقد اقتصر فيها على المترجم له فحسب، كنحو قوله: أبو العباس»، و «أبو حامد»، و «أبو طاهر»، و «أبو الفتح»، و «أبو أحمد»(4) مع ملاحظة أن تلك المواضع قليلة قياساً بالإحصاء العددي لترجمات الإنباء.

٤ ـ اسم الشهرة:

قد يشتهر المترجم له بغير اسمه العلم، وقد تكون شهرته بغير لقبه أو كنيته، وهنا نجد «ابن حجر» قد أورد اسم الشهرة مسبوقاً بقوله «المعروف بـ . . .»، أو «الشهير بـ . . .»، أو «الملقب بـ . . .»، كنحو قوله: «المعروف بالمدني»(5) وقوله: «المعروف بحاجي فقيه»(6) وقوله: «الملقب القطعة»(7)، وقوله: «الشهير بابن الأديب»(8).

---

(1) المصدر السابق ج ٣ ص ١١٥ تر ٣٢.
(2) نفسه ج ٣ ص ٢٥ تر ١٧.
(3) نفسه ج ٣ ص ١٨ تر ٦.
(4) نفسه ج ٣ ص ١٨ تر ٤.
(5) نفسه ج ٣ ص ١١٨ تر ٣٨.
(6) نفسه ج ٣ ص ٧٨ تر ٦.
(7) نفسه ج ٣ ص ٣١ تر ٢٨.
(8) نفسه ج ٣ ص ١٠٦ تر ١٢.

وقد يأتي هذا الإسم في سياق الكلام دون تنصيص، كنحو قوله: «محمد ابن **عزيز بن الواعظ**...»(١)، وقوله: «محمد بن محمد بن محمد الشافعي الحموي، ناصر الدين **بن خطيب نقرين**»(٢)، وقوله: «محمد بن محمد بن عبدالله، شمس الدين **بن مؤذن الزنجبيلية**»(٣). ويلاحظ أنه في المثال الأول قد أورد اسم الشهرة ضمن اسم المترجم له، بينما **نجده في المثالين** الثاني والثالث قد أورده قرين اللقب.

كما أنه كثيراً ما يضبط هذا الاسم بالحروف، كنحو قوله: «المعروف بابن زقاعة - بضم الزاي، وقد **تجعل** سيناً وتشديد القاف»(٤)، أو يحرص على تفسيره وتبيين معناه، كنحو قوله: «ابن شنبل - بضم المعجمة وسكون النون بعدها موحدة **مضمومة** - وهو مكيال القمح بحمص»(٥).

٥ - النسبة:

وتكون بنسبة المترجم له إلى القبيلة، كنحو قوله: «المخزومي»(٦) أو بنسبته إلى المدينة، كنحو قوله: «الصالحي»(٧)، أو إلى المحلة، كنحو قوله: «التباني»(٨)، أو إلى معتقه - خاصة إذا كان مملوكاً أو أميراً - كنحو قوله: «**يلبغا** الناصري»(٩) أو إلى الجنس، كنحو قوله: «الرومي»(١٠) أو إلى المذهب، كنحو

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٤٦ تر ١٤.
(٢) نفسه ج ٣ ص ٨٣ تر ١٦.
(٣) نفسه ج ٣ ص ١٢٠ تر ٤١.
(٤) نفسه ج ٣ ص ١٧ تر ٢.
(٥) نفسه ج ٣ ص ١٨ تر ٤.
(٦) نفسه ج ٣ ص ٤٥ تر ١٣.
(٧) نفسه ج ٣ ص ١٦ تر ١.
(٨) نفسه ج ٣ ص ٨٣ تر ١٥.
(٩) نفسه ج ٣ ص ٥١ تر ١٩.
(١٠) نفسه ج ٣ ص ١٠٧ تر ١٣.

قـولـه: «الشـافعي»[1] و«الحنفي»[2] و«الحنبـلي»[3] و«المـالكي»[4]، أو إلى العقيدة، كنحو قـوله: «المعتـزلي»[5]، أو إلى الديـانة ـ خـاصة إذا كـان من غير المسلمين ـ كنحو قوله: «القبطي»[6].

وهـو حريص عـلى ضبط موضـع النسبة ـ كـذلك ـ وتفسيـرها في مـواضع كثيـوة كنحـو قـولـه: «العـواري ـ بفتـح المهملة والـواو الخفيفـة»[7]، وقـولـه: «المقـدسي، الناصـري، الباعـوني. وناصـرة من عمل صفد... وباعـونة قـريـة بالقرب من عجلون»[8].

وقـد تتـوالى النسب إلى المـواضـع، كنحـو قـولـه: «الأسكنـدراني، ثم المصـري»[9]، و«الخليلي، ثم الـدمشقي»[10] ليكون المقصـود بـالإنتسـاب إلى الأول تحديد الأصل الذي انحـدر منه المتـرجم له، وبـالثاني المـوضع الـذي ولد ونشأ فيه.

٦ ـ الموطن:

كما كان «ابن حجر» حريصاً على ذكـر الموضـع الذي نـزله المتـرجم له أو استقـر فيه ـ لما له من أهميـة في ضبط وتقييد السماع[11] ـ ولذا ورد في تـرجمات

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٣ تر ١٠.

(٢) نفسه ج ٣ ص ١٦ تر ١.

(٣) نفسه ج ٣ ص ١٧ تر ٣.

(٤) نفسه ج ٣ ص ٢٦ تر ١٨.

(٥) نفسه ج ٢ ص ٢٤٤ تر ١٦.

(٦) نفسه ج ٣ ص ٢٥ تر ١٥.

(٧) نفسه ج ٣ ص ٣١ تر ٢٩.

(٨) نفسه ج ٣ ص ٢٠، تر ٨.

(٩) نفسه ج ٣ ص ٣٢ تر ٣٠.

(١٠) نفسه ج ٣ ص ١٧ تر ٣.

(١١) نفسه ج ٣ ص ٢١ تر ٨، حيث نجده يحدد مكـان اللقاء بشيخـه قائلاً: «... وقد اجتمعت بـه ببيت المقدس».

كثيـرة من «الإنباء» مـا يفيد ذلك، ومنها قوله: «نزيـل المدينـة»[1]، و«نـزيـل مكة»[2].

٧ ـ الألقاب العلمية والصفات الأصيلة:

وقـد تتبع هـذه العناصر أو تتخللهـا بعض الألقاب العلميـة أو الصفـات الدالة على أصالة المترجم لـه وعراقـة نسبه، كنحـو قولـه: «الكاتب المجـود»[3] و«القاضي»[4] و«الخطيب»[5] و«الفقيه»[6] و«المقريء»[7].

٨ ـ المولد:

ويأتي في أوائل أو أواخر الترجمـات على حـد سواء[8]، ويعـد من العناصر الهامة لديه لما له من قيمة في الإستدلال على لقاء الشيوخ والإطمئنان إلى الـرواية والسماع. ولعل في المثال الآتي ـ وقد أورده «ابن حجر» في «الإنباء» ضمن ترجمة «الرواقي» (ت ٨٣٠ هـ. / ١٤٢٧ م.) ـ ما يدلل على ذلك:

«. . . قال القاضي علاء الدين: كان صالحاً خيراً نـاسكاً سليكاً، يستحضر أشياء حسنة عن الصوفية، واجتمعت به بطرابلـس فأنشـدني، وساق لـه عن أبي حيان قصيدة. . . وهي في نحو العشرين بيتـاً لا تشبه نـظم أبي حيان ولا نفسـه، **ولا يتصور لمن ولد سنة سبع وأربعـين أن يسمع من أبي حيـان الذي مـات قبل ذلك بمدة**؛ ولقد عجبت من خفاء ذلك على القاضي علاء الـدين ثم حسبت أن

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٣ تر ١٠.

(٢) نفسه ج ٣ ص ٢٤ تر ١٤.

(٣) نفسه ج ٣ ص ١٨ تر ٥.

(٤) نفسه ج ٣ ص ٢٠ تر ٥.

(٥) نفسه ج ٣ ص ٢٤ تر ١٤.

(٦) نفسه ج ٣ ص ٢٦ تر ١٨.

(٧) نفسه ج ٣ ص ٤١ تر ٩.

(٨) نفسـه ج ٣ ص ٣١٢. حيث نجده قـد أورد العنصر الخاص بـالتأريخ لمولـد المتـرجم لـه أواخـر ترجمته.

يكون بين الرواقي وأبي حيان واسطة، وقد زعم أنه أنشدها له العلامة جمال الدين عبدالله بن يوسف بن هشام. قال: أنشدنا أبـو حيان ـ ولا نعـرف أن ابن هشام أخذ عن أبي حيان شيئاً، بل كان يجتنبه. قال: وكان الرواقي يقيم بحماه ويـأتي طرابلس، ثم بلغني أنه تـوجه إلى القـدس فأقـام به ومـات ما بـين ثمان وتسـع وعشرين»[1].

ولذا لا يستغرب مع هذا عناية «ابن حجـر» بتقييد تـاريخ الميـلاد خاصـة لدى العلماء والمحدثين.

لكن مع أهمية هذا العنصر وإدراك قيمته نجده قد سلك فيه طرقاً هي:

أ ـ التأريخ له على وجه الإكتمال بذكر اليوم والشهر والسنة، كنحو قـوله: «ولد ليلة التاسع والعشرين من جمادي الآخرة سنـة خمس وأربعين»[2] ونـادراً ما يكون ذلك.

ب ـ التـأريخ بـالشهر والسنـة، كنحـو قـولـه: «ولـد في ذي الحجـة سنـة ٧٦٢»[3].

جـ ـ التأريخ للمولد إكتفاء بالسنة ـ فقط ـ كنحو قـوله: «وكـان مولـده في سنة ٧٦١»[4].

د ـ لكن مع ذلك فإنه لا يجزم بالتأريخ في مواضع كثيرة، بل يكون تقديره له على وجه التقريب نصـاً على ذلك، كنحو قوله: «ولد سنة ستين تقريباً»[5].

كما أنه معنى بتحـديد محـل الميلاد كلما تيسر لـه ذلك، ومن أمثلتـه قولـه: «ولد سنة. . . بغزة»[6]، وقوله: «ولد في . . . بالمدينة»[7].

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ تر ٣.

(٢) نفسه ج ٣ ص ٣٩٣ تر ١٥.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٣١١ تر ٣.

(٤) نفسه ص ٣/٣١٢ تر ٤.

(٥) نفسه ج ٣ ص ٣٤٠ تر ٢١.

(٦) نفسه ج ٣ ص ٣٢١ تر ٢٩.

(٧) نفسه ج ٣ ص ٣٣٥ تر ١٠.

ويلاحظ أنه كان دائب السؤال عن تاريخ الميلاد لمن يترجم له سواء بسؤال المترجم له عينه، كنحو قوله: «. . . لأنه ذكر أن مولده سنة ٧٢٢»[١]، أو بسؤال أهله وذويه، كنحو قوله: «. . . وسألت أخاه شمس الدين ـ أحد من ينوب بدمياط في الحكم عن النائب بها ـ عن مولده فذكر أنه ولد سنة ٤٣ وأنه أسن من القاضي زين الدين بعشرين سنة. ولست أرتاب في مجازفته في كل ذلك»[٢].

ولقد كان كثير التدقيق في ذلك ـ حسبما يستدل من المثال قبل السابق وما يفهم من قوله: «. . . **ولد سنة ثمانين ـ على ما كتب بخطه ـ لكن وجد له حضور** فيها، فيحتمل أن يكون ولد في التي قبلها، ولكن وجد بخط البرزالي أن مولده في رجب سنة اثنتين وثمانين. وهذا هو المعتمد، ولعل ذلك أخ له»[٣].

١٩ ـ تقدير عمر المترجم له:

فإذا ما خفي عليه تحديد تاريخ ميلاد المترجم له، فإنه ـ غالباً ـ ما يجتهد في تقدير عمره حال الوفاة، كنحو قوله: «مات في صفر وقد جاوز السبعين»[٤]، وقوله: «وأظنه قارب السبعين»[٥].

ويتحدد عمر المترجم له على وجه الدقة في مواضع كثيرة كما تشير إلى ذلك تعبيراته، ومنها قوله: «مات في رجب وله سبع وخمسون سنة»[٦].

١٠ ـ الوفاة:

لم يكْتَف «ابن حجر» بإيراد الوفيات وقد انتظمتها الحوليات دون تأريخ

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٧٣ تر ٨.

(٢) نفسه ج ٣ ص ٤٨٦ تر ٣.

(٣) نفسه ج ١ ص ١٤٣ تر ٥٥.

(٤) نفسه ج ٣ ص ١٠٧ تر ١٦.

(٥) نفسه ج ٩ ص ١٩٣.

(٦) نفسه ج ٣ ص ١٥٢ تر ٢١.

لها ـ في مواضـع كثيرة ـ **علـى سبيل الإكتمـال**: باليـوم من الأسبوع ومن الشهـر والشهر، كنحو قـوله: «مـات في ليلة الجمعة رابع عشري ربيـع الأول»[1]، **أو بذكر اليوم من الشهر فـالشهر**، كنحـو قولـه: مات في حـادي عشر شوال»[2]، **وقد يكتفي بالتأريخ لها بالشهز مغفلاً ذكر اليوم الواقعة فيه**، كنحو قوله: «مات في صفر من هذه السنة»[3].

وقد ترد الـوفيات **مؤرخـة بنصف وأواسط وأواخر وسلخ الشهـر**، كنحو قوله «مات في نصف ذي الحجة»[4].

وقد يرد **تـأريخ الـوفاة علـى وجه التقـريب**، كنحو قـوله: «مـات في آخر **هذه السنة**»[5]، وقولـه: «. . . بلغني أنه مـات في أول سنة إحـدى وعشرين بيـزد وكان خرج من الحمام **فمات فجأة**، وأرخـه الشريف الفـاسي في سنة عشـرين، والله أعلم»[6].

وربمـا وردت الترجمـات في بعض مواضـع غير مؤرخـة اكتفاء بنسبتهـا إلى الحولية الواقعة فيها، كنحو مـا فعل بتـرجمة «أسنبغـا الزردكـاش»[7] و «طوغـان الحسني»[8] أو بالتوكيد على وقوعها في ذات الحولية، كنحو قوله: «مات في هـذه السنة»[9].

وقد **يذكر موضع الوفاة** كنحو قوله: «وتحول إلى زبيد فمات بها»[10].

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٢١ تر ٤٣.
(٢) نفسه ج ٣ ص ١٠٤ تر ٥.
(٣) نفسه ج ٣ ص ٧٦ تر ١.
(٤) نفسه ج ٣ ص ١٠٤ تر ٤.
(٥) نفسه ج ٣ ص ١٥٠ تر ١٥.
(٦) نفسه ج ٣ ص ١٨٠ تر ١٠.
(٧) نفسه ج ٣ ص ٧٧ تر ٣.
(٨) نفسه ج ٣ ص ٨١ تر ٩.
(٩) نفسه ج ٣ ص ١٢٢ تر ٥٠.
(١١) نفسه ج ٣ ص ٨٢ تر ١٢.

وكثيراً ما يعني «ابن حجر» **بتحديد كيفية الوفاة من موت طبيعي أو قتل**(١) **بل والعلة المتسبب عنها الوفاة**، كنحو قوله: «**مات**... مطعوناً»(٢)، «مات في الطاعون»(٣)، «**مات**... بعلة ذات الجنب»(٤)، «اعتل بالقولنج الصفراوي فتمادى به إلى أن مات»(٥). «**مات**... مبطوناً»(٦)، «مات مسلولاً، ويقال إنه سقي السم»(٧). وكذا **حال المترجم له عند موته من حيث: العمل والإشتغال أو التبطيل والعزل**، كنحو قوله: «**مات**... بطالاً»(٨) وقوله: «مات معزولاً»(٩)، وقوله: «فلم تطل مدته حتى مات بعد تسعة أشهر من وزارته»(١٠)، وقوله: «وولي تدريس الحديث بالأشرفية إلى أن مات»(١١) وقوله: «مات وهو أمير بدمشق»(١٢)، **أو المكانة لدى الوجهاء والدولة** كنحو قوله: «وكان آخر عمره عين الحنابلة»(١٣)، وقوله: «وانتهت إليه رياسة الفقه ببلده إلى أن مات في هذه السنة»(١٤) **أو من حيث السفر والإقامة**، كنحو قوله: «فمات متوجهاً إلى

---

(١) حيث ينص على القتلى في الترجمات ليفرق بين هذه الموتة، والموت الطبيعي كنحو قوله ـ المصدر السابق ج ٣ ص ١١٧ تر ٣٥ ـ «مات مقتولاً»، وقوله: «قتل صبراً» نفسه ج ٣ ص ٢٥٦ تر ٥ ـ وقوله: «مات تحت الردم» ـ نفسه ج ٣ ص ٤١٣ تر ١٦ ـ وقوله: «توجه إلى حصار بعض القلاع فأصابه حجر في جبهته فصرعه» ـ نفسه ج ٣ ص ٢٩٣ تر ٢٤.

(٢) نفسه ج ٣ ص ١٠٥ تر ٥٨.

(٣) نفسه ج ٣ ص ١٠٦ تر ١٢.

(٤) نفسه ج ٣ ص ١٢٠ تر ٤٠.

(٥) نفسه ج ٣ ص ٢٩٥ تر ٣٠.

(٦) نفسه ج ٣ ص ٢٨٨ تر ١٧.

(٧) نفسه ج ٣ ص ٢٣١ تر ٩.

(٨) نفسه ج ٣ ص ١٠٧ تر ١٣.

(٩) نفسه ج ٣ ص ١٢٠ تر ٤٠.

(١٠) نفسه ج ٣ ص ١١٠ تر ٢٢.

(١١) نفسه ج ٣ ص ١٤٩ تر ١٢.

(١٢) نفسه ج ٣ ص ٣٣٥ تر ٩.

(١٣) نفسه ج ٣ ص ١٥٢ تر ٢٠.

(١٤) نفسه ج ٣ ص ٢٣٥ تر ٢٠.

الحج في شوال»[١]، وقوله: «ثم حج فلما رجع مات وهو قافل»[٢] **أو من حيث الإهانة والتغريب**، كنحو قوله: «فأخرج على حمار فمات في أثناء الطريق غريباً طريداً»[٣] **أو من حيث حالته النفسية**، كنحو قوله: «وجاور في آخر أمره فمات بها منطوياً»[٤]، **أو من حيث التمرض والضعف أو الموت الفجاءة من غير علة أو خوفاً من القهر**، كنحو قوله: «. . . ثم قدم القاهرة بآخرة فوعك ومات بالبيمارستان»[٥]، وقوله: «مات بعد مرض طويل»[٦]، وقوله: «مات في عصر يوم السبت بعد أن أقام أكثر من عشرين يوماً ملقى على قفاه لا حراك به إلا في بعض الأحيان، يحرك يده كالعابث أو ينطق بما لا يفهم، وصار يجرع السويق ونحوه بالسعط فلا ينزل إلى جوفه من ذلك إلا اليسير، وكان قبل ذلك قد أفرط به الإسهال حتى انحطت قوته، ثم عرض له الصرع فأقام في أول مرة زماناً طويلاً بحيث أرجف بموته، ثم أفاق منه مختبلاً، ثم عاوده بعد سبعة أيام فازداد انحطاطاً واستمر يعاوده حتى يئس منه كل من حوله من النساء والرجال والأطباء، وفي كل نوبة من الصرع يرجف بموته ويتهيأ الناس لذلك، ثم يتحرك. . . »[٧]، وقوله: «. . . كان خرج من الحمام فمات فجأة»[٨] وقوله: «قرأت. . . إن سب موته أنه عقد عند برقوق مجلس بسبب الأوقاف، فتكلم الضياء ـ وهو المترجم له ـ بكلام قوي فغضب منه برقوق وأجابه بجواب خشن خاف منه على نفسه، فلما رجع إلى الشيخونية ثم رجع إلى بيته مرض واستمر إلى أن مات»[٩] **أو من حيث ضيق ذات اليد أو اليسر**، كنحو قوله: «مات

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١١٤ تر ٢٨.
(٢) نفسه ج ٣ ص ١٤٩ تر ١٤.
(٣) نفسه ج ٣ ص ٢١١ تر ٢٨.
(٤) نفسه ج ٣ ص ٢٠٤ تر ١.
(٥) نفسه ج ٣ ص ٢١٠ تر ٢٢.
(٦) نفسه ج ٣ ص ٢٣٢ تر ١٥.
(٧) نفسه ج ٩ ص ١٦ ـ ١٧.
(٨) نفسه ج ٣ ص ١٨٠ تر ١.
(٩) نفسه ج ١ ص ١٨٤ تر ١٧.

وعليه ديون كثيرة»[1]، وقوله: «وخلف تركة جيدة ورثها أخوه»[2]، وقوله: «وخلف مالاً كثيراً جداً»[3] **أو من حيث تبيان حاله بالنسب للأهل والأخوة، كنحو قوله**: «وهو آخر إخوته موتاً»[4] وقوله: «مات **الجمال المصري في ذي القعدة** وخلف عشرين ولداً ذكراً»[5]، وقوله: «ومات له في حياته أكثر من خمسين ولداً وما مات حتى تضعضع حاله»[6]، وقوله: «وماتت في **عصمته**. . . وهي آخر أولاد الظاهر لصلبه وفاة» [7]. **أو ما يكون قد عرض له في آخرته من آفة الخرف والخلط، أو العمى - لما لبيان ذلك من أهمية في تعديل المحدثين وجرحهم -** ومنه قوله: «وكان قد أضر بآخرة وحصل له خلط ثقل منه لسانه **فصار** كلامه قد يخفي بعضه بعد أن كان لسانه كما يقال كالمبرد»[8]، وقوله «وكان قد أضر قبل موته»[9]، وقوله: «وكان بعض من يتعصب عليه ينسبه إلى الخرف والتغير، ولم يقع ذلك» [10]، **أو ما قد يعتريه من الوسواس كنحو** قوله: «وابتلى بالوسواس في الطهارة حتى انحل بدنه وأفسد ذهنه وثيابه، وتأسف **هو**، كل ذلك، ولم يزل مبتلي به حتى مات» [11].

كما أنه كثيراً ما يعني بذكر ما يتبع الوفاة من جنازة ودفن مفصحاً عن وقع ذلك في أنفس الناس ونفسه، محدداً لموضع الدفن، كنحو قوله: «ودفن عند باب

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٩ تر ١٨.

(٢) نفسه ج ٣ ص ١٣٤ تر ٥٢.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٢٣٦ تر ٢٢.

(٤) نفسه ج ٣ ص ١٨٢ تر ١٦.

(٥) نفسه ج ٣ ص ١٥١ تر ١٨.

(٦) نفسه ص ٣٨٨ تر ٧.

(٧) نفسه ج ٣ ص ٣١٥ تر ١٠.

(٨) نفسه ج ٢ ص ٢٣ تر ٢.

(٩) نفسه ج ٢ ص ٣٧٦ تر ٤٦.

(١٠) نفسه ج ٣ ص ٢٣ تر ١٠.

(١١) نفسه ج ١ ص ٤٩ تر ٣٠.

القرافة، وكان الجمع في جنازته حافلاً جداً»(١)، وقوله: «فاتفق أنه فجأه الموت في رابع جمادى الأولى، وأسف الناس عليه، وكانت جنازته حافلة»(٢)، وقوله: «وكانت جنازته حافلة ودفن بالصوفية»(٣)، وقوله «ومشى الناس في جنازته من منزله - بالخراطين - إلى الرملة، ولم يصل السلطان عليه لأنه كان في غاية الضعف آنذاك»(٤)، وقوله: «ماتت ودفنت في المدرسة التي استجدها (الأشرف برسباي) بالحريرين، وصلى عليها أمام باب الستارة، وتقدم الشافعي للصلاة عليها والسلطان والأمراء وغيرهم خلفه. وكانت جنازتها حافلة، وقرىء عليها ليلاً ونهاراً»(٥)، وقوله: «رجع إلى بلده فمات به، وأسفنا عليه - رحمه الله تعالى»(٧)، ومرثيته في الزين العراقي(٦).

أو على العكس من ذلك، ما يكون حدث لجثته من تمثيل أو تنكيل، كنحو قوله: «مات مقتولاً بالقاهرة، وحشي جلده تبناً، وحمل إلى صفد في ذي الحجة»(٨).

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٩ تر ١٩.

(٢) نفسه ج ٣ ص ١٨١ تر ١٢.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٢٠٩ تر ١٦.

(٤) نفسه ج ٣ ص ٢٣٣ تر ١٦.

(٥) نفسه ج ٣ ص ٣٣٨ تر ١٧.

(٦) نفسه ج ٣ ص ٣١٦ تر ٦.

(٧) نفسه ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩، تر ١٩، ومنها قوله:

مصاب لم ينفس للخناق ... أصار الدمع جاراً للمآقي
فروض العلم بعد الزهو ذاو ... وروح الفضل قد بلغ التراقي
وبحر الدمع يجري في اندفاق ... وبدر الصبر يسري في المحاق
وللأحزان بالقلب اجتماع ... ينادي الصبر: حيّ على افتراق
وكاد الصب أن يدفع بصبر ... يهون عليه مع رجوى التلاقي
فأما بعد يأس من تلاقي ... فهذا صبره مر المذاق
لقد عظمت مصيبتنا وجلت ... بسوق أولى العلم إلى السياق

(الوافر)

(٨) نفسه ج ٣ ص ١١٧ تر ٣٥.

وكذا ما يتبع الوفاة من تصرف في تركته ـ على نحو ما مر ـ أو تصرف في وظائفه، كنحو قوله: «ولما مات قررت وظائفه ـ كلها ـ بيد ولده علي وهو صغير جداً، فاستنيب عنه خاله جلال الدين ابن الملقن»(١).

١١ ـ النشأة والتكوين:

وتختلف المادة المكونة لهذا العنصر تبعاً للإختلاف في نوعية المترجم لهم، وطبيعة صلة «ابن حجر» بهم، حيث تكون المكونات الأولى للعلماء والمحدثين ونحوهم مغايرة لها لدى الأمراء والسلاطين.

وللوقوف على ذلك، فإنه يمكن الإشارة إلى أنه قد ترجم بعض أعلام الصنف الأول قائلاً ـ بخصوص نشأة وتكوين «البرهان التنوخي» (ت ٨٠٧ هـ. / ١٤٠٥ م.): «... أجاز له إسماعيل بن مكتوم، وأبو بكر ابن عبد الدائم وعيسى بن عبد الرحمن المطعم، وأبو نصر الشيرازي، والقاسم ابن عساكر ومحمد بن مشرف، وست الفقهاء بنت شكر، وجمع كبير يزيدون على الثلاثمائة ثم طلب الحديث بنفسه فسمع الكثير من أبي العباس الحجار، وعبد الله بن الحسين بن أبي التائب، والحافظين: البرزالي والمزي، والبندنيجي وخلق كثير يزيدون على المائتين. وعني بالقراءات فأخذ عن البرهان الجعبري وابن نصحان والبرقي، ثم رحل فأخذ عن ابن أبي حيان وابن السراج وأبي العباس المرداوي، ومهر في القراءات وكتب هؤلاء له خطوطهم بها. وتفقه على البارزي بحماه، وابن النقيب بدمشق، وابن القماح بالقاهرة، وغيرهم. وأذنوا له، وأفاد وحدث قديماً»(٢).

كما ورد هذا العنصر في ترجمة «الزين العراقي» (ت ٨٠٦ هـ. / ١٤٠٤ م.) على النحو التالي: «... حفظ التنبيه في الفقه، واشتغل بالفقه والقراءات، ولازم المشايخ في الرواية، وسمع في غضون ذلك

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٤ تر ٤.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٢ تر ٢.

من عبد الرحيم بن شاهد الجيش وابن عبد الهادي وعلاء الدين التركماني، وقرأ بنفسه على شهاب الدين بن الباب، وتشاغل بالتخريج، ثم تنبه للطلب بعد أن فاته السماع من مثل يحيى بن المصري آخر من روي حديث السلفي عالياً بالإجازة، ومن الكثير من أصحاب ابن عبد الدايم والنجيب وابن عارف، ولكنه أدرك أبا الفتح الميدومي فأكثر عنه، وهو من أعالي مشايخه إسناداً وسمع أيضاً من ابن الملوك، وابن القطرواني، ثم رحل إلى دمشق فسمع من ابن الخباز، ومن أبي العباس المرداوي، ونحوهما. وعني بهذا الشأن ورحل فيه إلى دمشق وحلب والحجاز»(١).

بينما نجده قد أورد هذا العنصر في ترجمة «بهرام بن عبدالله الدميري» (ت ٨٠٥ هـ. /١٤٠٣ م.) على النحو التالي:

«. . . أخذ عن الشيخ خليل وغيره»(٢).

وفي ترجمة «سارة بنت علي بن عبد الكافي السبكي» (ت ٨٠٥ هـ. / ١٤٠٣ م.) على النحو الآتي:

«. . . اسمعت من أحمد بن علي الحريري، وزينب بنت الكمال وغيرهما وسمعت علي أبيها أيضاً»(٣).

وبدراسة هذه النماذج الأربعة يدرك الآتي:

أولاً - أن «ابن حجر» قد ذكر الشيوخ تارة بأسمائهم، وتارة بما اشتهروا به من أسماء كنحو قوله: «إسماعيل بن مكتوم» و «أبو بكر بن أحمد بن عبد الدايم» و «عيسى بن عبد الرحمن المطعم» و «أحمد بن كشتغدي». . وقوله «البرزالي» و «المزي» و «البندنيجي» و «القزويني» و «السبكي» و «الجزري» و «الميدومي» و «ابن نباتة» و «الشيخ خليل». مستنداً إلى معرفة أصحاب الفن

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٦ تر ١٩.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٤٢ تر ٩.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٢٤٣ تر ١١.

بهم، ومفترضاً في المطالع لتاريخه معرفتهم، ومن ثم إدراكهم.

ثانياً - أنه قد تبسط في ذكر الشيوخ في مواضع كما في المثال الأول واقتضب في مواضع أخرى، كنحو قوله في المثال الرابع: «أخذ عن الشيخ خليل». مع ملاحظة أنه يقتصر في إيراد الشيوخ على المشاهير منهم متبعاً ذلك بقوله: «. . . وجمع كبير يزيدون على الثلاثمائة»، و«خلق كثير يزيدون على المائتين» و«مشايخ العصر»، و«غيرهم»، «وآخرون»، و«الكثير من أصحاب. . .» و«نحوهما»، «وغيرهما»، «وغيره».

ثالثاً - أنه قد عني - في بعض مواضع - بذكر المكان المأخوذ فيه علم المترجم له، كنحو قوله في المثال الأول: «وتفقه على البارزي بحماه وابن النقيب بدمشق، وابن القماح بالقاهرة».

رابعاً - أنه قد يذكر بعض محفوظاته أو مسموعاته، كنحو قوله في المثال الثالث «حفظ التنبيه».

خامساً - الأعتناء بذكر بعض صيغ التحمل والسماع - لما لها من أهمية لدى المحدثين ونحوهم، ومن ذلك قوله:

«أجاز له»، «أذنوا له»، «أذن له»، «سمع»، «سمعت»، «اسمعت»، «عوض»، «قرأ بنفسه على. . .»، «أخذ»، «لازم»، «كتب هؤلاء خطوطهم بها».

سادساً - التدليل على ما قد يكون فات المترجم له من سماع، وتبيين ما لسماعه من قيمة، كنحو قوله في المثال الثالث: «وتشاغل بالتخريج، ثم تنبه للطلب بعد أن فاته السماع من مثل يحيى بن المصري - آخر من روي حديث السلفي عالياً بالإجازة - ومن الكثير من أصحاب ابن عبد الدايم والنجيب وابن عارف. ولكنه أدرك أبا الفتح الميدومي فأكثر عنه، وهو من أعلى مشايخه إسناداً».

سابعاً - ذكر أهم العلوم والفنون التي تتشكل منها ثقافته، كنحو قوله في

المثال الأول: «طلب الحديث بنفسه. . . وعني بالقراءات. . . وتفقه»،وإشارته في المثال الثالث إلى اشتغال «الزين العراقي» بالفقه والقراءات والحديث.

ثامناً ـ الإبانة عن مقدار هذا العمل وتمكنه منه، كنحو قوله في المثال الأول «مهر في القراءات، وكتب هؤلاء له خطوطهم بها».

ويلاحظ أن هذه التفصيلات ترد مجتمعة في عنصر الترجمة في موضع وترد متفرقة في مواضع أخرى.

أما الصنف الثاني، وهم السلاطين والأمراء، فإن المعلومات الواردة بخصوص طبيعة تكوينهم ونشأتهم قليلة ـ قياساً بما ورد في ترجمته للعلماء والمحدثين، ومن أمثلة ذلك قوله بخصوص ترجمة «العجل بن نعير» (ت ٨١٦ هـ. / ١٤١٤ م.): «. . . نشأ في حجر أبيه، ثم لما بلغ العشرين فارقه ومال إلى جكم، ولما وقع بين جكم وبين ابن صاحب الباز حضر نعير في نصر ابن صاحب الباز، والباز وابنه مع جكم »[1] وقوله بخصوص ترجمة «المؤيد شيخ المحمودي» (ت ٨٢٤ هـ. /١٤٢١ م.): «. . .كان قدومه القاهرة على ما أخبرنا به في السنة التي قدم فيها أنص والد برقوق، فعرض على برقوق قبل أن يتسلطن فرام من صاحبه بيعه فاشتط في الثمن، وكان ابن اثنتي عشرة سنة، ولكن كان جميل الصورة، فاتفق موت الذي جلبه فاشتراه محمود تاجر المماليك بثمن يسير وقدمه لبرقوق فأعجبه واستمر ينسب لمحمود وتربى في المماليك الكتابية، ثم جعل خاصكياً ثم جعل من السقاة، ونشأ ذكياً، فتعلم الفروسية في اللعب بالرماح ورمي النشاب والضرب بالسيف والصراع، وغير ذلك. ومهر في جميع ذلك»[2].

١٢ ـ منزلة المترجم له ومكانته:

وتتحدد هذه المنزلة للمترجم له بعبارات ناعتة نقلها عن مصادره، كنحو

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦ تر ٢٠.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٥٦ تر ٦.

قوله: «قال شهاب الدين الزهري في حياة شرف الدين الشربيني وغيره: ليس في البلد من أخذ العلوم على وجهها غيره» - فيما نقله عنه في ترجمته للشهاب الملكاوي[٣] (ت ٨٠٣ هـ. /١٤٠١ م.) - أو في مواضع أخرى بعبارات وملحوظات له، خاصة في ترجمته لهؤلاء الذين أخذ عنهم أو اتصل بهم وشاهدهم، أو شاركهم في بعض المناصب العلمية والوظائف الدينية كنحو قوله: «سمع منه شيخه الحافظ الذهبي»[٤] بشأن الترجمة لشيخه «البرهان التنوخي» (ت ٨٠٠ هـ. / ١٣٩٨ م.)، وقوله في ترجمته لشيخه «السراج البلقيني» (ت ٨٠٥ هـ. /١٤٠٣ م.): «وانتهت إليه الرياسة في الفقه والمشاركة في غيره، حتى كان لا يجتمع به أحد من العلماء إلا ويعترف بفضله ووفور علمه وحدة ذهنه. . . وكان معظماً عند الأكابر، عظيم السمعة عند العوام، إذا ذكر البلقيني خضعت الرقاب حتى كان الشيخ جمال الدين الأسنوي يتوقى الإفتاء مهابة له لكثرة ما كان ينقب عليه في ذلك»[١]. وقوله في ترجمته «لابن الشاهد المنجم» (ت ٨٠١ هـ. /١٣٩٩ م.): «. . . انتهت إليه الرياسة في حل الزيج وكتابة التقاويم»[٢].

أما من حيث المكانة لدى العامة والخاصة في الدولة فقد وردت له بعض تعبيرات منها: «له عند العامة بدمشق قبول زائد»[٥] وهو في حق «ابن الأقرع» (ت ٨٠٠ هـ. / ١٣٩٨ م.)، وقوله في ترجمة «أبي عبد الله الكركي» (ت ٨٠٠ هـ. /١٣٩٨ م.): «. . . وصحب السلطان في الكرك فارتبط عليه واعتقده، ثم قدم عليه فعظمه جداً، وكان يسكن في مخزن في إصطبل الأمير قلمطاي الدويدار، وإذا ركب إلى القلعة ركب على فرس بسرج ذهب وكنبوش ذهب من مراكيب السلطان»[٦]. وقوله في ترجمة «المشبب» (ت ٨٠١ هـ.

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٣ تر ٩.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٣ تر ٢.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٤٢٦ تر ٢١.

(٤) نفسه ج ٢ ص ٧٧ تر ٥٩.

(٥) نفسه ج ٢ ص ٢٩ تر ٣٢.

(٦) نفسه ج ٢ ص ٢٩ تر ٣٤.

/ ١٣٦٩ م.): «... وللملك الظاهر وغيره فيه اعتقاد كبير»[١]. وقوله في ترجمة «يوسف الهذباني الكردي» (ت ٨٠٢ هـ. / ١٤٠٠ م.): «... وكان يكثر شتم الأكابر على سبيل المزاح ويحتملون ذلك له»[٢].

١٣ ـ وظائفه:

كما كان «ابن حجر» معنياً في كثير من الترجمات بتتبع وظائف المترجم له وتنقله فيها، كنحو قوله في ترجمته لأحد الخلفاء: «... ولي الخلافة في أيام تنبك بعد قتل الأشرف عوضاً عن المتوكل، ثم خلع، ثم أعاده الظاهر بعد القبض على المتوكل في سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، ثم صرف في جمادي الأولى سنة إحدى وتسعين فلزم داره إلى أن مات»[٣]. وقوله بخصوص أحد السلاطين: «كان من مماليك الظاهر، ثم صار في خدمة ابنه الناصر إلى أن خرج إلى البلاد الحلبية بسبب جكم، فلما رجع الناصر إلى مصر استمر ططر مع جكم ثم لما قتل جكم استقر أميراً بحلب ـ وتمربغاً المشطوب يومئذ النائب بحلب ـ فاستمر فيها مدة طويلة وهو في أثناء ذلك ينتمي لنوروز إلى أن وقع بين شيخ وبين نوروز وانكسر نوروز واستمر مع المؤيد، فلما اقتسما البلاد بعد قتل الناصر قدم مصر مع المؤيد واستمر في خدمته إلى أن تسلطن وحاصره مع النوروزية وهو يظهر خدمة المؤيد ويداريه ويبالغ في ذلك إلى أن أمره طبلخاناه، ثم أمره تقدمة. ثم لما توجه لقتال قانباي استنابه بالإسطبل، ثم لما مات المؤيد استقر نظام الملك ... ثم تسلطن»[٤]. وقوله بخصوص أحد الأمراء: «... فلما قتل الأشرف أمر بحلب نائباً، ثم عمل بدمشق تقدمة ثم نيابة حماه، ثم عمل نيابة الشام سنة ثمانين، ثم ناب في صفد، ثم طرابلس، وتنقلت به الأحوال، وعمل نيابة طرابلس مدة، ثم قبض عليه وسجن بها، ثم أفرج عنه يلبغا الناصري

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٧١ تر ٣٢.

(٢) نفسه ج ٢ ص ١٣٢ تر ٧٤.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٧١ تر ٣٤، وهو «أبو يحيى المعتصم بالله العباسي» (ت ٨٠١ هـ. / ١٣٩٩ م).

(٤) نفسه ج ٣ ص ٢٥٧ تر ٧، وهو «الظاهر بن عبد الله الظاهري» (ت ٨٢٤ هـ. / ١٤٢١ م).

وتوجه معه لمصر وولاه نيابة حلب. . . فلما استقر الظاهر في السلطنة الثانية أحضره إلى القاهرة وقدمه واستمر أتابك العساكر، ثم غضب عليه في أول سنة ثمانمائة واعتقله بالأسكندرية إلى أن مات في رمضان»[١] وقوله بخصوص بعض العلماء: «ولي قضاء غزة، ثم قضاء حلب، ثم قضاء العسكر بالقاهرة، ثم قضاء القدس، ثم مات بالقاهرة»[٢] وقوله: «ناب في الحكم وهو شاب، ودرس وأفتى وولي افتاء دار العدل وتدريس الشيخونية المنصورية. . . ثم ولي قضاء الشافعية استقلالاً»[٣].

كما كان كثيراً ما يقيس الوظيفة بالمترجم له، كنحو قوله: «وكان بيده عمالة المودع الحكمي فشانته هذه الوظيفة»[٤] أو يقيسه بالوظيفة، كنحو قوله: «. . . وكان متساهلاً في أحكامه»[٥]. وما إلى ذلك مما سوف يدرس تفصيلاً في الفصل المعقود للمصادر التأريخية من هذه الدراسة.

١٤ ـ أعماله:

ويقتصر «ابن حجر» على إثبات أهم الأعمال، وهي تختلف ـ كذلك تبعاً للتباين في الوظائف، واختلاف النوعيات المترجم لها لديه، ومن ذلك ما اثبت في ترجمة «أمير علي» (ت ٨٠١ هـ. / ١٣٩٩ م.)، وكان طبيباً معالجاً من قوله: «ويقال عالج ثماني مائة وعشرة أرطال»[٦]، وفي ترجمة «علي بن أيبك» (ت ٨٠١ هـ. / ١٣٩٩ م.) وقد كان شاعراً من قوله: «. . . وقد يقع له المقطوع النادر كقوله مضمناً:

مليح قام يجذب بان فمال الغصن منعطفاً عليه

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٨١ تر ٧١، «وهو كمشبغا الحموي».

(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٧٧ تر ٥٠، وهو «موفق الدين الرومي» (ت ٨٠٩ هـ. / ١٤٠٧ م.).

(٣) نفسه ج ٢ ص ١٨١ تر ٩٢، وهو «صدر الدين المناوي» (ت ٨٠٣ هـ. /١٤٠١ م.).

(٤) نفسه ج ٢ ص ٣٧٤ تر ٤١، وهو «تقي الدين الدجوي» (ت ٧٠٩ هـ. /١٤٠٧ م.).

(٥) نفسه ج ٣ ص ٢٠٦ تر ٦، وهو «علم الدين ابن المنجا» (ت ٨٢٢ هـ. /١٤١٩ م.).

(٦) نفسه ج ٢ ص ٧٥ تر ٥١.

وميـل الغصن نحـو أخيـه طبـع وشبـه الشيء منجـذب إليـه[1]

(من الوافر)

وقوله في ترجمة «كمشبغا بن عبدالله الحموي» (ت ٨٠١ هـ. / ١٣٩٩ م.) وهو أمير تنقل في الوظائف حتى استقر أتابكاً للعسكر: «. . . وهو الذي جدد سور حلب وأبوابها، وكانت خراباً من وقعة هولاكو»[2] وقوله في ترجمة «شيخ بن عبدالله المحمودي» (ت ٨٢٤ هـ. / ١٤٢١ م.) وكان سلطاناً: «وكان ممن سجن من مماليك الظاهر في فتنة منطاش بخزانة شمائل فنذر إن نجاه الله منها أن يجعلها مسجداً، ففعل ذلك في سلطنته»[3]. وقوله في «قرا يوسف» (ت ٨٢٣ هـ. / ١٤٢٠ م.) وكان متغلباً على بلدان الشرق «. . . استولى بعد اللنك على عراق العرب والعجم، ثم ملك تبريز وبغداد وماردين وغيرها من البلاد واتسعت مملكته حتى كان يركب في أربعين ألف نفس»[4] وقوله في ترجمة «السراج البلقيني» (ت ٨٠٥ هـ. / ١٤٠٣ م.) وقد كان من فقهاء العلماء: «. . . ولم يكمل من مصنفاته إلا القليل، لأنه كان يشرع في الشيء فلسعة علمه يطول عليه الأمر حتى كتب من شرح البخاري على نحو من عشرين حديثاً مجلدين، وكتب على الروضة عدة مجلدات، وعلق بعض طلبته من خطه حواشي شيخه بالروضة خاصة مجلدين»[5] وقوله في ترجمة «الزين العراقي» (ت ٨٠٦ هـ. / ١٤٠٤ م.) وكان المنظور إليه في علم الحديث: «. . . وصنف تخريج أحاديث الأحياء، وأكمل مسودته الكبرى قديماً، ثم بيضه في نحو نصفه، ثم اختصره في مجلد واحد، وبيضه وكتب منه النسخ الكثيرة، وشرع في إكمال شرح الترمذي لابن سيد الناس ونظم الألفية في علم الحديث لابن

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٥ تر ٥٢.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٨١ تر ٧١.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٢٥٦ تر ٦.

(٤) نفسه ج ٣ ص ٢٣٠ تر ٨.

(٥) نفسه ج ٢ ص ٢٤٦ تر ٢١.

الصلاح وشرحها، وعمل عليها نكتاً وصنف أشياء أخرى كباراً وصغاراً»[1]. وهكذا.

ويلاحظ أن «ابن حجر» لم يكتف بإثبات أبرز أعمال المترجم له، بل وتتبع مؤلفاته أو أجزاءها ودراستها في كثيرمن الأحيان، ومن ذلك قوله في ترجمة «تاج الدين الحميدي» (ت ٧٨٨ هـ. / ١٣٨٦ م.): «... ورأيت بخطه تذكرة في نحو الستين مجلدة، وعبارته عامية وخطه رديء جداً»[2] وقوله «ورأيت بخطه نسخة في مجلدة واحدة من صحيح البخاري في غاية الحسن»[3] ناعتاً لإحد أعمال «شمس الدين الموصلي» (ت ٧٧٤ هـ. / ١٣٧٣ م.) وقد شاكل ذلك مما سوف يفصل في موضعه من هذا البحث[4].

١٥ ـ السجايا والصفات:

ويعني فيه بذكر ما يتصل بهيئة المترجم له من شكل ذميم أو صورة حسنة أو وجه مليح أو منظر بهي.. وملبس حسن أو هيئة رثة، أو ما يتصل بأخلاقه من إتصاف بالشهامة والشجاعة ووفور العقل والسكون وحسن الخلق والجد الذي لا يعرف الهزل أو ما كان عكس ذلك، أو ما يتصل بطبائعه من إتلاف للمال واسراف فيه أو حب له وضن به، ومن الرجوع إلى الحق والعدل والجور وشدة الطيش.. وما إلى ذلك[5].

١٦ ـ علاقاته بالأهل والأقران:

كما أن «ابن حجر» كثير العناية بالتنبيه على أهله ومن تجمعهم به علاقة سواء ممن يكون قد ترجم لهم في الإنباء سابقاً أو لاحقاً أو من غيرهم كنحو قوله

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٦ تر ١٩.
(٢) نفسه ج ١ ص ٣٢١ تر ٤.
(٣) نفسه ج ١ ص ٥٣ تر ٣٩.
(٤) سوف يرد ذلك تفصيلاً في الفصل المعقود للمصادر من هذا البحث.
(٥) ورد ذلك تفصيلاً في الفصل المعقود للنقد التأريخي من هذا البحث.

في ترجمة «السراج البلقيني» (ت ٨٠٥ هـ. / ١٤٠٣ م.): «. . . لازم ابن عقيل وتزوج بنته سنة اثنتين وخمسين»[١]. وقوله في ترجمة «الفخر الكركي» (ت ٨٠٣ هـ. / ١٤٠١ م.): «. . .ثم دخل مصر فأقام بها مدة وتزوج بنت العلامة جمال الدين ابن هشام»[٢] وقوله في ترجمة «أبي المعالي الشيباني» (ت ٨١٧ هـ. / ١٤١٥ م.): «وقد تقدم ذكر أخيه جار الله بن صالح»[٣] وكان قد ترجمه في حولية خمس عشرة وثمانمائة[٤]. مع ملاحظة أنه في هذه الترجمة المشار إليها ـ ترجمة جار الله ابن صالح ـ قد أشار إلى متعلق بها في ترجمة سواه قائلاً: «وهو الذي قال فيه صدر الدين الأدمي البيتين المشهورين، وسنذكرهما في ترجمته»[٥] والبيتان هما:

يا متهمي بالصبر كن منجدي ... ولا تطل رفضي فإني عليل
أنت خليلي فبحق الهوى ... كن لشجوني راحماً يا خليل

(من السريع)

وقد وردا في ترجمته للصدر الأدمي ضمن وفيات حولية ست عشرة وثمانمائة[٦].

١٧ ـ علاقات ابن حجر بالمترجم لهم:

كما أن «ابن حجر» لا يغفل إثبات علاقاته بالمترجم لهم، مبيناً رأيه فيهم، جرحاً وتعديلاً، أو نقداً وتقويماً، ورأى هؤلاء فيه ـ كذلك ـ وهو ما درس تفصيلاً في موضوعي المشاهدة والمشاركة، والنقد التأريخي من هذا البحث. ومن أمثلته قوله: «. . . وقدم القاهرة مراراً آخرها في الرسلية عن الملك المؤيد ـ قبل

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٢٤٦ تر ٢١.
(٢) نفسه ج ٢ ص ١٧٠ تر ٦٨.
(٣) نفسه ج ٣ ص ٤٣ تر ٧.
(٤) نفسه ج ٢ ص ٥٢٧ تر ١٠.
(٥) نفسه ج ٢ ص ٥٢٧ تر ١٠.
(٦) نفسه ج ٣ ص ٢٨ تر ٢٢.

سلطنتـه ـ سنة ثمـان، وحصـل نسخـة من تعليق التعليق وشهـد لي في عنـوانها بالحفظ وكتب خطه في أصلي»[1]. ـ وقد ورد في ترجمتـه «لابن حجي الحسباني» (ت ٨١٦ هـ. / ١٤١٤ م.).

ولعل هذا العنصر من أهم عناصر الترجمات لدى الـدارسين لابن حجـر ومنهجه التأريخي، لما له من دور كبير في إبراز ذاتيـة كاتبـه بالكشف عن عـلاقاتـه بالمترجم لهم ـ لديه ـ وارتباطه بهم بـالقراءة أو الـرواية أو الإسنـاد وكذا اتصـاله بالأحداث واطلاعه على أحوال الدول وأسرارها، حيث لم تكن عـلاقاتـه منحصرة في دائرة الطلب والإشتغال، وإنما كانت له علاقات أكيدة بالسلاطين ومن دونهم من الأمراء والوجهاء، على نحو ما هو بين في ترجمته من هذا البحث.

التوازن الزماني

. . ومع ذلك فإننا لا نجد توازناً زمانيـاً بين حـوليات الكتـاب ـ أحداثـه وترجماته لأن «ابن حجـر» لم يكن من بين هؤلاء الـذين يـأخذون بـالشكليات ـ على نحو ما هو مبين قبل ـ ولأن ديدنة في الإلتزام بمنهج يلح به على تقرير شمولي لأحـوال عصره فضـلاً عن أن هناك من الأسبـاب ما يجعـل نشدان التـوازن بين الحوليات متعذر الحدوث، كطبيعة الحوادث الواقعـة ـ في كل حـول ـ وجدارتهـا بالتسجيل أو الإهمال، والحروب والطواعين والأوبئة وما ينتـج عنها من كثـرة القتلى والمتوفين.

لكن للإفصاح عن منهجه في هذا الموضوع يمكن الإشـارة إلى أنه قـد أورد في حوادث حولية ثلاث وسبعين وسبعمائـة قولـه ـ بخصوص غلبـة تمرلنـك على إقليم خوارزم: «. . . واستولى اللنك على خـوارزم **فخربهـا كدأبـه في غيرهـا من البلاد**»[2]. ثم عمد بعد ذلك إلى توكيد هذه الخصيصة الملازمة «لتمـرلنك» كلما سنحت له الحوادث بذلك، فقال في حوادث حولية ثمـانمائـة: «. . . وفيها نـازل

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٩ تر ٦.

(٢) نفسه ج ١ ص ٢١.

تمرلنك الهند فغلب على دلي ـ كرسي المملكة ـ وقتل وفتك على عادته وخرب»[1]. ثم ألح على توكيد ذلك بقوله في حوادث حولية ثلاث وثمانمائة: «. . . وهجم عسكر تمرلنك البلاد فأضرموا فيها النار وأسروا النساء والصبيان وبذلوا السيوف في الرجال والأطفال حتى صار المسجد الجامع كالمجزرة»[2]، «. . . وجافت النواحي من كثرة القتلى منهم وكادت الأرجل لا تطأ إلا على جثة إنسان، وبني من رؤوس القتلى عدة مآذن منها ثلاثة في رابية ابن خجا»[3]، وقوله: «. . . **ومات في هذا الشهر ـ أي الذي تغلب فيه تمرلنك على الشام ـ من لا يحصى عدده إلا الله ـ تعالى ـ فمنهم من مات حريقاً، ومنهم من عجز عن الهرب فمات جوعاً، ومنهم من توجه هارباً فمات أعياء، ومنهم من كان ضعيفاً فاستمر إلى أن مات**»[4].

وهذا لا يتقرر إلا بإيراد شاهد له، والشواهد كثيرة، لكن أبلغها أثراً وتقريراً في نفس المطالع لتاريخه ـ قائمة الوفيات الواردة تلو حوادث حولية ثلاث وثمانمائة وقد احتوت على هذا التصنيف للموتى[5].

ترى لو عمد إلى الموازنة بين عدد الترجمات فيها قياساً بغيرها من حوليات الكتاب يصيب مرماه؟ . . إنها نظرة مبتكرة في التأريخ، نظرة شمولية تبدو فيها لحوادث والتراجم وقد تعاونتا في تقرير منهجه والإلحاح عليه، فالهدف إذاً ليس شكلياً تلزم فيه الحقيقة بارتداء لباس من التنسيق الفني.

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٩

(٢) نفسه ج ٢ ص ١٣٥.

(٣) نفسه ج ٢ ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٤) نفسه ج ٣ ص ١٣٩.

(٥) راجع: العلاقة بين التراجم والحوادث من هذا الباب.

الفصل الثالث

العلاقة بين الترجمات والحوادث في «الإنباء»

توجد علاقات وثيقة بين مادة «الإنباء»: أحداثه وترجماته، لم تأت عفوية أو ارتجالية، وإنما كان وراءها أصبع «ابن حجر» التي وجدت في مناسبة الوفاة فرصة لاستخدامها في تحقيق هذه الغاية.

وهي مثبتة فيه على الأوجه التالية:

أولاً ـ العلاقة الزمانية بينهما:

توجد بين التراجم والحوادث في حيز الحولية الواحدة علاقة زمانية لاشتراكهما من حيث الوقوع والحدث في حيز زماني واحد، وهو الحول الواقع فيه كلاهما. باعتبار أن الوفاة ذاتها حدث تاريخي. فالعلاقة بينهما علاقة إثبات وتوزيع لحوادث ذوات نوعيات مختلفة من حيث التوصيف، **الأولى**: تحتوي على أخبار متنوعة بين سياسية وإدارية وثقافية.. والثانية: ذات تنوع مماثل ـ تقريباً ـ من حيث التوصيف، بيد أنها تتفوق عليها من حيث المنهج لحملها سمة مشتركة هي: الإخبار عن الوفاة ومفارقة الحياة المألوفة، مما جعلها تجتمع في حيز مكاني واحد، يلي ـ غالباً ـ الأحداث المذكورة في الحولية الواحدة، ويكون ذيلاً عليها. وإن تناثرت بعض ترجمات الوفيات وأخبارها في صدر الحوادث أو خلال سردها.

ثانياً ـ العلاقة من حيث الموضوع:

وهذه العلاقة السالفة اقتضت من «ابن حجر» توزيع معلوماته التاريخية

الواردة في مؤلفه على جزئي الكتاب: أحداثه وترجماته متبعاً خطوات، وسالكاً مسالك منها:

أ ـ **الترجمة بالإحالة الكلية على الحوادث**: وفيها يرد اسم المترجم له في الوفيات مجرداً ـ في الغالب الأعم ـ من أية معلومات، اكتفاء بالإحالة إلى الحوادث، التي غالباً ما تكون سابقة على ترجمته. ومن أمثلة ذلك ما ورد في ترجمة «أجاي اليوسفي» ضمن وفيات حولية خمس وسبعين وسبعمائة، حيث ذيل على اسمه بالعبارة التالية: «... تقدمت ترجمته في الحوادث»[1]، وما ورد في حولية ثمان وسبعين وسبعمائة حيث ترجم للملك «الأشرف شعبان» بقوله: «... مات مقتولاً في ذي القعدة، وقد تقدم ذكره في الحوادث. عاش أربعاً وعشرين سنة»[2].

ب ـ **الإحالة إلى الحوادث في تضاعيف الترجمات**: وفيها يحيل في تضاعيف ترجماته إلى الحوادث، مكتفياً فيها بهذه الإحالات، أو يلخص ما تعلق بشخصية المترجم له محيلاً إلى تفصيلاتها في الحوادث. ومن ذلك ما ورد في حولية اثنتين وثمانين وسبعمائة بخصوص ترجمة «ابن غرام» من إحالة إلى الحوادث قائلاً: «... تقدم ذكر قتله في الحوادث»[3]. يريد بذلك خبراً أشار فيه إلى تسميره وإنزاله، وضرب مماليك «بركة» له بالسيوف، ثم تعليق رأسه بعد مقتله على باب زويلة، نتيجة لاتهامه بقتل «بركة» بغير إذن له، وإن أظهر خط الأمراء بذلك[4].

جـ ـ **الإحالة في الحوادث إلى ترجمات الوفيات**: ويتجلى ذلك من خلال تتبع بعض الإحالات الواردة في «الحوادث» رداً على «الترجمات»، ومنها ما ورد في حوادث حولية تسع وثمانين وسبعمائة في معرض الإخبار عن السبب في عزل

---

(١) ابن حجر العسقلاني. إنباء الغمر (ط. القاهرة) ج ١ ص ٦٤.

(٢) نفسه ج ١ ص ١٤٠.

(٣) نفسه ج ١ ص ٢٢٧.

(٤) نفسه ج ١ ص ٢١٥.

«أبي البقـاء» من القضـاء من قـولـه: «. . . وقـرأت بخط القـاضي تقي الـدين الـزبيـري أن سبب عـزل أبي البقـاء مـا تقـدم من قضيـة أمـين الحكـم»[١]، والقضية المشار إليهـا وردت في ترجمـة «أحمد بن محمـد الزركشي» ـ أمـين الحكم بالقاهرة ـ الواردة ضمن ترجمات وفيات حولية ثمان وثمانين وسبعمائة مسندة إلى المصدر عينه، حيث يقول: «. . . وضاع للأيتام عنده أموال عظيمة، قرأت بخط تقي الدين الزبيري أنها تزيد على ثلاثمائة ألف درهم تكون نحواً من خمسة عشر ألف دينار، فبيع موجوده فكان دون النصف.

قلت: والذي تحرر لي أن المقاصة وقعت على ربع وسـدس عن كل درهم. وبلغ السلطان ذلـك فأسـرّها في نفسـه على القـاضي حتى عـزلـه في السنـة التي بعدها»[٢].

د ـ الترجمة لبعض الوفيات في الحـوادث: حيث ورد ذلك مـع إدراك «ابن حجـر» له ونصـه عليه في أكـثر من موضـع بعبارات منهـا: «تقدمت تـرجمتـه في الحـوادث»، «تقدم ذكـره في الحـوادث»، «تقـدم في الحـوادث»، «وقـد ذكـر في الحوادث»، «مضى ذكره في الحوادث»[٣].

هـ ـ التكامل بين الترجمات والحوادث: حيث تميـز «الإنباء» بجمـع حشد كبير من المعلومات التاريخية التي حاول مؤلفه إيداعها فيه مجتزئاً فأتت موزعة على الحوادث والترجمات، وكان بذلك يؤرخ بالحدث والترجمة معاً.

وسوف أقتصد في هذا الموضع في إيراد الأمثلة منعاً للتطويل مكتفياً بـإيراد مثالين أحدهما يتعلق بخبر لا يمكن تقديره واكتماله إلاّ بمتعلق له في ترجمة إحدى الوفيات، وهـو «ضمان المغـاني»، والثاني يتعلق بعلم لا تُعـد ترجمتـه مكتملة في بـابها مـدركاً قيمتها ـ على الـوجـه المـرجـو ـ إلاَّ بتتبـع مـا ورد بخصـوصهـا في

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٣١.

(٢) نفسه ج ١ ص ٣٢٢.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠ ـ حيث ترجمته «لابن غراب» في الحوادث من حوليـة ثمان وثمـانمائـة للهجرة.

الحوادث، وهو «برهان الدين ابن جماعة»، حيث أن «ابن حجر» لم يكن يؤرخ للأحداث المتعلقة به البتة، وإنما كان يتتبع جوانب حياته بالترجمة والبسط مهيئاً نفس المطالع لتقبل المعلومات الواردة في ترجمته في سنة الوفاة.

وأما بخصوص «ضمان المغاني» فلقد وردت معلومات عنه في مواضع ثلاثة هي: حوادث حولية «خمس وسبعين وسبعمائة» حيث قال: «... وفيها في صفر أبطل الملك الأشرف ضمان المغاني ومكس القراريط التي كانت في بيع الدور، وقريء بذلك مرسوم على المنابر، وكان ذلك بتحريك الشيخ سراج الدين البلقيني، وإعانة أكمل الدين وبرهان الدين ابن جماعة، ويقال: إن السلطان توعك فأشاروا عليه بذلك فاتفق أنه عوفي فأمضى ذلك واستمر»(١).
وفي حوادث حولية ثمان وسبعين وسبعمائة حيث ورد قوله: «... فيها تمرض السلطان ثم تعافى ثم انتكس... وفي أثناء ذلك كان ابن آقبغا آص تكلم في إعادة ضمان المغاني، فبلغ ذلك برهان الدين ابن جماعة فغضب وامتنع من الحكم فتكلم الشيخ سراج الدين البلقيني وغيره مع السلطان في ذلك فأنكره وأمر بإبطال ذلك من مصر والشام وقبض بعد مدة يسيرة على ابن آقبغا آص ونفي إلى الشام وصودر. وكان ضمان المغاني من القبائح الشنيعة، ما كان أحد يقدر يعمل عرساً حتى يغرم قدر عشرين إلى ثلاثين مثقال ذهب، وكانوا بمصر والقاهرة لا تغيب مغنية عن بيتها - ولو إلى زيارة أهلها - إلّا أن أخذ منها الضامن لها رشوة. وأما ببلاد الريف فكان للمغاني حارة مفردة يعمل فيها من الفساد جهراً مايقبح ذكره ومن اجتاز بها غلطاً ألزم بأن يزني بخاطئة فإن لم يفعل فدى نفسه بشيء»(٢).

المفهوم - إذن من هذين الموضعين - أن ضمان المغاني كان من الأشياء مستقبحة الحدوث، وأن الذي ساعد على إبطاله إعانة بعض العلماء للسلطان على إبطاله في ساعة ضعف وتمرض يعافي السلطان فيها وينتكس.

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٥٨ - ٥٩.
(٢) نفسه ج ١ ص ١٢٧.

لكن هذا المفهوم يعد ناقصاً ـ تماماً ـ بدون إضافة بعد جديد له لا يوجد إلّا في تراجم الوفيات، حيث ورد في ترجمة «دنيا بنت الأقباغي» المغنية الدمشقية ـ ضمن وفيات حولية تسع وسبعين وسبعمائة ـ ما نصه: «. . . وهي كانت من أعظم الأسباب في إسقاط مكس المغاني، سألت السلطان في ذلك فأجاب إليه، ثم أراد ابن آقبغا آص إعادته فتكلم الشيخ ضياء الدين والشيخ سراج الدين البلقيني مع الأشرف وهو ضعيف فأنكر على ابن آقبغا آص ذلك واستمر إبطاله»[1].

وهكذا لا يمكن اعتماد الحوادث وحدها في هذا الموضع وأمثلته بدون الرجوع إلى التراجم لاستكماله وتتبع خيوطه وأبعاده.

أما بخصوص العلم المشار إليه وهو «برهان الدين، ابن جماعة» فإننا نجدنا مع «ابن حجر» وقد ترجم لهذه الشخصية الفذة من خلال تدوينه للأحداث المتعلقة به ـ عن عمد وقصد إلى ذلك ـ وإلا لأتت تلك الحوادث مجردة كمثيلاتها في مواضع كثيرة من كتابه. . . حيث نطالع في أولي حوليات كتابه ـ سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ـ وحتى سنة تسعين وسبعمائة حلقات من جوانب ترجمته تشبه إلى حد كبير حلقات مسلسلة في حبكة قصصية تبرزه أمامنا فارساً ذا شخصية تاريخية متفردة في عصره؛ والسر في تفردها هو إتيانها بما لا يعد مألوفاً في عصرها وإن كان مألوفاً أن يرد منها مثل ذلك.

أشار «ابن حجر» في حولية ثلاث وسبعين وسبعمائة إلى خبر هذا نصه:

«. . . وفيها استقر القاضي برهان الدين ابن جماعة في قضاء الشافعية عوضاً عن أبي البقاء السبكي. . . واستمر المنصب شاغراً إلى أن وصل الخطيب برهان الدين ابن جماعة في خامس جمادى الآخرة»[2].

يمكننا أن نعتبر هذا الخبر مفيداً في موضعه، تاماً لمقصده، فهو مماثل لمثل

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٦٤.

(٢) نفسه ج ١ ص ١٢ ـ ١٣.

ما ورد في غيره من حالات الاستقرارات الوظيفية، وكـان فيه كفـاية لـو أن «ابن حجر» كان يبتغي من إيراده الأخبار مجردة عن ذوات القائمين بها، لكنه عمد إلى ما هو أبعد من ذلك. . إلى الترجمة لابن جماعة بسـرد أخباره، ولـذا نجده يـذيل على هذا الخبر بقوله: «. . . وكان برهان الـدين ـ حين عُـزل أبو البقـاء ـ بدمشق زائراً لأهله من ربيع الأول ورجع بعد خمسين يوماً بعد أن فـوض له النـائب نظر القدس والخليل فخالفه البريدي في الطريق، فأمـره النائب بلحـاقه إلى القـدس فلحقـه، فخطب في السـادس عشر من جمادي الأولى خـطبة بليغـة تعرض فيهـا لتـوديعهم فأبكـاهم وتوجـه على البـريـد، فلما اجتمـع بـالسلطان عـرض عليـه المنصب، فاشترط شروطاً كثيرة فالتـزم له السلطان بهـا، ولبس الخلعة وركب في حشمة عظيمة وأبهة زائـدة، فراح النـاس إلى تهنئته حتى القـاضي المعزول فـرحاً منه به لعلمه برياسته وحسن سياسته»[1].

ليس الهـدف إذاً لـدى «ابن حجـر» محصـوراً في إيـراد خبـر عن استقـرار وظيفي من مثـات الأخبار الـواردة بخصوص ذلـك في سائـر جـوانب الكتـاب، ولكن مِنْ وراء ذلـك بُعد آخـر هو التعـريف تباعـاً بهذه الشخصيـة حتى تكتمل أعمالها فلا يكون بعدها إلّا التعريف بأبرز مكونـاتها، لقـد ذيل عـلى هذا الخبـر الخاص بالإستقرار الوظيفي بأمور أبرزت الآتي:

١ ـ موضع الآتي وأصله، حيث وجوده في دمشق «زائراً لأهله».

٢ ـ وظائفه فيما قبل توليه قضـاء الشافعيـة «الخطابـة» بالإضـافة إلى «نـظر القدس والخليل».

٣ ـ شعبيته في موضعـه، وفي الموضع المنقول إليـه: «فخطب. . . خـطبة بليغة تعرض فيها لتوديعهم فأبكاهم»، «فـراح الناس إلى تهنئته».

٤ ـ عزمه وقوة إرادته وغلبة شخصيته «فلما اجتمـع بالسلطان عـرض عليه المنصب فاشترط شروطاً كثيرة فالتزم له السلطان بها».

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٣.

٥ ـ مكـانته في نفـوس الخاصـة والعامـة «ولبس الخلعـة وركب في حشمـة عظيمة وأبهـــة زائدة» وفـرح الناس بـه بالإضـافة إلى خـروج القاضي المعـزول لتلقيه «فرحاً منه به».

٦ ـ بيان ما يتمتع به من سمعة علمية، فخطبته «بليغـة»، كما أن له «رياسـة وحسن سياسة».

هكذا أفصح عن خبر وهو الإستقرار الوظيفي، ثم قرنه بمعلومات لا بأس بها عن هذه الشخصية في أول جوانب التعريف بها.

ونترك هذه الحولية وهـذا الموضـع لنجدنـا مرة ثـانية مـع «ابن جماعـة» في حولية ست وسبعين وسبعمائة، حيث يطالعنا «ابن حجر» عنه بخبر مفاده: «. . . وفي رابـع عشري ذي الحجـة عزل القـاضي برهـان الدين ابن جماعة نفسـه من القضاء بسبب تثقيل بعض الأمراء عليه في أمـر بعض الموقعـين فراسله السلطان فامتنع فأرسل إلي بهادر ـ أمير آخـور ـ فحلف عنده بـالطلاق أن السلطان حلف بالطلاق أنه إن لم يجب إلى العود نزل إليه إلى بيته وألزمه به، فلم يزل به إلى أن ركب معـه إلى القلعة فـاجتمع بـالسلطان فسألـه أن يعود وألـحّ عليه فكـان آخر كلامه الإمهال إلى أن يستخير الله ـ تعالى ـ في ليلته، فلما أصبـح طلع إلى القلعة في الخامس والعشرين من ذي الحجة واشترط شروطاً أجابه السلطان إليهـا ونزل في أبهة عظيمة إلى الغاية وازدادت مهابته وتصميمه في الأمور»(١).

في هذا الموضع ـ كذلك ـ لم يأت الخبر مجرداً، وإنما ربط «ابن حجر» بينـه وبين شخصية «ابن جماعة» بعد أن تتبعه في يومين متتاليين أفصح في الإخبار عنهما بالآتي:

تصميم «ابن جماعة» في الأمر، فهو لا يقبل «تثقيل بعض الأمـراء عليه في أمر بعض الموقعين» فاندفع يعزل نفسه والسلطان يراسله فيمتنع ويرسل إليه مغلظاً الأيمان في العود فلا يكون طلوعـه إليـه إلاّ بعد جهـد جهيد «فلم يـزل به إلى أن

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٧٣.

ركب معه إلى القلعة» والسلطان يسأل ملحاً في العود و «ابن جماعة» لا يكون منه إلَّا الإرجاء و «الإمهال إلى أن يستخير الله ـ تعالى في ليلته». . كل هذا لا ينزل من مكانته لدى الناس، حتى لو كان منهم السلطان «فلما أصبح طلع إلى القلعة. . . واشترط شروطاً أجابه السلطان إليها» وإنما يكون معه الإجلال والتعظيم حيث «نزل في أبهة عظيمة إلى الغاية» وكذا زيادة مكانته في نفوس الناس، وزيادة اعتداده بعمله «وازدادت مهابته وتصميمه في الأمور».

وكان «ابن حجر» قبلها قد أورد له دوراً في إبطال «ضمان المغاني» و «مكس القراريط»، فأظهر له ولرجال الدين دوراً في رفع المعاناة عن الناس وصوناً لهم من القبائح.

ثم نجدنا مع «ابن جماعة» في موضع آخر من الحوادث وقد ترسخت مكانته في الأذهان، حيث ورد بخصوصه في حوادث حولية تسع وسبعين وسبعمائة ما نصه: «. . . وفي شعبان عزل القاضي برهان الدين ابن جماعة نفسه عن القضاء لوقوع هذه الفتن، وكان قد انقطع عن حضور المواكب»[1].

وهنا يتضح مدى اعتداده بنفسه وبوظيفته، ونجدنا للمرة الأولى مع «ابن حجر» وقد أورد خبراً عن «ابن جماعة» مجرداً، ولعل السر في ذلك مرده إلى ترسيخه قبلها في الأذهان لطبيعة «ابن جماعة» وتصرفاته، مما جعله ليس في حاجة إلى تذييل أو تعليق في هذا الموضع.

ولا يتركنا نبحث عن مصيره ولكن يشير بعد برهة إليه بقوله: «. . . وتوجه ابن جماعة إلى القدس على الخطابة والتدريس كعادته»[2]. مع حط البلقيني عليه.

وفي حولية إحدى وثمانين وسبعمائة نجدنا مع «ابن جماعة» في خبر هو: «. . وفيها توجه فخر الدين إياس في طلب برهان الدين ابن جماعة لشكوى

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٥٦.

(٢) نفسه.

الناس من سيرة ابن أبي البقاء، فوصل في أواخر صفر، فخرج لملتقاه وطلع بصحبته إلى برقوق. . . ثم طلب صبيحة قدومه إلى القلعة وخلع عليه ونزل في موكب حافل في ثلاثة عشر من الأمراء الكبار فارتجّت لَه القاهرة بحيث كان أعظم من يوم المحمل، وباشر بحرمة ومهابة أعظم من المرة الأولى. . »[١].

وفي هذا الموضع - أيضاً - أفصح «ابن حجر» عن مكانة «ابن جماعة» لدى السلطة والناس في عصره، حيث أعادته السلطة إلى القضاء وقد عزل برغبته لا برغبتها، ثم تتجمل معه في تكريمه تجملاً زائداً، حيث يحفه الأمراء وقد خلع عليه، ويكون من الناس ما لا يعهد مع مثله حتى مع السلطان «بحيث كان أعظم من يوم المحمل» وكل هذا لا يثنيه عن مباشرة عمله «بحرمة ومهابة أعظم» وفي ذلك إبراز لجوانب مهمة من حياته وسماته وعلاقاته بأحداث وشخصيات عصره. مضافة إلى الإخبار عن علاقاته بأقرانه.

ثم نجدنا مع «ابن جماعة» في موضع آخر في صراعه مع القاضي الحنفي، وفي غيره عن ترتيبات «ابن جماعة» مع نوابه. . إلى أن نجد «ابن جماعة» وقد عزل نفسه من القضاء حرصاً على كرامته، وذلك في حولية أربع وثمانين وسبعمائة، حيث يشير إلى امتناع «ابن جماعة» من الحكم إثر خلاف مع برقوق الذي كان قد افتعل ذلك معه لأنه «كان يعرف قوة نفس برهان الدين ابن جماعة فخشي ألّا يوافقه إذا رام أن يتسلطن، ويعارضه فلا ينتظم أمره فعمل على عزله وتولية من لا يخالفه لكونه هو الذي أنشأ ولايته»[٢]، ثم يشير بعد ذلك إلى استقراره في قضاء الشام بعد موت «أبي البقاء»، ودخول «ابن جماعة» دمشق قاضياً. . حتى يصل بنا إلى أحداث حولية تسعين وسبعمائة لنجدنا أمام خبر هو:

«. . . وفيها استقر سري الدين المسلاتي. . . في قضاء الشافعية عوضاً عن

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٠.

(٢) نفسه ج ١ ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

برهان الدين ابن جماعة، وحمل إليه التقليد إلى دمشق في أواخر شعبان. »[1] هكذا-مجرداً.

وهنا نتساءل: أين ذهب «برهان الدين ابن جماعة»؟ ولم استقر غيره في منصبه؟ وهل توجه على عادته إلى الخطابة والتدريس بالقدس؟

لا يتركنا «ابن حجر» لكل هذه التساؤلات، وإنما يطالعنا في نفس الحولية وفي أولي ترجمات وفياتها بترجمة متممة لأخباره عنه مكملة لهذا الخبر[2]. لقد مات «ابن جماعة» فلا أقل من التعريف بمكونات هذه الشخصية الفذة التي تعاطف معها وبهر بمواقفها مطالعيه. ولذا فإن ترجمته له تحتوي على العناصر التالية:

١ ـ سلسلة نسبه.

٢ ـ المولد والوفاة تأريخاً.

٣ ـ مناهل علمه.

٤ ـ وظائفه، ومكانته العلمية.

٥ ـ شغفه بجمع الكتب ومصائرها بعد وفاته. وإن وردت أخبارها ـ كذلك ـ في أخبار وترجمات غيره[3].

٦ ـ قرضه للشعر.

٧ ـ امتداح أهل عصره له.

وبمضاهاة عناصر هذه الترجمة، وما ترجم «لابن جماعة» في أحداث حوليات «الإنباء» يمكننا أن نستخلص الآتي:

١ ـ إدراك «ابن حجر» للعلاقة بين الترجم والحوادث مما جعله يجتزيء معلوماته ويوزعها على أحداث وترجمات الوفيات في حولياته، حيث وجدناه في حقيقة الأمر يترجم لابن جماعة حيث يورد أخباره.

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٥١.

(٢) نفسه ج ١ ص ٣٥٥.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٢٩٩، ج ٣ ص ٣٥٦.

٢ ـ عمد بأسلوبه وطريقة عرضه لمعلوماته إلى شحن القاريء عاطفياً ليتجاوب مع هذه الشخصية حتى تساير مراحل كتاباته عنها كي يصل إلى غرضه من الحبكة التأريخية، ولذا وجدنا أنفسنا مع «ابن حجر» وقد أورد «لابن جماعة» باديء ذي بدء استقراراً وظيفياً بحكم عزل غيره، ووجدنا أنفسنا في آخر الحوليات المتعلقة «بابن جماعة» معه في استقرار وظيفي لغيره في موضع عمله، مجهول السبب لتكون الترجمة «لابن جماعة» في ذيل الحولية عينها بمثابة الخبر المتمم لسائر الحوادث. ويكون بذلك قد جعل إيراد الوفاة مترجمة في هذا الموضع خبراً متمماً ومكملاً لسائر الأخبار الدائرة حول هذه الشخصية، تماماً كما جعل مواضع الحوادث جوانب للصورة الكلية لشخصية المترجم له لا تكتمل إلا بترجمته ضمن الوفيات لإفصاحها عن دوافع هذه الشخصية، والسبب في توجيهها هذه الوجهة وهو مع ذلك، وفي دقة متناهية لا يكرر نفسه، اللهم إلا في موضع توضيح وتقدير منه له: «. . . ثم خطب إلى قضاء الديار المصرية فوليه مرتين بصرامة وشهامة وقوة نفس وكثرة بذل وعزل نفسه مراراً ثم يسأل ويُعاد حتى هم السلطان في بعض المرات أن ينزل إليه بنفسه ليترضاه»(١).

و ـ **علاقة السببية**: حيث تظهر العلاقة بين التراجم والحوادث في هذا الجانب متمثلة في ذكر الأوبئة والطواعين، أو الفتن والحروب وما يعقبها من سرد لوفيات تكون مترتبة عليها، وتكون الحوادث متسببة فيها، وتكون الوفيات تبعاً لذلك توكيداً لمثل هذا النوع من الحوادث، وتقريراً لها.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في حوادث حولية تسع عشرة وثمانمائة، حيث أشار إلى وباء الطاعون قائلاً: «. . . وابتدأ الطاعون بالقاهرة فبلغ في نصف صفر كل يوم مائة نفس، ثم زاد في آخره إلى مائتين وكثر ذلك حتى كان يموت في الدار الواحدة أكثر من فيها، وكثر الوباء بالصعيد والوجه البحري حتى قيل إن أكثر أهل هو هلكوا (وكثر) في طرابلس حتى قيل إنه مات بها في عشرة أيام عشرة آلاف نفس. . . وكذلك وقع في القدس وصفد وغيرها»(٢).

---

(١) المصدر السابق ج ١ص ٣٥٥.

(٢) نفسه ج ٣ ص ٧٨.

ويتقرر مفهوم ذلك بما ورد في ذيل الحولية نفسها من إيراد سرد لترجمات الوفيات تتلاحق في خواتمها ـ غالباً ـ عبارات «مات مطعوناً»، «مات في الطاعون»، «مات بالطاعون». ومن هؤلاء الذين ماتوا بالطاعون: أصيل الدين الأشليمي، وابن الأديب الشافعي، وابن الجيتي، وابن يوسف الكردي الدمشقي، وأمين الدين الطرابلسي، وجلال الدين الخشبي المدني، وابن علوي الحسباني، والعز ابن جماعة، والشمس ابن القطان، والنجم الحنبلي، والكوم ريشي، وابن قلاف الدين الحلوائي، وقطب الدين الأبرقوهي، وابن ساري الهواري، ويوسف الماردينی(1).

ولا يخفى ما لهؤلاء من ذوات وشخصيات وملكات متنوعة، بالإضافة إلى تباين أصقاعهم ومنهم من «اشتد أسف الناس عليه، ولم يخلف بعده مثله»، كما أن منهم من كان «مشكور السيرة نبيهاً في فنه».. مما يوضح فداحة الخسارة والخطب الجلل.

أما ما يتعلق بالوفيات التي تكون الفتن والنكبات السياسية والحربية سبباً فيها، فمنها ما ورد بخصوص طروق «المغول» للشام وتغلبهم عليها، حيث ورد في حولية ثلاث وثمانمائة ما نصه: «... فلما بلغ ذلك لتمرلنك نازل حلب... والتقى الجمعان... وتمت الهزيمة على العسكر الإسلامي... وهجم عسكر تمرلنك البلد فأضرموا فيها النار وأسروا النساء والصبيان، وبذلوا السيوف في الرجال والأطفال حتى صار المسجد الجامع كالمجزرة... ثم تعدى أصحابه إلى نهب القرى المجاورة والمتقاربة والإفساد فيها... وجافت النواحي من كثرة القتلى منه، وكادت الأرجل ألا تطأ إلا على جثة إنسان، وبني من رؤوس القتلى عدة مآذن منها ثلاثة في رابية ابن خاجا، وهلك من الأطفال الذين أسرت أمهاتهم، ومن الجوع أكثر ممن قتل»(2).

ثم نجدنا مع وفيات الحولية ذاتها وقد انعكست على ترجماتها هذه الأخبار،

---

(1) المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٥ ـ ١٢٤.

(2) نفسه ج ٢ ص ١٣٤ ـ ١٣٦.

حيث أشار في ترجمته لابن علي التادلي ـ قاضي المالكية بدمشق ـ إلى أن موته كان «بعد أن حضر الوقعة مع اللنكية وجرح جراحات فحمل فمات قبل سفر السلطان من دمشق»(١)، وفي ترجمة «إبراهيم بن مفلح» يشير إلى دوره في النكبة قائلاً: «. . . ولما طرق اللنك الشام كان ممن تأخر بدمشق فخرج إلى اللنك وسعى في الصلح وتشبه بابن تيمية مع غازان، ثم رجع إلى دمشق، وقرر مع أهلها أمر الصلح فليم يتم له أمر، وكثر تردداه إلى اللنك ليدفع عن المسلمين فلم يجب سؤاله وضعف عند رجوعهم. . . ومات بعد الفتنة بأرض البقاع»(٢).
وهذه العبارة تضفي بُعداً تاريخياً على حدث ورد بخصوص دوره في الحوادث وهو: «. . . فأغلق أهل دمشق أبوابها، وركبوا أسوارها وتراموا مع اللنكية فقتل منهم جماعة، فأرسل تمرلنك يطلب من أهل البلد رجلاً عاقلاً يتكلم معه في أمر الصلح، فأرسلوا إليه القاضي (برهان الدين بن مفلح)، فرجع وأخبر أنه تلطف معه في القول، وسأله في الصلح فأجابه، فأطاعه كثير من الناس، وأبى كثير منهم فأصبحوا. . وقد غلب رأي من أراد الصلح. . . فكتب لهم أماناً قريء على المنبر يتضمن أنهم آمنون على أنفسهم وأهاليهم، وفتح الباب الصغير واستحفظ عليه بعض أمراء تمرلنك لئلا ينهب التتار البلد. . . فتزايد البلاء على أهل البلد، وندموا حيث لا ينفع الندم»(٣).

كما انعكست على مادة الوفيات ـ في هذه الحولية ـ جوانب متعددة من الأحداث اللنكية في الشام حيث أتت الوفيات مسببة عن غزو التتار وتعذيبهم لذواتها، ثم أضافت بُعداً آخر لتلك الحوادث، فمن الناس من فر خوفاً من الوقعة، ومنهم من عوقب فمات تحت العقوبة أو إثرها وإن تعددت العقوبات، ومنهم من أُعِدّ للعقاب فنجاه الله ببعير ليعتقد ويخلي سبيله، ومنهم من أُسر فقتل غرقاً أو صبراً أو قتلاً، ومنهم من فك أسره وأطلق، ومنهم من ابتلي في ماله

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٠.
(٢) نفسه ج ٢ ص ١٥٠ ـ ١٥١.
(٣) نفسه ج ٢ ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

وأهله وولده، ومنهم من تعامل مع العدو فحصل له سعود أو نحـوس، ومنهم من كانت النكبة سبباً في غناه وتكثير ثروته[1]. .

وخـلاصة القـول أن «ابن حجر» قـد جعل وشـائج صلة بـين «حـوادث» و «ترجمات» كتابه، باعتبار أنه يتوخى التأريخ بالحدث والتـرجمة معـاً، وساعـده على ذلك أمور لعل أهمها:

١ ـ أنه كا ن يكتب حولياته بعد انقضاء أمد بعيـد من حدوثهـا، مما جعـل الـرؤية لـلأحداث كلهـا مكتملة تحت ناظـريـه، عـلى العكس من هؤلاء الـذين يكتبـون الحوادث في ذات السنـة من وقوعهـا مما جعلهـا تأتي متـراصـة في شكـل يوميات.

٢ ـ مشـاركتـه في هـذه الأحـداث واتصـالـه بهـا وبكثـير من الشخصيـات المشاركة فيها مما جعله يربط بينها وبين الحوادث.

٣ ـ حرصه على الشمول الموضعي لأحداث حولياتـه، حيث لم ترد أخبـاره في موضعها مجردة، وإنما أتت ـ في غالبيتها ـ مقرونة بعلاتها ومسبباتها ممـا اضطره أن يورد جوانب عديدة من تـراجم الأفراد والشخصيـات فيها، فـوجد نفسـه في الكثـير من الترجمـات ليس بمكنته الإتيـان بجديـد في إخبـاره عن وفيـاتهم، فلم يتـرجم لهم إلاّ إحـالــة إلى تلك الجـوانب التي شــابت أحـداثهم في مــواضـع الأحداث، أو فصل بين جانبين من حياتهم، الجـانب الأول متعلق بمشاركتهم في الحوادث محيلاً إلى تلك المـواضع في تـرجماتهم، والجـانب الثاني متعلق بمكـوناتهم الشخصية والمؤثرات الثقافية والبيئية وغيرها.

٤ ـ فضلاً عن أن «ابن حجر» ليس بمكنته الفصل بين التراجم والحـوادث باعتبار أن أصحابها هم الذين شاركوا في الحوادث تـأثيراً وتـأثراً. فـالعلاقـة إذن طبيعية فيما بينهم.

(١) راجع بشأن ذلك وفيات حولية ثلاث وثمانمائة.

الفصل الرابع

مصادر مادة «الإنباء»

أولاً ـ أنواع المصادر

١ ـ المشاهدة والمشاركة:

كان لأخذ «ابن حجر» عن عدد ـ لا بأس به ـ من العلماء والمحدثين والمشتغلين.. وغيرهم، وتوليه العديد من المناصب الهامة في ظل الإدارة المملوكية، ومجالسته للسلاطين والخلفاء والرؤساء ومن دونهم من رجالات الدولة والشخصيات المرموقة في عصره ـ خاصة فيما بعد سنة اثنتين وثمانمائة للهجرة[١] ـ أثره في مادة الكتاب، حيث أُتيحت له فرصة جمع مادة واسعة النطاق، محتوية على جملة لا يستهان بها من النصوص الجيدة التي وصلت إلينا ممزوجة بذاتية موردها، على اعتبار أن عنصر المشاهدة وابراز الذات من خلالها واضح فيها، بين للعيان، ولعل هذا كان مدركاً لدى كاتبها، مرتبط ـ لديه كذلك ـ بمنهج دقيق في إيراد الموارد، واضح القسمات بين الجوانب والأغراض، وإلا لما عمد إلى تصدير تلك النصوص بألفاظ دالة على المعاصرة ومداها[٢] ملحة على الربط

---

(١) أشار «ابن حجر» في ترجمته «للشمس الإخنائي السعدي» ج ٣ ص ٣٢ ـ ٣٣ تر ٣١ إلى أنه حتى سنة اثنتين وثمانمائة لم يكن يدمن الإجتماع بأحد من الرؤساء.

(٢) إعتنى «ابن حجر» في الغالب الأعم ببيان المعاصرة ومداها معتمداً في ذلك على عبارات منها:

«رافقني كثيراً»، «لازمت شيخنا عشر سنين»، «لازمته من سنة ستين إلى أن مات»، «زرته وأنا صغير»، «لازمته طويلاً»، «رأيته بزبيد في الرحلة الأولى»، «إجتمعت به مراراً»، «لقيته وسمعت =

بينها وبين ذاتية موردها(١) كنحو قوله في الكثير من تراجم الوفيات: «رأيته»، «شاهدته» «لقيته»، «اجتمعت به»، «اجتمع بي»، «رافقني»، «لازمني»، «صحبته»، «على ما أخبرني به»(٢)، «حدثنا»(٣)، «سمعت منه»(٤)، «اجتمعت به وصليت خلفه مراراً»(٥)، «. . .وقد زرته وأنا صغير وسمعت كلامه ودعا لي»(٦)، «. . .وكنت أظن أنه لا يفهم الاتحاد حتى اجتمعت به فرأيته يفهمه ويقرره ويدعو إليه»(٧)، «. . .وحضرت جنازته والصلاة عليه في نحو سبعة أنفس لا غير»(٨)، «. . . سمعت منه وكتب لي تقريظاً حسناً على بعض تخاريجي»(٩)، «. . . وحضر معنا المجلس المعقود للهروي»(١٠)«. . .رأيته يجعل الكتاب في كمه ويقرأ ما فيه من غير أن يكون شاهده»(١١)، «. . .ثم جهز معه المحمل في سنة ثمانمائة فرافقته وسلمنا من العطش»(١٢)، «. . . وقد طارحني غياث الدين بمقاطيع عديدة وألغاز وترفقنا في السفر»(١٣)، «. . .وكانت بيننا مودة أكيدة اتصلت نحواً من ثلاثين سنة وبيننا مطارحات وألغاز، وسمعت من لفظه أكثر منظومه ومنثوره»(١٤)، «. . .ذكر

= منه قليلاً»، «إجتمعت به مرة». . مما يشير إلى كون علاقاته بهم كانت أكيدة أو عابرة كما أنه قد نص في بعضها على موضع اللقاء ومكانه «بزبيد» أو «بدمشق» أو «بالأسكندرية» أو «في بيت أحدهم» أو في «داره». .

(١) يلاحظ ذلك إبتداء بوفيات حولية ثمان وسبعمائة للهجرة.

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٥١ تر ١٨.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٤٥ تر ١٠.

(٤) نفسه ج ٢ ص ٥٠٠ تر ٢٤.

(٥) نفسه ج ١ ص ٤٦٣ تر ٢٦، ٣٥٧/ تر ٣٠.

(٦) نفسه ج ٢ ص ٢١٥ تر ٢٢.

(٧) نفسه ج ٢ ص ٢٨٢ تر ٧.

(٨) نفسه ج ٢ ص ٣٣٣ تر ٧.

(٩) نفسه ج ٣ ص ١١٦ تر ٣٢.

(١٠) نفسه.

(١١) نفسه ج ٢ ص ١٦٠ تر ٣١.

(١٢) نفسه ج ٣ ص ١٢٦ تر ٥٧.

(١٣) نفسه ج ٣ ص ١٨٦ تر ٢٤.

(١٤) نفسه ج ٣ ص ٢٠٨ تر ١١.

لي قبل أن يتسلطن في ليلة المولد النبوي في ربيع الأول من هذه السنة (سنة ٨٢٤ هـ.) أنه كان في آخر الدولة المؤيدية في الليلة التي مات في صبحها المؤيد قد ضاقت يده. . .وأمرني أن أكتب هذه الواقعة في التاريخ فإنها أعجوبة»[١].

وأشباه ذلك مما هو كثير الذيوع في مؤلف «الإنباء».

٢ ـ المشافهة:

وطبيعي أن ترد لدى «ابن حجر» منقولات عن طريق المشافهة منسوبة إلى بعض السلاطين والملوك، وأرباب الدولة في مصر والشام، وكذلك عن شيوخه ورفقته وصحبه، على اعتبار أن بينه وبينهم تعاملاً، وأن المشتغل بالتأريخ لا يعفيه إطلاعه على المصادر المكتوبة وإن كثرت من تمحيص الخبر بالتقاط كل ما من شأنه توضيح مبهم، أو إكمال عنصر سكتت عنه هذه المصادر، أو حتى توكيد مادة كتاباته بمقابلتها بمصادر أصلية تحملها إليه المشافهة من صاحب الترجمة عينه أو شاهد عيان لواقعة تاريخية حضرها و«ابن حجر» عنها غائب، أو اتصال المشاهد بالخبر أو المترجم له، على اعتبار أنه معاصر له محتك به، مشارك في الحدث، أو لكونه من قرابة المتوفي المترجم له ضمن وفيات حولياته، فضلاً عن أن طبيعة «ابن حجر» الحافظ الذي لا يضارع في سعة الحفظ وشموليته وثباته قد اقتضت منه الإعتماد بصورة موسعة على المشافهة كمصدر لمادة كتابه ـ أحداثه وترجماته ـ لأن العالم بمفهوم عصره لا يكون عالماً كبيراً ما لم يكن حافظاً، ومادة الحفظ ـ غالباً ـ ما تكون المشافهة ولذا فإن «ابن حجر» لم يكتف بما توفر لديه من مشاركة في الحوادث ـ على نحو ما مر ـ ومن مادة مكتوبة، وإنما عمد إلى الروايات الشفهية التي شاعت في كتابه، بل لقد كان منها ما هو منسوب إلى بعض أصحاب التواريخ المكتوبة كابن الفرات[٢] وابن خلدون[٣] والصلاح

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٨ تر ٧.

(٢) نفسه ج ١ ص ٣٩٠.

(٣) نفسه ج ١ ص ٤٩٢، ٣/٣١٩.

الأقفهسي[1] وابن خطيب الناصرية[2] وتقي الدين المقريزي[3] والبدر العيني[4].. وغيرهم. ولو أنه استعفى نفسه من هذه القاعدة لكان له في كتاباتهم غنية عن المشافهة.

ولذا نجده يورد مادة موسعة عن شخص المترجم له على لسانه حتى ولو كان سلطاناً كالمؤيد شيخ المحمودي[5] والظاهر ططر[6] ومن دونه من أعيان عصره أو عن أرباب الدولة في عصره كأبي بكر بن نقيب الأشراف، وكان يباشر كتابة السر[7] ونقيب الأشراف بطرابلس بدر الدين بن جمال الدين البلدي[8] ومسعود الكبجاتي[9] وكريم الدين بن عبدالعزيز ناظر الجيش[10] وعلاء الدين بن أبي الشوارب الشاد بماردين[11] وكاتب السر كمال الدين[12] وموقع الحكم بحماه شرف الدين بن المغيزيل[13] والصاحب بدر الدين بن نصر الله[14] والقاضيين ناصر الدين البارزي[15] وشمس الدين البساطي[16] والمحتسب دولت خجا[17]

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٨٨.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢١٠، ٢/٢٩٠.

(٣) نفسه ج ٢، ص ٦٢.

(٤) نفسه ج ٣ ص ١٧٠.

(٥) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٦.

(٦) نفسه ج ٣ ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٧) نفسه ج ٣ ص ٤٣٩.

(٨) نفسه ج ٢ ص ٩٤.

(٩) نفسه ج ٢ ص ٢٤٤.

(١٠) نفسه ج ١ ص ٤٨.

(١١) نفسه ج ٣ ص ٢٩٨.

(١٢) نفسه ج ٣ ص ٤١١.

(١٣) نفسه ج ١ ص ٥٥.

(١٤) نفسه ج ٢ ص ٤٧٧.

(١٥) نفسه ج ٣ ص ٢٥٤.

(١٦) نفسه ج ٣ ص ٤٧١.

(١٧) نفسه ج ٩ ص ١٠.

أو عن شيوخه فيما نقلوه عن سواهم، وما عرفوه عنهم كالزين العراقي[١] وابن القطان[٢] والسراج البلقيني[٣] والعز ابن جماعة[٤] وقاسم بن علي المالقي[٥] وأبي عبدالله محمد بن أبي بكر[٦] . . وغيرهم أو عن رفاقه وصحبه على اختلاف تخصصاتهم مثل: «البدر البشتكي»[٧] و«ابن الفركاح»[٨] و«شمس الدين الفيومي الكتبي»[٩]، و«الجمال المصري»[١٠]، و«تاج الدين ابن الظريف»[١١]، «وعيسى بن حجاج»[١٢]، و«نور الدين الرشيدي»[١٣]، و«برهان الدين ابن رفاعة»[١٤]، و«ابن زقاعة»[١٥]، و«جمال الدين ابن العراقي»[١٦]، و«عز الدين السنباطي»[١٧]، و«ابن النبيه»[١٨]، و«شرف الدين التباني»[١٩]، و«ابن الفصيح»[٢٠]، و«صلاح الدين بن نصر الله»[٢١]، و«عبد الرحمن

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٩.
(٢) نفسه ج ١ ص ٣٨.
(٣) نفسه ج ١ ص ١٣٥.
(٤) نفسه ج ١ ص ٢٤٢.
(٥) نفسه ج ١ ص ٢٤٩.
(٦) نفسه ج ٩ ص ٢٣٩.
(٧) نفسه ج ١ ص ٥٠.
(٨) نفسه ج ١ ص ٦٥.
(٩) نفسه ج ١ ص ٣٥٥.
(١٠) نفسه ج ١ ص ٤٠٨.
(١١) نفسه ج ٢ ص ١١٧.
(١٢) نفسه ج ١ ص ٤٩٨.
(١٣) نفسه ج ٢ ص ٢٧٧.
(١٤) نفسه ج ١ ص ٢٣٠.
(١٥) نفسه ج ٣ ص ٤٣.
(١٦) نفسه ج ٢ ص ٧٠٩.
(١٧) نفسه ج ٣ ص ١٠٦.
(١٨) نفسه ج ٣ ص ١٤٦.
(١٩) نفسه ج ٣ ص ٣٠٠.
(٢٠) نفسه ج ١ ص ٢٦٥.
(٢١) نفسه ج ٣ ص ٤١٠.

التبريزي»[١] ، و«شمس الدين الأسيوطي»[٢] ، و«نور الدين الأنباري»[٣] ، و«نجم الدين البالسي»[٤] ، و«أحمد القصير»[٥] ، و«البقاعي»[٦] ، و«عبد الرحمن البشتكي»[٧] ، و«البكري»[٨] ، و«ظهير الدين الطرابلسي»[٩] . . ومنهم الكاتب، والشاعر، والأديب، والمحدث، والحرفي . . ، كما أن منهم المصري، والشامي، والتبريزي، والعراقي مما يلقي الضوء على أهمية مثل هذا المصدر في كتابات «ابن حجر» التأريخية.

كما أنه عمد في ترجمة وفيات حولياته إلى قرابة المتوفي[١٠] المترجم له لالتقاط ما يتعلق بعناصر ترجمته سواء كان الملتقط عنه ذلك ابنه[١١] أو أخاه[١٢] أو ابن أخته[١٣] أو يباشر وظيفة عنده[١٤] أو من مصادر جلبه ـ خاصة إذا كان مملوكاً ـ كما فعل في ترجمته «للظاهر برقوق»[١٥].

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٠٩.

(٢) نفسه ج ١ ص ٢٠٣.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٥٢٤.

(٤) نفسه ج ١ ص ٥٠.

(٥) نفسه ج ١ ص ٤٥. .

(٦) نفسه ج ٣ ص ٥٠١.

(٧) نفسه ج ٨ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

(٨) نفسه ج ١ ص ٥٣٦.

(٩) نفسه ج ٩ ص ٧٧.

(١٠) نفسه ج ٢ ص ٧٧.

(١١) نفسه ج ١ ص ٢٤٠. ٩/١٥.

(١٢) نفسه ج ٣ ص ٤٨٦. .

(١٣) نفسه ج ٣ ص ٣٣٦.

(١٤) نفسه ج ١ ص ٢٦٥ نقلاً عن «ابن الفصيح» وكان نقيباً عند المترجم له في هذا الموضع، وج ٣ ص ٤٢٧ نقلاً عن خادمه «فاتن الطواشي الحبشي» وكان المترجم له في هذا الموضع هو الجالب له، وج ٣ ص ٤٨٩ نقلاً عن صحبه ومريديه.

(١٥) نفسه ج ٢ ص ٦٦ نقلاً عن «الخواجا عثمان» الذي أحضره من بلاد الجركس.

٣ ـ المساءلة والمكاتبة :

وتكـون بسؤال «ابن حجر» عن مسـألة مـا بصورة شخصيـة استنـاداً إلى معـرفة المسئـول ـ فيما يـظن ـ بموضـوع المساءلـة، ومن أمثلة ذلك: قـوله :«. . . وسألت أخاه شمس الدين ـ أحد من ينـوب بدميـاط في الحكم عن النائب بهـا ـ عن مولده فذكر أنـه ولد سنـة ٤٣، وأنه أسن من القـاضي زين الدين بعشـرين سنة »[١].

ويلاحظ أن «ابن حجر» كان دائب السؤال للكثيرين ممن ترجم لهم ضمن وفيات حولياته فيما يتعلق بمولدهم، ونسبهم، وثقافتهم [٢].

وقد تكون المساءلة عن طـريق المكاتبـة، حيث كانت الإتـصـالات جاريـة بين العلماء سيما المعنيين منهم بالتواريخ والتـراجم فيما يختص بـإرسال المعلومـات من بلد لآخـر بغية الـوقوف عـلى الحوادث ومتـابعة أخبـار العلماء أول بأول[٣]، ولقد استفاد «ابن حجر» من ذلك كثيراً وأفاد[٤] ومن الأمثلة المعبرة عن ذلك قوله في صدر كتابه معدداً مصادره :«. . . وغالـب ما أودعته فيـه ما شـاهدتـه أو تلقيته ممن أرجـع إليــه »[٥] وقـوله في تـرجمته للسلطان «أويس» ضمن وفيـات حوليـة ست وسبعــين وسبعمـائــة :«. . . كتب إليّ المؤرخ حسن بن إبــراهيم المنشىء الحصني. . . »[٦] وقوله في تـرجمة «أبي عبـدالله بن القماح التـونسي» ضمن وفيات

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٤٨٦ .

(٢) نفسه ج ١ ص ١٤١ .

(٣) بشار عواد معروف. الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ص ٣٨٨، المنـذري وكتابـه التكملة لوفيات النقلة ص ٢٧٩ وما بعدها .

(٤) ابن قاضي شهبة. طبقات الشافعية، حيث يشير إلى مراسلة «ابن حجر» له بالوفيات ضمن ترجمة «العز ابن جمـاعـة» ق ١٩٣ أ، و «ابن القـطان» ق ١٩٥ أ، و «البـرهـان البيجـوري» ق ١٩٨ أ، و «ناصر الدين الجهني» ق ٢٠٨ أ.

(٥) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٤ .

(٦) نفسه ج ١ ص ١٨٣ .

حولية سبع وثلاثين وثمانمائة: «. . . وكتب إليّ بوفاته الشيخ عبد الرحمن البشتكي من تونس قال: . . . »[1].

٤ ـ الإجازات والسماعات:

كان لحصول «ابن حجر» على عدد وفير من الإجازات العلمية أثره في حولبات كتابه، لاحتوائها على مادة كتبت بخط المجيز تتضمن ـ عادة ـ معلومات دقيقة عن اسمه ونسبه، ومولده، وشيوخه. . استفاد «ابن حجر» منها كثيراً في تراجم حولياته كما استفاد ـ كذلك ـ من الإجازات القديمة التي كتبت لغيره، ومن الأمثلة على ذلك قوله: «. . . ولد سنة ثمانين على ما كتب بخطه»[2]، وقوله: «. . . كذا وجدته بخطه»[3].

كما أنه في بحثه عن تقويم رجال عصره ـ المترجم لهم لديه ـ وفي عمله على جرحهم وتعديلهم قد بحث واطلع على سماعاتهم وأسانيدهم فانعكس ذلك ـ أيضاً على مادة كتابه، حيث اتخذ من تلك السماعات والأسانيد مصدراً له، ومن الأمثلة على ذلك قوله: «. . . رأيت بخط المجد (الفيروز أبادي) في طبقة سماع عليه. . . »[4].

٥ ـ الوثائق والخطوط:

كما أفاد ابن حجر توليه العديد من المناصب الهامة في عصره واتصاله بالشخصيات المرموقة ـ آنذاك ـ في اطلاعه على العديد من الوثائق ـ التي ضاعت أصولها ـ أو التي استكتبها من أصحابها أنفسهم مضمناً كل ذلك كتابه «الإنباء» نصاً أو تلخيصاً، ومن أمثلة ذلك قوله: «. . . ما طرق سمعي أحسن من قوله في الرسالة التي كتبها للبشتكي لما صاد السمكة وهي رسالة طويلة جاء

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٣١.

(٢) نفسه ج ١ ص ١٤٣.

(٣) نفسه ج ١ ص ٢٢٨.

(٤) نفسه ج ٣ ص ٢٨٦.

فيها. . .»[1]، وقوله في ترجمته للشيخ «برهان الدين الشامي» - ضمن وفيات حولية ثمانمائة: «. . . سمع منه شيخنا الحافظ الذهبي -وكان شيخنا أخبرني بذلك، فكنت أتعجب منه حتى رأيت الطبقة، ثم وجدته حدث عنه في ترجمة أبي العباس المرداوي في سير النبلاء. . . ثم رأيت الجزري نقلها في معجمه عن شيخنا»[2].

٦ - مجامع الشيوخ والطلبة:

عادة ما كان يجمع الشيوخ والصحاب ما يستفيدونه في مجالس الإملاء أو ما ينتخبونه من التصانيف التي يطلعون عليها[3] ويدونون ما يلحظونه من حوادث مجتمعهم أو يفيدون عن وفيات عصرهم[4] في كراسات لم يصلنا معظمها بعد، وإن وصلتنا نقول بعض المؤرخين عنها، ومنهم «ابن حجر» الذي اتخذ منها مصدراً لحولياته ومن الأمثلة الدالة على ذلك قوله: «. . . وذكرت بما قال ابن الصايغ ما قرأت بخط الفارقي التارج الزبيدي. . .»[5]، وقوله: «. . . قال الشيخ بدر الدين الكلستاني في حقه ومن خطه نقلت. . .»[6]، وقوله: « قرأت في مجموع لطيف بخط بعض رفاقنا. . .»[7].

والملاحظ أنه لم يطلق عليها اسم كتاب، ولكنها وردت قرين اسم:

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٤٤.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٧٨ تر ٦٢.

(٣) من النماذج الباقية للدلالة على ذلك مجموع «ابن خطيب الناصري» مخط. الخالدين بالقدس - رقم ٣١ تراجم، ويحتوي على نقول وفوائد له انتزعت أو التقطت من كتب شتى منها: «المورد العذب»، و«شرح الأحكام للعراقي»، و«تاريخ ابن العديم»، و«تاريخ مصر لابن عبد النور الحلبي»، و«ذيل العراقي على الذهبي»، و«ذيل ولده عليه»، و«درة الأسلاك لابن حبيب»، و«الوافي بالوفيات للصفدي»، و«تاريخ ابن خلدون».

(٤) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٩٩.

(٥) نفسه ج ١ ص ٩٦.

(٦) نفسه ج ١ ص ٣٨٣.

(٧) نفسه ج ٢ ق ٢٥٦ ب.

«مجمـــوع» أو «خط» مما يشـير إلى أنها ليست مؤلفات مستقلة ذات عنـوانـات خاصة، وإن كـان قد أطلق عـلى بعض الكتاب المنقـول عنها لـديه لفـظة «خط» للدلالة على أنها بخطوط مؤلفيها توثيقاً لها.

٧ ـ المؤلفات السابقة:

تعد المؤلفات السـابقة البنيـة الأساسيـة لكتابـه، والمورد الـرئيس لمادتـه ـ خاصة في الفترة المبكرة منـه الممتدة بـين سنتي ثلاث وسبعـين وسبعمائـة، وحتى سنة اثنتين وثمانمائة للهجرة[١] بالإضافة إلى كونها من المـوارد المهمة للحـوليات، اللاحقة لاعتمادها في تـدوين الكثير من أحـداث حولياته وعنـاصر ترجمـاتها. فلقد كتب من بعضها «ما ليس عنده»[٢] وما وجده بخط من يثق به من مشايخه ورفقته[٣] مما لم يحضره[٤] أو للمقارنة بين أحداث عصره وما يقـابلها من أحـداث فائتة ولذا نجده قد استوعب الكثير منها أو شاع نقله عنها في مؤلفه.

على أن قائمة الموارد التي صدر بها كتابه[٥] لا تعطينا صورة حقيقية لمـوارد الكتاب المكتوبة، وإن مثلت أهم تلك الموارد كماً وكيفاً. ولذا فإنـه لا يمكن حصر هذه المصادر ـ ولـو بصورة تقـريبية ـ إلا من خـلال جرد مـادة الكتاب: أحـداثه وترجماته ومقابلتها بالمصار المشابهة لتتمثل في:

ـ ابن خلكان (ت ٦٧١ هـ. / ١٢٨٢ م.)[٦] في كتابه «وفيات الأعيان».

ـ المؤيد صاحب حماه (ت ٧٣٢ هـ. / ١٣٣٩ م.)[٧].

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٣، حيث أشار إلى أنه حتى هذه السنـة لم يكن يدمن الإجتماع بـأحـد من الرؤساء.

(٢) نفسه ج ١ ص ٥.

(٣) نفسه ج ١ ص ٤.

(٤) نفسه ج ١ ص ٥.

(٥) نفسه ج ١ ص ٤ ـ ٥.

(٦) لم ينقل «ابن حجر» عنه إلا في موضع واحد من الإنباء ـ ج ١ ص ٢٣٧ ـ ويقابله لـدى مصدره ط. بيروت ج ١ ص ٣٤.

(٧) نقل عنه ابن حجر في الإنباء في مـوضع واحـد ـ من كابـه المختصر في أخبار البشر (مط.) ـ ج ٣ ص ٤٥٧.

ـ العم البرزالي (ت ٧٣٩ هـ. / ١٣٣٩ م.)[١].
ـ شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ. / ١٣٤٨ م.)[٢].
ـ التقي ابن رافع (ت ٧٧٤ هـ. /١٣٧٢ م.)[٣].

---

(١) هو «القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد بن أبي يداس البرزالي».

جمع شيوخه في معجم حافل بلغ بضعاً وعشرين مجلدة عن أكثر من ثلاثة آلاف شيخ، امتدحه الذهبي قائلاً:

إن رمت تفتيش الخزائن كلها ... وظهور أجزاء بدت وعوالي
ونعوت أشياء في الوجود وما روا ... طالع أو اسمع معجم البرزالي

(من الكامل)

كما امتدحه ابن حبيب بقوله:

يا طالبا نعت الشيوخ وما رووا ... ورأوا على التفصيل والإجمال
دار الحديث انزل تجد ما تبتغي ... لك بارزاً في معجم البرزالي

(من الكامل)

وهذا المؤلف ينقل عنه ابن حجر في ثلاثة مواضع من الإنباء هي ج ١ ص ٤٣، ٤٤، ج ٣ ص ٣٩٨.

(٢) هو الحافظ «شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي».

ترك في التاريخ عدة مؤلفات منها «المعجم المختص الذي ينقل عنه ابن حجر في الإنباء ج ١، صفحات: ١٠٢، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١٢٢، ٢٤٤، ٢٩٧، ٤٠٩، وأبان الذهبي في آخر كتابه تذكرة الحفاظ عن محتواه قائلاً، «... وقد ألفت معجماً لي يختص بمن طلب هذا الشأن ـ أي علم الحديث النبوي ـ من شيوخي ورفاقي فاستوعبت من له أدنى عمل، وبينت أحوالهم» ـ ج ٤ ص ١٥٠٠، وذكره ابن حجر في الدرر الكامنة قائلاً: «... وخرج لنفسه المعجم الكبير والصغير والمختص بالمحدثين، فذكر فيه غالب الطلبة من أهل عصره وعاش الكثير منهم بعده إلى نحو أربعين سنة، وخرج لغيره من شيوخه ومن أقرانه ومن تلامذته» ج ٣ ص ٤٣٧ ـ كما نقل عن مؤلف آخر له هو «المعجم الكبير» وهو ما زال مخط. (مخط. أحمد الثالث بتركيا رقم: ٤٦٢).

(٣) هو «محمد بن رافع بن أبي هجرس بن محمد بن شافع بن محمد بن نعمة بن قديان بن منير بن كعب السلامي، تقي الدين أبو المعالي بن رافع الصمدي الحوراني الأصل المصري المولد والمنشأ، نزيل دمشق».

ترك مؤلفات عديدة في التاريخ منها معجمه في أربع مجلدات، أشار كل من الحسيني وابن قاضي =

- ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ. / ١٣٧٣ م.) في البداية والنهاية.
- ابن الخطيب السلماني (ت ٧٧٦ هـ. / ١٣٧٤ م.)[١].
- الحسن بن حبيب (ت ٧٧٩ هـ. / ١٣٧٧ م.) وولده[٢].
- محب الدين الحنبلي (ت ٨١٥ هـ. / ١٤١٢ م.)[٣].
- ابن الفرات الحنفي (ت ٨٠٧ هـ. / ١٤٠٥ م.)[٤].

= شهبة وابن حجر إلى أنه «في غاية الإتقان والضبط مشحون بالفوائد، ويشتمل على أزيد من ألف شيخ»، وذيلاً على تاريخ بغداد لابن الدبيثي في ثلاث مجلدات أو أربع، كما جمع كتاباً في الوفيات ذيل به على تاريخ البرزالي من سنة ٧٧٣ هـ. - أشار ابن حجر إلى أنه كثير الفائدة.

ويبدو أن مؤلفاته التاريخية قد ضاعت كلها باستثناء هذا الذيل حيث يشير ابن قاضي شهبة وابن العماد الحنبلي إلى ذلك قائلين: «... وصنف ذيلاً على تاريخ بغداد لابن النجار (في) أربع مجلدات، وقد عدم هو والمعجم في الفتن»، كما يشير د. بشار عواد إلى ذلك قائلاً: «... ولا يعرف لهذا الذيل وجود اليوم سوى عدد من التراجم انتخبها التقي الفاسي تمثل ٢٠١ ترجمة نشرها عباس العزاوي»، وأما ذيله على البزالي فموصوف في فهرست الكتبخانة.

وراجع: الوفيات. ت. صالح مهدي عباس. بيروت، الرسالة، ط ١، ١٩٨٢.

ويبدو أن ابن حجر كان دائب النقل في الإنباء عن معجمه.

(١) هو «محمد بن عبدالله بن سعيد بن عبدالله بن سعيد بن أحمد بن علي السلماني اللوشي، أبو عبدالله، لسان الدين، ابن الخطيب».

وينقل ابن حجر عنه في الإنباء من كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة» أثناء ترجمته لابن خلدون في الإنباء - راجع الإسناد إلى المصادر من هذا الفصل.

(٢) هو «الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب بن عمر بن شريح بن عمر الدمشقي الأصل الحلبي، أبو محمد بدر الدين».

له مؤلفات متعددة في التاريخ، اعتمد ابن حجر منها في الإنباء - «درة الأسلاك في دولة الأتراك» - مط. وذيل ولده طاهر عليه - مخط. أحمد الثالث بتركيا رقم ٣٠١١.

(٣) هو «محمد بن المحب عبدالله بن أحمد بن المحب عبدالله بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن المقدسي، ثم الصالحي الحنبلي».

نقل عنه ابن حجر في مواضع متفرقة من الحوليات المتقدمة من الإنباء غير محدد للكتاب المنقول عنه أو موضع النقل بالنسبة إليه، ومؤلفاته ما تزال مفقودة حتى الآن.

(٤) هو «محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز بن محمد الحنفي، ناصر الدين، المعروف بابن الفرات المصري». =

ـ ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ. / ١٤٠٦ م.)(١).
ـ ابن دقمان (ت ٨٠٩ هـ. / ١٤٠٦ م.)(٢).
ـ التقي الزبيري (ت ٨١٣ هـ. / ١٤٠٦ م.)(٣).
ـ محب الدين ابن الشحنة (ت ٨١٥ هـ. / ١٤١٢ م.)(٤).

= أشار ابن حجر في غير موضع من مؤلفاته التاريخية إلى أن ابن الفرات كان لهجاً بالتاريخ فكتب تاريخاً كبيراً جداً بيض بعضه فأكمل منه المائة الثامنة ثم السابعة ثم السادسة. ثم شرع في الخامسة، وفرغ من تبييض المائة الرابعة فأدركته الوفاة. وإلى أنه ـ أي ابن حجر ـ «قد انتفع بما تضمنت المجلدات المبيضة في الإطلاع على كثير من الوقائع والتراجم، وإن كان في عبارته قصور».

كما أشار في مقدمة كتابه «الإنباء» إلى اعتماده عليه في حولياته.

وهو تاريخ موسع اعتمد ابن الفرات فيه على من سبقه من المؤرخين ـ خاصة ابن دقماق ـ وعني فيه بتسجيل الكثير من نصوص الوثائق التي اطلع عليها بالإضافة إلى المكاتبات وما التقطه من الروايات الشفهية أو شاهده من مجريات الدولة مما اكسبه تفوقاً كبيراً جعله معتمد المقريزي وابن قاضي شهبة والبدر العيني في مؤلفاتهم التاريخية المعاصرة. حيث شاع النقل عنه لديهم ولدى ابن حجر نصا أو تلخيصاً.

(١) نقل ابن حجر عن كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» المعروف بتاريخ ابن خلدون في موضع واحد من الإنباء ج ١ ص ١٩٣ ـ أثناء الترجمة للسان الدين ابن الخطيب، كما نقل عنه مشافهة في موضع آخر ـ ج ١ ص ٤٩٢ من الإنباء.

(٢) هو «إبراهيم بن محمد بن أيدمر بن دقماق، صارم الدين القاهري الحنفي».

له مؤلفات كثيرة في التاريخ اعتمد ابن حجر في النقل والتأريخ منها للكثير من الحوليات المتقدمة من الإنباء كتابه «نزهة الأنام في تاريخ الإسلام»، وما تزال الأجزاء المعاصرة ـ المنقول عنها لديه ـ مجهولة المكان.

(٣) هو «عبد الرحمن بن محمد بن عبد الناصر بن هبة الله بن عبد الرحمن التقي أبو محمد القرشي الزبيري المحلي ثم القاهري الشافعي، المعروف بابن تاج الرياسة».

أشار ابن حجر إلى أنه «عمل تاريخاً حسناً» وهو الذي ينقل عنه في كثير من حوليات الإنباء، بيد أنه ما زال مفقوداً.

(٤) هو «محمد بن محمد بن محمود بن غازي بن أيوب التركي الحساني الأصل الحلبي الحنفي، محب الدين أبو الوليد». =

- ابن حجي الحسباني (ت ٨٠٦ هـ. / ١٤١٣ م.)(١).
- الشريف الأقفهسي (ت ٨٢١ هـ. / ١٤١٨ م.)(٢).

= له مؤلفات في التاريخ منها: تاريخ اختصر فيه تاريخ أبي الفداء، المؤيد صاحب حماه، مع التذييل عليه إلى زمنه على طريق الاختصار، أسماه «روض المناظر في علم الأوائل والأواخر» - أشار في مقدمته إلى أنه جعل له «كالباب مفتاحاً ومصراعين وخاتمة، أما المفتاح ففي بدء خلق الدنيا وأما المصراع الأول ففي مدة ما بين هبوط آدم - عليه السلام - إلى الهجرة والثاني إلى آخر مدة يقدرها الله، والخاتمة تشتمل على ما هو كالعيان مما يكون في آخر الزمان».

ويلاحظ انتهاء المصراع الثاني بسنة ٨٠٦ هـ.

وتوجد لهذا الكتاب نسخة خطية محفوظة بمكتبة سراي أحمد الثالث بتركيا رقم: ٢٩٠٢ (١) كتبت سنة ٨٧٥ هـ. ، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٧٠ تاريخ.

وهذا الكتاب نقل ابن حجر عنه في مواضع يسيرة من الإنباء - راجع الإسناد إلى المصادر من هذا البحث.

(١) هو «أحمد بن حجي - بكسر المهملة والجيم الثقيلة - بن موسى بن أحمد بن سعيد بن عشم ابن عزوان بن علي بن سرور بن مشرف بن تركي الحسباني شهاب الدين».

أشار ابن حجر وتلميذه السخاوي إلى أنه «جمع فوائد في علوم متعددة في كراسات كثيرة، وترك مؤلفات منها: أسماء مشايخه مجرداً في بعض مجاميعه على حروف المعجم، وكتاباً سماه الدارس من أخبار المدارس يذكر فيه ترجمة الواقف وما شرط، ومن درس بالمدرسة إلى آخر وقته، وأشار ابن قاضي شهبة إلى أنه «كتاب نفيس يدل على كثرة إطلاع»، كما كتب ذيلاً على تاريخ ابن كثير بدأ فيه من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، يذكر فيه حوادث الشهر ثم من توفي فيه، وهو مفيد جداً كتب منه ست سنين ثم بدأ من تسع وستين وسبعمائة فكتب إلى قبيل وفاته بكثير. وكان قد أوصاني - أي ابن قاضي شهبة والحديث له - بتكميل الخرم المذكور فأكملته وأخذت التاريخ المذكور وزدت عليه حوادث وتواريخ المصريين وغيرهم بقدر ما ذكر الشيخ وتراجم أكثر من التي ذكرها بكثير. وبسطت الكلام في ذلك في سبع مجلدات كبار اختصرتها في نحو نصفه».

ويبدو أن التاريخ المذكور قد فقد مع بعض كتبه في غزو المغول لدمشق، ولم يبق ما يشير إليه إلا ما نقل عنه في تاريخ ابن قاضي شهبه، الذي غالباً ما ترد فيه عبارات ابن حجي مسندة إليه.

كما أنه لا يمكن مع هذا التحقق من أن ابن حجر قد اقتصر في النقل في الإنباء عن هذا التاريخ - تاريخ ابن حجي - وليس عن غيره كذلك.

(٢) هو «خليل بن محمد ن محمد بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الأقفهسي، غرس الدين وصلاح الدين أبو الصفا». =

ـ الشريف الفاسي (ت ٨٣٢ هـ. / ١٤٢٨ م.)[١].

ـ البرهان الحلبي (ت ٨٤١ هـ. / ١٣٤٧ م.)[٢].

ـ ابن خطيب الناصرية (ت ٨٤٣ هـ. / ١٤٤٠ م.)[٣].

= أشرا ابن حجر إلى أنـه كانت بينـه وبين الأقفهسي ـ هـذا ـ صحبة في بعض أسفـارهما للسمـاع بمكة ودمشق، كما أشار السخاوي إلى أنه كانت بينهما مطارحات وإلى أن كلا منهما سمع على الآخر أو قرأ عليه.

ولقد بلغ من اعتداد ابن حجر به حداً جعله يشير في ترجمته، إلى أنه «أمثل رفقتنا مطلقاً».

كما يشير إلى أن الأقفهسي قد كتب ثبتاً انتفع ابن حجر بـه في تاريخـه وهو مما لا يعرف مـوضعه حتى الآن.

(١) هو «محمـد بن أحمد بن علي بن أبي عبدالله محمـد بن عبد الـرحمن بن محمد بن أحمـد بن علي بن عبد الرحمن بن سعيد بن عبـد الملك، التقي، أبو عبدالله وأبو الطيب الفاسي المكي المالكي».

أشار ابن حجر إلى أنه «رافقه في السماع جداً بمصر والشـام واليمـن وغيرهـا وإلى أنه كـان يوده ويعظمه ويقوم معه في المهمات» بل لقـد وصلت الصداقـة بينهما إلى الحـد الذي جعـل ابن حجر يذيل على ترجمته بقوله: «. . . ولقد ساءني موته وأسفت على فقد مثله، فالله الأمر».

اعتنى بأخباربلاده وترجم أعيـانها، وكتب في ذلك عـدة تواريـخ منها شفـاء الغرام بـأخبار البلد الحرام، والعقد الثمـين في تاريـخ البلد الأمين كـما ذيل عـلى سير أعـلام النبلاء للذهبي، ويشيـع النقل في الإنباء عن المؤلفين المذكورين قبل هذا الذيل دون تنصيص.

(٢) هو «إبراهيم بن محمد بن خليل، برهان الدين أبو إسحق، المعروف بسبط ابن العجمي».

أشار السخاوي إلى أنه كتب «ثبتاً كثير الفائدة. . . فيـه المام بتراجم شيوخه، ونحـو ذلك، بـل رأيته ترجم جماعة ممن قرأ عليه ورحل إليه».

ويبدو أن هذا المؤلف هو الذي ينقل ابن حجر عنـه في الإنباء، وهو الـذي يشير ابن حجـر إليه بقوله: «. . . قد أفرد له مشيخة ذكر فيها أحوال شيوخه ومرويـاتهم ليستفيدهـا الرحـالة». وهـــو ما زال مفقوداً لعصرنا، غير مدرك مكانه.

(٣) هو «علي بن محمد بن سعد بن محمد بن علي بن علي بن عمر بن إسمـاعيل بن إبـراهيم بن يوسف ابن يعقوب بن علي بن هبة الله بن ناجية الطائي الحلبي الشافعي، علاء الدين أبو الحسن».

ومن مؤلفاته «الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب» أشار في مقدمته إلى أنه جعله «ذيلاً مختصراً» على «ابن العديم»، ورتبه على خمسة فصول الأول في حلب وأسمائها ومن بناها وألقـابها، والثـاني في ذكر حدودها وأعمالها، والثالث في ذكر فضلها وخصـائصها، والـرابع في فتحهـا، والخامس في =

ـ التقي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ. / ١٤٤١ م.)(١).

ـ ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١ هـ. / ١٤٤٨ م.)(٢).

= نهرها وقنيها ومسجدها ومعابدها. . . تتلوها تراجم «من هو منها أو من بلادها أو اجتازها من الرواة والعلماء والفضلاء والرؤساء، ومن كان بها من الصالحين والعباد، ومن نزلها واجتازها أو بمعاملها من أهل الشعر والإنشاد، ومن دخلها أو ملكها من السلاطين أو وليها من الأمراء والنواب والقضاة، ومن وفد إليها أو إلى معالمها من فضلاء غيرها من البلاد ومن كان به مباشرة من الأعيان أو وقعة اشتهرت عنه. . ابتداء بمن كانت وفاته سنة ثمان وخمسين وستمائة إلى زمنه مرتباً لهم على حروف الهجاء في الاسم واسم الأب والجد. . . ليكون أسهل للكشف . ذاكراً للملاحم باسم من اشتهرت به، وكذلك النوازل والنوادر في ترجمة من توفي في السنة التي وقعت فيها» ـ الدر المنتخب ج ١ ق ٢ . ويقع في مجلدتين.

ويلاحظ أن ابن حجر كان دائب النقل عنه.

وكما أن «ابن حجر» كثير النقل عنه، فإن ابن خطيب الناصرية قد جعل ابن حجر مصدراً له ـ ص ٣٩ أ. . . وغيرها ـ كما أنه ترجم لابن حجر في تاريخه، وأشار إلى أخذ كل منهما عن الآخر سواء في قدوم «ابن حجر» لحلب في سفرة آمد مع السلطان الأشرف برسباس، أو في قدوم ابن خطيب الناصرية القاهرة ونزوله على ابن حجر (ق ١٠٦ ب ـ ١٠٩ أ)، كما أن ابن حجر يذكر في مقدمة الإنباء «أنه طالع تاريخ ابن خطيب الناصرية ـ في شهر رمضان سنة ست وثلاثين وثمانمائة كله من المبيضة، ثم من المسودة»، وأنه ألحق فيه أشياء كثيرة، وسمع من صاحبه وسمع هو منه ـ إنباء الغمر ج ١ ص ٥.

(١) ترك جملة من المؤلفات التاريخية كالخطط «المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار» وعقد الجواهر والأسفاط في ملوك مصر والفسطاط، والمقفى، والسلوك لمعرفة دول الملوك، والعقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة.

وعن هذين المؤلفين الأخيرين ينقل ابن حجر في الإنباء حيث يشير ابن حجر إلى ذلك، وإلى وجود علاقة وطيدة بينهما وصلت إلى حد المزاورة بل واستفسار المقريزي منه عن ما غمض عليه.

كما أن ابن حجر قرظه في بعض مؤلفاته ـ حيث أشار في معجمه وذيل تاريخه المسمي (ذيل الدرر الكامنة) إلى أن له «تصانيف باهرة وخصوصاً في تاريخ القاهرة، فإنه أحيا معالمها وأوضح مجاهلها، وجدد مآثرها وترجم أعيانها»، وفي الإنباء قوله: «. . ونظر في عدة فنون وأولع بالتاريخ فجمع منه شيئاً حسناً».

(٢) هو «أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن ذؤيب الأسدي، الدمشقي، الشافعي». =

ـ البدر العيني (ت ٨٥٥ هـ. / ١٤٥١ م.)[١].
. . وغيرهم[٢].

ثانياً ـ الإسناد إلى المصادر

١ ـ الإشارة إلى المصادر:

اعتنى «ابن حجر» بذكر مصادره سواء في صدر كتابه[٣] أو من خلال حولياته: أحداثها وترجماتها، مسنداً منقوله عنها ـ في الغالب الأعم إليها ـ على الرغم من غزارة مادتها وكثرة المنقول منها. لكنه كان في معظم الأحيان يسند المنقول إلى المؤلف مع اغفال ذكر كتابه، كنحو قوله: «قال القاضي تقي الدين الشهبي. . .»[٤]، أو: «قال القاضي تقي الدين الأسدي. . .»[٥]، أو «ذكره ابن

= ترك كثيراً من المؤلفات التاريخية منها طبقات الشافعية، والتاريخ الكبير الذي ابتدأ فيه من سنة مائتين إلى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، كما ذيل على تاريخ من سبقه ابتداء بسنة إحدى وأربعين وسبعمائة إلى سنة نيف وعشرين وثمانمائة في ثمان مجلدات، ثم اختصره في مجلدتين ثم اختصر المختصر في مجلدة، كما كتب حوادث زمانه إلى قبيل وفاته.

ويلاحظ أن ابن حجر قد أخذ عن التقي ابن قاضي شهبة في الإنباء نقلاً من التاريخ الكبير، وطبقات الشافعية.

(١) هو «محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف بن محمود أبو الثناء، وأبو محمود، العيني العينتابي».

ترك في التاريخ مؤلفات منها «عقد الجمان»، وهو تاريخ كبير رتب على السنين في عشرين مجلداً، ثم اختصره في ثلاث مجلدات، والتاريخ الصغير في ثمان مجلدات.

اعتمده ابن حجر في التأريخ لكثير من حوادث وترجمات حولياته، كما أنه كان دائب النقد له.

(٢) كالشريف الأسيوطي (ت ٨٥٩ هـ./١٤٥٥ م.)، وعلي بن إبراهيم الآمدي (ت ٨٥٩ هـ. /١٤٥٥ م.) وجمال الدين بن السابق (٨٧٧ هـ. /١٤٧٣ م).

(٣) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٤، ٥.

(٤) نفسه ج ٣ ص ١٩.

(٥) نفسه ج ٣ ص ٢٠٤.

قاضي شهبة»[١]، أو«. . .ترجمه الشيخ تقي الدين المقريزي»[٢]، . . ولا يخفى ما لهؤلاء من مؤلفات متعددة في التاريخ الحولي، والطبقات، والتراجم، مما لا يتحدد معه المصدر المنقول عنه بسهولة، خاصة وإن «ابن حجر» لم يعمد إلى النقل الحرفي لمادة مصادره ـ في غالبية الأحيان ـ على نحو ما سوف يُرى ـ وإنما كان دائب التصرف في منقوله الذي ربما نقله فكرة دون تقيد بالقالب التعبيري المصاحب لها، بل ربما نسب المنقول إلى مبهم لا يترجح رده إلى مصدره على وجه الدقة، ولكن تخميناً كقوله:«. . .قال القاضي. . .»[٣] وهو ما لا يفهم منه أي القضاة يعني. . قاضي الحنابلة محب الدين أم قاضي حلب علاء الدين بن خطيب الناصرية، أم القاضي العثماني الصفدي المعروف بابن القوت، أم القاضي تقي الدين الزبيري، أم القاضي تقي الدين الأسدي المعروف بابن قاضي شهبة، والكل قد نعتهم في كتابه بالقاضي. . لكن يرجح نسبته إلى ابن خطيب الناصرية بمقابلته بمنقول آخر ورد في «الإنباء» أشار فيه إلى ما يؤيد ذلك، حيث قال: «. . . قال القاضي في الذيل. . .»[٤] يعني بذلك ذيل تاريخ حلب المسمى «الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب»، له، ونظير ذلك الإسناد إلى المبهم، والمحتاج إلى ترجيحه على وجه التخمين قوله: «. . .أرخه مؤرخ الشام»[٥]، ولعل المقصود به «ابن قاضي شهبة»، كما لا يتحدد المقصود بقوله في موضع آخر:«. . .هكذا ترجمه قريبه»[٦] إلا بمقابلته بما ورد في الضوء اللامع «للسخاوي»[٧] ليكون «عبد الرحمن القلقشندي».

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٣١٧.

(٢) نفسه ج ٣ ص ٢٢٨، ٢٩٦.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٣٣٢.

(٤) نفسه ج ٣ ص ٣٩٦.

(٥) نفسه ج ٣ ص ٤٦٣.

(٦) نفسه ج ٣ ص ٣٩٥.

(٧) السخاوي. الضوء اللامع ج ٩ ص ٢٠٢.

هـذا عن نسبة المنقـول إلى المؤلف دون أن يحدد كتـابه، خـاصـة إذا كـان المؤلف قد صنف أكثر من كتاب ـ على نحو ما مر.

على أنه قد اتبع ذلك ـ أيضاً ـ مع صاحب المؤلف الواحد، وهو ما يجعل البغية في الإهتداء إلى المصنف بعيدة المنال خاصة إذا كـان البحـث عن ترجمة لـه مما يقـابله الإخفـاق، ومن أمثلة ذلـك قـولـه: «. . . قـال محب الـدين البصروي. . .»[1] وقـولـه: «قـرأت بخط عبـد الـرحمن الحـلالي الشـافعي القزويني. . .»[2]، وقوله «قال الشيخ شهاب الدين الملكاوي. . .»[3].

وربما نقل عن مؤلف دون نسبة الكتاب إليـه بعنوانـه الموضـوع له مكتفيـاً بذكر كلمة «تاريخـه» أو«ذيله»، كما فعـل مع البـدر العيني» أو «العينتـابي» و «ابن خطيب الناصرية»، حيث المقصود بتاريخ العينتابي: «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان»، وبـذيل ابن الخـطيب، أو ابن خطيب النـاصريـة، أو تاريـخ حلب أو تاريخ ابن الخطيب «الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب».

ومع ذلك فإنه قد اهتم بنسبة بعض منقـوله إلى مصـادره على وجـه قريب من الإتكتمـال كنحـو قـولـه: «قـال لسـان الـدين ابن الخطيب في تـاريـخ غرناطة. . .»[4] قاصداً بذلك كتابه: «الإحاطة في تاريخ غرنـاطة»، وقـوله: «. . . ذكره محمد بن عبد الرحمن العثماني قاضي صفد في طبقات الفقهاء»[5].

ويبدو أن هذه الطريقة في إيراد المصادر كانت مألـوفة عـلى عصره، فضـلاً عن أن ما يعمي علينا الإهتداء إلى تحديده لعله كان ذائع الصيت على عصره.

٢ ـ الإشارة إلى موضع النقل:

لا يعني ذلك إشارة «ابن حجر» إلى رقم الصفحة أو السـطر المنقول عنـه

(١) ابن حجر إنباء الغمر ج ٣ ص ٢٨٢.
(٢) نفسه ج ٣ ص ٥٠٦.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٢٢٣.
(٤) نفسه ج ٢ ص ٣٤٠.
(٥) نفسه ج ١ ص ٣٢.

لأن هذه الطريقة في الإسناد إلى المصادر ليست إلا من معطيات المنهج العلمي المعمول به حديثاً، فضلاً عن أن هذا العمل كان متعذر الحصور في عصر لم تعرف فيه الطباعة ولم تشع فيه الكتب بطبعاتها المختلفة، بل يكون شيئاً من العبث ومضيعة للوقت في عصر المخطوطات التي يتحكم في عدد صفحاتها واقتنائها، بل والإطلاع عليها إمكانيات متملكها وكاتبها ومادة الورق وأدوات الكتابة مما يجعل الوقوف على الصفحة ـ المعتبرة حسب هذه الإمكانات ـ صعب المنال إذا ما حددت. ناهيك عن مشقة الحصول على المصدر عينه، وإنما المعنى بذلك هو الموضوع المحدد المنقول عنه ـ في أي حولية أو ترجمة من التراجم، بحيث يمكن تحديده بسهولة لكل من كان عارفاً بتنظيم المصدر ومنهجه، ولذا نجد «ابن حجر» ليس في حاجة إلى تحديد موضع النقل بالنسبة لتراجم الوفيات إذا ما عرفت سنة الوفاة لوجود تطابق بينه وبين المصدر في هذا الجانب، وإن كان قد نص على ذلك الموضع في التراجم التي اختلف مع مصادرها في تحديد سنة الوفاة، ونبه على أوهامها فيما يختص بذلك، كنحو قوله: «. . . وذكره ابن حجي في تاريخه في حوادث سنة ثمان وثمانين قال. . .»[1]، وقوله: «. . . فقرأت بخط محمد بن يحيى بن سعيد في شيوخ حلب سنة ثمان وأربعين أن. . .»[2].

أما فيما يختص بالأحداث فإنه قد حدد موضع المنقول إذا ما كان هناك فارق زمني بين الخبر وما يصاحبه من زمن وبين الحولية التي تنتظمه، كنحو قوله: «. . . وقد ذكر الحافظ علم الدين البرزالي في تاريخه في حوادثه في سنة عشر وسبعمائة. . .»[3]، وقوله: «. . . ولم يحفظ فيما مضى مثل ذلك إلا في سنة ست عشرة فإن الملك المؤيد صاحب حماه ذكر في تاريخه»[4].

وقد يحدد موضع النقل في موضع التطابق الزمني للخبر مع الحولية المنتظمة له في كتابه ومصدره معاً، فهو نحو قوله في حوادث حولية ثمان وثمانمائة: «وقد

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٢.
(٢) نفسه ج ١ ص ٤٣.
(٣) نفسه ج ٣ ص ٢٩٨.
(٤) نفسه ج ٣ ص ٤٥٧.

بسط العينتابي وأظهر التعصب فيها لحكم لأنه كان ينتمي إليه، فقال في حوادث ذي الحجة سنة ثمان . . . »[1].

٣ ـ بداية النقل وانتهاؤه:

أشار «ابن حجر» إلى بدايات ونهايات نقوله بعبارات واصطلاحات معبرة عن ذلك أتت لصيقة المنقول وسابقة له نحو قوله: «قال»، «ذكر»، «أرخه»، «هذا بخلاف قول»، «قرأت بخط»، «قرأت في كتاب»، «وكتب عنه»، «ذكر في تاريخه قال»، «قال. . . ومن خطه نقلت». . الخ مما يشير إلى أن المتبوع نقلاً عن مصدر بعينه، كما أود نصوصاً متبوعة بما يشير إلى أخذها عن مصدر بعينه مما يتحدد معه دون أدنى لبس مصدرها ابتداء وانتهاء، نحو قوله: «. . . قاله ابن حجي»[2]، «. . . نقلت هذا من خط الشيخ تقي الدين المقريزي»[3]، «. . . نقلته من ذيل تاريخ حلب لابن خطيب الناصرية»[4]، «. . . نقلت ترجمته من ابن قاضي شهبة»[5].

كما كان يورد منقولات محصورة بين تعبيرين اصطلاحيين يفيد أولهما أن المتبوع من مصدر بعينه فيتحدد بذلك بداية، بينما يشير الثاني إلى إنتهاء النقل صراحة أو ضمناً، من ذلك قوله: «. . . ذكره الذهبي في المعجم المختص فقال. . . انتهى»[6]، «قرأت بخط تقي الدين الزبيري وأجازنيه: . . . انتهى»[7].

أو يفصل بين منقول مسند إلى مصدره وبين ما سوف يتبعه من قوله هو، كنحو قوله: «قرأت بخط ابن القطان وأجازنيه قال: . . . قلت: . . . »[8]، وقوله:

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٧، ويقابلها لدى العيني. عقد الجمان ج ١٩ ق ٨١ ب ـ ٨٢ أ.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٧٤.
(٣) نفسه ج ٣ ص ٢٩٦.
(٤) نفسه ج ٣ ص ٢٦٣.
(٥) نفسه ج ٣ ص ٤١٣.
(٦) نفسه ج ١ ص ١١٧.
(٧) نفسه ج ١ ص ٢٧٧.
(٨) نفسه ج ١ ص ١١٢ ـ ١١٣.

«قرأت بخط الشيخ تقي الدين ابن قاضي شهبة قال: . . . قلت. . .»[1]،.

أو يفصل بين منقول وآخر بإيراد النصوص المتتابعة الإسناد في صدرها أو عجزها إلى المصادر، وهي غالباً ما تكون قصيرة، نحو قوله: «. . . نقلت ترجمته من ابن قاضي شهبة، ونقلت من خط غيره. . .»[2]. . . وهكذا.

كما أنه كثيراً ما تقابلنا كلمة «قال» متخللة للمنقول مقطعة له مشيرة بدورها إلى أن مصدرالنقل ما زال ملازماً، كنحو قوله: «. . . قال القاضي تقي الدين الشهبي: كان يكاتب السلطان فيما يريده، فيرجع الجواب بما يختار، وانضبطت الأوقاف في أيامه، وجعل للفقهاء مالاً كانوا لا يصلون إليه قبله، وانتزع شيخة الشيوخ من ابن أبي الطيب كاتب السر. وقال ـ أيضاً ـ وقعت له أمور تغير خاطر برقوق عليه منها ـ وكان طلب اقتراض مال للأيتام فامتنع ـ فعزل في جمادي الآخرة سنة ست وتسعين بعدما باشر سنتين وشهراً، وعقدت له بعد عزله مجالس ولفقوا عليه قضايا، فلم نسمع عليه مع كثرة من تعصب عليه أنه ارتشي في حكم ولا أخذ من قضاة البر شيئاً، ثم أنه بعد ذلك ولي خطابة القدس مدة، ثم ولاه الناصر خطابة دمشق والمشيخة، ثم أضاف إليه القضاء في صفر سنة اثنتي عشرة، ثم صرفه شيخ بعد ثلاثة أشهر، قال: وكان خطيباً بليغاً له اليد الطولى في النظم والنثر والقيام التام في الحق، وكتب بخطه كثيراً وجمع أشياء»[3].

وتكرير كلمة «قال» في سياق منقوله عن مصدره لا تشير إلى اختصار أو استخراج ما سوف يتبعها منه، أو الحفاظ على حرفية المنقول من لفظ مصدره، أو حتى تجميع هذا الجانب من ترجمة «أبي العباس الباعوني» من متفرقات أتت في مصدره دونما جمع ـ كما قد يتبادر للوهلة الأولى لذهن المطالع لها، حيث أن النص المنقول متتابع لدى مصدره ومنقول من موضع واحد، وها هو ذا النص المقابل لمنقول «الإنباء» ليتضح ذلك:

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٢.

(٢) نفسه ج ٣ ص ٤١٣.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٢٢. .

«. . .وكان يكاتب السلطان بما يريد، فيرجع الجواب بما يختاره، وانضبطت الأوقاف في أيامه، وحصل للفقراء معاليم كثيرة، ودرس التفسير والفقه في مدارس القضاة وغيرها، وولي مشيخة الشيوخ، انتزعها من كاتب السر ابن أبي الطيب ـ في شهر ربيع الأول سنة أربع وتسعين ـ ثم وقعت له أمور أوجبت تغير خاطر السلطان عليه، منها: أنه طلب منه أن يقرضه من أموال الأيتام شيئاً فامتنع فعزله بعدما باشر سنتين ونصفاً في جمادى الآخرة سنة ست وتسعين، وكشف عليه، وعقدت له مجالس وحصل في حقه تعصب، واتفقت عليه قضايا باطلة أظهر الله تعالى براءته منها، ولم يسمع عنه مع أكثر أعدائه أنه ارتشى في حكم من الأحكام، ولا أخذ شيئاً من قضاة البر ـ كما فعله من بعده من القضاة ـ ثم ولي خطابة القدس مدة طويلة، ثم خطابة دمشق ومشيخة الشيوخ غير مرة، ثم ولاه الناصر القضاء في صفر سنة اثنتي عشرة وثمانمائة فلم يمكنه إجراء الأمور على ما كا ن عليه أولا، لتغير الأحوال واختلاف الدول، ثم صرفه الأمير شيخ عند استيلائه على دمشق في جمادي الآخرة من السنة، وفي فتنة الناصر ولي قضاء الديار المصرية من بعد الحصار، ثم انتقض. وكان خطيباً بليغاً له اليد الطولي في النظم والنثر مع السرعة في ذلك، وكان من أعظم أنصار الحق وأعوانه ـ أعز الله تعالى به الدين، وكف به أكف المفسدين ـ وكان ظاهر الديانة، كثيرالبكاء، وكتب الكثير بخطه وجمع أشياء»(١).

وهكذا فإن تخلل لفظة «قال» للنص ليس المراد منها إلا الإعلام بأن النص المنقول ما زال متتابعاً، وأن مصدره ما زال ملازماً.

وينسحب ذلك على كثير من النقول الشائعة في مؤلفه، والتي اتبع فيها الطريقة نفسها(٢).

لكن مع هذا لا تزال بداية النقل وانتهاؤه تشكل منزلقاً للدارسين في تراثنا

---

(١) ابن قاضي شهبة. طبقات الشافعية ق ١٨٥ ب.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٤٨، ٥٢، ٨١، ٩٥، ١١٢ ـ ١١٣، ٣٦٠، ٣٦١، ج ٢ ص ١٩٧، ١٩٨، ٢٤٧، ٣٣٤، ٤٥٦.

العربي الإسلامي من هذا النوع المبحوث فيه، فلقد وردت نصوص وعبارات مطولات لدى «ابن حجر» في «الإنباء» دون نسبة إلى مصدر بعينه في موضع يترجح معه ـ للوهلة الأولى ـ أنها ليست إلا من بنات فكره، خاصة إذا ما قورنت بما عرف من دقة كاتبها ـ على هذا النحو ـ في الإنتساب إلى المصادر، ويبدو أن هذه طريقة كانت مألوفة ومتبعة في عصره، وأنها من غير المعيب لديهم. ومن الأمثلة الموضحة ـ على طولها ـ ما ورد في «الإنباء» بخصوص ترجمته «للتاج العجمي» ـ ضمن وفيات حولية سبع وثمانمائة ـ بقوله:

«تاج بن محمود (العجمي) الأصفهيدي، الشيخ تاج الدين العجمي نزيل حلب. قدم من بلاد العجم حاجاً، ثم رجع فسكن في حلب بالمدرسة الرواحية وأقرأ بها النحو، ثم انثالت عليه الطلبة فلم يكن يتفرغ لغير الاشتغال، بل يقرىء من بعد صلاة الصبح إلى الظهر بالجامع (الأموي)، ومن الظهر إلى العصر بجامع منكلي بغا، ويجلس من العصر إلى المغرب بالرواحية للإفتاء.

وكان عفيفاً، ولم يكن له حظ، ولا يطلع على أمر من أمور الدنيا، وأسر مع اللنكية فاستنقذه الشيخ إبراهيم صاحب شماخي وأحضره إلى بلده مكرماً فاستمر عنده إلى أن مات في ربيع الأول.

أخذ عنه غالب أهل حلب وانتفعوا به، وقد شرح المحرر في الفقه وأقرأ الحاوي.

قرأت بخط القاضي علاء الدين في تاريخه: سألته عن مولده في سنة إحدى وثماني مائة فقال: لي الآن اثنتان وسبعون سنة»[1].

المطالع لهذه الترجمة يترجح لديه أن منقول «ابن حجر» عن «ابن خطيب الناصرية» ينحصر في ذيل الترجمة المسند إلى المصدر تبعاً لقول «ابن حجر»: «... **قرأت بخط** القاضي علاء الدين في تاريخه...» لكن الدراسة المقارنة تثبت خلاف ذلك، حيث أن الترجمة بكاملها مأخوذة عن «ابن خطيب الناصرية» وأن

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٠١ تر ٥.

تصـرف «ابن حجر» في مصـدره بـإبـدال بعض ألفـاظ النص، وتعـديـل النسق الترتيبي له في موضع واحد، وهو المتعلق بذكر مؤلفات المترجم له.

وهذا هو نص «ابن خطيب الناصرية» ليتضح ذلك:

«تاج الدين بن محمود العجمي الأصفهندي الشافعي الملقب: تاج الـدين شيخنا ـ ورد من بلاد العجم إلى حلب، ثم توجه إلى الحجاز، ثم عاد إلى حلب فسكن بها بالمدرسة الرواحية، وولي تدريس النحو بهـا، وكان إمـاماً عـالماً ورعـاً صنف وأفتى وشغل الطلبة بجامعي الأمـوي ومنكلي بغـا، وكان يشغـل في علوم كثيرة وله على المحرر شرح، وألف شرحاً على ألفيـة ابن مالـك في النحو، لكنـه ليس بطائل، وغير ذلك.

كانت أوقاته مستغرقة بالعبادة من بكرة النهار إلى وقت الظهـر ـ في الغالب ـ يشغل بالجامع الأموي، من الظهر إلى العصر بجامـع منكلي بغـا، ومن العصر إلى المغرب يجلس للإفتاء بالمدرسة الرواحية . . .

وكان عزباً، ونفسه عفيفة، لم يكن له مطمع إلى الدنيا، واستمر على ذلك إلى حين مجيء التتار إلى حلب قاصداً سيراً إلى تمرلنك، ثم أن الشيخ إبـراهيم ـ ـ صاحب شماخي ـ طلبـه من تمرلنـك واستدعـاه إلى بلاده مكـرماً فتـوجه معـه إليها، واستمر هنـاك إلى أن توفي بشمـاخي في أثناء شهـر ربيع الأول سنـة سبع وثمان مائة، وكان رحمه الله تعالى أحد مشايخي الذين قرأت عليهم، وكنت كثـير الإجتماع به.

سألته عن مولده ـ في سنة إحدى وثمان مائة ـ فلم يستحضره، وقـال: لي الآن اثنتان وسبعون سنة ـ رحمه الله تعالى»(١).

. . وهكذا فإن طرقـه في نسبة منقوله إلى مصادره وإن تحددت معها هـذه اللمع والنقول المنسوبة لا تكفي في حصر كـل منقولـه عن مصادره، فضـلاً عن تحديد بداية النقول ونهاياتها، وبالتالي لا يمكن الإعتماد على مثل تلك النقـول في

(١) ابن خطيب الناصرية. الدر المنتخب ج ١ ق ١٩٢ أ.

بناء هيكل تركيبي لتلك المؤلفات الضائعة التي استوعبها أو نقل عنها في «الإنباء» على اعتبار أنه قد تصرف فيها سواء من حيث النسق الترتيبي أو التعبيري زيادة واختصاراً على نحو ما سوف يأتي.

٤ ـ دلالات النقل عند عدم التصريح به:

على أنه في حالة عدم إسناد المنقول إلى مصدره بأي من الطرق السالفة يمكن أن نتلمس لدى كثير من النصوص الواردة في «الإنباء» بعض العبارات والألفاظ الإصطلاحية الدالة على المصدر المنقول عنه، وهي غالباً ما تعبر عن مصدر واحد وتنحصر في قوله: «أرخه...»، «ترجمه...»، «كتب عنه...»، «ذكره...»، «نوه به...»، «أثنى عليه...»، «أخذ عنه... وكان يطريه».

ومن أمثلة ذلك قوله: «... سمع منه شيخنا العراقي وهو الذي أرخه»[1]، «... أرخه طاهر بن حبيب»[2]، «وقوله: «... أخذ عنه القاضي بدر الدين العيني وهو الذي ترجمه»[3]، «... عمل لها ولدها الشيخ تقي الدين (المقريزي) ترجمة جيدة وحدث عنها عن أبيها من شعره»[4]، «... وكتب عنه الشيخ برهان الدين من فوائده»[5]، وقوله: «... ذكره القاضي علاء الدين في تاريخه»[6]، وقوله: «... وكان قد صحب التاج السبكي فنوه به»[7]، وقوله: «... وأثنى عليه القاضي علاء الدين في تاريخ حلب»[8].

وللدلالة على صدق ذلك يمكن مقابلة بعض النصوص والتراجم الواردة في «الإنباء» متبعاً فيها هذه الطرلايقة بالمصدر المشار إليه، والمرجوح الأخذ عنه ـ

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٢٩.

(٢) نفسه ج ١ ص ١٦٤.

(٣) نفسه ج ١ ص ٥٢١.

(٤) نفسه ج ٢ ص ٣٣.

(٥) نفسه ج ٢ ص ٣٣٢.

(٦) نفســه ج ١ ص ١٨٣، ج ٢ ص ١٢٧، ج ٣ ص ٧٧.

(٧) نفسه ج ٢ ص ٢٤.

(٨) نفسه ج ١ ص ٦٥.

حسب هذه القاعدة ـ حيث نجد أن «ابن خطيب الناصرية» قد ترجم «أحمد المقريء الحلبي» على النحو التالي: «أحمد الحموي المقريء نزيل حلب، رجل صالح دين ورع، أقام بحلب عدة سنين يقريء الناس القرآن وهو مقبل على التلاوة والعبادة والورع، غير ملتفت إلى الدنيا بالكلية، وكان من عباد الله الصالحين الورعين، وهو شيخي في قراءة القرآن، سكن في المسجد الكائن بجوارنا ـ بالقرب من مدرسة شاذ بخت النوري ـ ثم انتقل إلى الخانقاة الشمسية فسكنها إلى أن رحل منها ـ قبل واقعة تمرلنك ـ إلى بيت المقدس فسكنه، ثم انتقل إلى طرابلس، ثم إلى دمشق، ولم يكن تزوج إلى ذلك الوقت ـ فيما علمت ـ ثم إنه رجع إلى طرابلس وتزوج بها، وتوفي وجاء الخبر بوفاته إلى حلب في شوال سنة سبع عشرة وثمانمائة، وصلي عليه بجامع حلب صلاة الغائب ـ رحمه الله تعالى»[1].

فلما ترجمه «ابن حجر» في «الإنباء» ضمن وفيات حولية سبع عشرة وثمانمائة عمد إلى «ابن خطيب الناصرية» آخذاً في الترجمة عنه انتقاء، دون زيادة على مصدره قائلاً: «أحمد بن أحمد المقرىء الحلبي، **اعتنى بالقرآن**، وكان يقرىء بمسجد يجاور الشاذبختية بحلب مدة، ثم تحول من حلب إلى القدس قبل الواقعة العظمى، وانتقل إلى دمشق وأقام بها، ثم إلى طرابلس فأقام بها، واستمر إلى أن مات في شوال سنة ٨١٧ ـ **أثنى القاضي علاء الدين في تاريخه على خيره ودينه**»[2].

ومن ذلك قوله في ترجمة «ابن خاص التركي» ـ ضمن وفيات حولية تسع وثمانمائة: «أحمد بن قاضي الترك الحنفي، شهاب الدين، أحد الفضلاء المتميزين من الحنفية، مات في هذه السنة بالقاهرة، **وأخذ عنه بدر الدين العيني المحتسب وكان يطريه**»[3]. ويقابل ذلك لدى مصدره قوله: «الشيخ شهاب الدين أحمد

---

(١) ابن خطيب الناصرية الدر المنتخب ج ١ ق ١٤٩ ب.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٤١ ـ ٤٢.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٣٦١.

ابن خاص التركي الحنفي، كان مشتغلاً بالفقه والحديث ليلاً ونهاراً، وكَتَبَ كثيراً، ودرس وجمع. ومات في هذه السنة بالقاهرة»[1] وهو ما يشير إلى أن «ابن حجر» قد ترجمه عن «العيني» على الرغم من افتقارمصدره - في هذا الموضع - إلى بسطة في القول، وأنه لم يفد إلى جانب ترجمته لدى مصدره إلا كون «العيني» من تلامذته.

٥ - الإهتمام بموارد المصادر التي ينقل عنها:

عمد «ابن حجر» إلى إثبات منقوله مسنداً إلى مصادره الأصلية في موارده توثيقاً لها ولمادة كتابه - كذلك - ولعل في ذلك إدراكاً منه بأهمية هذا العمل في توضيح أو تعليل أفضلية المصدر الذي ينقل عنه على السواء وخصوصيته وإن تعاصرا، ومن أمثلة ذلك قوله في حوادث حولية ست وسبعين وسبعمائة نقلاً عن «ابن حجي» بخصوص طاعون دمشق: «... فذكر الشهاب ابن حجي أن يعقوب الدلال بسوق الخيل أخبره أنه رأى الجن عياناً على خيل كالجراد المنتشر وبأيديهم رماح في بعض أزقة الصالحية وطاعنهم وطاعنوه، وصار يتحدث بذلك ويحلف والناس بين مصدق ومكذب فطعن هو ومات عن قرب ورئي في بدنه أثر طعنات. قال: أخبرني بذلك من ولي غسله»[2].

وهو هنا يورد الخبر مصاحباً لمصادر توثيقه لدى المصدر المنقول عنه سواء بنسبته لدلال بسوق الخيل، أو لمن ولي غسله لا توثيقاً للخبر في حد ذاته فحسب، بل وتبرئة لساحة «ابن حجي» وتوثيقاً له. وقد كانت بينهما صحبة ومزاورة.

وقوله في ترجمة الشيخ «زين الدين الحلالي» - ضمن وفيات حولية ست وثلاثين وثمانمائة - نقلاً عن «ابن خطيب الناصرية»: «... قاله القاضي علاء الدين. قال: واجتمعت به فرأيته عالماً بالفقه والمعاني والبيان والعربية، وله صيت كبير في بلاده، وكان عالماً، قرأت بخط عبد الرحمن بن محمد الحلالي الشافعي

(١) العيني. عقد الجمان ق ٨٨ أ.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمرج ١ ص ٧٦ - ٧٧.

القزويني أنه يروي البخاري عن قاضي المدينة عن الحجار ولم يسمعه، وأنا أظنه شيخنا زين الدي بن حسين»[1].

وفي المحافظة على مصدر مصدره هنا اقتضاء لمعهود «ابن حجر» من الأمانة العلمية مضافة إلى المحافظة على اجتهاد مصدره في نقطة عميت عليه في المصدر الأصلي بشأن تقدير ما يحمله المترجم له وتقدير اشتغاله. إن أصاب في اجتهاده فلا بأس، وإن أخطأ فالعهدة عليه فيما أورده، وليس على «ابن حجر» ويؤيد ذلك عبارته في غير هذا الموضع قرين منقوله عن بعض مصادره: «. . . والعهدة فيه عليه»[2].

ثالثاً ـ طرق النقل

عالج «ابن حجر» منقوله عن مصادره المكتوبة بطرق شتى يمكن حصرها في الآتي:

١ ـ الإلتزام الحرفي بمادة مصادره قدر إمكانه:

وفيه يعمد «ابن حجر» إلى مصدره ينقل منه حرفياً، مع الحفاظ على النسق الترتيبي للمعلومة المنقولة في «الإنباء»، أو يعمد إلى منقول بينه وبين ما في «الإنباء» تشابه كبير من حيث اللفظ والنسق الترتيبي للفكرة.

من ذلك ما ورد في ترجمته لأبي نعيم العامري الغزي ـ ضمن وفيات حولية اثنتين وعشرين وثمانمائة من قوله:

«. . . قال القاضي تقي الدين الأسدي: جرت له محنة سنة خمس وتسعين وحج وجاور ثلاث مرات، وناب في الحكم بعد الفتنة اللنكية واستمر، وباشر

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٠٦ تر ١٠، ويراجع بشأن التثبت من أن اصطلاحات القول هي للمصدر الأصلي ـ الضوء اللامع ج ٤ ص ١٥٥، وحاشية د. حسن حبشي رقم: ٦ ج ٣ ص ٥٠٦ من الإنباء.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٤٧٣.

المرستان والجامع فانحط بسبب ذلك، وكان فصيحاً ذكياً جريئاً مقداماً وبديهته أحسن من رؤيته وطريقته جميلة، وباشر الحكم على أحسن وجه»[1].

ويقابل مقولته في المصدر الأصلي لها قول ابن قاضي شهبة:

«... ثم حصلت له محنة في شهر رمضان سنة خمس وتسعين، وحج وجاور بمكة ثلاث مرات، وناب بعد الفتنة في القضاء واستمر مدة طويلة، وناب في المارستان، وباشر في الجامع فانحط بسبب ذلك، وكان ذكياً فصيحاً جريئاً مقداماً، بديهته أحسن من رؤيته، وطريقته جميلة. وباشر القضاء على أحسن وجه»[2].

ويلاحظ ـ هنا ـ الشبه الكبير بين النصين، حيث المحافظة على النسق الترتيبي للنص مع الإبدال الطفيف لبعض الكلمات أو التخفف من بعض الألفاظ، حيث أبدل حصلت بجرت، والحكم بالقضاء، مع إسقاط بعض الألفاظ التي لا يتغير المعنى بإسقاطها مثل قوله: شهر رمضان، بمكة، ناب في. كما أنه قد أدخل على النص كلمة هي «اللنكية» نسبة للفتنة، وغير ترتيب الصفات فسبقت فصيحاً ذكياً.

ويماثل ذلك ـ كذلك ـ قوله بخصوص ترجمة «الشهاب الطنتدائي» الواردة ضمن وفيات حولية اثنتين وعشرين وثمانمائة: «... ذكره ابن قاضي شهبة وقال: حفظ ما ينيف على خمسة عشر ألف بيت رجز في عدة علوم منها تفسير الشيخ عبد العزيز الديريني، ونظم المطالع للموصلي»[3].

ويقابله لدى مصدره قوله:

«... وحفظ ما ينيف على خمسة عشر ألف بيت رجز في عدة علوم منها تفسير الشيخ عبد العزيز الديريني، ونظم المطالع للموصلي»[4].

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٤.
(٢) ابن قاضي شهبة. طبقات الشافعية ق ٢٠٠ أ.
(٣) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٤٢٤.
(٤) ابن قاضي شهبة. طبقات الشافعية ق ٢٠٠ ب.

وليس خفياً وجه التطابق بين النصين.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك قوله في ترجمته لتغري بردى الكمشبغاوي (ت ٨١٥ هـ.): «... قال القاضي علاء الدين في تاريخه: كان عنده عقل وحياء وسكون، ثم قال أيضاً كان كثير الحياء والسكون، حليماً عاقلاً مشاراً إليه بالتعظيم في الدولة»(١).

ويقابل ذلك لدى مصدره قوله:

«... وكان عنده عقل وحياء وسكون... وكان ـ رحمه الله تعالى ـ كثير الحياء والسكون، حليماً عاقلاً، مشاراً إليه في الدولة ـ رحمه الله تعالى»(٢).

ويكاد النصان يتطابقان لولا إدخال «ابن حجر» كلمة «بالتعظيم» على النص واسقاطه عبارتي الترحيم.

٢ ـ انتقاء المنقول مع الحفاظ على ألفاظ المصدر الأصلي:

وفيه يعمد «ابن حجر» إلى إحداث إسقاطات في النص نشداناً للإختصار، مع الحفاظ على ألفاظ المصدر الأصلي والنسق الترتيبي للمنقول.

ومن أمثلة ذلك قوله في ترجمة «ابن خلدون» الواردة ضمن وفيات حولية ثمان وثمانمائة:

«قال لسان الدين ابن الخطيب في تاريخ غرناطة: رجل فاضل، جم الفضائل، رفيع القدر، أصيل المجد، وقور المجلس، عالي الهمة، قوي الجأش، متقدم في فنون عقلية ونقلية، متعدد المزايا، سديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الخط، حسن العشرة، مفخرة من مفاخر المغرب، قال هذا كله في ترجمته والمذكور في حد الكهولة»(٣).

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٥٢٧.

(٢) ابن خطيب الناصرية. الدر المنتخب ج ١ ٢٩٤ ب ـ ٢٩٥ أ.

(٣) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٣٤٠ تر ١٨.

وبالرجوع إلى المصدر الأصلي يتضح أن «لسان الدين ابن الخطيب» قد ترجم «ابن خلدون» في «الإحاطة» فيما يقارب العشرين صفحة[1] مضمناً العناصر التالية:

نسب ابن خلدون وأوليته ـ حاله وصفاته ـ تكوينه العلمي وشيوخه ـ انصرافه عن أفريقية منشئه ودخوله المغرب ـ دخوله غرناطة ومراسلاته لابن الخطيب وإجابة ابن الخطيب عنها ـ مؤلفاتها ـ مقطوعات شعرية له ـ وصوله إلى بجاية، ثم إنصرافه عنها وتحوله إلى بسكرة ـ مولده.

ولم يقع إختيار «ابن حجر» إلا على العنصر المتعلق ببيان حاله وصفاته وهو:

«. . .هذا الرجل الفاضل، حسن الخلق، جم الفضائل، باهر الخصل، رفيع القدر، ظاهر الحياء أصيل المجد، وقور المجلس، خاصي الزي، عالي الهمة عزوف عن الضيم، صعب المقادة، قوي الجأش، طامح لقنن الرياسة، خاطب للحظ، متقدم في فنون عقليةلا ونقلية، متعدد المزايا، سديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الخط، مغري بالتجلية، جواد الكف، حسن العشرة، مبذول المشاركة، مقيم لرسوم التعين، عاكف على رعي خلال الأصالة، مفخرة من مفاخر التخوم المغربية»[2].

وبالدراسة المقارنة للنص لدى «ابن الخطيب» ومنقول «ابن حجر» عنه يتضح الآتي:

أولاً ـ أنه قد حافظ على ألفاظ النص الأصلي إلا في موضعين لا يضار النص بتعديلهما وهما: «رجل فاضل» ويقابلها في النص الأصلي: «الرجل الفاضل» ـ أي مع حذف أداة التعريف «الـ» في كليهما ـ وقوله: «ومن مفاخر المغرب» ويقابلها في النص الأصلي المنقول عنه: «من مفاخر التخوم المغربية».

---

(١) ابن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٣ ص ٤٩٧ ـ ٥١٦.

(٢) نفسه ج ٣ ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

ثانياً ـ أنه أسقط جملاً تتخلل بين الجمل الواردة في عبارته عن المصدر الأصلي في ثمانية مواضع تحتوي على بعض الصفات التي لا يغني عن إيرادها سائر الجمل الأخرى الواردة في المثبت لديه وهي: «حسن الخلق، باهر الخصل ظاهر الحياء، خاص الزي، عزوف عن الضيم، صعب المقادة، طامح لقنن الرياسة، خاطب اللحظ، مغري بالتجلية، جواد الكف، مبذول المشاركة، مقيم لرسوم التعين، عاكف على رعي خلال الأصالة». أي ما يعادل منقوله من النص. ولعل دافعه إلى ذلك ـ مضافاً إلى جريه على طريقته في الاختصار ـ توهمه أن المقصد من عبارته المصدر الأصلي إسداء المديح للمترجم له، وفي المنقول ما يبين ذلك، فضلاً عن بيان حال الرجل وتقويم مصدره له.

ثالثاً ـ على الرغم من اختصاره للنص على هذه الصورة، فإنه لم يشر إلى ذلك على عادة بعض المؤرخين التقليديين كالذهبي وغيره من قولهم في حالة انتقاء أو اختصار النص الأصلي المنقول عنه: «... لخصت ترجمته من...» أو «... هذامعنى ما ذكره...» وغيرها[1].

وإنما أسنده إلى مصدره قائلاً: «... قال لسان الدين ابن الخطيب في تاريخ غرناطة:...»، معقباً عليه بقوله: «... قال هذا كله في ترجمته» وهو ما لا يفهم منه أنه قد عمد إلى الاسقاطات من النص الأصلي، وإن لم ينتف كون المنقول مسنداً إلى القائل على وجه الدقة باعتبار أنه قد حافظ على لفظ «ابن الخطيب» باستثناء تغيير طفيف في موضعين ـ وبمعنى آخر، على اعتبار أنه لم يضف على النص من عنده ما يجعله يقول ما لم يقله.

٣ ـ التصرف في النص من حيث اللفظ ـ تعديلاً وإبدالاً، زيادة واختصاراً مع الحفاظ على النسق الترتيبي للمورد الأساسي للمنقول:

وعلى العكس تماماً مما فعله بنص «ابن الخطيب» في ترجمته «لابن خلدون» نجدنا مع «ابن حجر» وقد عالج مصدراً آخر نقل عنه في ترجمته للمشار إليه

(١) بشار عواد معروف. الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ص ٤٣٥.

بطريقة أخرى وهو «عقد الجمان» للبدر العيني، حيث قال في ترجمته لابن خلدون ما نصه:

«. . . قال العينتابي في ترجمة ابن خلدون: مات فجأة بعد أن أعيد إلى القضاء بثلاثة أيام، وكان ديناً فاضلاً، صاحب أخبار ونوادر ومحاضرة حسنة، وله تاريخ مليح، وكان يتهم بأمور قبيحة ـ كذا قاله»[1].

وبمطالعة هذا المنقول المثبت لدى «ابن حجر» عن «البدر» يتضح الآتي:

أولاً ـ أن الوارد هنا وهو قرابة الثلاثة أسطر من ترجمة البدر لابن خلدون فيما يقارب الـ ١٥ سطراً ـ وهو جزء من مقولته في ابن خلدون حسب نص ابن حجر: «قال العينتابي في ترجمة ابن خلدون . . .»، وبمعنى آخر، وهو ما يشير إلى أنه سوف يعمد إلى اقتضاب النص على صورة من صور الاقتضاب.

ثانياً ـ أن إردافه المقولة المسندة إلى البدر بقوله: «كذا قال» وقد أتت ذيلاً على مقولة لغيره في المترجم له ـ ابن الخطيب ـ يفهم منه أن «ابن حجر» قد أدرك التباين بين المقولتين: الأولى في موضع المدح المفرط والمسرف ـ أحياناً ـ والثانية الخالطة بين المديح والقدح في شخص المترجم له، ويفهم منه ـ كذلك ـ أنه لم يكن مؤيداً له أو على وجه الدقة معلقاً لرأيه فيه تاركاً للقاريء المقابلة واعتناق ما يريد على سبيل المحايدة وكتمان الرأي أو الامتناع عن إبدائه.

لكن بالدراسة المقارنة بين مادة القول المسندة لدى «ابن حجر» إلى «البدر» وبين ما ورد فعلاً في ترجمة «العيني» لابن حجر[2] تتضح أمور أخرى تتعلق بمنهج «ابن حجر» في النقل عن مصادره وهي:

أولاً ـ أن «ابن حجر» لم يهتم بتحري الدقة في النقل عن مصدره في هذا الموضع، حيث عمد إلى تبديل بعض الألفاظ أو إضافة ألفاظ أخرى على النص

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٣٤٠.

(٢) العيني. عقد الجمان ج ١٩ ق ١٨٢.

وإن قاربت الألفاظ الأصلية في التعبير عن بغية الكاتب الأصلي في المصدر المنقول عنه كنحو قوله: «مات فجأة بعد أن أعيد إلى القضاء بثلاثة أيام»، ويقابلها في النص الأصلي: «توفي. . . فجأة وكان قد تولى القضاء قبل مَوته بثلاثة أيام»، وقوله: «. . . وكان ديناً فاضلاً، صاحب أخبار ونوادر ومحاضرة حسنة، وله تاريخ مليح» ويقابلها في النص الأصلي المنقول عنه: «. . . وكان رجلاً فاضلاً صاحب أخبار ونوادر ومحاضرة مليحة، وله تاريخ في سبع مجلدات».

وهنا نلحظ أن «ابن حجر» قد أدخل على النص تعديلات حيث نسب إلى البدر قوله: «ديناً» نعتاً لابن خلدون، وقوله: «مليح» نعتاً لتاريخ ابن خلدون، وهما مما لم يقله، بينما استبدل وصف البدر لأخبار ونوادر ومحاضرات ابن خلدون «مليحة» بلفظة «حسنة» وهي مرادف لها يؤدي المعنى المطلوب لا شك.

ثانياً ـ أن هذا القول المنسوب إلى العينتابي لم يرد في مصدره على هذه الصورة، ولكن «ابن حجر» قد لفق بين جمله لتأتي على هذه الصورة المثبتة لديه.

ثالثاً ـ أنه في نسبته لهذه المقولة إلى البدر بقوله: «قال العينتابي في ترجمة ابن خلدون» ما يشير إلى أن ما أورده ليس كل ما قاله البدر فيه وهذا صحيح.

رابعاً ـ أن هذا النص على وجازته يوهم أن كل منقوله عن البدر منحصر في هذا الموضع المشار إليه والمسند إلى البدر، لكن بمقارنة المادة المكتوبة في ترجمة ابن خلدون لدى «البدر» ومثيلتها لدى «ابن حجر» يتضح أن «ابن حجر» قد استوعب ترجمة «البدر» تماماً ـ على نحو ما مر.

وهكذا فإن «ابن حجر» قد تصرف في النص من حيث اللفظ ـ تعديلاً وإبدالاً زيادة واختصاراً مع الحفاظ على النسق الترتيبي لمادة مصدرية.

٤ ـ الالتزام بالحرفية للألفاظ ـ قدر إمكانه ـ مع تغيير النسق الترتيبي وتعديله:

وفيه يوجد تشابه كبير بين ألفاظ منقوله وبين مصدره، ولكن مع تعديل النسق الترتيبي للمصدر الأصلي.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في ترجمته لسبط العلائي - ضمن وفيات حولية عشرين وثمانمائة - من قوله:

«... قال ابن قاضي شهبة في طبقاته: وكتب بخطه على فتوى تدل على كثرة إستحضاره وجودة تصرفه، ولما سكن الهروي هناك اتصل بينهما شرور كثيرة ومرافعات وقوى الهروي عليه. مات في آخر هذه السنة عن نحو خمسين سنة»(١).

ويقابل ذلك في مصدره قوله:

«... ولما سكن الهروي هناك حصل بينهما شرور كثيرة ومرافعات وقوى الهروي عليه، وقد رأيت خطه على فتوى وهو يدل على كثرة استحضاره وجودة تصرفه... توفي في آخر سنة عشرين وثمانمائة عن نحو خمسين سنة»(٢).

وهو - هنا - يورد نص مصدره وقد حافظ على لفظه مع تغيير طفيف اقتضاه المقام وإن عدل النسق الترتيبي المصاحب له.

ويمثل ذلك - كذلك - قوله في حوادث حولية أربع عشرة وثمانمائة بخصوص موت السلطان الملك المنصور:

«... قال العينتابي: كان شديد البأس على جواريه لسوء خلقه من غلبة السوداء عليه، ولم يزل مشغولاً باللهو والسكر»(٣).

والذي في تاريخ العينتابي قوله:

«... ولم يزل مشغولاً بالسكر والملاهي إلى حين وفاته، وكان شديد البأس على حاشيته خصوصاً على جواريه(*) وكان يقتلهن قتلاً عظيماً لسوء خلقه وغلبة السوداء عليه»(٤).

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ١٥٠.

(٢) ابن قاضي شهبة. طبقات الشافعية ق ٢٠٣ ب.

(٣) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٤٨٩.

(*) في الأصل: جواره.

(٤) العيني. عقد الجمان ج ١٩ ق ١١٨.

وقوله في ترجمته لعبد الله بن طيمان ـ الواردة ضمن وفيات حولية خمس عشرة وثمانمائة:

«. . . وقال القاضي تقي الدين الشهبي: شرع في جمع أشياء لم تكمل، واختصر شرح الغزي على المنهاج، وضم إليه أشياء من شرح الأذرعي، وقد درس الركنية والعذراوية والظاهرية والشامية»(١).

ويقابل ذلك لدى مصدره قوله:

«. . . ثم أنه في آخر أمره أقام بالشام يشغل ويفتي ويصنف، ودرس بالركنية والعذراوية والظاهرية والشامية الجوانيتين، وولي خدامة الخانقاه السيميساطية وشرع في جمع أشياء لم تكمل، واختصر شرح الشيخ شرف الدين الغزي على المنهاج ولم يشتهر لغلاقة لفظه واختصاره»(٢).

٥ ـ التصرف في اللفظ والنسق الترتيبي معاً:

ويمثله قوله بخصوص «آقبغا القديدي»:

«. . . وقتل قنباي، وآقبغا القديدي ـ المعروف بدويدار يشبك ـ كان مقدماً عند يشبك، ثم استقر عند الناصر دويداراً صغيراً وأمره عشرة، وكانت له وجاهة ومعرفة ويقتدي برأيه في كثير من الأمور. قال العينتابي: كان يدعي الحكمة ووفور العقل مع خبث ومكر وحب لجمع المال، ولم يشتهر عنه خير، وحصل في أيام يشبك مالاً جماً، ثم لم يزل في ازدياد إلى أن مات في ليلة الخميس ثالث عشر شوال، وخلف شيئاً كثيراً جداً تمول بعده منه جماعة واستولى السلطان على غالبه»(٣).

والذي في «عقد الجمان» نصه:

«. . . **الأمير آقبغا القديدي** ـ دويدار يشبك الشعباني ـ كان توفي ليلة

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٥٢٩ ـ ٥٣٠.

(٢) ابن قاضي شهبة. طبقات الشافعية ق ١٨٦ ب.

(٣) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٤٩٠.

الخميس الثالث عشر من شوال منها، ودفن صبيحة غده في تربته التي أنشأها بالصحراء قريباً من تربة الظاهر برقوق، وخلف موجوداً كبيراً، واستولى الناصر على أكثره، وكان رجلاً يدعي المعرفة والحذاقة راضياً بعقله ومستحسناً فعل نفسه صاحب خبث ودهاء، ولم يشتهر عنه معروف، وكان حريصاً على جمع الأموال، وجمع كثيراً لما كان دوادار يشبك ثم أعطى أمرة عشرة وتولي الدوادارية الصغرى للناصر إلى أن توفي»(١).

وقوله في ترجمته لمحمود القيسراني (ت ٧٩٩ هـ.):

«. . . قرأت في تاريخ البدر أن جمال الدين أول ما قدم نزل في الصرغتمشية قال: وكان بحالة املاق إلى الغاية، ثم وصل إلى ما وصل إليه حتى قال: إنه سمعه يقول: هذا الذي حصل لي غلطة من غلطات الدهر. قال: وكان عنده دهاء مع حشمة زائدة وسخاء، وكان فصيحاً بالعربية والتركية والفارسية، وكان كثير التأنق في ملبسه ومأكله»(٢).

والظاهر من هذا النص أن «ابن حجر» يشير إلى أن المقولة الأولى مستخلصة من القراءة، بمعنى أن الصياغة ليست للمصدر الأصلي، على حين ما يليها من لفظ المؤلف الأصلي، خاصة وأنها مسبوقة بكلمة «قال». . لكن يظهر اجتهاد «ابن حجر» في صياغة النص في سائر العبارة بألفاظ مقاربة، وقد انتقد البدر في صدر كتابه لعجمته. حيث أن منقوله عنه لا يتطابق مع لفظه وهو:

«. . . وكان رجلاً خلوقاً ذا أدب وحشمة، سخي الكف على الطعام وعلى العطاء لمن يعتني به، وكان عنده ذكاء، ولكن كان قليل المادة، فبقوة ذكائه كان يشارك الناس في البحث، وكان يتكلم بالتركي والعجمي والعربي، قدم الديار المصرية في الدولة الأشرفية، وأقام في مدرسة صرغتمش مدة من جملة الطلبة، وكان على فقر عظيم . . . فالذي اتفق لهذا ما اتفق لغيره من أبناء جنسه،

---

(١) العيني. عقد الجمان ج ١٩ ق ١١٧ أ.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٥٤٢.

ولذا سمعته يقول: هذا الذي حصل لي من غلطات الدهر. . . وكان يتكلف في المواكيل الطيبة والملابس الحسنة»[1].

٦ ـ النقل بالفكرة مع إغفال العبارة الأصلية لمصدره:

ومن أمثلة ذلك قوله بخصوص ترجمة «نوروز» (ت ٨١٧ هـ.):

«. . . قال العينتابي: كان جباراً ظالماً غشوماً بخيلاً ـ كذا قال»[2].

وهي جملة استنتاجية من مقولة «البدر» فيه ونصها:

«. . . ولكن كان ماسك اليد لأهل العلم والفقراء، وكان عنده تجبر عظيم وشمم هائل، ولم يشتهر عنه معروف»[3].

وقوله في ترجمته لأسنبغا الزردكاش (ت ٨١٨ هـ.):

«. . . قال العينتابي: كان ظالماً غاشماً لم يشتهر عنه إلا الشر»[4].

والذي في مصدره قوله:

«. . . ولم يشتهر له معروف»[5] ـ فقط.

وقوله بخصوص وباء البقر ـ الوارد ضمن حوادث حولية أربع وتسعين وسبعمائة نقلاً عن «ابن الفرات» الذي اتخذه مصدراً لحوادث الحولية كلها:

«وفي شعبان وقع الوباء في البقر حتى كاد أقليم مصر أن يفني منها»[6].

والذي في مصدره قوله:

---

(١) العيني. عقد الجمان ج ١٩ ق ٥ ب، ٦ أ.
(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٥١.
(٣) العيني. عقد الجمان ج ١٩ ق ٣٥ أ.
(٤) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٧٧.
(٥) العيني. عقد الجمان ج ١٩ ق ١٤٢أ.
(٦) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٤٣٧.

«. . . وفي شهر رمضان المذكور حصل للبقر التي بالزرايب بالقاهرة المحروسة وظواهرها مرض فصارت البقرة بمجرد ما يصيبها تضطرب وتقع ميتة، وبلغ الأمر في ذلك أن أبيع كل بقرة كانت تساوي قديماً خمسمائة درهم بعشرين درهم، ثم تناهي إلى أن أبيعت بقرة بخمسة دراهم، ولم يوجد من يشتريها، وسمعت بعض الناس يذكر أن بقرة أبيعت بدرهم، وخلي غالب الزرايب التي بظاهر القاهرة من البقر وجافت الحارات التي بالقرب من الزرايب لكثرة موت البقر ورميها على أبواب الزرايب. وكذلك في الأرياف، وبطل الطباخين بيع الطبيخ باللحم البقري، وصار الناس لا يشتروا لحم بقري ولا يأكلوه. فسبحان الفعال لما يريد»(١).

وقوله في حوادث حولية سبع وتسعين وسبعمائة ـ نقلاً عن ابن الفرات ـ وقد اتخذه مصدراً لغالبية حوادثها:

«. . . وفيه (شعبان) أحضر من دمياط قطعة من مخ سمكة يدخل في كل عين منها رجل ضخم»(٢).

والذي في مصدره قوله:

«. . . وفيه شاهدت من مخلوقات الله العجيبة ما أحضر من ثغر دمياط المحروس قطعة عظم من مخ سمكة تشتمل على ميقي العينين وبينهما متصل بها قطعة من الخرشوم يدخل في كل ميق منها رجل ضخم إلى الغاية أو رجلين، والعظمة محمولة على جمل وما يطيق المشي بها إلا بتكلف»(٣).

والمستخلص من كل هذا أن «ابن حجر» قد عالج مادة مصادره: سواء فيما يختص بالحوادث ـ على الرغم من تنوعها ـ أو بالتراجم بطرق شتى وإن

(١) ابن الفرات التاريخ ج ٩ ص ٣٠٨.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٤٩٣.

(٣) ابن الفرات. التاريخ ج ٩ ص ٤١٠.

كشفت عن شخصيته المصاحبة لكل منقول مدون لديه فإنها لا تعبر ـ في الغالبية العظمى منها عن العبارة الأصلية المنقول عنها إلا بالفكرة الحاملة لها، حيث ظهر جلياً تصرفه في النسق التعبيري والترتيبي لمصادره.

رابعاً ـ نقد المصادر

على الرغم من أن «ابن حجر» قد اعتمد كثيراً من المصادر في بناء مادة كتابه بل ونقل الكثير من عباراتها الناقدة إلى حولياته محافظاً عليها، ناسباً منقوله عنها في الحدث أو الترجمة إليها[1] فإنه كانت له نظرة في تلك الأخبار المنقولة عنها، عامل بها الحوادث والتراجم على أنها جزئيات تخضع لتصديق العقل إياها أو لرده وتفنيده[2] كما كانت له نظرة شمولية ـ كذلك ـ على المصدر ككل، سواء

(١) كنحو قوله في ترجمة «ابن لاجين الرشيدي» (ت ٨٠٣ هـ. /١٤٠١ م.)«. . . قال القاضي تقي الدين الشهبي: وقفت على شرحه، وفيه أوهام عجيبة»ـ إنباء الغمر ج ٢ ص ١٦٨.

وقوله في ترجمة «جمال الدين المالكي (ت ٨٠٧ هـ. /٤٠٥ م.): «. . . قرأت بخط قاضي البلاد الحلبية القاضي علاء الدين في تاريخها كان إماماً فاضلاً فقيهاً يستحضر كثيراً من التاريخ. . . وكان يحب العلم وأهله. .» ـ نفسه ج ٢ ص ٣٠٦.

(٢) كنحو قوله في ترجمة «محمود الكلستاني» (ت ٨٠١ هـ. /١٣٩٩ م.): «. . . ووصفه العيني ـ كما تقدم ـ بالطيش والبخل والعجب، وبالغ في ذمه، وليس كما قال، فقد أثني عليه طاهر بن حبيب في ذيل تاريخ والده ووصفه بالبراعة في الفنون العلمية، وقد قرأت بخطه لغزاً في العلم في غاية الجودة خطا ونظماً. .» نفسه ج ٢ ص ٩٠.

وقوله في ترجمة «ابن ملاعب الفلكي» (ت ٨٢٤ هـ. /١٤٢١ م.): «. . . وسمعت القاضي ناصر الدين البارزي يبالغ في إطرائه، ووصفه غيره بقلة الدين وترك الصلاة وانحلال العقيدة». نفسه ج ٣ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

وقوله في ترجمة «شهاب الدين المبتولي المالكي» (ت ٨٣٠ هـ. /١٤٢٧ م.): «. . . قال القاضي علاء الدين. . . وساق له عن أبي حيان قصيدة. . . وهي في نحو العشرين بيتاً لا تشبه نظم أبي حيان، ولا نفسه ولا يتصور لمن ولد سنة سبع وأربعين أن يسمع من أبي حيان الذي مات قبل ذلك بمدة، ولقد عجبت من خفاء ذلك على القاضي علاء الدين. .» ـ نفسه ج ٣ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

فيما أورده في صدر كتابه[1] أو في الترجمة لمصدره[2] إذا ما صادفت وفاته الفترة الزمانية لحوليات كتابه، أو في عبارات ناعتة للمصدر تأتي غالباً لصيقة المنقول عنه[3].

خامساً - الدقة في النقل

على الرغم من تحري «ابن حجر» الدقة في النقل عن مصادره، وشيوع مظاهر ذلك في جوانب كتابه، فإنه قد جانبه الصواب في مواضع كثيرة منه، حيث أغفل التأريخ التام لبعض الحوادث الواردة تامة التأريخ لدى مصادره[4]

(١) كنحو قوله في صدر كتابه: «. . . وطالعت عليه تاريخ القاضي بدر الدين محمود العيني، وذكر أن الحافظ عماد الدين ابن كثير عمدته في تاريخه وهو كما قال، لكن منذ قطع ابن كثير صارت عمدته على تاريخ ابن دقماق حتى يكاد يكتب الورقة الكاملة المتوالية، وربما قلده فيما يهم فيه حتى في اللحن الظاهر مثل: أخلع على فلان، وأعجب منه أن ابن دقماق يذكر في بعض الحادثات ما يدل على أنه شاهدها فيكتب البدر كلامه بعينه بما تضمنه، وتكن تلك الحادثة وقعت بمصر وهو بعيد في عينتاب. . » - إنباء الغمر ج ١ ص ٤ - ٥.

(٢) كنحو قوله في ترجمة «ابن الفرات الحنفي» (ت ٨٠٧ هـ. /١٤٠٥ م.): «. . . وكان لهجا بالتاريخ، فكتب تاريخاً كبيراً جداً بيض بعضه. . . وتاريخه في هذا كثير الفوائد إلا أنه بعبارة عامية جداً» - نفسه ج ٢ ص ٣١٣.

(٣) وهي غالباً ما تكشف عن شخصية صاحب المصنف المنقول عنه، كنحو قوله: «قرأت بخط قاضي البلاد الحلبية علاء الدين. . .»، «أرخه الحافظ»، أو «حافظ العصر. . .»، أو «أرخه مؤرخ الشام. . .» الخ.

(٤) كنحو قوله: «. . . وفي آخر ربيع الآخر عزل ناصر الدين ابن البرجي عن الحسبة، وأعيد نجم الدين الطنبدي» - نفسه ج ١ ص ٤٣٤ - على حين ورد الخبر لدى مصدره تام التأريخ - هكذا: «. . . وفي آخر يوم الأربعاء خامس عشري شهر ربيع الآخر - المذكور - أشيع أن السلطان الظاهر أخلع على القاضي نجم الدين الطنبدي وأعاده إلى حسبة القاهرة والوجه البحري عوضاً عن القاضي بهاء الدين ابن البرجي بعد عزله» - تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ٣٠١ - وقوله: «. . . وفي شوال أمطرت السماء مطراً غزيراً حتى خاض الناس في المياه، وذلك في أول يوم من توت، والشمس في برج السنبلة» - إنباء الغمر ج ١ ص ٤٥٢ - ويقابل ذلك لدي مصدره قوله: «. . . وفي عشية الجمعة الموافق ليوم النوروز - أول توت من الأشهر القبطية - ليلة السبت حادي عشري شوال المذكور أمطرت السماء بالقاهرة مطراً كثيراً كأفواه القرب حتى خاض الناس في الماء =

وأخطأ التأريخ لبعض الحوادث في مواضع أخرى، وقد وردت على وجه الصواب في مواضعها من مصادره[1] بالإضافة إلى نقله ـ سهواً ـ حوادث من حولية إلى أخرى غير التي وقعت فيها[2] ناهيك عن التفاوت العددي بين المثبت لديه وبين مصدره ـ بالنسبة للأفراد والمنقولات المكونة لعناصر الخبر، أو العزوف كلية عن تحديده[3].

= والوحل» ـ تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ٣٤٤ ـ كما أشار مصدره ـ نفسه ج ٩ ص ٣٨٥ ـ إلى أن «المناوى» قد عزل عن الحكم في «رابع عشر ربيع الآخر (سنة ٧٩٦ هـ.)»، على حين كان تأريخ ابن حجر لذلك «في ربيع الآخر» ـ إنباء الغمر ج ١ ص ٤٦٩

(١) من ذلك: تأريخه لواقعة وادي شقحب ـ بين العسكر المصري والظاهر برقوق بحادي عشر المحرم (سنة ٧٩٢ هـ.) نفسه ج ١ ص ٣٩١ ـ على حين وردت لدى مصدره ـ نقلاً عن ابن دقماق ـ في «يوم الأحد رابع عشر المحرم» ـ تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ١٨٦. بالإضافة إلى جعله دخول الظاهر برقوق إلى غزة في آخر المحرم ـ إنباء الغمر ج ١ ص ٣٩٢ ـ على حين أن الوارد لدى مصدره ـ تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ١٨٨ ـ في مستهل صفر، كما أن «ابن حجر» قد أشار إلى وباء البقر على أنه وقع في «شعبان» سنة ٧٩٤ هـ. إنباء الغمر ج ١ ص ٤٣٧ ـ بينما أرخه ابن الفرات ـ التاريخ ج ٩ ص ٣٠٨ ـ بشهر رمضان من السنة..

(٢) من ذلك: إشارته إلى أن استيلاء الفرنج على جزيرة جربة كان سنة ٧٩٠ هـ. (إنباء الغمر ج ١ ص ٣٥١) على حين أن هذا الخبر في الحولية التالية لها، وقوله بأن السلطان قد عرض أجناد الحلقة فتشفعوا لديه بالسراج البلقيني، وابن رفاعة سنة ٧٩٠ هـ. (نفسه ج ١ ص ٣٤٧) وهذا الخبر وارد لدى مصدره في الحولية السالفة، وتأريخه لضرب أمين الدين السمسطائي ـ أمين الحكم ـ بين يدي السلطان واهانته بسنة ٧٩٠ هـ. وقد كان ذلك سنة ٧٨٩. (نفسه ج ١ ص ٣٥٣)، وتأريخه لزيادة المحتسب في الأذان بسنة ٧٩١ هـ. (نفسه ج ١ ص ٣٧٨) وصوابه سنة ٧٩٠ هـ. ونقله خبراً عن مقاهرة القرشي لبرقوق واقتصاص الثاني منه من حولية ٧٩١ هـ. إلى الحولية التالية لها (نفسه ج ١ ص ٣٩٥)، وتأريخه لأمر صادر بمنع المعممين من ركوب الخيل إلا أن يكونوا من الوزراء أو كتاب السر أو نظار الخاص ـ بسنة ٧٩٢ هـ. (نفسه ج ١ ص ٤٠٢) وقد صدر هذا المرسوم سنة ٧٩٣ هـ.، وتأريخه لعزل الباعوني بابن أبي البقاء بسنة ٧٩٧ هـ. (نفسه ج ١ ص ٤٨٦) وصوابه سنة ٧٩٦ هـ.. والجميع نقلاً عن ابن الفرات مع الخطأ في تأريخ ابن حجر له..

(٣) من ذلك ما ورد في حولية أربع وتسعين وسبعمائة من قوله: «... وفيه (في صفر) هجم على بطا النائب بدمشق خمسة أنفس... فقتلوه وأخرجوا من في الحبس...» ـ إنباء الغمر ج ١ ص ٤٣٢ ـ =

كما أنه كرر كثيراً من الأخبار المنقولة عن مصادره في ذات الحولية التي تنتظمها وبنفس العبارة، أو بعبارات متقاربة المعنى[1] تكشف - لا ريب - عن

= ويقابل ذلك لدى مصدره - ابن الفرات. التاريخ ج ٩ ص ٢٩٧ - «... وفي أواخر صفر - المذكور - حضر بريدي من دمشق وأخبر بأن جماعة من المماليك نحو الخمسة عشر نفراً حضروا مشاة إلى باب قلعة دمشق، فلما وصلوا إلى الباب كانت سيوفهم مخبأة فأظهروها وهجموا باب القلعة ...»، كما يشير ابن الفرات في ذيل الخبر إلى أن الذين أفلتوا من العقاب من هؤلاء المتآمرين «خمسة أنفس ما عرف كيف هربوا»، على حين لم يهتم «ابن حجر» بذلك قائلاً: «... ومسكوا الثائرين، فلم يبقوا منهم إلا من هرب». كما يشير «ابن حجر» - إنباء الغمر ج ١ ص ٤٧٠ - إلى أن المبلغ الذي بذله «البدر بن أبي البقاء» من مودع الأيتام - للظاهر برقوق - في سعيه على المناوي «كان ستمائة ألف»، على حين أن الوارد لدى مصدره - تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ٣٧٧ - هو: «... وفي يوم الأحد العشرين من شهر ربيع الآخر - المذكور - أرسل الوزير ناصر الدين محمد بن كلفت من يقبض من المودع الحكمي ما اتفق عليه الحال بينه وبين قاضي القضاة بدر الدين بن أبي البقاء الشافعي من قرض أموال الأيتام، فأشيع أنهم قبضوا من المودع خمسمائة ألف درهم وستين ألف درهم»، ومن مظاهر إهماله التحديد العددي ما ورد في حولية خمس وتسعين وسبعمائة بخصوص قتل نائب الكرك (إنباء الغمر ج ١ ص ٤٥٥) من قوله: «... وفي ذي الحجة شكا بعض التجار لنائب الكرك يوسف القشتمري أن جماعة من العشير أخذوا له مالا من الغنم وغيرها، فركب وتحدث معهم وسألهم أن يعيدوا ما أخذوه فأخذوا البعض، فطلب البقية، فذكروا أنهم لم يأخذوا إلا ذلك، فجمع مشايخهم ليحلفهم، فاجتمعوا، فقبض عليهم فغضب الباقون فوقعوا فيه فقتلوه، وكان في ناس قلائل». ويقابل ذلك لدى مصدره (تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ٣٤٩) قوله: «وفيه جاء ناس تجار إلى الأمير شرف الدين يوسف القشتمري - نائب السلطنة بالكرك - وذكروا أن قوماً من العشير أخذوا لهم ثلاثة آلاف رأس غنم، فركب ونزل اليهم وطلبهم وتحدث معهم فأحضروا له ألف وسبعمائة رأس غنم، فقال لهم: بقي ألف وثلاثمائة رأس فحلفوا أنهم ما أخذوا إلا هذا القدر، فقال يحضروا مشايخكم يحلفوا، فلما حضروا من مشايخهم عشرة أنفس قبض عليهم ورماهم في زنجير، وكان قد ركب في عشرة أنفس لا غير، ولم يعلم أحد من العسكر بركوبه فلما أرمي مشايخ العشير في الزنجير غضب أهل البلد ورماه أحدهم بسهم نشاب فجرحه، ثم رماه آخر فقتله.

وبمقابلة النصين ببعضهما تتضح أمور هي:

(١) إغفال «ابن حجر» إثبات العدد في الخبر بأكمله واستبداله بعبارات مسقطة له كنحو قوله: «مالاً من الغنم وغيره» عوضاً عن قول مصدره «ثلاثة آلاف رأس غنم»، وقوله: «فأخذوا البعض» عوضاً عن قول مصدره «ألف وثلاثمائة رأس»، وقوله: «فجمع مشايخهم» عوضاً عن قول =

مسلكه في اقتضاب الخبر ونقله، حيث أتت الحوادث فيها مهملة التأريخ مرة، ومثبتة التأريخ أخرى، مما يشير إلى أن التأريخ التام للحدث سلباً وإيجاباً لم يكن من الأشياء المعتنى بها لديه، على العكس ـ تماماً ـ مما فعله بالنسبة لترجمات الوفيات الواردة في حولياته.

= مصدره: «حضر من مشايخهم عشرة أنفس»، وقوله: «وكان في ناس قلائل» عوضاً عن قول مصدره «وكان قد ركب في عشرة أنفس».

تحريفه لبعض الألفاظ وهي «يونس» ويقابلها لديه «يوسف»، «لهم»، ويقابلها قوله «له».

مما يشير إلى أنه لم يكن دقيقاً في النقل عن مصدره في هذا الموضع.

من ذلك (إنباء الغمر ج ١ ص ٤٥٤) قوله: «. . . وفيها كانت وقعة بين عرب الكرك ونائبها فقتل النائب يونس»، ثم تكرير قوله آنف الذكر. وقوله في حولية ٧٩٩ هـ. (إنباء الغمر ج ١ ص ٥٢٧): «. . . وفي ثامن شعبان ـ الموافق لحادي عشر بشنس ـ أمطرت السماء برعد وبرق حتى صارت القاهرة خوضاً، فكان ذلك من العجائب، ودام ذلك في ليالٍ متعددة، وقد وقع مثل ذلك بل أعظم منه في مثل زمانه سنة سبع عشرة وثمانمائة في سلطنة الملك المؤيد»، ثم كرره في الحولية عينها (ج ١ ص ٥٢٩) قائلاً: «. . . وفي هذه السنة أمطرت السماء في حادي عشر بشنس من الأشهر القبطية مطراً غزيراً برعد وبرق ودام ذلك في ليال متعددة».

الفصل الخامس

النقد التأريخي في «الإنباء»

- ١ -

اعتنى «ابن حجر العسقلاني» عناية فائقة بالنقد التأريخي، ومارسه في سائر كتاباته التاريخية، سواء كان ذلك في «إنباء الغمر بأنباء العمر» أم في غيره من المؤلفات التاريخية الأخرى - المعروفة لنا - ملحاً عليه بشتى الطرق التي في مكنته التعبير بها، على اعتبار أنه جزء رئيس وهام من منهجه في الكتابة التاريخية، منطلقاً من مفهومه للتأريخ، وهو مفهوم ذو صلة بالحديث النبوي الذي صار حافظ عصره فيه بلا مدافع وما يتبعه من جرح وتعديل ظل متبعاً غير منقطع إلى ما بعد وقته. ومن كونه ذواقة للأدب ناقداً له مشاركاً فيه وفي غيره من علوم عصره على كثرتها.

بل كثيراً ما كان هذا المسلك الناقد في الكتابة التاريخية سبباً في تعرضه لكثير من العداوات والمشاحنات(١).

ولعله يكون مناسباً - والحال كذلك - أن نتعرف على منهجه في النقد التأريخي قبل الخوض في إيراد الجانب التطبيقي له في «إنباء الغمر».

(١) راجع بشأن ذلك: السخاوي. - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٤٦٢ - ٤٧٠، والجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر - مخط. أحمد الثالث ق٢١٦٨ - ١٨٣ أ، والضوء اللامع ج ٧ ص ٢٢٠.

فلقد وصلتنا فتيا «لابن حجر» رداً على سؤال سائل تعلق بهذا النوع من الكتابة التاريخية الناقدة ـ حفظت ضمن مجموع احتوى على ردود مماثلة لأربعة من أعلام الفتيا في عصره[1] ـ رداً على سؤال السائل عينه، وفيما نقله عنها «الشمس السخاوي» في «الجواهر والدرر» نصاً[2]، وفي «الإعلان بالتوبيخ» ضمناً[3].

أما سؤال السائل ففحواه:

«ما يقال في مؤرخ يذكر تراجم الناس على ما يعلم منها من خير وشر قاصداً بذكر الشر التنفير ممن يكون ذلك صفته مما عساه ينقل عنه في ذلك من أمر ديني، وبما زل فيه تبعاً لهواه، ولا سيما إذا كان هذا المؤرخ ناقلاً عن أحد ممن تقدمه، وذلك مع استحضاره وخوفه مما ورد في اتباع الهوى وعدم ميله إليه، فاعترض عليه معترض فقال له: هذا غيبة لا تحل؟

وأما فتواه فهي:

«الحمدلله. اللهم أهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك.

الذي يتصدى لكتابة التاريخ قسمان: قسم يقصد ضبط الوقائع، فهو غير مقيد بصنف منه، ولكن يلزمه التحري في النقل فلا يجزم إلا بما يتحققه، ولا يكتفي بالنقل الشائع، ولا سيما إن ترتب على ذلك مفسدة من الطعن في حق أحد من أهل العلم والصلاح، وإن كان في الواقعة أمر فادح في حق المستور، فينبغي أن لا يبالغ في إفشائه، ويكتفي بالإشارة لئلا يكون المذكور وقعت منه فلتة، فإذا ضبطت عليه لزمه عارها أبداً، فيحتاج المؤرخ أن يكون عارفاً بمقادير

(١) يوجد هذا المجموع في الكتبخانة الآصفية بحيدر آباد بالهند تحت رقم: ٤٤ مجاميع وقد نشره الأستاذ / فؤاد سيد في مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة (ج ٢ ص ١٦٢ ـ ١٧٧) تحت عنوان: «شروط المؤرخ في كتابة التاريخ، خمس فتاوي لم تنشر لخمسة من أعلام القرن التاسع الهجري».

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٨٢.

(٣) نفسه. الإعلان بالتوبيخ ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦.

الناس وبأحوالهم وبمنازلهم، فلا يرفع الوضيع ولا يضع الرفيع.

والقسم الثاني: من يقتصر على تراجم الناس، فمنهم من يعمم، ومنهم من يتقيد، وعلى كل منهما أن يسلك المسلك المذكور في حق من يترجمهم، فالمشهور بالخير والدين والعلم لا تتبع مساويه، فإنه غير معصوم، والمستور قد تقدم حكمه، والمجاهر بالفسق والفجور، إذا خشي من ستر حاله ترتب مفسدة كالإغترار بجاهه أو ماله أو بنسبه فيضم إلى من ليس على طريقته. فهذا يجوز له بهذا القصد أن يبين حاله بالنسبة لرفيقه أو أخيه أو قريبه، كأخوين ـ مثلاً ـ اشتهرا بالعلم، وأحدهما كان مشهوراً بالفقه والديانة والآخر بعكسه. وربما وجب عليه بيان هذا المجاهر إذا كان هناك من يغتر به.

وقد بسط شيخ الإسلام «النواوي» القول في ذلك آخر كتاب «الإذكار» وبين حال من يباح ذكره بما فيه، وأحال عليه في زياداته في «الروضة» فمن أراد الوقوف عليه فقد أرشدته إليه. ومن جملته: بيان حال المحدث.

ثم الذي يتقيد بصنف من الناس: تارة يكون محدثاً، وتارة يكون غير محدث، فالمحدث أصل وضع فنه بيان الجرح والتعديل، فمن عابه بذكره لعيب المجاهر بالفسق أو المتصف بشيء مما ذكر أو ملبس أو مشارك للماجهر في صفته فيخشى أن يسرى إليه الوصف.

ثم هذا المحدث يكون تارة بلغ درجة الاجتهاد في الجرح والتعديل، وتارة يكون ناقلاً عن غيره.

فالأول: هو الذي تقدم تفصيل حاله. والثاني: يلزمه تحري الصدق في النقل، ولا يعتمد على مجرد التشنيع في كل أحد. فإن للناس أغراضاً متفاوتة، بل ينظر في الناقل فإن كان ثقة ليس بمتهم في المنقول عنه فليعتمده، وإن سماه فهو لساحته، وإن شكر فيه فليتقصر على الإشارة ولا يجزم بما يتردد فيه، بل يأتي فيه بصيغة التمريض، وإن كان الناقل له ممن ينسب إلى المجازفة أو كان بينه وبين المنقول عنه حظ نفس فليجتنب النقل عنه، فإن اضطر إلى ذلك فليكشف أمره ويتبرأ من عهدته.

وأما كلام أئمة النقل في الجرح والتعديل فأشهر من أن نذكر له أمثلة.

وقد خاض في ذلك من لم يشك في ورعه كالإمام أحمد والبخاري، وهو القائل: «ما اغتبت أحداً منذ علمت أن الغيبة حرام»، ومن المتأخرين الحافظ تقي الدين صاحب الكمال في معرفة الرجال، الذي هذبه المزي، ولقد كان من الورع بمكان مشهور.

وأما اعتراض من اعترض في ذلك زاعماً أن ذلك غيبة، فإن كان جاهلاً فليعلم، فإن أصر فليؤدب بما يليق، ليرتدع عن الخوض فيما ليس له به علم. وإن كان منسوباً للعلم فاللوم عليه أشد، لأنه يصير معانداً، فليقابل بما يليق به من الزجر حتى يرجع عن الطعن في البريء، والذب عن المفتري، ويثاب ولي الأمر أيده الله - تعالى - على ذلك. وبالله التوفيق».

من هذه الفتوى - على طولها - يمكن أن نتبين منهجه في إيراد نقده ونحصره في:

١ - أن مهمته كمحدث تستوجب منه قبل كل شيء إثبات فنه وهو «الجرح والتعديل» بحيث لا يرفع الوضيع ولا يضع الرفيع، وإنما لكل منزل ينزله إياه.

٢ - أنه لا يتأتي له ذلك إلا بالمعرفة بمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم، مع التحري في النقل حيث لا جزم إلا بتحقيق، ولا مسلمات في كتابات الغير، ولكن هناك إعمال للفكر - فإن للناس أغراضاً متفاوتة.

٣ - أنه لا يشيع النقل عن مصدر إلا إذا كان صاحبه ثقة، فإن كان غير ذلك فإن فيه طرقاً:

أ - أن يذكر الخبر قرين مصدره جاعلاً العهدة فيه على المصدر، كنحو قوله في ترجمة «أبي يزيد الردماوي الزبيدي» (ت ٨١٣ هـ): «... نقلت ترجمته من خط الشيخ تقي الدين المقريزي والعهدة فيه عليه»[1]، وما ورد في حوادث

(١) ابن حجر. إنباء الغمر بأنباء العمر ج ٢ ص ٤٧٣ (من ط. القاهرة).

حولية سبع وثلاثين وثمانمائة من ولادة مطلقة لولد صورته صورة الضفدع في قدر الطفل، وقد أورد الخبر ـ وكأنه تشكك فيه ـ بين تعبيرين إصطلاحيين يفيدان ذلك، هما: «ورأيت في كتاب بعض من يذكر الحوادث... قرأت ذلك بخط الشيخ تقي الدين المقريزي»[1]،وقوله بخصوص انقلاب وجه عابث بإمام جماعة ـ وهو يصلي ـ إلى خنزير، ضمن حوادث حولية اثنتين وسبعمائة: «... قرأت بخط ابن دقماق... وأنه ممن شاهد ذلك»[2].

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه مع توثيقه هذين المصدرين في مقدمة «الإنباء» مشيراً إلى أن غالب ما ينقله عنهما[3] ـ قد عامل الأخبار فيهما على أنها جزئيات مستقلة تخضع لتصديق العقل أو تكذيبه، فلما تشكك فيهما أو لم يتحقق أهليتهما بالتصديق مقارناً بغيرهما من النصوص التي كان يتوخى أن تكون تحت يده ذكرها قرين مصدرها عاهداً فيها على المصدر أو واضعاً لها بين العبارات الإصطلاحية المفيدة لذلك.

ب ـ الإتيان بصيغ التمريض في حالة ما يشكر المصدر مترجماً له لا يطمئن «ابن حجر» إلى مزيته[4].

ج ـ إن كان المصدر المنقول عنه منحازاً أو مجازفاً لا ينقل عنه، فإن اضطر إلى النقل عنه كشف أمر مصدره حتى يلقي عليه العهدة، ومن أمثلة ذلك ما فعله مع «البدر العيني» في مواضع متعددة من «الإنباء» منها ما ورد في ترجمة «يشبك بن أزدمر» ـ ضمن وفيات حولية سبع عشرة وثمانمائة ـ من قوله: «... كان مشهوراً بالشجاعة والفروسية، وقال العينتابي: كان ظالماً لم يشتهر عنه خير، كذا قال، وقد باشر نظر الشيخونية ورأيت أهلها يبتهلون بالدعاء له والشكر

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ص٥١٢، ويقابله في مصدره: المقريزي. السلوك ج ٤ ص ٩٢١.

(٢) نفسه ج ١ ص ٢١٠.

(٣) نفسه ج ١ ص ٤.

(٤) حيث ترد عناصر الترجمات والحوادث في مواضع متفرقة دون نسبة إلى مصدر، مكتفياً فيها بقوله: «قيل»، «قال البعض»، «ويقال»..

منه»[1] وقوله في ترجمة «دمرداش المحمدي الظاهري» (ت سنة ٨١٨ هـ.): «. . . وكان دمرداش مهيباً عاقلاً مشاركاً في عدة مسائل، كثير الإكرام لأهل العلم والعناية بهم، اجتمعت به فوجدته يستحضر كثيراً من كلام الغزالي وغيره، قال القاضي علاء الدين الحلبي في تاريخه: كان لا يواجه أحداً بما يكره، وقد بني جامعاً بحلب أوقف عليه أوقافاً كثيرة، وله زاوية بظاهر طرابلس لها أوقاف كثيرة، وهذا بخلاف قول العيني: ليس له معروف»[2].

والمتبادر إلى الذهن في هذين الموضعين أن مصدره قد جازف بإصدار حكم جائر على الشخصية المترجم لها في كلٍ، وأن «ابن حجر» قد كشف عن هذا في مصدره سواء بالمصدر المكتوب الذي أتى فيه الرأي نقيض ذلك، أم بالمشاهدة الشخصية ورؤية العينان.

٤ ـ أنه قد عامل التراجم تبعاً لحال أصحابها، فكان جرحه وتعديله لها على الوجه التالي:

أ ـ المشهورون بالصلاح لا تتبع سقطاتهم.

ب ـ المستورون لا يبالغ في كشفهم، ولكن يكتفي بالإشارة فيهم.

جـ ـ المجاهرون بالفسق والفجور إما أن يظهرهم بضمهم إلى غيرهم ممن ليسوا على شاكلتهم، على سبيل المقارنة بالضد ليتضح أمرهم جرياً على منطق البلاغيين بالطباق، إذ بالضد تتضح الأشياء، وإما أن يعري فعلهم ويظهره سافراً، والحكمة في ذلك: «الحرص على عدم الإغترار بهم.

٥ ـ أنه قد طبق «الجرح والتعديل» على رجال ترجماته وعلى مصادره كذلك، سواء بجرح وتعديل أصحابها ـ مما يجعل البحث في ترجمته لهم مهماً في هذا الموضع ـ أو على الحوادث والترجمات فرادي كجزئيات مستقلة.

٦ ـ أن اعتقاده في الإقدام على هذا العمل النقدي واجب مجزوم بثوابه وليس لأحد أن يعترضه، بل الواجب المقابل لهذا الواجب المحتم حدوثه أن

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٥١، ويقابله في مصدره: عقد الجمان ج ١٩ ق ٣٥ أ.

(٢) نفسه ج ٣ ص ٨١، ق ١٤٢ أ ـ على التوالي.

يرشد المعترض ويعلم، وإلا وجب تأديبه بما يناسبه.

- ٢ -

هذا هو المنهج، وإليك الجانب التطبيقي له في كتابه «الإنباء»:

المطلع على مادة «الإنباء» يرى أن «ابن حجر» لم يخل تراجمه - في الغالب الأعم - من إصدار حكم على ذويها بياناً لحالاتهم جرحاً وتعديلاً بإيراد آرء الثقات فيهم، وكذا ما يراه هو من أحوالهم وما يدركه فيهم بما رزق من قدرات علمية ونفسية جعلت له مقاييس خاصة يقاسون عليها لديه..

والملاحظ بادىء ذي بدء - أن مقاييس جرحه وتعديله لرجال ترجماته قد اختلفت تبعاً للاختلاف في تخصصاتهم وطبقاتهم، وأنها مع ذلك تتلاقى في هدف واحد وهو الكشف عن بعض الصفات الأصيلة في كل، وهي صفات ترد في أشخاص وضدها في آخرين.. قد يجتمع الكثير منها في شخص واحد، وقد لا ترد إلا صفة منها فيه، وقد تجتمع فيه جملة من الفضائل، وأخرى من الرذائل، كأن يكون مع وصفه بالعلم ذميم الخلقة رث الهيئة.. وما إلى ذلك.[١] أو أن يوصف بحسن الإسلام مع اتصافه بالإنهماك في الملذات[٢]. وهذه وتلك صفات تكشف عن حال المترجم له من إحدى الجهات الآتية:

أ - الهيئة:

كأن يكون ذميم الشكل جداً[٣] أو حسن الصورة[٤] جميلها[٥] مليح الوجه[٦] لطيف الشكل[٧] حسنه[٨] بهي المنظر[٩]، أو أن يكون ضخماً حسن

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ١٢١ - ١٢٢. تر ٤٧.
(٢) نفسه ج ٣ ص ١١١ تر ٢٢.
(٣) نفسه ج ٣ ص ١٢٢ تر ٤٧.
(٤) نفسه ج ٣ ص ٨٢ تر ١٢.
(٥) نفسه ج ٩ ص ١٤٦ (ط. الهند).
(٦) نفسه ج ٣ ص ٢١١ تر ٢٩.
(٧) نفسه ج ٢ ص ٣١٢ تر ٢٠.
(٨) نفسه ج ٢ ص ٥٢٣ تر ٢٦.
(٩) نفسه ج ٢ ص ٣١١ تر ١٩.

الملتقي كثير البشر [1] بشوش الوجه [2] قصير الشوارب أو طويلها [3] أو رث الهيئة خاملاً [4] . . مما يتصل بصفات الخلقة الوراثية وما يتبعها من **علامات مميزة** لشخصه ملازمة له، كنحو قوله: «ويتعمم - دائماً - على أذنيه». [5] وما يصاحب ذلك من تأنق في مظهره أو إهمال له.

ب - الأخلاق والسجايا:

كأن يكون موصوفاً بالشهامة والشجاعة [6] أو المروءة والصيانة [7] أو وفور العقل والسكون وحسن الخلق [8] والخير والإنجماع عن الناس وعدم التدخل فيما لا يعنيه [9] أو أن يكون جداً كله لا يعرف الهزل [10] أو كثير المزاح [11] أو أن يكون ملازماً للخلاعة [12] والتهتك [13] أو ممن يعتريهم الغرور وما يتبعه من دعوى عريضة في العلم وغيره [14] أو لا ينسب نفسه إلى العلم [15].

أو أن يكون متلافاً للمال، مسرفاً فيه إلى حد الإنكشاف والإملاق [16] أو

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٥٢ تر ٢١.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ج ٣ ص ١١٦ تر ٣٢.

(٤) نفسه ج ٣ ص ٣١ تر ٢٨.

(٥) نفسه ج ٢ ص ٢٩٢ تر ٢٢.

(٦) نفسه ج ٣ ص ١٤٩ تر ١٢.

(٧) نفسه ج ٣ ص ٥٥٩ تر ٢٠.

(٨) نفسه ج ٣ ص ٢٩٢ تر ٢٣.

(٩) نفسه ج ٢ ص ٣١٤ تر ٣٢.

(١٠) نفسه ج ٣ ص ١٤٩ تر ١٢.

(١١) نفسه ج ٣ ص ٥٣٤ تر ١٧.

(١٢) نفسه ج ٣ ص ١٨٢ تر ١٦.

(١٣) نفسه ج ٣ ص ٢٣٢ تر ١٣.

(١٤) نفسه ج ٣ ص ١١٨ تر ١٣.

(١٥) نفسه ج ٢ ص ٣١٤ تر ٣٢.

(١٦) نفسه ج ٣ ص ١٠٤ تر ٤.

جواداً به[1] أو على العكس من ذلك جماعاً لـه ضنيناً بـه، حريصـاً على الشـح حتى بـالعاريـة[2] أو أن يكون قليـل الشر[3] كثير الـرجوع إلى الحق، محبـاً في العدل[4] أو على الضد من ذلك[5]. .

ج ـ الدين :

كأن يكون جيد الإسلام[6] سليم الباطن[7] عنده عبـادة وخير[8] ولـه ورود وقيام ليل[9] في غاية الـورع والتحري[10] والـزهد[11] أو عـلى الضد من ذلك: مشهوراً بقلة الدين، متهتكاً متهماً في إسلامه مدمناً على الخمر واللواط[12] أو مشهـوراً بمعرفـة الأحكام مـع قلة الـدين وكثـرة التهتـك[13] أو من الـظلمـة الفاتكين في صورة الناسكين»[14].

د ـ المذهب :

كأن يكون داعية إلى مذهب الـزيديـة[15] أو ينتسب إلى التشيع[16] أو إلى

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦١ تر ١٤ .
(٢) نفسه ج ٣ ص ٢٩ تر ٢٤ .
(٣) نفسه ج ٣ ص ٧٧ تر ٤ .
(٤) نفسه ج ٣ ص ٢٥٧ تر ٦ .
(٥) نفسه ج ٣ ص ١٧٩ تر ١٧ .
(٦) نفسه ج ٣ ص ٧٦ تر ١ .
(٧) نفسه ج ٣ ص ١٢١ تر ٤٧ .
(٨) نفسه ج ٢ ص ٢٤٣ تر ١٣ .
(٩) نفسه ج ٣ ص ٧٨ تر ٥ .
(١٠) نفسه ج ٢ ص ٥٢٣ تر ١ .
(١١) نفسه ج ٣ ص ٢٤ تر ١٤ .
(١٢) نفسه ج ٣ ص ٤٣ تر ٦ .
(١٣) نفسه ج ٣ ص ٢٣٢ تر ١٣ .
(١٤) نفسه ج ٣ ص ١٨٩ تر ٢٢ .
(١٥) نفسه ج ٣ ص ٢٤ تر ١٢ .
(١٦) نفسه ج ٣ ص ١٤٧ تر ٣ .

مذهب أهل الوحدة[١] أو يميل إلى تصوف الفلاسفة[٢] . . مع التنبيه على صحة أو فساد المذهب لدى كلٍ، وتعصب صاحبه، أو إنصافه في البحث[٣].

هـ ـ القدرات العقلية والمواهب الفنية :

كأن يكون من حمقي المغفلين[٤] أو من الأذكياء[٥] ومنهم من يدرك ما يكبت له في الهواء، أو في كفه بالإصبع ليلاً[٦] كما أن منهم من يكون سريع الفهم جيد الحفظ[٧] أو منسوباً إلى الخرف والتغير[٨] أو تغير المزاج والإنحراف[٩] . . أو أن يكون صحيح الخط[١٠] حسنه[١١] دقيقه[١٢] أو رديء الخط للغاية[١٣] أو أن يكون جيد الضرب بالعود[١٤].

و ـ المكانة العلمية والمقدرة الأدبية :

كأن يكون نبيها في الفقه[١٥] أو العربية[١٦] أو عارفاً بالأصول[١٧]

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٥ تر ٣.
(٢) نفسه ج ٣ ص ١٧٨ تر ٢.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٣٠٨ تر ١٦.
(٤) نفسه ج ٣ ص ١٨٥ تر ٢٢.
(٥) نفسه ج ٢ ص ٢٣٩ تر ٢.
(٦) نفسه ج ٣ ص ٣٠ تر ٢٦.
(٧) نفسه ج ٣ ص ٢٥٩ تر ٩ (ط. الهند).
(٨) نفسه ج ٣ ص ٢٣ تر ١٠ ـ ويلاحظ أنه قد اعتني بنفي ذلك عنه.
(٩) نفسه ج ٣ ص ٧٧ تر ٢.
(١٠) نفسه.
(١١) نفسه ج ٢ ص ٢٤٠ تر ٤.
(١٢) نفسه ج ٣ ص ٤٥ تر ١٣.
(١٣) نفسه ج ٣ ص ٣١ تر ٢٨.
(١٤) نفسه ج ٣ ص ١٧٧ تر ١.
(١٥) نفسه ج ٣ ص ١٨ تر ٤.
(١٦) نفسه ج ٣ ص ٢٦ تر ١٩.
(١٧) نفسه ج ٢ ص ٥٣٠ تر ٢٠.

والأجزاء الحديثية وروايتها[1] مشاركاً في الأدب، له نظم فائق[2] أو وسط[3] أو سفساف[4] أو أن يكون متفوقاً في معرفة الوثائق[5].

* * *

على أن نقده لرجال ترجماته لم يقف به عند جرحهم وتعديلهم، وإنما جاوزه إلى إصدار العديد من التقاويم والأحكام على الكثيرين من الملوك والسلاطين والأمراء وأرباب المناصب في ظل الإدارة المملوكية، وكذا العلماء والأدباء والفنانين. . مراعياً في إصدار حكمه عليهم وتقويمه لهم مقاييس خاصة بطبقاتهم تتبعها صفات مبحوثة فيهم مثبتة عليهم سلباً أو إيجاباً.

فكان يراعي في الملوك والسلاطين: الشجاعة والحزم والخبرة بالأمور وعلو الهمة والرجوع إلى الحق والدين، وعدم الجور أو التكالب على جمع المال لما له من أضرار على المجتمع ككل، وكذا محبة العلم واحتضان أهله وتشجيعهم أو ما يقع على أيديهم من فتوحات للإسلام والمسلمين أو خذلان لكلٍ، وهي مقاييس هامة تؤخذ بالاعتبار.

من ذلك قوله في الظاهر برقوق (ت ٨٠١ هـ.): «. . . كان شهماً شجاعاً ذكياً خبيراً بالأمور، إلا أنه كان طماعاً جداً بحيث لا يقدم على جمع المال شيئاً، ولقد أفسد أحوال المملكة بأخذ البدل على الولايات في وظيفة القضاء والأمور الدينية»[6].

وهذا التقويم أو الحكم الوارد في ذيل مقوله فيه مترتب ـ لا شك ـ على صفة «الطمع» المثبتة في المترجم له، وعلى المدرك ـ لدى ناقده ـ مما يتبع ذلك من

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٩ تر ١٢.
(٢) نفسه ج ٣ ص ٢٠٧ تر ١١.
(٣) نفسه ج ٣ ص ١١١ تر ٢٤.
(٤) نفسه ج ٣ ص ١٧ تر ٢.
(٥) ننفسه ج ٣ ص ١٠٤ تر ٥.
(٦) نفسه ج ٢ ص ٦٨.

الوهن الوظيفي وهو سمة عصره التي سوف يرسخها في ذهن المطالع لتاريخه بطريق نقدي آخر سوف نتحدث عنه تواً.

وقوله في ترجمة الناصر فرج (ت ٨١٥ هـ.): «... ولقد كان الناصر هذا أعظم الناس خذلاناً لدين الإسلام وأشأمهم طلعة على المسلمين، والعجب أنه لما ولد أقبل يليغاً الناصري ومنطاش فبشرا به أباه فسماه بلغاث ـ يعني فتنة ـ فلما خلص أبوه من الكرك سماه فرجاً ـ فكان اسمه الأول هو الحقيقي»[1].

وحكمه فيه هنا ليس مرده إلى الأخذ بظاهر الأمور من استبدال لما صاحبه من التسميات، ولكنه مبني على أن اسمه الذي يحمله من قبيل الأضداد قياساً إلى ما سرده من الأعمال المصاحبة له في مصر والشام ضمن حوادث حولياته.

كما كان يراعي في نواب السلطنة ما يراعيه في الملوك والسلاطين، فكان يبحث فيهم هذه الصفات المصاحبة لحكمه عليهم وتقويمه لهم.. ومن ذلك قوله في «أرغون شاه الإبراهيمي المنجكي» (ت ٨٠١ هـ.): «... كان شاباً عاقلاً، عادلاً، شجاعاً، كريماً، ومن عدله أن غلمانه توجهوا لتحويل الملح الذي في إقطاع النيابة فاستكروا جمالاً، فنهبهم العرب، فغرم لأصحابها الثمن، وأن شخصاً ادعى عنده في جمل عند صلاة الجمعة فاستمهله إلى بعد الصلاة فمات الجمل فغرم لصاحبه[2].

فإثبات العدل والكرم له ـ قرين ما شهر من فعله، والعقل قرين ما بدر من تصرفه في العمل الثاني.

أما الأمراء فإنه نظر إليهم من زاوية حسن السيرة أو ذمها، وما يتبع ذلك من مصاحبة الطيش وشدة الوطأة على الناس أو كفكفة الشر عنهم. كما أن له تقاويم وأحكام صاحبتهم قياساً بالحوادث المضمومة إليهم أو المتولدة بعد وفاتهم. وهي أحكام مستخلصة من مشاهداته وغيره ممن نقل عنهم لتصرفاتهم

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٥١١.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٥، ٦٥.

أو إنعكاس لتصرفاتهم على الناس ـ الرأي العام بمفهوم عصرنا ـ كنحو قوله: «. . .رأيت الحلبيين يثنون عليه»[1]، وقوله: «. . . سر أكثر الناس بموته لثقل وطأته عليهم»[2].

ويأتي في المقام الأول إثباته للعديد من التقاويم والأحكام الخاصة بما يضم إليهم من أعمال في حياتهم أو بعد مماتهم، ومنها قوله في ترجمة «العجل بن نعير» (ت ٨١٦ هـ.): «. . . وبقتله انكسرت شوكة آل مهنا»[3] وهذا الحكم بالقياس إلى ما تبع ذلك من أمرهم مما هو بين في حوادث حولياته.

كما أنه نظر إلى الوزراء من حيث وقع تصرفاتهم على العامة من حسن أو سوء وكذا معرفتهم بالمباشرة، ومحبتهم في العلم وأهله. ومن أمثلة ذلك قوله في ترجمة «ابن أبي شاكر القبطي» (ت ٨١٩ هـ.): «. . .كان يكثر فعل الخير والصدقة مع الإنهماك في اللذة، وحدث في وزارته الوباء فلم يشاحح أحداً في وراثة، وكثر الدعاء له، وكان عارفاً بالمباشرة ويحب أهل العلم، وكان شديد الوطأة على العامة إلا أنه باشر الوزارة برفق لم يعهد مثله، وكان موصوفاً بالدهاء وجودة الكتابة»[4].

وراعي في المباشرين والقضاة ونواب الحكم وغيرهم أموراً أهمها: التورع والعفة والنزاهة وحسن السيرة، كنحو قوله في «الباعوني» (ت ٨١٦ هـ.):«. . . ولاه الناصر قضاء دمشق. . . فباشر مباشرة حسنة بعفة ونزاهة ومداراة وحرمة»[5]، وقوله في «الشهاب الرمشاوي» (ت ٨١٦ هـ.): «. . . كان سيء السيرة، فتح أبواباً من الأحكام الباطلة فاستمرت بعده، وكان عنده دهاء»[6]

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٧٧.
(٢) نفسه ج ٩ ص ١٩٣ (ط. الهند).
(٣) نفسه ج ٣ ص ٢٧.
(٤) نفسه ج ٣ ص ١١١.
(٥) نفسه ج ٣ ص ٢١.
(٦) نفسه ج ٣ ص ٣٤.

والتكالب على المنصب أو الاعتدال في تقبله، كنحو قوله في «ابن خطيب نقرين» (ت ٨١٨ هـ.): «. . . ترامي على الدخول في المناصب إلى أن ولي قضاء حلب [١] وقوله في «البرهان ابن جماعة» (ت ٧٩٠ هـ): «. . . عزل نفسه مراراً، ثم يسأل ويعاد حتى هم السلطان في بعض المزات أن ينزل إليه بنفسه ليترضاه»[٢]. والمعرفة بموضوع المباشرة أو الجهل به: كنحو قوله في «الشمس الحراني» (ت ٨٢٠ هـ.): «. . . ولي القضاء بعد اللنك بغير أهلية»[٣] والحزم في الأحكام أو التساهل فيها: كنحو قوله في «أبي المنجا»: «. . . كان قصير العبادة، متساهلاً في أحكامه»[٤]، وقوله في «البرهان ابن جماعة»: «. . . لم يأت بعده له نظير ولا قريب من طريقته»[٥]. . وهي لا شك تقاويم وأحكام لها أهميتها باعتبار تلك الصفات المبحوثة فيهم وباعتبارها صادرة عن خبير بالتحري عنهم.

أما العلماء، فالملاحظ أنه راعي فيهم العديد من الصفات التي شاركهم في الكثير منها، ومنها: التولع بالعلم، والمعرفة بالاستحضار، والتمهر فيما يحملونه[٦] والتخصص في العلم أو الإختصاص به[٧] والقدرات العقلية والنفسية[٨]، والدعوة العريضة في العلم مع عكس فحواها[٩] والإنصاف في البحث من عدمه[١٠].

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٨٣.

(٢) نفسه ج ١ ص ٣٥٥.

(٣) نفسه ج ٣ ص ١٥٣.

(٤) نفسه ج ٢ ص ٢٠٦.

(٥) نفسه ج ١ ص ٣٥٥.

(٦) نفسه ج ٣ ص ٣١، ١١٣، ١٤٩.

(٧) نفسه ج ٣ ص ٢٥، ٤٢، ١١٦.

(٨) نفسه ج ٣ ص ١٨، ٣١، ١٠٥.

(٩) نفسه ج ٣ ص ١١٨، ٣١٤، ٣١٨.

(١٠) نفسه ج ١ ص ٣٥٥، ج ٣ ص ١٠٦، ١٥٢.

علـى حين راعي في الأدبـاء الإجـادة في الإنتـاج الفني[1] بـالإضـافـة إلى الأصـالة والابتكـار والبعد عن التقليـد، كما ورد في الحـوادث من نقـده لكتـاب «تمرلنك» إلى «الظاهر برقوق»، وللرسالة المرسلة إليه ـ رداً عـلى كتابـه ـ وهما من الإنشاء المقلد، حيث قال عن الأول: «. . . قلت: هذا الكتاب منتزع من كتاب هـولاكو إلى الخليفـة ببغداد، وإلى النـاصر بن العزيـز بدمشق، وهـو من إنشـاء النصير الطيبـرسي»، أما الثـانية فقـد ورد قولـه فيها: «. . . وكتب جـواب اللنك كاتب السر ابن فضل الله، وهو كلام ركيك ملفق غالبـه غير منتـظم، لكن راج على أهل الدولة وقرىء بحضرة السلطان والأمراء فكان لـه عندهم وقـع عظيم، وعظموه جداً وأعادوه»[2] وتقديره ـ كذلك ـ لعمل أدبي من إنشاء «ابن حجـة» أتى قرين الإخبار عن حريق دمشق سنة أربع وتسعين وسبعمـائة من قوله: «. . . وعمل في ذلك صاحبنا الأديب تقي الدين ابن حجة الحموي مقامة في نحو عشرة أوراق من رائق النـثر وفائق النـظم، وهي أعجوبـة في فنهـا»[3]، ومـا ورد في حوادث حولية ثلاث وثمانين وسبعمائة من منـاقضته لبيتي «البدر ابن الصاحب» في كائنة «ابن القماح» السارق بمقابلتها بالشعر الوارد لدى ابن خلكان[4].

ـ ٣ ـ

أمـا **الحوادث**، فقـد تـوزع نقـد «ابن حجـر» فيهـا بـين نقـد الـروايـات التاريخية، وبين إصدار الأحكام والتقاويم على الحوادث والرجال معاً، وبين نقـد الحـوادث في حد ذاتهـا ـ نقداً جـزئياً، وإن اتجـه في الـوقت عينـه إلى إبـراز أهم خصائص مجتمعه ونقدها نقداً كلياً عن طريق استخدام الشواهد الشعرية الواردة في التراجم والحوادث والموجهة لتحقيق هـذه الغايـة. . فكان من نقـده ما أثبت قرين مصدره، وكان منه ما تولد نتيجة لانفعاله بالحوادث وتعامله معها.

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.
(٢) نفسه ج ١ ص ٤٧٤.
(٣) نفسه ج ١ ص ٤٣٧.
(٤) نفسه ج ١ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

١ ـ نقد الروايات التاريخية:

لم يتقبل «ابن حجر» كل ما مدته به مصادره من الروايات التاريخية على أنها من قبيل المسلمات التي لا يمكن ردها أو مناقشتها، وإنما كان يستخدم عقله في مناقشتها، ويستخدم حسه التأريخي في ردها.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في حوادث حولية ثلاث وسبعين وسبعمائة بخصوص الحرب المغولية التركمانية من قوله: «. . . ويقال أنه كان في عسكره (عسكر تمرلنك) عابد يقال له بركة، فلما رأى اللنك تمسك به فصاح على عسكر طقتمش خان فانهزموا. ويحتمل أن يكون هذا من وضع بعض من يتعصب للنك، ويحتمل الصحة ليقضي الأمر المقدم: إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً»[١].

وقوله في حوادث حولية ست وتسعين وسبعمائة بخصوص تبليغ إحدى البشارات للسلطان «الظاهر برقوق»: «. . . وخرج إلى السلطان ـ وهو معسكر بظاهر القاهرة ـ شخص يقال (له) أحمد بن عباس الحريري فذكر أنه رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المنام، وأنه قال له: روح إلى برقوق وقل له إنك منصور بأمارة أنك تقرأ الفاتحة على أصابعك العشرة عشر مرات عند الركوب، ثم تقول: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم». فصدق البشارة وبكى وأمر للرائي بمال فلم يقبل منه إلا نزراً يسيراً. والذي يظهر لي كذب هذا الرائي، وكأنه بلغ الأمارة من بعض خواص السلطان المطلعين على سره، وإلا فلو كان صدقاً لكان قد انتصر، والواقع أنه لم يقع له قتال مع أحد»[٢].

ويلحق بذلك نقده لتأريخ بعض الأخبار وتعديله. ومن أمثلة ذلك قوله في حوادث حولية ثمانين وسبعمائة: «. . . وفي أولها مات أينبك في الحبس بالأسكندرية ووهم من أرخه في الماضية، وكان الوصول بخبر موته في يوم عاشوراء»[٣].

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٩.

(٢) نفسه ج ١ ص ٤٧٠.

(٣) نفسه ج ١ ص ١٧٠.

٢ ـ إصدار الأحكام والتقاويم:

كما أن «ابن حجر» لم يخل الخبر ـ غالباً ـ من حكم أو تقويم له أو عليه وعلى المشاركين فيه بحد سواء متبعاً في ذلك طرقاً منها:

أ ـ الجرح والتعديل لذوات القائمين بها، بمعنى نقده للرجال من خلال نقد الحوادث: ومن أمثلة ذلك قوله في حوادث حولية اثنتين وثمانين وسبعمائة بخصوص حكم «الهمام ابن قوام» ـ قاضي الحنفية بدمشق ـ على «الصدر ابن منصور» بالفسق وتقرير غيره في وظيفته: «. . . وكانت هذه الفعلة من عجائب تهور الهمام»(١)، وقوله في حوادث حولية إحدى وتسعين وسبعمائة بخصوص عصيان «تمربغاً منطاش» على معتقه: «. . . وقد تقدم أن برقوق اشتراه من أولاد أستاذه وأعتقه، فكأن ذلك عند منطاش لم يصادف محلاً لأنه لا يعرف أصل نفسه»(٢) ونقده في هذا الموضع لا يعد تقويماً يكشف عن انتقاصه للعاصي ونعته بعدم الوفاء لمعتقه، ومقابلته الإسحسان بالإساءة، وإنما يكشف إلى جانب ذلك عن انطباعاته عن طبقته، وغمزهم ـ كذلك.

ب ـ الحكم على بعض الحوادث بالتفرد في بابها، أو بنسبتها إلى الأولية: كنحو قوله في حوادث حولية اثنتين وثمانين وسبعمائة بخصوص مطر دمشق: «. . . وفي جمادى الآخرة اتفق شيء غريب وهو وقوع المطر الغزير برعد وبرق في خامس عشر أيلول، وسقط برد كبار مثل البندق، وكثر جداً حتى صارت الأرض بيضاء، وكثر الوحل وجرى الماء في الشوارع. كل ذلك في سنة واحدة، ولم يعهد مثل ذلك قبلها»(٣) وقوله في حوادث حولية خمس وتسعين وسبعمائة بخصوص استقرار «**العلاء السيرامي**» في تدريس الفقه بالشيخونية والظاهرية: «. . . ولم يتفق ذلك لغيره»(٤) وقوله في حوادث حولية ست وسبعين وسبعمائة: «. . . وفيها

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٦.
(٢) نفسه ج ١ ص ٢٧٣.
(٣) نفسه ج ١ ص ٢١٧.
(٤) نفسه ج ١ ص ٤٥٦.

ولي سري الدين «الأندلسي» قضاء حلب، وهو أول مالكي قضى بها»[1] وقوله في حوادث حولية عشر وثمانمائة بشأن تبذل السلطان وتوجهه بملابس جلوسه إلى عيادة بعضهم أو زيارة غيره: «وكان عهد الناس بعد بعداً شديداً من سلطان يفعل مثل هذا التبذل، ولم يعرف أن ذلك وقع لملك من ملوك مصر قبله، وقد تبعه على ذلك من جاء بعده»[2].

ج - **وصف بعض الحوادث بالشناعة والقبح أو بالحسن:** كنحو قوله في حوادث حولية سبع وسبعين وسبعمائة بشأن إبطال السلطان «الأشرف شعبان» لضمان المغاني: «. . . وكان ضمان المغاني من القبائح الشنيعة»[3] وقوله في حوادث حولية ست وثمانمائة بخصوص تكالب العلاء بن أبي البقاء على المنصب وبذله فيه للسلطان ووصول مرسوم السلطان إلى النائب بقبض المبلغ المبذول: «. . . وكانت هذه الكائنة من أقبح ما نقل»[4] وهنا يلاحظ أن القبح ليس في البذل في حد ذاته، وذلك لأن المبذول كان بنص «ابن حجر» عينه: «مائتي ألف درهم، وهي التي جرت عادة القضاة بدمشق ببذلها للسلطان»[5] لكن القبح في أن يكون تحصيل السلطان لها بمرسوم يصدر إلى نائب دمشق لينعم بها على «أينال حطب» الذي كاتب - بدوره - ناظر الجيش بأن يقبضها ويشتري بها أمتعة، ثم أن القبح المنسوب إليها راجع - كذلك - إلى التنافس على هذا المنصب المبذول فيه من كل من «العلاء ابن أبي البقاء» و«ابن خطيب بعرين»، ناهيك عن سعي كل من «الحصناوي» و«ابن العديم» في المنصب، والحط من الثاني عليه. . وقوله في حوادث حولية ثلاث وثمانمائة بخصوص مدافعة «المالطي» عن الأوقاف: «. . . . فكانت هذه من حسنات المالطي»[6].

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٧٧.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٨٦.
(٣) نفسه ج ١ ص ١٢٧.
(٤) نفسه ج ٢ ص ٢٦٥.
(٥) نفسه.
(٦) نفسه ج ٢ ص ١٣٤.

د ـ السخرية من التصرف في بعض الحوادث: كنحو قوله في حوادث حولية اثنتين وثمانمائة بشأن طروق المغول للشام: «. . . وفي آخر ذي القعدة وصل كتاب نائب الرحبة يخبر فيه أنه صادف ناساً عند خان لجين يقطعون الطريق فقبض منهم جماعة وسأل نجدة ليسلمهم إلى دمشق، فقام النائب في ذلك وقعد وانزعج الناس لذلك وظنوه أمراً عظيماً وصاروا في هرج ومرج وأشاعوا أن تمرلنك قصد البلاد. . . فكان ذلك فألاً جرى على الألسنة بذكر تمرلنك، فإن الأيام لم تمض إلا قليلاً حتى طرق البلاد[1]. وقوله في الحولية اللاحقة بشأن أخذ المغول لأموال الناس المحفوظة في قلعه حلب: «. . . وامتدت الأيدي لنهب أموال الناس التي حصلت بالقلعة لظن أصحابها أنها تسلم، فكأنهم جمعوا ذلك للعدو حتى لا يتعب في تحصيلها»[2]. وقوله في حوادث حولية تسع وثمانمائة بشأن التكالب على المنصب: «. . . ووقع في هذه السنة والتي بعدها والتي قبلها من تلاعب الجهلة بمنصب الحسبة ما يتعجب من سماعه حتى أنه في الشهر الواحد يليه ثلاثة أو أربعة»[3].

هـ ـ الكشف عن العامل الرئيس في توجيه الحوادث: ومن أمثلة ذلك قوله في حوادث حولية تسع وتسعين وسبعمائة بخصوص موت «قطلقتمر» سكران في الحبس: «. . . وكان هو رأس هذه الفتنة كلها لأنه أكبر الأسباب في القيام على الأشرف»[4]. وقوله في حوادث حولية اثنتين وثمانين وسبعمائة بخصوص استظهار برقوق على بركة: «. . . ثم استعان برقوق بالزعر فرموا أصحاب بركة بالحجارة، ولولا إعانة العامة لبرقوق برمي الحجارة على أصحاب بركة لأخذوا القلعة، لكنهم استظهروا على بركة ومن معه بالزعر ففعلوا فيهم الأفاعيل من الرجم»[5]. وقوله في حوادث حولية أربع وتسعين وسبعمائة بشأن

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) نفسه ج ٢ ص ١٣٥.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٣٦٠.

(٤) نفسه ج ١ ص ١٥٤.

(٥) نفسه ج ١ ص ٢١١.

تقدير السبب في فساد الأسعار ونقص الأموال: «. . . وفيها ضربت بالأسكندرية فلوس ناقصة الوزن عن العادة طمعاً في الربح فآل الأمر فيها إلى أن كانت أعظم الأسباب في فساد الأسعار ونقص الأموال»[١] وقوله في حوادث حولية ثمان وتسعين وسبعمائة بخصوص السبب في حركة المغول إلى الشام: «. . . وفي هذا الشهر «صفر» وصل أطلمش ـ قريب تمرلنك ـ فقبض عليه قرا يوسف التركماني ـ صاحب تبريز ـ وأرسله إلى الملك الظاهر فأعتقله، فكانت هذه الفعلة أعظم الأسباب في حركة تمرلنك إلى البلاد الشامية»[٢]. ويتأيد ذلك بما ورد في حوادث حولية ثلاث وثمانمائة من قوله: «. . . ثم نازل تمرلنك الشام وراسل السلطان أن يطلق له أطلمش قريبه على أن يطلق جميع من عنده من الأساري ويرحل من البلاد، فامتنعوا من ذلك وظنوا أن ذلك لعجزة عنهم فكرر الطلب مراراً فأصروا، ثم وقعت الحرب بينهم»[٣] وقوله: «. . . وذكر بعض من يوثق به أنه قرأ في الحائط القبلي بالجامع النوري بحماه منقوشاً على رخامة بالفارسية ما نصه: إن الله يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا إلى بغداد فجاورنا سلطان مصر والشام، فراسلناه لتتم بيننا المودة فقتلوا رسلنا وظفرت طائفة من التركمان بجماعة من أهلنا فسجنوهم لاستخلاص متغلبينا من أيدي مخالفينا واتفق في ذلك نزولنا بحماه في العشرين من شهر ربيع الآخر»[٤] وقوله في حوادث حولية ثلاث وثمانمائة بخصوص تدابير السالمي ضد المغول: «. . . ولقد عدته مهنئاً بسلامته فوجدته مصراً على تحسين أفعاله المستقبحة المقدم ذكرها ويوجه ذلك بأنه لولا أشيع عنه تحصيل الأموال وتجهيز العساكر بها ما رحل تمرلنك عن دمشق، وهذا من غلطاته الظاهرة، فإن رحيل تمرلنك إنما كان لضيق العيش على من معه فخشي أن يهلكوا جوعاً، وإلا فما الذي كان يمنعه من إتباعهم إلى مصر؟»[٥].

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٣٩.
(٢) نفسه ج ١ ص ٥٠٩.
(٣) نفسه ج ٢ ص ١٣٧.
(٤) نفسه ج ٢ ص ١٣٩ ـ ١٤٠.
(٥) نفسه ج ٢ ص ١٤٤.

وهكذا فإن «ابن حجر» قد عامل الحوادث بمثل ما عامل به التراجم من نقد تنوع تبعاً لتنوع الحوادث وطبيعة كل منها، كما أنه كان معنياً في المقام الأول بتعليل الحدث وإبراز العوامل الفاعلة فيه وتقويمها.

- ٤ -

ويضاف إلى ذلك أن الشواهد الشعرية الواردة في معرض الحوادث وفي ثنايا تراجم الوفيات من حولياته لم تأت اعتباطاً، ولم تملها عليه - فقط - ثقافته الأدبية الواسعة، وهواه الفطري المقتضيان أن يكون: ذواقة للأدب مشاركاً فيه راوية له. إذ يمكننا أن نضع أيدينا على اتجاه مغاير لذلك تماماً. وهو أن من وراء هذه الشواهد غاية مدفوعة بحس تأريخي ناقد، فابن حجر وقد خبر العلوم: تأريخاً وأدباً يؤكد بشتى الوسائل التعبيرية التي في مكنته على قضايا أبرزها في أحداث حولياته ولم يستطع التعبير فيها عن رأيه بأكثر مما قيل فيها، أو لأنه أراد أن يوهم مطالع تاريخه أن الذي قاله لم يكن رأياً خالصاً له ساقه من عنده، وإنما كان لسان الحال لدى مجتمعه أو على أقل تقدير لدى طبقة المثقفين في عصره عامداً إلى تجسيمها وإبرازها في صورة كلية محسوسة بكل جلاء ووضوح، ومن أمثلة ذلك: «الوهن الوظيفي على عهده»، و«معاناة المجتمع المصري في ظل حكامه» و«منازعات العلماء والوقيعة فيما بينهم» . . وسوف نكتف - هنا - بالتمثيل للقضية الأولى، حيث نجد أن دور الأدب في مؤلفه قد أتى لترسيخها في الأذهان بدافع الحدث التأريخي لديه، وهو حدث نافذ إلى أغوار المشكلة وجوهر القضية أصاب من خلالها مرماه في الحط على خصم له هو «الشمس ابن عطاء الهروي»، وقد ورد في مواضع عديدة من كتابه حطه عليه والإقلال من مكانته العلمية[1] فيشير إلى ذلك في مناسبة الترجمة لإحدى وفيات[2] حولية سبع وثمانمائة قائلاً:

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ص: ٥٧ - ٦٢، ١٢٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٣ - ١٦٦، ١٧٠ - ١٧١.

(٢) هو: «حرمي بن سليمان البباني ثم القاهري» - ناب في الحكم ودرس بالمدرسة الشريفية، وولي الإعادة بالمنصورية، نزل له عنها بعض العجم. والشعر فيه.

قالوا: تولى «الببائي» مع جهالته ... وكان أجهل منه النازل «العجمي»
فأنشد الجهل بيتاً لست أنكره ... ما سرت من حرم إلا إلى حرمي[1]
(البسيط)

وهي قضية تتأكد - كذلك - بالإشارة إلى هذا الذي تقدم عند السلطان إلى أن صار نافذ الكلمة عند كل أحد، وحصل له من الوظائف ما لا مزيد عليه، وهو مع ذلك في غاية الجهل، حتى قيل فيه:

معيد لو كتبت له حروفاً ... وقلت أعد عليّ تلك الحروف
لقصر في إعادته عليها ... فكيف يعيد في العلم الشريف؟[2]
(الوافر)

وبعد أن أفصح عن هذه القضية العامة، التي أصابت الوظائف بالوهن من جراء ما شاع في عصره من البرطيل والرشوة وعلى أعلى المستويات، يذكر من تضاعيفها دعوى تهمه، وهي الحط على «الهروي» الذي تولى منصب قضاء الشافعية - وهو منصب يمت «ابن حجر» إليه بصلة المذهب. وقد تقلد مهامه في فترات متعددة - كذلك - فنراه يسير في ذلك خطوات متتالية تفضي إلى هذه النتيجة إبتدأها بالإشارة إلى أنه قد وقع في مجلس السلطان رقعة كتب فيها:

يا أيها الملك المؤيد دعوة ... من مخلص في حبه لك ينصح
أنظر لحال الشافعية نظرة ... فالقاضيان كلاهما لا يصلح
هذا أقاربه عقارب وابنه ... وأخ وصهر فعلهم مستقبح
غطوا محاسنه بسوء صنيعهم ... ومتى دعاهم للهدى لا يفلح
وأخو هراة بسيرة اللنك اقتدى ... وله سهام في الجوارح تجرح
لا درسه يقري ولا أحكامه ... تدري ولا حين الخطابة يفصح
فافرج هموم المسلمين بثالث ... فعسى فساد منهمو يستصلح
(الكامل)

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٠٤.

(٢) نفسه ج ١ ص ١١٣ - والمقصود به «صالح بن أحمد بن عبدالله، علم الدين الأسنوي».

وذيل على ذلك بقوله: «. . . وكانت هذه الأبيات إبتداء سقوط الهروي من عين السلطان، وكانت أعجبت السلطان حتى صار يحفظ أكثرها ويكرر قوله: أقاربه عقارب» .[1]

ومعلوم أن «ابن حجر» مطعون عليه بنسبة هذه الأبيات إليه .[2]

ومن المطعون عليهم في البيت الثالث ما ورد «لابن حجر» فيهما شعراً في واقعة قال فيها:

مات جلال الدين قالوا: ابنه يخلفه أو فالأخ الراجح
فقلت: «تاج الدين» لا لائق لمنصب الحكم ولا «صالح»[3]

معلقاً على ذلك بقوله: «. . . فكان كما قلت: فإنه تولى وظهر منه التهور والإقدام على ما لا يليق، وتناول المال من أي جهة كانت حلالاً أم حراماً، ما لا كان يظن به، ولا ألف الناس نظيره من أحد ممن ولى قضاء الشافعية بالقاهرة في الدولة التركية»[4].

ثم نجده يتحين الفرصة ـ بعد ذلك ـ للحط على «الهروي» عندما يترجم لإحدى وفيات[5] حولية ثمان وعشرين وثمانمائة قائلاً:

«. . .من نظمه لما عزل البلقيني بالهروي واتفقت الزينة للمحمل فعلق

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٦٤.

(٢) رجح «البدر العيني» نسبة هذه الأبيات لابن حجر قائلاً: «. . . وبعضهم نسبها إلى الشيخ شهاب الدين ابن حجر، والظاهر أنه هو» ـ عقد الجمان ج ١٩ ق ١٦١ ب ـ كما ينسبها لابن حجر كل من: السخاوي في الجواهر والدرر ق ٢٣١ ب، والسيوطي في حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٧٢، وبغية الوعاة ج ٢ ص ٥ تر ١٢٩٩، ود. حسن حبشي في الحاشية رقم ١ ج ٣ ص ١٦٤ من الإنباء.

(٣) هما على التوالي: «محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن رسلان البلقيني» (ت: ٨٥٥ هـ)، و«علم الدين صالح بن البلقيني» (ت: ٨٦٨ هـ.)

(٤) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٢٨٠.

(٥) هو «شعبان بن محمد بن داود المصري».

شخص يسمى الترجمان على باب بيته حماراً بسرياقات على رؤوس الناس بأحسن هيئة للفرجة عليه، فقال:

أقام الترجمان لسان حال ... عن الدنيا يقول لنا جهارا
زمان فيه قد وضعوا جلالاً ... عن العليا وقد رفعوا حمارا(١)
(الوافر)

ثم نجدنا لا نعجب - بعد كل هذا - أن مثل لنا فرحة الناس بعزل الهروي بجلال الدين البلقيني، وعودة البلقيني إلى القضاء، وهو ما يشير إليه في وفيات حولية سبع وثلاثين وثمانمائة(٢) قائلاً عن إحدى وفياتها(٣):

«. . . ومن نظمه في القاضي جلال الدين لما أعيد إلى القضاء بعد الهروي في سنة إثنتين وعشرين (وثمانمائة):

عود الإمام لدى الأنام كعيدهم ... بل عود لا عيد أعيد مثاله
أجلى جلال الدين عنا غمة ... زالت بعون الله جلّ جلاله
(الكامل)

- ٥ -

. . وهكذا فإن «ابن حجر» **كان من المؤرخين المنصفين في النقد**، يظهر ذلك من حرصه على نقل آراء الموافقين والمخالفين في المترجم له نشداناً لاكتمال صورته لدى مطالع تاريخه، وهو طابع عام يشيع في كتاباته التاريخية، خاصة «الإنباء» موضع الدراسة.

وفي حرصه على مناقشة مصادره فيما أوردته من تقاويم وأحكام مناقشة منهجية نشداناً للحق والصواب كنحو قوله في ترجمة «التقي ابن رافع» (ت ٧٧٤ هـ.): «. . . وذكر لي شيخنا العراقي أن السبكي كان يقدمه (علي ابن

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٥٤.
(٢) نفسه ج ٣ ص ٥٣٠.
(٣) هو «قاضي مكة - جمال الدين القرشي».

كثير) لمعرفته بالأجزاء وعنايته بالرحلة والطلب. قلت: والإنصاف أن ابن رافع أقرب إلى وصف الحفظ على طريقة أهل الحديث من ابن كثير لعنايته بالعوالي والأجزاء والوفيات والمسموعات، وابن كثير أقرب إلى الوصف بالحفظ على طريقة الفقهاء لمعرفته بالمتون الفقهية والتفسيرية دون ابن رافع، فيجتمع منهما حافظ كامل، وقل من جمعهما بعد أهل العصر الأول كابن خزيمة والطحاوي وابن حبان والبيهقي، ومن المتأخرين شيخنا العراقي»[1] أو تفنيده للكثير من عبارات مصدره الناقدة، معللاً، نشداناً لإنصاف المترجم لهم، كنحو قوله في ترجمة «يشبك بن أزدمر» (ت ٨١٧ هـ.): «. . . وكان مشهوراً بالشجاعة والفروسية. . . وقال العينتابي: كان ظالماً لم يشتهر عنه خير، كذا قال. وقد باشر الشيخونية ورأيت أهلها يبتهلون بالدعاء له والشكر منه»[2] وحرصه على الدقة في إثبات الإسم الصحيح للمترجم له مع تتبع سلسلة نسبه ومناقشتها حتى مع أخذه لمادتها عن المترجم له، على نحو ما ورد في ترجمته للفيروزبادي (ت ٨١٧ هـ.): «. . . كان يرفع نسبه إلى الشيخ أبي إسحق الشيرازي صاحب التنبيه ويذكر أن بعد «عمر» أبا بكر بن أحمد. . .ولم أزل أسمع مشايخنا يطعنون في ذلك مستندين إلى أن «أبا إسحق» لم يعقب، ثم ارتقى الشيخ مجد الدين درجة فادعى ـ بعد أن ولي القضاء باليمن مدة طويلة ـ أنه من ذرية أبي بكر الصديق، وزاد إلى أن قرأت بخطه لبعض نوابه في بعض كتبه: «محمد الصديقي» ولم يكن مدفوعاً عن معرفة إلا أن النفس تأبى قبول ذلك».[3] أو تعديله لمادة عنصره وقد أثبتها في صورتها الأولى نتيجة لما حصله من مادة مصوبة له، كنحو قوله في ترجمة «الشمس الصالحي» (ت ٨٤٣ هـ.): «. . . الصالحي، صالحية مصر بالشرقية. هكذا كنت أظن، ثم ذكر لي أخوه شهاب الدين أحمد أنهم ينسبون إلى قرية يقال لها: منية أم صالح بناحية مبلج من الغربية، وإلى حارة الصالحية بالبرقية داخل القاهرة»[4]. وإيراد حكمه أو تقويمه لشخصيات

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٩ تر ٣٠.
(٢) نفسه ج ٣ ص ٥١ تر ١٨.
(٣) نفسه ج ٣ ص ٤٧ تر ١٦.
(٤) نفسه ج ٩ ص ١١٧ (ط. الهند).

عصره معللاً لقوله فيهم وليس مجرداً كنحو قوله فيما مر بك آنفاً من فساد أحوال المملكة في عهد الظاهر برقوق معللاً ذلك بحرصه على البرطيل والبدل على الوظائف، وعدم وثوقه في صدق بشارة من بشر «الظاهر برقوق» برؤيا النبي - صلى الله عليه وسلم - له وإخباره بنصره.. وقوله بشأن تدابير السالمي بخصوص المغول.

والحق أن «ابن حجر» كان شخصية مطبوعة على الإنصاف في البحث معجبة به نتيجة لما طبعه الله عليه من صفاء الذهن ورهافة الحس، والتبصر بالأمور التي عالجها في الكتابات التاريخية، وما توفر له من سعة الإطلاع وتعدد جوانب الثقافة.

- ٦ -

ومع ذلك فقد يقع له الخطأ في بعض مواضع من تراجم وفيات حولياته نتيجة لسهو يعتريه، على النحو الذي تتبعه منبهاً إليه تلميذه «السخاوي» في «الضوء اللامع»[١] أو نتيجة لأنه: «لم يكن ممن يتوجه إلى هذا النوع (من الكتابة التاريخية) بالكلية، ويقلد في كثير منه، بعض من يغلب على ظنه يثبته وقد لا يكون ذلك شاهده، بل يلقاه غير ضابط» على نحو ما أشار إليه السخاوي في ترجمته لشيخه في «الجواهر والدرر»[٢].

---

(١) من ذلك نص «السخاوي» في الضوء اللامع - ج ٧ ص ٩٦ - ٩٧ تر ١٩٣ - في ترجمة «الكازروني» (ت ٨٣٤ هـ.) على أن «ابن حجر» سمي والده عبدالله سهواً، ويقابله لدى ابن حجر. إنباء الغمر ج ٩ ص ١١٧ (ط. الهند) وتأريخه لوفاة ناصر الدين القرشي بسنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، على حين أن الصواب تأريخ وفاته بيوم الخميس عاشر رجب من التي قبلها (الضوء اللامع ج ٧ ص ١٤٧ تر ٧ - الإنباء ج ٣ ص ٢٣١ تر ٩)، وترجمته لمحمد بن أيوب بن عبد القادر مبيضاً في الإنباء (ج ٢ ص ٢٥١ تر ٣١) على حين أنه لا يدخل في الحيز الزماني للإنباء (٧٧٣ - ٨٥٠ هـ.) لوقوع وفاته في سنة خمس وسبعمائة للهجرة، كما أن جده عبد القاهر لا عبد القادر - السخاوي. الضوء اللامع ج ٧ ص ١٤٨ - ١٤٩ تر ٣٦٨.. إلى غير ذلك مما هو مثبت في الضوء اللامع.

(٢) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٨٢ ب - ١٨٣ أ.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن ولعه بالنقد الأدبي في كتابه وتوظيفه للأدب في التأريخ ونقده قد جعله يجانب الصواب في بعض مواضع نذكر منها ما ورد في حوادث حولية ثلاث وثمانين وسبعمائة بخصوص كائنة «ابن القماح» من قوله:

«. . . وفيها كائنة ابن القماح البزار بقيسارية جركس، وكان قد تعامل هو والبواب فصار يفتح له القيسارية بالليل ويغلق عليه، فيفتح حوانيت التجار ويأخذ منها ما يريد إلى أن كثر ذلك وافتضح، فعثروا عليه فأمسك وضرب بالمقارع وولده وسجنا بخزانة شمائل، وكانت سلامته من القطع من العجائب. وفي ذلك يقول بدر الدين ابن الصاحب مضمناً، وكان بلغه أنه عثر فسقط فانكسرت يده:

قالوا بأن يد القماح قد كسرت   فأعلنت أختها بالويل والغير
تأخر القطع عنها وهي سارقة   فجاءها الكسر يستقصي عن الخبر
(البسيط)

وقد اهتدم ذلك برمته من البيتين السائرين في تاريخ ابن خلكان:

إن العماد بن جبريل أخا علم   له يد أصبحت مذمومة الأثر
تأخر القطع عنها وهي سارقة   فجاءها الكسر يستقصي عن الخبر»[1]
(البسيط)

وتجدر الإشارة هنا إلى أمور هي:

١ ـ أن هذا الخبر قد اشتمل على نقد مركب، تعاونت في إيراده مكونات صاحبه: النفسية، والدينية، والأدبية ـ على إعتبار أنه كان إماماً للمسلمين له نهج إصلاحي واضح، وقومات في الحق، وعلى إعتبار شمولية ثقافته للنواحي الدينية والأدبية، وعلى إعتبار ما لديه من ملكة أدبية ناقدة، وولع بتتبع الشعراء لمعرفة مصادر تضمين ما يقرضونه، فضلاً عن كونه شاعراً مجيداً ـ فكان الشق

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

الأول من نقده: «. . . وكانت سلامته من القطع من العجائب» معبراً عن هذا الشعور الديني لديه، حيث ظاهر الحكم الشرعي بين: «السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما. . .»(٣٨: المائدة) وقد ثبتت عليه جريمته بما يوجب فيه القطع، ويعزز وجهة الإستغراب هذه في ذلك وجعل هذا من العجائب حدوثه في بلد الخلافة الإسلامية، وفيها خليفة المسلمين، وعلماء الشرع. . مما يبين ـ كذلك ـ غيرته على الشرع منعاً لشيوع المفاسد. وبالتالي يبين حالته النفسية كرجل دين. وأما الشق الثاني: «. . . وقد إهتدم ذلك برمته من البيتين السائرين في تاريخ ابن خلكان»[١] فيشير إلى إتساع ثقافته، والتي تعدت التأريخ إلى الأدب ـ كذلك.

٢ ـ أن «ابن حجر» قد وظف الأدب في التأريخ ونقده، حيث لم يقتصر على نقد الإنفعال الأدبي المقلد المصاحب للوقعة التاريخية المثبتة لديه ـ والذي تفرد بإيراده دون مصادره المعروفة لدى ـ وإنما الأهم من ذلك أنه إعتمد الشعر الملتبس بهذه الوقعة في التأريخ لها وتقييمها إهمالاً لمصدره التأريخي، والذي ربما ناقضه فكان «إستغراب القطع وعده من العجائب» و«كان الكسر جزاء لتأخر القطع» إستناداً إلى الشاهد الشعري المثبت لديه، حيث ورد الخبر نقيض ذلك تماماً لدى المقريزي(٢) متضمناً أموراً منها:

أ ـ أن السرقة لم تكن متكررة، وإنما حدثت في ليلة الجمعة خامس ذي الحجة سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة، فأصبح الناس بالقيسارية وهي مفتحة الحوانيت. ويؤيد ذلك قول ابن دقماق(٣): «. . . فمسك صبيحة تلك الليلة التي أخذ فيها».

ب ـ أن كسر يده كان قبل حكم الشرع فيه: «. . . ورفع التجار شكواهم إلى الأمير الكبير، فاشتد ضيقه علي والي القاهرة وألزمه بإخراج السارق، فبينما هو في الفحص عن «ابن القماح» إذ دله شخص على موضعه فركب إليه في يوم

---

(١) ابن خلكان. وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤.

(٢) المقريزي. السلوك ج ٣ ص ٤٥٨ ـ ٤٦٠.

(٣) ابن دقماق. الجوهر الثمين ـ مخط. حكيم أوغلي ق ١٧٠.

الاثنين ثامنه وأحاط بالبيت الذي هو به، فألقى نفسه من علو البيت يريد النجاة فانكسرت يده وقبض عليه وعلى ولده أحمد وعلى الأقفالي الذي فتح له الحوانيت».

جـ ـ أن الشرع لم يوجب فيه القطع: «. . .وضرب ابن القماح وولده مراراً وسجن في خزانة شمائل، فإنه لم يجب عليه القطع شرعاً لأنه كان يقول عن الأقفالي: هذا ناولني من الحوانيت».

وهذا يشير بلا ريب إلى أن «ابن حجر» قد أغفل الرواية التاريخية لدى مصدر صرح في غير موضع بالإطلاع عليه وعلى مصدره والأخذ عنها ـ كذلك ـ إستناداً إلى تفضيل مصدر آخر، وهو ما صاحب الواقعة التاريخية من إنفعال أدبي مقلد، فبنى حكمه وتقديره على أساسه، بل ربما يكون قد انتهج هذا النهج خصيصاً لإثبات نقده للشاهد الأدبي بما إهتدم به من شعر إطلع عليه لدى ابن خلكان.

الفصل السادس
العلاقة بين «إنباء الغمر» والمؤلفات التاريخية الأخرى «لابن حجر»

أولاً ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة
ثانياً ـ ذيل الدرر الكامنة
ثالثاً ـ رفع الإصر عن قضاة مصر
رابعاً ـ المجمع المؤسس للمعجم المفهرس

أولاً

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة(1)

ويسمى - أيضاً - الوفيات الكامنة لأعيان المائة الثامنة(2) فرغ «ابن حجر» من تأليفه في مجلدة سنة ثلاثين وثمانمائة للهجرة، ثم رجع إليه مضيفاً وملحقاً إلى سنة سبع وثلاثين وثمانمائة، ومع ذلك فإنه لم يكمل الغرض من الإلحاق لبقايا من الترجمات في الزوايا التي لم يستوعبها(3).

ويبدو أنه كان ينتوي تخريجه في أربعة مجلدات، لكن لم يتيسر له ذلك، حيث بيض في مجلدتين فقط(4).

(1) لم أتمكن من الحصول على نسخة بخط المؤلف، أو نسخة عنه تكون مكتملة إذ الموجود من هذا الكتاب مخط. حيدر آباد بالهند رقم ٢٨٣ رجال ويمثل النصف الأول من الكتاب، ابتداء بأوله وانتهاء بترجمة «عطية بن المكين إسماعيل بن عبد الوهاب، وهو بخط «الشمس السخاوي» ويقع في ٣٥٠ ورقة مسطرتها حوالي ٢٥ سطراً، ومقاسها ١٣ × ١٩ سم، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٠٤٤ تاريخ، ومخط. مكتبة الطاهر بن عاشور - رحمه الله - بتونس، ويمثل النصف الثاني من نسخة خطية أخرى كتبت في القرن التاسع الهجري تنقص من آخرها وتبتديء بترجمة علي بن إبراهيم بن أسد المصري، وتنتهي في أثناء ترجمة يوسف بن محمد العنسي، وتقع في ٢٦٢ ورقة مسطرتها حوالي ٢٩ سطراً، ومقاسها ١٨ × ٢٦ سم، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٠٤٤ تاريخ، كما قدر لهذا الكتاب أن يختصر على يد «الجلال السيوطي» و«ابن المبرد»، وأن تنشره دائرة المعارف الإسلامية بحيدر آباد الدكن، بالهند في أربع مجلدات فيما بين عامي ١٣٤٨ و ١٣٥٠ هـ. وأن يطبع بعد ذلك في القاهرة.

(2) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٨١ أ.

(3) ابن حجر. الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٩٠، حاجي خليفة. كشف الظنون ج ١ ص ٧٤٨.

(4) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٨١ أ.

١ ـ إشتراك كلٍ منهما في إيراد الترجمات حسب حروف الهجاء داخل الحرف الواحد في الدررِ الكامنة، والحوليات في الإنباء، مع الإتيان بترجمات النساء ـ غالباً ـ تلو ترجمات الرجال، وكذا الترجمات المرتبة على الكنى والألقاب.

٢ ـ إنعدام التوازن بين ترجمة وأخرى من حيث الحيز المكاني الذي تشغله، فقد تأتي ترجمة شاغلة لبضع ورقات(١) بينما تأتي أخرى شاغلة لبضعة أسطر(٢) أو مترجمة في أقل من السطر(٣). وبالتالي فإنه لم يعن بالموازنة بين المساحة التي تشغلها الأسماء المرتبة على الحروف في الكتاب، وهي بمثابة أبواب أو فصول فيه.

٣ ـ تنوع مصادره بين مؤلفات سابقة(٤) وطباق(٥) وإستدعاءات وإجازات(٦) وخطوط ووثائق(٧) ورواية شفهية(٨) ومؤلفات المترجم له(٩).. مع العناية بالموازنة بين هذه المصادر وتقدير أهميتها(١٠).

---

(١) من أمثلة ذلك ج ١ ص ١٤٤ ـ ١٦٠ تر ٤٠٩.

(٢) من أمثلة ذلك ج ١ ص ٣٤٠ تر ٨٤٧.

(٣) من أمثلة ذلك ج ١ ص ٣٨٦ تر ٩٨٠.

(٤) نفسه في مواضع كثيرة، حيث صرح ببعض مصادره في مقدمة «الدرر الكامنة» ثم عمد بعد ذلك إلى إسناد غالبية النقول إلى مصادرها بعبارات واصطلاحات منها قوله ـ ج ٢ ص ٤ تر ١٤٧٦: «... قرأت ذلك بخط الشيخ تقي الدين السبكي... كذا قال تاج الدين السبكي»، وقوله ـ ج ٢ ص ٦٦: «وبخط الزركشي في...»، وقوله ـ ج ٢ ص ٦٥: «قال الذهبي في المعجم المختص:...»، و«ذكره الذهبي وقال:...» ـ نفسه ج ٢، ص ٦٥ «... نقلته من ذيل سير النبلاء» ـ نفسه ج ٢ ص ٢٠١، وقوله: «... ذكرها ابن الكويك في مشيخته» ـ نفسه ج ٢ ص ١٢٨، ولعل مما يشير إلى الأمانة في النقل والإنتساب إلى المصادر قوله: «... وقد رأيت بخطي ولا أدري من أين نقلته: وكانت وفاته سنة ٧٥٥، فالله أعلم» ـ نفسه ج ٢ ص ٣٣ تر ١٥٤٦.

(٥) نفسه ج ٢ ص ١٢.

(٦) نفسه ج ٢ ص ٣٠١.

(٧) نفسه ج ٢ ص ٣٨، ١٨٧، ٢٩٧.

(٨) نفسه ج ٢ ص ١٣١، ١٦٧، ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٩) نفسه ج ٢ ص ٨٦.

(١٠) من ذلك قوله في ترجمة ابن فهد الحلبي: «... مات يوم عرفة أو قبله في ليلة سابعة، وأرخه

٤ ـ الإعتناء بالنقد التأريخي والأدبي وممارسته في سائر جوانب الكتاب.

٥ ـ حرص «ابن حجر» على إثبات علاقاته بالمترجم لهم فيه، كنحو قوله في الترجمة «لابن الكيال: «. . . خرجت له مشيخة عن نحو ثمانين شيخاً»[١].

٦ ـ دخول كثير من الترجمات الواردة في الدرر الكامنة في الحيز الزماني المصاحب للإنباء. في حين تشكل الترجمات الخارجة عن الحيز الزماني للإنباء بعداً تاريخياً له باعتبار ما بين شخصياتها ومن تلاهم وفاة من علاقات، خاصة من كان من الشخصيات الدينية والتي أجمل «ابن حجر» في المقدمة التنويه بها قائلاً: «. . . إذ الكثر منهم شيوخ شيوخي»، كما يشكل الإنباء بدوره بعداً تاريخياً لترجمات الدرر الكامنة الداخلة في حيزه الزماني لاحتوائه على الحوادث بما فيها من مادة مكملة لعناصر تلك الترجمات، ومن الأدلة على ذلك الإحالة في «الدرر الكامنة» إلى «الإنباء» في بعض مواضع، منها قوله في ترجمة «يلبغا الناصري»: «. . .وقد ذكرنا في التاريخ المسمى إنباء الغمر بأنباء العمر في الحوادث أتم من هذا»[٢] والنص في «الدرر الكامنة» على نقل ترجمة «أحمد بن علي بن عسكر القصري من إنباء الغمر»[٣].

٧ ـ التطابق بين كثير من ترجمات «الإنباء» و«الدرر الكامنة»، كنحو قوله في «الدرر الكامنة»: «إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الجعفري الدمشقي الحنفي، برع في الفقه وناب في الحكم ودرس. مات في المحرم سنة ٧٧٤»[٤]. مقابلاً

= شيخنا في شوال سنة ٧٦٠ والأول أقوى لأنه قول الصفدي وهو أخبر به» ـ نفسه ج ١ ص ٧٢، تر ١٩٠ وقوله في ترجمة البهاء ابن العجمي: «. . .ومات بحماه في سنة ٧٧٠ وهو ابن ستين، وأرخه شهاب الدين ابن حجي سنة ٧٧١ وهو الصواب، والأول من غلط النسخة» ـ نفسه ج ١ تر ٨٤٢ ص ٣٣٨.

(١) نفسه ج ٤ ص ٤٤٢ تر ١٢١٩.

(٢) نفسه ج ٤ ص ٤٤٢ تر ١٢١٩.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٢١٧ ـ ٢١٨ تر ٥٥٤.

(٤) نفسه ج ٢١ ص ٨ تر ٣.

بقوله في الإنبـاء: «إبراهيم بن أحمـد بن إسماعيـل الجعفري الـدمشقي الحنفي، برع في الفقه وناب في الحكم ودرس. مات في المحرم»[1].

٨ ـ علي حين نجده في مواضع أخرى مسهباً في «الإنباء» مقتضباً في «الدرر» أو العكس، ومن أمثلة الأول قوله في الإنباء: «أحمد بن إبراهيم الكتبي الصالحي من فضلاء الحنفية، وكان يشارك في فنون ويفتي ويناظر، وكان لازم أبا البقاء السبكي مدة وقرأ عليه في الكشاف، وهو المشار إليه في كتابة السجلات. مات في رجب»[2]. مقابلاً بقوله في الدرر الكامنة مقتضباً: «أحمد بن إبراهيم الكتبي الصالحي، كان من فضلاء الحنفية. مات في رجب سنة ٧٩٥»[3]. ومن أمثلةالثاني قوله في الدرر الكامنة بشأن ابن العديم مسهباً: «إبراهيم بن محمد بن عمر بن عبد العزيز بن محمد بن أحمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير العقيلي الحلبي، جمال الدين بن العديم بن ناصر الدين بن كمال الدين، من بيت كبيرمشهور بحلب. ولد في سادس ذي الحجة سنة ٧١١ تقريباً، وسمع صحيح البخاري على الحجار بحماه، وعلي العز إبراهيم بن صالح بن العجمي عشرة الحداد، وسمع من الكمال بن النحاس، وحفظ المختار، وولي قضاء حلب بعد أبيه في سنة ٧٥٢ إلى أن مات، إلا أنه تخلل في ولايته أنه صرف مرة بابن الشحنة. قال علاء الدين في تاريخه: كان عاقلاً عادلاً في الحكم خبيراً بالأحكام عفيفاً كثير الوقار والسكون إلا أنه لم يكن ناقداً في الفقه ولا في غيره من العلوم مع أنه درس بالمدرسة المتعلقة بالقاضي الحنفي كالحلاوية والشاذبختية، وكان بحفظ المختار ويطالع في شرحه. وقرأت بخط البرهان المحدث أن ابن العديم هذا ادعى عنده مدع على آخر بمبلغ فأنكر فأخرج المدعي وثيقة فيها أقر فلان بن فلان. فأنكر المدعي عليه أن الإسم المذكور في الوثيقة إسم أبيه. قال له: فما إسمك أنت؟ قال: فلان. واسم أبيك؟ قال: فلان. فسكت عنه القاضي وتشاغل بالحديث مع من كان عنده حتى طال ذلك.

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ٣٧ تر ١.

(٢) نفسه ج ١ ص ٤٥٧ تر ٢.

(٣) نفسه الدرر الكامنة ج ١ ص ٩٧ تر ٢٦٣.

وكان القاريء يقرأ عليه في صحيح البخاري. فلما فرغ المجلس صاح القاضي: يا بن فلان. فأجابه المدعي عليه مبادراً، فقال له: إدفع لغريمك حقه. فاستحسن من حضر هذه الحيلةالتي إستغفل المدعي عليه حتى التجأ إلى الإعتراف. وكانت وفاته في سادس عشري المحرم سنة ٧٨٧. وقرأت بخط البرهان الحلبي: كان من بقايا السلف وفيه مواظبة على الصلوات في الجامع الكبير، نظيف اللسان وافر الفضل طويل الصمت والمهابة في غاية العفة مع المعرفة بالمكاتيب والشروط، كبير القدر عند الملوك والأمراء، له مكارم ومآثر، وكان كثير النظر في مصالح أصحابه»[1]. ويقابله في الإنباء قوله مقتضباً: «إبراهيم بن محمد بن عمر بن عبد العزيز بن محمد بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي الحلبي المعروف بابن العديم. كمال الدين بن ناصر الدين بن كمال‌الدين، سمع من الحجار وحدث عنه، وكان هيناً ليناً ناظراً إلى مصالح أصحابه، ناب عن والده مدة بحلب، ثم استقل بعد وفاته. ومات عن نيف وسبعين سنة»[2].

وطبيعي أن ينتج عن ذلك التكامل بين المعلومات الواردة في كليهما بشأن الترجمة للشخص الواحد ليتضح فكر «ابن حجر» وموقفه منه مضافاً إليه إستكمال العناصر المشكلة لمادة ترجمته. بل نجد تحقق مثل هذا لدى «ابن حجر» في التراجم المتناظرة من حيث الحيز المكاني الذي تشغله، كنحو قوله في «الإنباء» مترجماً لابن بلبان مقارناً بنظيره في «الدرر»، حيث الوارد في الإنباء قوله: «أحمد بن بلبان بن عبدالله، شهاب الدين الدمشقي المالكي الفقيه المفتي كاتب الحكم، مات في صفر وخلف مالاً كثيراً»[3]. ويقابله في الدرر الكامنة قوله: «أحمد بن بلبان كاتب الحكم المالكي. كان يفتي وله مروءة. مات في صفر سنة ٧٧٣»[4].

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٦٤ - ٦٥ تر ١٧٢.

(٢) نفسه. إنباء الغمر ج ١ ص ٣٠٤ تر ١.

(٣) نفسه ج ١ ص ٢١ تر ٢.

(٤) نفسه. الدرر الكامنة ج ١ ص ١١٦ تر ٢٣١.

وهنا نجد أن الدرر الكامنة قد أضاف «وله مروءة» ناعتاً بها المترجم له بينما إنفرد الإنباء بتتمة إسم مترجمه، والتصريح بلقبه، والكشف عن حاله حال الوفاة: «وخلف مالاً كثيراً».

٩ ـ كما يتعاون الدرر الكامنة مع الإنباء في الكشف عن مصادر المادة في كل منهما ومن أمثلة ذلك كشف الإنباء عن المصدر المسكوت عنه في الدرر الكامنة بشأن الترجمة للمراقي، حيث الوارد في الدرر قوله فيه دون إنتساب إلى المصادر: «إبراهيم بن الحسن بن عمر بن حمود البعلي، ثم المراقي. سمع من ابن الشحنة وغيره. مات في صفر سنة ٧٧٦»[١]. بينما صرح بالمصدر في ترجمته له في الإنباء قائلاً: «إبراهيم بن حسن بن عمر بن حمود البعلي ثم المراقي، سمع من الحجار، وسمع منه ابن حجي وأرخه في صفر»[٢]. وما مر من التصريح بالمصادر في الترجمة لابن العديم من الدرر الكامنة مع السكوت عنها في ترجمته من الإنباء.

١٠ ـ ويتعاون «الدرر الكامنة» مع «الإنباء» ـ كذلك ـ في الكشف عن المنهج المتبع لدى «ابن حجر» في ترك البياضات والفراغات لمعلومات وتتمات تأتي بعد لم يقدر له ملؤها، حيث أن العنصر المسكوت عنه في أحدهما ـ غالباً ـ ما يوجد لدى المصدر الآخر وقد بيض له مما يشير إلى عدم معرفة «ابن حجر» به، وتركه مكاناً له لعله يدركه، ومن أمثلة ذلك قوله من الدرر الكامنة في ترجمة «البرهان الأخنائي» مبيضاً لتاريخ مولده: «. . . ولد بالقاهرة سنة. . . وتفقه»[٣]. بينما أسقط هذا العنصر كلية من ترجمته في الإنباء[٤].

١١ ـ ويضاف إلى ذلك وجود بعض تناقضات بين جوانب من الترجمات الواردة في الدرر الكامنة مع ما يقابلها من نظيراتها من الإنباء، ومنها التأريخ

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٣ تر ٥٢.
(٢) نفسه. إنباء الغمر ج ١ ص ٧٨ تر ٢.
(٣) نفسه. الدرر الكامنة ج ١ ص ٥٨ ـ ٥٩ تر ١٥٦.
(٤) نفسه. إنباء الغمر ج ١ ص ١٠٨ تر ٣.

لوفاة «محمد بن عمر بن رسلان» في الدرر الكامنة بشعبان سنة تسع وثمانين وسبعمائة[1]. في حين أن الوارد في «الإنباء» أنه مات في سابع عشري شعبان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة»[2]. وتأريخه لوفاة «الوادي آشي» في الدرر الكامنة في حدود التسعين وسبعمائة[3]. على حين أن الوارد في «الإنباء» أنه مات سنة ثمان وثمانين وسبعمائة[4]. وتأريخه قتل البدر الزواوي «في أواخر سنة أربع أو أوائل سنة ٧٥٥»[5] بينما يقابل ذلك في الإنباء التصريح بموته في أوائل سنة أربع وسبعين وسبعمائة»[6]. مما يكشف عن عدم الدقة في تحري التأريخ في مثل تلك المواضع المختلف فيها، فضلاً عن تأرجحه في تأريخ الوفاة في مواضع كثيرة من ترجمات الدرر الكامنة[7] أو السكوت كلية عن التأريخ للبعض الآخر[8].

---

(١) المصدر السابق. الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٠٥ تر ٢٨٨ .

(٢) نفسه . إنباء الغمر ج ١ ص ٣٨٩ تر ٣٧ .

(٣) نفسه. الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٠٠ تر ٥٤٦ .

(٤) نفسه . إنباء الغمر ج ١ ص ٣٢٨ تر ٣٥.

(٥) نفسه . الدرر الكامنة ج ٤ ص ٥٨ تر ١٦٣.

(٦) نفسه. إنباء الغمر ج ١ ص ٥١ تر ٣٦ .

(٧) كنحو تأرجحه في التأريخ لوفاة «البدر الزواوي» - الأنف الذكر - و«محمد بن شقري» - الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٦٠ تر ٤٢٦ .

(٨) من ذلك ج ٣ ص ١٦ تر ٢٧ .

ثانياً

«ذيل الدرر الكامنة»

جاء في مقدمته قوله:

«... أما بعد، فإني كنت علقت تاريخاً خاصاً بأعيان المائة الثامنة ـ التي ولدت في أثنائها ـ فلما شارف أن يكمل رأيت المائة التي تليها قد دخل منها أكثر من الثلث، فأردت أن أضع علىٰ ذلك الأول ذيلاً يشتمل علىٰ الأعيان المختصة بالثاني فالتمس مني بعض الأحبة الأعزة أن أجعل هذا الثاني علىٰ السنين ليتحقق عليه إستيعاب المائة التاسعة، فأجبت سؤاله وأوردتهم بهذا التعليق سيما من اطلعت علىٰ خبره.

ولم أتبسط لتراجم الشاميين إكتفاء بما كتبه لي مؤرخها ـ حفظه الله تعالىٰ آمين»[1].

---

(١) اعتمدت هذه الدراسة على مخطوطة بخط «ابن حجر» محفوظة في دار الكتب والوثائق المصرية تحت رقم: ٦٤٩ تاريخ ـ تيمورية، وتقع في ٢٢٢ صفحة ـ رقمت ترقيماً حديثاً ـ مقاسها ١٠ × ١٥ سم، ومسطرتها تتراوح بين ١٦ و٢١ سطراً، وتأتي الصفحتان ١٢٠، ١٢١ ـ في أثناء ترجمة «ابن الطريني» (ت ٨١٣ هـ/١٤١١ م) ـ خلواً من الكتابة سهواً كما أشار إلى ذلك «ابن حجر» فيهما، وكما يتضح من صلة وتتابع ما قبلهما بما بعدهما. ويأتي النص فيها ابتداء بصفحة «٢» وقد سبق بورقتين أشير فيهما ـ بخط نسخي مغاير ـ إلى أن «هذا الكتاب بخط مؤلفه شيخ الإسلام حافظ العصر قاضي القضاة شهاب الدين ابن حجر رحمه الله تعالى، وهو تاريخ المائة التاسعة، وهو الذيل على الدرر الكامنة تاريخ المائة الثامنة»، وإلى أنه «وصل فيه إلى سنة ٨٣٢ هـ» كما خط عليها تمليك «لمصطفى أحمد بن محب الدين»، ووقفية «لأحمد بن إسماعيل بن تيمور».. وبعض=

وهو بهذا يشير إلىٰ الآتي:

أولاً: أن الحيز الزمـاني للكتاب سـوف ينحصر في الثلث الأول من القرن التـاسع الهجـري، وأن حولياته قـد كتبت بعـد أن «دخـل من القـرن أكـثر من الثلث»، ولذا فإن الكتاب قد احتوىٰ علىٰ مقدمة متبوعة باثنتين وثلاثين حـولية، إبتداء بحولية إحدىٰ وثمانمائة، وانتهاء بحولية اثنتين وثلاثين وثمانمائة.

ثانياً: أنه قد أورد ـ فيه ـ الوفيـات منظمـة علىٰ حسب السنـوات المتعاقبـة التي وقعت فيها ليتحقق علىٰ مطالعه إستيعابها، وإن لم يستوعب «ابن حجر» فيها الوفيات، كما أنه لم يتبسط في تراجم الشاميين إكتفاء بما إستقاه من مصدره فيها، وهو فيما يغلب علىٰ الظن «ابن قاضي شبهة».

وهنا يمكن ملاحظة الآتي:

١ ـ أن تنـظيم الوفيـات في الحوليـة الواحـدة ـ سـواء في التـرجمـات أم في الأسماء المجردة كان مأمولاً فيه أن يكون حسب التسلسل الهجـائي لإسم المترجم ـ فحسب ـ وليس إسم الشهـرة سواء كـانت الشهـرة في اللقب أم الكنيـة ـ مـع

= تعليقات وملحوظات نثرية وشعرية منها: «. . . وما أحسن قول الشاعر:

مـا زلت تـدأب في التـاريـخ تكتبـه حتى رأيتـك في التـاريـخ مكتـوبـاً»

بـالإضافـة إلى بعض الملحوظـات والتقييدات والاستـدراكات والعنـوانات التي تـرد في هـوامش المخـطوطـة (كنحـو مـا ورد في صفحـات: ٧، ٨، ٩، ١٠، ٢٢، ٢٨، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، . . الـخ.).

ويبدو أن هذه النسخة كانت مسودة للكتاب، حيث الخط الـرديء وكثرة الضـرب والتعديـلات والإحـالة إلى تتمـات للنص في الهـوامش، واختـلال التـرتيب التنـظيمي للوفيـات، وإن تميـزت الوفيات في السنوات المتقدمة بخط أحمر يأتي في صدر أسمائها.

كما تظهر إصابتها بسائل أتلف بعض مواضع فيها، عالجتها يد مُحدثة بإعادة الكتابة على الحروف الأولى بمداد أسود داكن مما أفقد تلك المـواضع القيمـة التي لغيرهـا ـ حيث لا يمكن التثبت من أن هذه الحروف المبدلة مطابقة لـلأصل ـ ولـذا اعتمدت في إيـراد النصوص والنقـول المثبتة في هـذه الدراسة للمقارنة على ما ورد فعـلاً بخط ابن حجر وقد تميـز بسهولة.

تقديم من اسمه «أحمد» علىٰ سائر الوفيات، تيمناً بهذا الإسم، كما أفصح عن ذلك في مؤلف آخر ـ المجمع المؤسس للمعجم المفهرس ـ وهو ما تحقق جانب منه في الحوليات المتقدمة من الكتاب.

٢ ـ لكن لم يلتزم «ابن حجر» ذلك في باقي الحوليات، حيث نجده قد أخل بهذا الترتيب التنظيمي[١] بل وأورد الوفيات متتابعة دون فصل لتأتي في موضع واحد وقد امتزجت معلوماتها[٢] كما أنه قد ترك التنظيم علىٰ الإسم، معتبراً اسم الشهرة[٣] أو اللقب العلمي[٤] مشيراً إلىٰ ضرورة الترتيب الداخلي حيناً[٥] ومغفلاً ذلك أحياناً. .

٣ ـ أنه وإن كان المقصود بإيراد الوفيات علىٰ الحوليات المتعاقبة «تحقيق الاستيعاب»، فإن «ابن حجر» لم يكن دقيقاً في تأريخ الوفيات حيث نقل عشر ترجمات من حولياتها لتنتظمها حوليات غير التي وقعت فيها وإن وردت في «إنباء الغمر» علىٰ وجه صائب.

٤ ـ أنه لا يتحقق للكتاب شمول زماني، حيث أن الترجمات الواردة فيه ـ

---

(١) من نماذج ذلك ما ورد في حولية ثلاثين وثمانمائة حيث الإبتداء بترجمة أحمد فمحمد فأحمد، وحولية إحدى وثلاثين وثمانمائة حيث الإبتداء بترجمة جاني فأزدمر فكمشبغاً فمحمد فسعيد فحسن فجاني فإبراهيم فمحمد فشرف الدين فبكتمر. .

(٢) يظهر ذلك من خلال دراسة العلاقة بين إنباء الغمر، وذيل الدرر الكامنة من هذا المقال.

(٣) من ذلك ما ورد في حولية ثلاثين وثمانمائة من قوله: «. . . وفيها مات الرجل الصالح ابن غراب، وهو أحمد ابن إبراهيم . . . ومحيي الدين الغزالي . . . والبدر البشتكي، والشيخ بدر الدين أبو أحمد محمد بن إبراهيم . . . وتقي الدين الأخنائي». ـ ذيل الدرر الكامنة ق ٢٠٧ ـ ٢١٠.

(٤) من ذلك قوله في حولية سبع وعشرين وثمانمائة: «. . . الشيخ شرف الدين يعقوب» ـ ق ١٩٩ ـ وقوله في حولية تسع وعشرين وثمانمائة: «الشيخ سراج الدين عمر. . .» ـ ق ٢٠٣ ـ و «القاضي شمس الدين الهروي. . .» ـ ق ٢٠٤ ـ مستفتحاً بهذه الألقاب ترجماتهم.

(٥) حيث جاء في حولية خمس عشرة وثمانمائة لصيق ترجمة «إبراهيم الموصلي» قوله: «يقدم في الترتيب» ـ ذيل الدرر الكامنة ق ١٣١.

قياساً بما جاء في «إنباء الغمر» ـ قليلة، كما أنه لا يتحقق فيه ـ كذلك ـ التوازن الزماني بين حولياته، فالتفاوت كبير بين حولية وأخرى من حيث عدد الوفيات الحاوية لها، كما يبين ذلك الجدول الآتي:

الحولية	عدد وفياتها	الحولية	عدد وفياتها	الحولية	عدد وفياتها
٨٠١ هـ	٣٩	٨١٢ هـ	١٥	٨٢٣ هـ	١٣
٨٠٢	٤٤	٨١٣	٢٤	٨٢٤	١١
٨٠٣	٥٣	٨١٤	٢١	٨٢٥	١٦
٨٠٤	٢٢	٨١٥	١٨	٨٢٦	١٧
٨٠٥	٢٥	٨١٦	١٥	٨٢٧	٠٤
٨٠٦	٣٢	٨١٧	١٠	٨٢٨	٠٧
٨٠٧	٢٢	٨١٨	٠٥	٨٢٩	١٢
٨٠٨	٢١	٨١٩	٢٨	٨٣٠	٠٨
٨٠٩	٢٩	٨٢٠	١٤	٨٣١	١١
٨١٠	٠٦	٨٢١	١٥	٨٣٢	٠٧
٨١١	٢٢	٨٢٢	١٨		
				الجملة	٦٠٤ ترجمات

ويلازم ذلك تفاوت في المساحة الشاغلة لها هذه الحوليات كما يوضحه الجدول الآتي:

الحولية	الصفحات		الحولية	الصفحات	
	من	إلى		من	إلى
٨٠١ هـ	ق٣	ق١٦	٨١٧ هـ	ق١٤١	ق١٤٧
٨٠٢	ق١٧	ق٣٠	٨١٨	ق١٤٨	ق١٤٩
٨٠٣	ق٣٠	ق٤٦	٨١٩	ق١٥٠	ق١٦١
٨٠٤	ق٤٧	ق٥٥	٨٢٠	ق١٦١	ق١٦٥
٨٠٥	ق٥٦	ق٦٥	٨٢١	ق١٦٥	ق١٧٣
٨٠٦	ق٦٦	ق٧٨	٨٢٢	ق١٧٣	ق١٧٧
٨٠٧	ق٧٩	ق٨٩	٨٢٣	ق١٧٧	ق١٨٢
٨٠٨	ق٨٩	ق١٠٠	٨٢٤	ق١٨٣	ق١٨٧
٨٠٩	ق١٠٠	ق١٠٧	٨٢٥	ق١٨٨	ق١٩٢
٨١٠	ق١٠٧	ق١٠٩	٨٢٦	ق١٩٣	ق١٩٨
٨١١	ق١١٠	ق١١٥	٨٢٧	ق١٩٩	ق٢٠٠
٨١٢	ق١١٦	ق١١٩	٨٢٨	ق٢٠١	ق٢٠٢
٨١٣	ق١١٩	ق١٢٧ (×)	٨٢٩	ق٢٠٣	ق٢٠٦
٨١٤	ق١٢٧	ق١٣٠	٨٣٠	ق٢٠٧	ق٢١١
٨١٥	ق١٣١	ق١٣٤	٨٣١	ق٢١١	ق٢١٧
٨١٦	ق١٣٥	ق١٤١	٨٣٢	ق٢١٨	ق٢٢٢

(×) مع إسقاط صفحتي: ١٢٠ - ١٢١ حيث بيض لهما سهواً.

بل وتتفاوت المساحة المخصصة لإثبات الـوفيات بـين وفاة وأخـرىٰ داخل الحولية الواحدة حسب طبيعة ونوعية العلم المترجم له، وتوفـر «ابن حجر» علىٰ مصادر ترجمته وتوفرها له لترد إسماً مجرداً يشغـل أقل من السـطر(١) أو مترجمـة في سطر(٢) أو مترجمة في أكثر من السطر(٣) أو في صفحة(٤) أو أكثر(٥).

بين ذيل الدرر الكامنة وإنباء الغمر:

لكن ما علاقة هذا المؤلف بالإنباء؟

أولاً: يدخل ذيل الدرر الكامنة في الفترة الزمانية المصـاحبة لإنبـاء الغمر وبـالتالي يشتـرك معه في إيـراد كثير من المعلومـات المنتظمـة في نطاق هـذا الحيـز الزماني. ولذا نجده قد احتوىٰ علىٰ (٦٠٤) ترجمات يقابلهـا في «الإنباء» (٥٩٤) ترجمة بفارق عشر ترجمات إنفرد بإيرادها «ذيل الـدرر»، وإن انفرد «إنبـاء الغمر»

---

(١) من ذلك ما ورد في حولية إحدىٰ عشرة وثمـانمائـة من قولـه: «. . . فيها قتـل بحبس الأسكندريـة بيبرس ابن أخت السلطان، وبيغوث، وسـودون الماردينى، وذلـك في أواخر السنـة» ـ ذيل الـدرر ق ١١٠ تر ٢٩٤ ـ ٢٩٦.

(٢) كنحو قوله في حولية ثلاث وثمانمائة: «أحمد بن الـزين الحلبي، والي الشرطـة بالقـاهرة. مـات في هذه السنة وكان عسوفاً غشوماً» ـ ذيل الدرر ق ٨٩ تر ٣١ ـ وقوله في حولية اثنتي عشرة وثمانمائة: «. . .وقجاقق الدويدار ـ كان قليل الشر مات في آخر السنة» ـ ذيل الدرر ق ١١٩ تر ٣٣٠.

(٣) كنحـو قولـه في ترجمـة «ابن لاجين الـرشيدي»: (ت ٨٠٧ هـ /١٤٠٥ م) «عبـد الله بن محمـد بن إبراهيم بن محمد بن لاجين الرشيدي، جمال الدين، ولد سنة بضع وثلاثين، واسمع علىٰ الميدومي ومحمـد بن إسماعيـل الأموي وغيـرهما، وكـان يلازم قـراءة البخاري بجـامع أم حسـين ـ ظـاهـر القاهرة ـ ويخطبه. وكان جيد القراءة طيب النغمة. قرأت عليه أجزاء من المعجم الكبير للطبـراني، ومات في شهر رجب» ـ ذيل الدرر ق ٨١.

(٤) من أمثلة ذلـك تـرجمـة «قـرأ يـوسف» (ت ٨٢٣ هـ/١٤٢٠ م) ـ ذيـل الـدرر الكـامنـة ق ١٨٢ ـ تـر ٥١١ وترجمة «عبد الرحمن بن رسلان البلقيني» (ت ٨٢٤ هـ/١٤٢١ م) ـ ذيل الـدرر الكامنـة ق ١٨٧تر ٥٢٢.

(٥) من أمثلة ذلـك ترجمة «البدر البشتكي» (ت ٨٣٠ هـ/١٤٢٧ م) ـ ذيـل الـدرر الكـامنـة ق ٢٠٨ ـ ٢٠٩ تـر ٥٨١ وترجمة «حسن بن أحمد بن محمـد المرديني» (ت ٨٣١ هـ/١٤٢٨ م) ـ ذيل الـدرر الكامنة ق ص٢١٤ ـ ٢١٥ تر ٥٩٢.

بإيراد ترجمات لم ترد في «الذيل» أساساً على الرغم من انتظامها في الحيز الزماني الموضوع له.

ثانياً: الإشتراك معاً في إيراد الوفيات حسب السنوات المتعاقبة، والتنظيم داخلياً حسب حروف الهجاء، وإن كان «الذيل» أكثر اختلالاً من حيث الترتيب والتنظيم - كما هو موضح قبل.

ثالثاً: أن الوفيات التي أتت في «الإنباء» أسماء مجردة أو مندمجة المعلومات مع غيرها لتجتمع في موضع واحد، هي المواضع عينها الواردة في «الذيل» على هذه الصورة والكيفية (١).

رابعاً: أن الفراغات أو المعلومات المبيض لها في تراجم وفيات الإنباء لها نظير - كذلك - في «ذيل الدرر»، وفي المواضع عينها، بإستثناء موضع واحد ورد في حوادث «الإنباء» فراغاً، أثبتت معلومته في ذيل الدرر (٢).

---

(١) من أمثلة ذلك ما ورد في الإنباء - ج ٢ ص ١٩٨ - من قوله: «. . . وقرأت بخط البرهان المحدث بحلب: مات من الفقهاء الشافعية في الكائنة وبعدها علاء الدين الصرخدي، وشرف الدين الدادبخي، وشهاب الدين بن الضعيف، وشمس الدين البابي، وبهاء الدين داود الكردي، وشمس الدين ابن الزكي الجعبري»، ويقابله في الذيل - ق ٤٦ - قوله: «. . . وممن مات فيها: شمس الدين ابن الزكي الجعبري، قرأت بخط الشهاب الحلبي أنه مات في الكائنة. قال: ومات فيها من الفضلاء شهاب الدين ابن الضعيف، وبهاء الدين داود الكردي، وشمس الدين البابي، وذكر طائفة ممن تقدم ذكره، والله أعلم».

وما ورد في حولية إحدى عشرة وثمانمائة في «الإنباء» - ج ٢ ص ٤٠٥ - من قوله: «. . . مات فيها من الأمراء . . . وكذا: أرنبغا، وبيبرس بن أخت الظاهر، وسودون المارديني، وبيغوث»، ويقابل ذلك قوله في الذيل - ق ١١٠ -: «فيها قتل بحبس الإسكندرية بيبرس بن أخت السلطان، وبيغوث، وسودون الماردينى، وذلك في أواخر السنة».

ويلاحظ أن هذه الوفيات قد اجتمعت في مكان واحد تصدر الحولية الواقعة فيها على الرغم من وقوعها في «أواخر السنة»، كما يلاحظ أنها قد أخلت بالترتيب والتنظيم الداخلي المعتبر للوفيات.

(٢) حيث ورد في الإنباء - ج ٢ ص ٢٣٤ - قوله: «. . . وفيه (أي في ذي القعدة سنة ٨١٢ هـ) صرف . . . وكان ظالماً فاجراً، ولي شد الدواوين فأباد أصحاب الأموال، وبالغ في أذاهم، وكانت عاقبة أمره =

خامساً: أن «ابن حجر» قد أخطأ التأريخ في «الإنباء» وفي «ذيـل الدرر» ـ كذلك ـ وإن كان الخطأ في «الذيل» يصوبه ما ورد في «الإنبـاء».

سادساً: أن المواضع التي أوردها في ترجمـات وفيات «الإنبـاء» مغفلاً فيهـا التأريخ علىٰ وجه الدقة ـ دون إثبات اليوم والشهر ـ أو مكتفياً فيها بإدراج الـوفاة في الحولية الـواقعة فيهـا، هي هي نفس المواضـع الواردة في ذيـل الدرر[1]. مما يشير إلىٰ ضمن مصادره عليه بذلك.

سابعاً: أنه توجد علاقـة بين «الإنبـاء» و«الذيـل» من حيث الاقتضاب أو التـطويل أو التـوسط في ترجمات الوفيـات، فالتـرجمـات المـطولات في «الإنبـاء» مثيـلاتهـا في «الـذيـل» مـطولات، والمقتضبـة في «الإنبـاء» مثيـلاتهـا مقتضبـة في «الذيل». . وهكذا.

ثامناً: أن الأسلوب الإنشائي فيهما مـطابقي إلىٰ حد كبـير، كما أن طـريقة السرد فيهما واحدة باعتبار أن الكاتب واحـد، وأن الفترة المـدون فيها الـوفيات ـ

= أن ضربت عنقه صبراً بالقـاهرة». وهكـذا فإنـه قد بيض لـلاسم ليفصح عنـه في «ذيل الـدرر» ـ ق ١١٩ ـ قائلاً: «. . . وفيها ضربت عنق آدم البـريدي صبـراً بين القصـرين بأمـر الناصر، وكـان ظالماً فاجراً غشوماً.

(١) من ذلك ما ورد في ترجمة «خلف بن عبـدالله المصري» (ت ٨٠١ هـ/١٣٩٩ م) حيث أرخ الـوفاة بربيع الأول مهملاً إثبات اليوم في كليهما (الإنباء ج ٢ ص ٧٠ تر ٣١ والذيل ق ٩ تر ١٣)، وقوله في تـرجمة الحـرفوش (ت ٨٠١ هـ/١٣٩٩ م): «مـات في أوائل هـذه السنـة» ـ إنبـاء الغمـر ج ٢ ص ٧٣ تـر ٤٣، والذيـل ق ١٠ تر ٢٠ ـ ومـا ورد في ترجمـة الخجندي (ت ٨٠٢ هـ/١٤٠٠ م): «. . .وكان حج بسبب عمارة المسجد الحرام فمات راجعاً بين مـرو وعسقلان» ـ إنبـاء الغمر ج ٢ ص ١١٦ تر ٢٠ ـ ويقابله الذيل ـ ق ١٩ تر ٥ ـ قـوله: «. . . مات الخجنـدي في هذه السنـة وقد جاوز الثمانين».

وإن ورد التأريخ للوفيات مكتملاً في بعض مواضع من تراجم وفيات الإنباء وناقصاً في الذيـل، كـما ورد في تـرجمـة «خلف الـطوخي» (ت ٨٠١ هـ/١٣٩٩ م) ج ٢ ص ٧٠ تـر ٣٠ من الإنبـاء ـ قائلاً: «. . . مات في تاسع عشر ربيع الآخر» بينما المثبت في الذيل ـ تر ١٣ ق ٩ ـ قوله: «. . . مات في شهر ربيع الآخر».

فيهما ـ واحدة. وإن كان «ابن حجر» قد تخفف في «الذيل» من إيراد الإحالات[1].

تاسعاً: أنه يوجد تطابق بينهما في المعلومات والعبارات ـ المؤرخة والناقدة الواردة في ترجمات الوفيات في مواضع كثيرة، كما توجد تفصيلات ومعلومات زائدة في مواضع أخرىٰ قد ينفرد بها «الذيل»[2] أو «الإنباء».

(١) ويلاحظ أنه لا توجد إحالات في «الذيل» علىٰ «الإنباء» أو في «الإنباء» علىٰ «الذيل»، وإن وردت إحالة واحدة في «الذيل» علىٰ «المجمع المؤسس للمعجم المفهرس» في أثناء ترجمة «الشمس ابن عطاء الهروي»، حيث قال: «. . . وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه، وقد بسطت ترجمته في المعجم المفهرس» ـ الذيل ق ٢٠٤ تر ٥٧٠، ويقابل ذلك ق ٢٢٨ أ، ق ٢٢٩ أ من المجمع المؤسس.

(٢) من نماذج التطابق في العبارات أو في المعلومات الواردة في كل منهما قوله مترجماً لصرغتمش المحمدي (ت ٨٠١ هـ/١٣٩٩ م): «. . . ولي نيابة الأسكندرية سنة تسع وتسعين وسبعمائة، ومات في جمادىٰ الأولىٰ ـ الإنباء ج ٢ ص ٧٢ تر ٣٩ ـ ويقابله في الذيل ـ ق ١٠ تر ١٩ ـ قوله: «صرغتمش المحمدي تنقل إلىٰ أن ولاه الظاهر نيابة الأسكندرية في سنة تسع وتسعين وسبعمائة فمات بها في جمادىٰ الأولىٰ من هذه السنة»، وقوله في ترجمة أحمد بن خلف المصري، (ت ٨٠٢ هـ/١٤٠٠ م): «أحمد بن خلف المصري شهاب الدين ناظر المواريث، كان أبوه مهتاراً عند ابن فضل الله. مات في جمادىٰ الآخرة» ـ الإنباء ج ٢ ص ١١٣ تر ٩ ـ ويقابله قوله في الذيل ق ١٧ تر ٤٢ : «أحمد بن خلف المصري، شهاب الدين ناظر الموارث، كان أبوه مهتاراً عند ابن فضل الله. مات في جمادىٰ الآخرة» ـ الإنباء ج ٢ ص ١١٣ تر ٩ ـ ويقابله قوله في الذيل ـ ق ١٧ تر ٤٢ ـ «أحمد بن خلف المصري، شهاب الدين ناظر الموارث، كان أبوه مهتاراً عند ابن فضل الله فنشأ هو فتعانىٰ المباشرات ومات في جمادىٰ الآخرة»، وقوله في ترجمة «ابن عبدالله التركماني» (ت ٨٠٢ هـ/١٤٠٠ م: «أحمد بن عبدالله التركماني، أحد من كان يعتقد بمصر. مات في ربيع الأول» ـ الإنباء ج ٢ ص ١١٤ تر ١٣ ـ ويقابله في الذيل ـ ق ١٨ تر ٤٦ قوله: «أحمد بن عبدالله التركماني أحد من كان يعتقد بمصر. مات في شهر ربيع الأول».

ومن نماذج الإضافة في «الذيل» علىٰ «الإنباء» قوله في ترجمة «المشبب» (ت ٨٠١ هـ/١٣٩٩ م) «خليل بن عثمان بن عبد الرحمن عبد الجليل المصري المقريء المعروف بالمشبب، سمع من البدر ابن جماعة علىٰ ما قيل، وأقرأ الناس بالقرافة دهراً طويلاً، وكان منقطعاً بسفح الجبل وللملك الظاهر فيه اعتقاد كبير. مات في ربيع الأول واجتمعت به مراراً وسمعت قراءته وصليت خلفه وما سمعت أشجىٰ من صوته في المحراب» ـ ج ٢ ص ٧١ تر ٣٣ من الإنباء ـ لكن توجد بعض =

عاشراً: أن «ذيل الدرر» وإن كان ضنيناً بمصادره شحيحاً بذكرها أو الإفصاح عنها ـ قياساً بالإنباء ـ فإنه قد أفصح عن اعتماد «ابن حجر» للمصادر أو تغليب مصدر علىٰ آخر(١) كما ظهر «ابن حجر» فيه حريصاً علىٰ إثبات علاقته

= إضافات وتتمات لعناصر هذه الترجمة في ذيل الدرر ـ ق ٨ تر ١٢ ـ حيث يقابل قوله في الإنباء: «سمع من البدر ابن جماعة علىٰ ما قيل» قوله في الذيل: «قرأ علىٰ جماعة ممن تأخر وعني بذلك واشتهر به، وكان (قد سمع) من البدر ابن جماعة». ويقابل قوله في الإنباء: ـ «وكان منقطعاً بسفح الجبل»، قوله في الذيل: «وانقطع بزاوية بسفح الجبل المقطم» وقوله في الإنباء: «وللملك الظاهر وغيره فيه اعتقاد كبير» تفصيل في الذيل حيث ورد قوله: «وكان الظاهر يجله ويحترمه ويقبل شفاعته ويمكنه من الدخول إليه راكباً حماره، وكان منور الشيبة طيب النغمة بالقرآن. . .».

كما يضيف إلىٰ ما ورد في الإنباء ـ بشأن ترجمة «ابن عبدالله الطوخي» (ت ٨٠١ هـ/١٣٩٩) ـ من قوله: «وشفاعته مقبولة عند السلطان وغيره» ج ٢ ص ٧٠ تر ٣٠ ـ قوله في الذيل ـ ق ٩ ـ تر ١٣«. . . وشفاعته عند الأكابر مقبولة، وزاره السلطان فعظم قدره في أعين الناس».

وإضافته قوله في الذيل ـ ق ٩ تر ١٨ ـ «وكان يأتمنه ويعتمد عليه (السلطان) في تفريق الصدقة، وانتفع به جماعات ممن كان يعرفه قبل ذلك» إلىٰ قوله في «الإنباء» ـ ج ٢ ص ٧٢ تر ٤١ ـ بشأن الترجمة لصندل بن عبد الله الكنجكي (ت ٨٠١ هـ/١٣٩٩ م): «وكان الظاهر يعتقد فيه الجودة والأمانة، وكانت أكثر الصدقة تجري علىٰ يده مع كثرتها».

وقوله في الإنباء ـ ج ٢ ص ٧٧ تر ٥٩ ـ مترجماً لابن الشاهد المنجم (ت ٨٠١ هـ/١٣٩٩ م): «علي بن محمد الميقاتي. نور الدين ابن الشاهد المنجم، إنتهت إليه الرياسة في حل الزيج وكتابة التقاويم وقد راج بآخرة علىٰ الملك الظاهر وقربه وصار شيخ الطريقة، وكانت له معرفة بالرمل وغيره. مات في المحرم» يتممه قوله في الذيل ـ ق ١٠ تر ٢٤ ـ «علي بن محمد الميقاتي، نور الدين المعروف بابن الشاهد المنجم، كان عارفاً بحل الزيج متقناً لفنه، عمدة في كتابة التقاويم، وكان يعرف الضرب بالرمل وغير ذلك من الأمور الغيبية مع سلامة فيه. رأيته ملازماً لباب داره يكتب التقاويم جل نهاره، وقد راج بآخرة علىٰ الظاهر برقوق فولاه مشيخة الخروبية وانصلح حاله، ومات في شهر المحرم».

(١) كنحو قوله في ذيل الدرر بشأن الترجمة «لابن الفرات الحنفي» (ت ٨٠٧ هـ/١٤٠٥ م):

«. . . وكان لهجاً بالتاريخ فكتب تاريخاً كبيراً جداً بيض بعضه. . . وقد انتفعت بما تضمنت هذه المجلدات المبيضة في الإطلاع علىٰ كثير من الوقائع والترجم وإن كان في عبارته قصور» ـ ذيل الدرر ق ٨٧ تر ٢٣٢ ـ وهو ما يؤكد ما ورد في مقدمة «الإنباء» من الإعتماد علىٰ هذا المصدر، ويفصح ـ كذلك ـ عن جعله عمدة له في التأريخ علىٰ نحو ما هو بين في مؤلفنا «التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر العسقلاني» الفصل المعقود للمصادر. =

بالمترجم لهم سواء كانوا من رجال الحديث أو من غيرهم(1).

وهكذا فإن «ذيل الدرر الكامنة» يتعاون مع «إنبـاء الغمر» في الكشف عن المنهج التأريخي لابن حجر، بالإضافة إلىٰ إكمال كل منهما لما ورد لدىٰ الآخر من معلومات تأريخية لاغنية لدارس هذه الحقبة التاريخية عنها.

* * *

= وكذا الإفصاح عن مصدره في التأريخ للشاميين في مقدمة «الذيل» وقد مر، وإتخاذه رواية شفهية تلقاها من المؤيد شيخ المحمودي مصدراً للتأريخ لولادته قائلاً: «. . . ذكر لي ما يقتضي أن مولده سنة سبعين، فإنه قال لنا: إن الذي جلبه دخل به القاهرة مع أنص والد برقوق، وكان - أي المؤيد - حينئذ مراهقاً» - ق ١٨٣ تر ٥١٣ - وإن وردت هذه الرواية في «الإنباء» دون إستنتاج أو تأريخ لمولده من خلالها - إنباء الغمر ج ٣ ص ٢٥٦ تر ٦.

(1) كنحو قوله في ترجمة «الغماري» (تر ٨٠٢ هـ/١٤٠٠ م): «وقد حدث بالقصيدة المعروفة بالبردة عن أبي حيان عن ناظمها. سمعتها منه، وسمعت منه غير ذلك وأجاز لي. .»، وقوله في ترجمته «للسرائي» (ت ٨٠٢ هـ/١٤٠٠ م): «ذكر لي أنه زار قبر الرافعي، وأملىٰ عليّ تاريخ مولده ووفاته - أي مولد الإمام الرافعي» - الذيل ق ٢٣ - مع ملاحظة أن هذه المعلومة غير مثبتة في ترجمته من الإنباء - ج ٢ ص ١١١ تر ٣.

ثالثاً

رفع الإصر عن قضاة مصر(1)

جاء في مقدمته:

«. . .أما بعد، فقد وقفت على رجز في ذكر من ولي القضاء بالديار المصرية من نظم الأديب المشهور شمس الدين محمد بن دنيال الكحال نظمه لقاضي القضاة بدر الدين أبي عبدالله محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة. سُئلت أن

(1) عرف لهذا المؤلف عدة نسخ خطية لم توجد بينها المخطوطة الأصلية للمؤلف ولقد اطلعت على أربع منها هي:

أ ـ مخط. مكتبة فيض الله ـ بتركيا ـ ذات الرقم ١٤٥٥ تاريخ، وقد كتب في نهايتها ما يشير إلى أنها نسخت في القرن التاسع الهجري، وتقع في ١٤٠ ورقة مقاسها ١٨ × ٢٧ سم، وتنقص من أولها ورقة، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٦٠/ تاريخ.

ب ـ مخط. دار الكتب المصرية رقم ١٠٥ تاريخ، وقد كتبها أحمد بن أبي الشيخ علي السبكي سنة ١١٥٠ هـ. بخط نسخي واضح، وتقع في ٢٨٦ ورقة مسطرتها ١٩ سطراً، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٣/٢٦٠ تاريخ، ورقم ١٦٧٤ تاريخ.

جـ ـ مخط. مكتبة خدابخش بتنة ـ بالهند ـ رقم ٢٤٨٣، وقد كتبت سنة ١٣١٠ هـ. نقلاً عن نسخة بخط «محمد بن نصر الله بن حسن بن محمد الحنفي، كتبت سنة ٨٥٦ هـ. من نسخة «الشمس السخاوي». وتقع في ١٦٢ ورقة مقاسها ١٨ × ٢٩ سم، ومسطرتها ٢٩ سطراً، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١/١٠٧٤ تاريخ.

د ـ مخط. المكتبة الآصفية بحيدرآباد ـ بالهند ـ رقم ٩٠ تراجم والمكتوبة عن النسخة السابقة لها سنة ١٣١٠ هـ. وتقع في ٤٤٧ صفحة مقاسها ١٠ × ١٨ سم، ومسطرتها ٢٣ سطراً، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢/١٠٧٤ تاريخ.

أترجم لمن تضمنه الرجز فأجبت إلى ذلك، وجعلتهم طبقات على السنين منذ فُتحت مصر إلى آخر المائة الثامنة، وذكرت في ترجمة كل واحد منهم ما وقفت عليه من اسمه ولقبه ومنتهى غاية نسبه إن احتيج إلى ذلك، وذكر مولده ومذهبه وحليته والوقت الذي ولي فيه والذي صرف فيه والوقت الذي مات فيه بحسب ما اتصل إلى علمي من ذلك»(١).

وهو بهذا يشير إلى الآتي:

١ ـ سبب تأليفه للكتاب: سؤال غيره له أن يترجم لمن تضمنه نظم «ابن دنيال».

= كما قدر لهذا الكتاب أن يطبع في طبعتين غير مكتملتين، أولاهما نشرة لجنة جب التذكارية سنة ١٩٠٨ م. ذيلاً على كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي مع بعض الإستمداد لها من نسخة «سبط ابن حجر» ـ التي سوف يشار إليها تواً.

وتحتوي هذه الطبعة على تراجم القضاة الذين ولوا بمصر بين سنتي ٣٢٧ و٤١٩ هـ. مشتملة على أربع وأربعين ترجمة إبتداء بترجمة «الحارث بن مسكين»، وإنتهاء بترجمة «عبد الحكم بن سعيد الفارقي» وتشغل الصفحات من ٥٠٢ إلى ٦١٤.

ونشر رفع الإصر مستقلاً بتحقيق د. حامد عبد المجيد مع غيره في القسم الأول، واستقلالاً في الثاني ـ نشر الأول منها سنة ١٩٥٧ والثاني سنة ١٩٦١ م. ـ ويبتدىء بأول الكتاب وينتهي بنهاية ترجمة «علي بن يوسف بن مكي» ويقع في ٤١٤ صفحة من القطع المتوسط، ويتخذ من نسخة فيض الله أصلاً له مع معاونة أربع نسخ خطية هي: نسختا المكتبة الأهلية بباريس رقمي: ٥٨٩٣، و٢١٤٩، مخط. دار الكتب المصرية رقم ١٠٥ تاريخ ومخط. الأزهرية رقم ٦٦١٥ تاريخ.

كما قدر لهذا المؤلف أن يختصر عدة اختصارات بقي منها مختصر سبط ابن حجر المعروف باسم «النجوم الزاهرة بتلخيص أخبار مصر والقاهرة» ويقع في مجلدة تم الفراغ منها تبييضاً سنة ٨٧٧ هـ. وقد أشير في مقدمتها إلى أنه علق «رفع الإصر» لجده فوجد فيه أموراً في بعض مواضع منها إسهابه في بعض التراجم وإجحافه في بعضها الآخر، وإخلاله بتحرير من تكررت ولايته وإهماله بعض التراجم ـ معللاً لذلك بموت «ابن حجر» قبل تبييضه وتحريره. ـ حاجي خليفة. كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٣٢ ـ كما ذيل عليه «الشمس السخاوي» كتابه «بغية الرواة في الذيل على كتاب شيخي في القضاة» ـ وهو مطبوع.

(١) ابن حجر. رفع الإصر ج ١ ص ١.

٢ ـ متحواه: تراجم قضاة مصر إبتداء بالفتح الإسلامي لها وانتهاء بنهاية القرن الثامن الهجري.

٣ ـ منهجه في الترتيب والتبويب: على الطبقات حسب السنين.

٤ ـ أهم العناصر أو النقاط المبحوثة في المترجم لهم لديه في: الاسم ـ اللقب ـ النسبة ـ المولد ـ الوفاة ـ المذهب ـ نوبات القضاء مؤرخه.

لكن يبدو أن «ابن حجر» قد مات عن الكتاب في المسودة، على الرغم من ابتداء تصنيفه له سنة ٧٩٦ هـ. مما جعل «العز الحنبلي» (ت ٨٨٦ هـ. / ١٤٨٢ م.) يستعيرها معيداً كتابته إياه مرتباً على الحروف مع تلخيص وتنبيه على كثير مما فيه[١]. وإن احتيج مع ذلك إلى تحرير ـ على حد قول «السخاوي» في الذيل عليه[٢].

كما يلاحظ أن مادة الكتاب قد امتدت إلى أواسط القرن التاسع الهجري، بل وإلى ما بعد وفاة «ابن حجر» نفسه، وهو ما لا يتمشى مع ما ورد في المقدمة فضلاً عن نسبة هذه المواضع إلى مؤلف الأصل[٣].

ولذا فإنه انصافاً للكتاب ومؤلفه لا يمكن جرد مادته ومقابلتها بمقابلها في الإنباء للوقوف على الفوارق في كل، ما دام هذا العمل لم يكن خالصاً له، فضلاً عن تقديم دراسة منهجية للكتاب من حيث التبويب والتنظيم باعتبار أن هذا الجانب ـ كذلك قد عدل وبقي مرعياً في النسخ الخطية الموجودة تحت أيدينا مع نسيان وضياع نسخة الأصل.

---

(١) السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٨١ أ.

(٢) نفسه.

(٣) من نماذج ذلك ما ورد في ترجمة «ابن الصواف الحنفي» من قوله: «... ولي قضاء حماه، ثم ولي قضاء الحنفية بالديار المصرية بعد صرف القاضي محب الدين ابن الشحنة، وذلك في رجب سنة ٨٦٧ هـ» ـ ابن حجر. رفع الإصر ج ١ ص ٢٠٦ ـ وقوله في ترجمة «العز الحنبلي»: «... وخلع عليه في يوم السبت تاسع جمادي الآخرة سنة ٨٥٧ هـ. وركب معه بقية القضاة... وقد ذكره صاحب هذا الكتاب في مكانين منه وأثنى عليه بعد أن روى عنه تذييله على منظومة ابن دنيال ـ رحمه الله» ـ نفسه ج ١ ص ٥٣ ـ ٥٤.

ولكن مع ذلك فإنه يمكن إعطاء سمات عامة لهذا الكتاب تبين العلاقة بينه وبين الإنباء نذكر منها:

١ ـ أن «رفع الإصر» يشكل بعداً تاريخياً «للإنباء» وذلك لامتداد تراجمه إلى أزمنة بعيدة عن السنة التي استفتح بها «الإنباء» ـ سنة ٧٧٣ هـ. ـ بالإضافة إلى وجود الكثير من التفصيلات والخلفيات والدقائق المتعلقة ببعض جوانب وردت لدى «الإنباء» مقتضبة، وإن كان «الإنباء» ـ مع ذلك ـ يشكل بعداً تاريخياً لكثير من التراجم المعاصرة الواردة في «رفع الإصر» لاحتوائه على الحوادث المتعلقة بالكثير من تلك التراجم، خاصة فيما تعلق بالولايات الدينية والاستقرارات الوظيفية، أو المجالس والكائنات.

٢ ـ أن «رفع الأصر» لم يستوعب سائر قضاة مصر، وذلك لالتزام صاحبه بالترجمة لمن أورده «ابن دنيال» في رجزه، وقد سقط منه الكثير، مما جعل غيره يستدرك عليه ما فاته، على نحو ما مر آنفاً، كما أن «ابن حجر» ـ كذلك ـ لم يستوعب في «الإنباء» كل القضاة المتوفين في حيزة الزماني.

٣ ـ أن «ابن حجر» لم يستوعب في كثير من تراجم «رفع الإصر» تعدد نوبات القضاء والاستقرار فيه، بل حتى في ترجمته لنفسه، والتي وقف بها عند سنة ٨٢٧ هـ. وفي هذا اجحاف بالمترجم لهم فيه على هذا النحو. فضلاً عن أن بعض التراجم قد ترد فيه طويلة، كنحو ترجمته «للبرهان ابن جماعة»[١] و «العلم البلقيني»[٢] و «الجلال البلقيني»[٣] و «المجد البلبيسي»[٤] على حين ترد فيه كثير من التراجم المقتضبة كترجمته «للبرهان السعدي الأخنائي»[٥]، و «إبراهيم بن نصرالله العسقلاني»[٦]، وغيرهما.

---

(١) ابن حجر. رفع الإصر ج ١ ص ٢٩ ـ ٣٦.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٩.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٦.
(٤) نفسه ج ١ ص ١١٦ ـ ١١٩.
(٥) نفسه ج ١ ص ٤٠ ـ ٤١.
(٦) نفسه ج ١ ص ٤٢.

٤ ـ أن «ابن حجر» لم يخل تراجم رفع الإصر من نقد تاريخي[١] أو أدبي[٢] ربما لم يفصح عنه في الإنباء[٣].

٥ ـ أن الأسلوب في جوانب كثيرة منهما متشابهة، إلى حد بعيد، كما أنه كثيراً ما ترك بياضات وفراغات لتتمات تأتي بعد، فظلت كذلك إلى ما بعد وفاته[٤].

---

(١) كنحو قوله في ترجمة «السعد الإخنائي»: «... وكان مهيباً صارماً نزهاً عفيفاً، نافذ الكلمة، عظيم الحرمة، مفضالاً، مصمماً على إنفاذ الحكم لا يقبل رسالة ولا شفاعة، بل يصدع بالحق، ولا يغضي على باطل أصلاً ولا يولي إلا مستحقاً، وكان مع ذلك كثير الحلم والستر على من لا يجاهر» ـ نفسه ج ١ ص ٤١ ـ وقوله في ترجمة «ابن الكشك الحنفي»: «... وهو آخر من بقي من قدماء المدرسين والقضاة» ـ نفسه ج ١ ص ٥٦ ـ وقوله في ترجمة الحافظ أبي زرعة ابن العراقي: «... إمام الحفاظ وأستاذ المحدثين» ـ نفسه ج ١ ص ٨١.

(٢) كنحو قوله في المجد البلبيسي ـ ج ١ ص ١١٩ ـ: «... وكان كثير النظم جيد الوزن فيه، إلا أنه لم يكن بالماهر في عمله. وله أشياء كثيرة من قسم المقبول كقوله:

لا تحسبن الشعر فضلاً بارعاً ... ما الشعر إلا محنة وخيال
في الهجو قذف والرثاء نياحة ... والعتب ضعن والمديح سؤال

(من الكامل)

وقوله في ترجمة «ابن خلدون» ـ نفسه ج ٢ ص ٣٤٧ ـ: «... وقرأت بخط الشيخ تقي الدين المقريزي في وصف تاريخ ابن خلدون: مقدمته لم يعمل مثالها، وأنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها، إذ هي زبدة المعارف والعلوم، وبهجة العقول السليمة والفهوم، توقف على كنه الأشياء، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء، وتعبر عن حال الوجود، وتنبىء عن أصل كل موجود بلفظ أبهى من الدر النظم، وألطف من الماء مر به النسيم ـ انتهى كلامه. وما وصفها به فيما يتعلق بالبلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية مسلم له فيه، وأما ما أطراه به زيادة على ذلك فليس الأمر كما قال، إلا في بعض دون بعض، إلا أن البلاغة تزين بزخرفها حتى ترى حسناً ما ليس بالحسن».

(٣) كنحو قوله في ترجمة «البرهان ابن جماعة» ـ نفسه ج ١ ص ٣٠ ـ ٣١ ـ: «... وقد قرأت بخطه أجزاء تدل على أنه لم يمهر في فن الحديث، ورأيت له جزءاً خرجه لبعض الرحالة يدل على قصور كثير، مع ما كان عنده من الموارد».

(٤) كنحو قوله في ترجمة «سعد بن ربيعة الصدفي» ـ نفسه ج ٢ ص ٢٤٧ ـ: «... وذكر ابن يونس =

ولذا يمكن القول بأن ترجمات «الإنباء» و«رفع الإصر» تكمل كل منهما الأخرى، بالإضافة إلى تعاونهما في الكشف عن المنهج التاريخي لدى «ابن حجر».

وللدلالة على ذلك يمكن المقارنة بين ترجمة «البرهان ابن جماعة» في كلٍ من «الإنباء» و«رفع الإصر»، إذ نجد «ابن حجر» قد ترجمه في «الإنباء» من خلال الحوادث، وأعاد الحديث عنه في ترجمته مقتضبة - قياساً بما جاء بشأنه في «رفع الإصر» - في سنة وفاته[1]. مغفلاً للكثير مما ورد في رفع الإصر ومنه الإفصاح عن سائر مصادر ترجمته، حيث أن الوارد في «الإنباء» من تلك المصادر في ترجمته: شمس الدين الفيومي الكتبي - مشافهة[2] بالإضافة إلى قراءة ابن حجر لخط من يثق به[3] على حين أن الوارد في «رفع الإصر» من مصادر ترجمته: الذهبي في المعجم المختص، وجمال الدين عبدالله بن أحمد البشبيشي صاحب كتاب القضاة، والتقي المقريزي، والقاضيان: الجلال البلقيني والولي العراقي، والركراكي، وصهره - صهر ابن حجر - كريم الدين بن عبد العزيز ناظر الجيش - مشافهة[4].

وطبيعي أن ترد في ترجمته لدى «رفع الإصر» تفصيلات لا ترد أصلاً في «الإنباء»: حوادثه وترجماته، ومنها قوله: «. . . فاتفق أن بعض الفقهاء ازدراه لأنه لم يكن مشهوراً بالمهارة في الفقه فوصفه بقلة المعرفة، فاتفق أنه دخل عليه فرأى

= أن. . . .»، وقوله في ترجمة «المرادي العطيفي» - نفسه ج ٢ ص ٢٦١ -: «. . . قدم مصر سنة. . . وجالس عقبة بن عامر» وقوله في ترجمة «عبدالله بن حجيرة» - نفسه ج ٢ ص ٢٨٣-: «. . . وذكره ابن حبان في الطبقة. . . من الثقات»، وقوله في ترجمة «ابن عقيل» - نفسه ج ٢ ص ٢٨٥: «. . . قال الأسنوي في ترجمته. . .»، وقوله في ترجمة أبي ثوبان - نفسه ج ٢ ص ٣٩٨: «. . . فدامت علته إلى أن أتت على نفسه فمات، وذلك في سنة. . .».

(١) راجع العلاقة بين التراجم والحوادث من هذا الباب.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ١ ص ٣٥٥.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه. رفع الإصر ج ١ ص ٢٩ - ٣٦.

كتبه مصفوفة، فقال: يا مولانا قاضي القضاة ما أحسن تصنيف هذه الكتب ورمز إلى أنه قليل الإشتغال فيها، لأن كثرة الإشتغال تنافي حسن التصنيف غالباً. ففهمها وأسرها في نفسه، وكان ذلك الرجل يلي عقود الأنكحة فالتمس منه الإذن بذلك، فأذن له، فاتفق أنه وقع له عقد عقده المذكور فيه خلل، فأحضره واستكشف أمره، فوجده فاسداً فأمر بتعذيره، وكشف رأسه، وأُرْسِلَ إلى الحبس حاسراً، ثم اتفق أن بعض نواب القضاة بالشرقية دخل عليه فسأله عن شيء فأجابه وكشر كالضاحك، فتوهم القاضي أنه يستهزىء به، وليس كذلك، بل كان ذلك خلقة في ذلك الرجل، فأمر به فعزز نظير ما عزز الأول فارتدع أهل البلد وهابوه»[1].

(١) المصدر السابق ص ٣١.

رابعاً

المجمع المؤسس للمعجم المفهرس

عنوان الكتاب:

جاء في النسخ الخطية ومنها نسختان بخط «ابن حجر» أن اسم هذا الكتاب هو: «المجمع المؤسس للمعجم المفهرس»، بينما تفردت نسخة دار الكتب المصرية بتسميته باسم «المجمع المؤسس بالعجم المفهرس»، وهي تسمية وردت لدى كل من: «البقاعي» و«السخاوي» و«السيوطي» في ترجمتهم لابن حجر[1]. لكن التسمية الأولى أولى، لأنها التي أوردها مؤلف الكتاب، فضلاً عن أنها مثبتة عليه بخطه، سواء في خطبة الكتاب أم في آخره.

تاريخ تأليفه والفراغ منه:

أشار «ابن حجر» فيه إلى أن ابتداء تأليفه له كان «بعدن» سنة ست وثمانمائة للهجرة، وإلى أن الفراغ منه كان بالقاهرة يوم الخميس سادس عشر جمادي الآخرة سنة تسع وعشرين وثمانمائة[2]. على حين جاء في نسخة سابقة لهذه النسخة الحاملة لتلك المعلومات ـ أنه فرغ من ترتيبه سنة سبع عشرة وثمانمائة[3]. كما نبهت إحدى النسخ المأخوذة عن معجمه إلى أنه «كمل في شعبان سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة[4]».

(١) البقاعي. عنوان الزمان ج ١، ق ٥١، السخاوي. الجواهر والدرر ق ١٧٨ أ السيوطي. نظم العقيان ص ٤٧.

(٢) كما في آخر ورقة من مخط. المكتبة الأزهرية بالقاهرة.

(٣) كما جاء في آخر نسخة من مخط. مكتبة مراد ملا بتركية.

(٤) كما جاء في مخط. إبراهيم باشا بالأسكندرية.

ويبدو أن «ابن حجر» بعد أن فرغ من تأليفه عاد إليه منقحاً ومعدلاً سواء بالحذف أو بالإضافة، كما يظهر من كثرة الشطب والإضافات في نسختيه، ومن قوله في إحداهما: «. . . يقول أحمد بن علي بن حجر: ظفرت بالفرجة - أي الصفحة - الملحقة مقابلها، وهي بخط صاحبنا صلاح الدين خليل بن محمد بن عبدالله الاقفهسي بعد بضع عشرة سنة من تكميل هذا المعجم فألحقت ما تضمنه من ترجمة زائدة عمن لم يقدم ذكره، ونبهت في كل ترجمة منها على ذلك». بالإضافة إلى إثباته تواريخ وفيات تمتد بالكتاب حتى سنة خمس وأربعين وثمانمائة للهجرة[1].

موضوع الكتاب:

أشار «ابن حجر» في مقدمة معجمة إلى محتواه والغاية من تأليفه، فضلاً عن نهجه في تنظيمه وتبويبه قائلاً:

«. . . أما بعد فإن كثيراً من سلف المحدثين اعتنوا بجمع أسامي شيوخهم وتدوين أخبارهم فتغايرت مقاصدهم في الترتيب، فرأيت أن أحذو حذوهم وأسير تلوهم لأتذكر عهدهم وأجدد لهم الرحمة بعدهم، فجمعت أسامي شيوخي على المعجم مرتباً وقسمتهم على قسمين مهذباً.

فالأول من حملت عنه على طريق الرواية، والثاني من أخذت عنه شيئاً في

---

(١) حيث أرخ وفاة سليمان بن عبدالله بن يوسف البيري الحلبي بسنة ٨٣٣ هـ. - ق ٢٢٦ - ووفاة الكلوتاتي بسنة ٨٣٥ هـ. - ق ٢١٢ - ووفاة أحمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد الواسطي بسنة ٨٣٦ هـ. -ق ٤٠ أ- وكذا وفاة محمد بن عبد الرحيم المنهاجي - ق ٢٦٧ أ - ووفاة كل من: سبط ابن العجمي - ق ١٩٩ أ - والشهاب القرداح - ق ٢٠٠ أ - وعلي بن موسى بن إبراهيم الروحي - ق ٢١٨ - ومرتضى بن عبد الله الصوفي - ق ٢٤٤ - بسنة ٨٤١ هـ. ووفاة محمد بن أحمد بن عثمان البساطي - ق ٢٥٧ - وابن ناظر الدين - ق ٢٦٠ ب، ١٦١ أ - بسنة ٨٤٢ هـ. وابن خطيب الناصرية بسنة ٨٤٣ هـ. - ق ٢٤١ ب، ٢٤٢ أ - وأحمد بن نصرالله البغدادي - ق ٢١٩ ب، ٢٢٠ أ - بسنة ٨٤٥ هـ.، وإن كان الصواب تأريخها بالتي قبلها.

المـذاكـرة من الأقـران ونحـوهم، وقـد قسمتهم من حيث العـوالي إلى خمس مراتب [١].

مشيراً إلى أنه ذكر في ترجمة كل منهم جميع مسموعه عليه، وإن لم يستوعبه في بعضهم[٢].

وهو بهذا يشير إلى أن معجمه قد جمع فيه تراجم من أخذ عنه سواء كانـوا من مشايخه أو رفاقه ونحوهم مسنداً مسمـوعه عنهم إليهم، وإن زاد عليهم فصـلاً في «معرفة الشيوخ الذين أجازوا عموماً وفي إجازتهم بعض خصـوص كقيد البلد ونحوها: «لتستفاد ترجماتهم»، مشيراً إلى أنه ليس من أصل الكتاب، وإنما هو زائد عليه لعدم اعتداده بالرواية والإجازة العامة[٣].

ويضاف إلى ذلك أن «ابن حجر» قد سلك في ترتيب معجمه عـلى حروف الهجاء نهجاً هو:

قسمته إلى معجمـين يحتـوي كـل منهـا عـلى قسم من القسمـين السـابق الإشارة إليهما. ولذا جاء القسم الثاني مستفتحاً بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم وبـه ثقتي، الحمدلله الكبـير المتعال والصلاة والسلام عـلى سيدنـا ومـولانـا محمـد صـاحب الكمال والجمـال والرتب العـوال وعلى آلـه وصحبـه أشـرف صحب وأطهر آل وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الحشر والزلزال، وبعد ـ فأقـول: لما انتهيت من أصله المنقبس أردفت ذكـر المعجم الثاني من شيـوخ كاتبـه المفهرس، فـأقول وهي الطبقة الصغرى ومن ألحق بهم من الأقران وغيرهم»[٤]، وكان قبل ذلك قـد ختم القسم الأول بقوله: «آخر المعجم الأول، يتلوه المعجم الثاني»[٥].

ومـع ترتيب كـل منها عـلى حروف الهجـاء فإنـه قد اعتنى بسـرد ترجمـات

---

(١) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢ ب.

(٢) نفسه ق ١٤٢ أ.

(٣) نفسـه ق ١٨٦ أ.

(٤) نفسه ق ١٩٨ .

(٥) نفسه ق ١٨٥ أ.

النساء في كل حرف تلو آخر الرجال فيه مصدراً ذلك بقوله: «. . . من النساء في هذا الحرف . . .»[1] اللهم إلا إذا كان هذا الحرف لا يحتوي إلا على ترجمة واحدة من تراجم الرجال أو لا يحتوي أصلاً على أي من ترجماتهم فإن هذه العبارة تسقط.

كما أنه قد قدم في حرف الميم من اسمه واسم أبيه فجده (محمد) تبركاً[2] ثم أتبعهم بمن اسم أبيه أحمد أو غيره، بالإضافة إلى أنه أورد من اسمه «أبو بكر» بين حرفي الألف والباء معللاً لذلك بقوله: «لأنا إن اعتبرنا الجملة فأولها ألف وإن اعتبرنا الركن فأوله الباء»[3].

وبالدراسة النقدية المقارنة بين مادة «الإنباء» والمجمع المؤسس يمكن ملاحظة الآتي:

١ ـ أن كثيراً من ترجمات المجمع المؤسس تدخل في الحيز الزماني المصاحب للإنباء باعتبار أن سائر المترجم لهم فيه ممن عاصر «ابن حجر» وتحمل عنهم بالقراءة والسماع أو بالإجازة. . وبالتالي أورد لهم ترجمات في «إنباء الغمر» وإن انفرد المجمع المؤسس بالكثير من التراجم التي لم ترد في «الإنباء» لأنها كانت من مجهولات الوفاة بالنسبة لابن حجر، أو لأن أصحابها كانوا وقتها أحياء، وظلوا كذلك إلى ما بعد وفاة «ابن حجر» أو انتهائه من كتابة آخر حوليات الإنباء.

٢ ـ أن «الإنباء» يشكل بعداً تاريخياً للمجمع المؤسس لاحتوائه على الحوادث بما فيها من مادة مكملة لعناصر الترجمات.

---

(١) انظر على سبيل المثال المصدر السابق ق ١٣٢ ب، ١٢٧ أ، ١٢٦ أ.

(٢) نفسه ق ١٤٣ أ، حيث قوله: «. . . ذكر من اسمه محمد، وكذا أبوه وجده تبركاً بالاسم الشريف».

(٣) نفسه ق ٤٥ ب.

٣ ـ أنه قد اتبع في المجمع المؤسس المسلك نفسه المتبع في الإنباء من تبييض للمعلومات في مواضع كثيرة من الترجمات[١] أو الإتيان بأسماء مجردة غير مترجم لها فيه[٢] أو الإحالة في أثناء الترجمات إلى تتمات ومعلومات تأتي في ترجمات أخرى[٣] أو عدم الدقة في تأريخ الوفاة[٤] أو التثبت من المعلومات أحياناً[٥].

٤ ـ عدم الموازنة بين ترجمة وأخرى من حيث الحيز المكاني، فقد تأتي ترجمة

---

(١) من أمثلة ذلك التبييض لسنة الوفاة في ترجمة «ابن القرع» قائلاً: «... ومات في...» ـ المصدر السابق ق ١٧٦ ب ـ على الرغم من وفاته سنة إحدى عشرة وثمانمائة ـ السخاوي. الضوء اللامع ج ٨ ص ٢٥٣ تر ٦٩١ ـ ولذا لم ترد له ترجمة في الإنباء. وتبييضه لما أجازه أبو القاسم بن أحمد بن محمد المقرىء البزالي قائلاً: «... قدم حاجاً سنة ثمانمائة وأجاز...» ـ ابن حجر. المجمع المؤسس ق ١٤٢ ل ـ وتبيضه لمعلومات تتعلق بما تحمله عن إحدى ترجماته قائلاً: «... قرأت عليها مشيختها تخريج...» ـ نفسه ق ١٦٧ أ ـ وتبييضه للإسم قائلاً في ترجمة أحمد بن أيوب بن إبراهيم: «... ابن المنفر» ـ نفسه ق ١٨٦ أ..

(٢) من ذلك قوله: «أحمد بن عبدالله بن أحمد السمريائي الحنبلي العرباني» ـ هكذا ـ ق ١٨٧ أ ـ وقوله: «عبد الله بن محمد بن عبدالله بن خليل» ـ هكذا مجرداً ـ ق ١٩٠ ب.

(٣) كنحو قوله في ترجمة الفخر القياتي: «... وسيأتي سنده في ترجمة محمد بن علي البالسي إن شاء الله» ـ نفسه ق ١٥٨ ب ـ وقوله في ترجمة خديجة بنت تقي الدين محمد»: «... وسيأتي ذكر شيء من مروياتها في ترجمة أخيها إن شاء الله تعالى» ـ نفسه ق ٦١ ب وقوله في ترجمة الجمال المصري: «... وقد أجاز له من تقدم ذكره في ترجمة أحمد بن علي الفاسي» ـ نفسه ق ٢٦٣ أ.

(٤) حيث أتى كثير من الوفيات خلواً من تأريخ له كما فعل بترجمة أحمد بن أقبرص ـ نفسه ق ١٩ أ ـ وأحمد بن عبد القادر البعلي ـ نفسه ق ٣٣ ب ـ أو بلفظة التبعيض، كنحو قوله في ترجمة الفتح ابن الخراط «مات سنة بضع وثمانمائة» ـ نفسه ق ١٧٩ ب ـ أو بما قبل السنة المثبتة كنحو قوله في ترجمة عثمان بن محمد الشفري: «... مات قبل سنة ٨٢٠ هـ.» ـ نفسه ق ٢٣٨ ب، أوالتأرجح في سنة الوفاة، كما فعل في ترجمة وجيه الدين العلوي الزبيدي، حيث قال: «... مات سنة ٨٠٣ أو ٨٠٤» ـ نفسه ق ٢٣٦ ب.

(٥) كنحو قوله في ترجمة ابن حازم الأزرعي الحنفي: «... وأظن أني قرأت عليه... ولم أتحقق ذلك حال كتابتي لهذه الأسطر» ـ نفسه ق ١٦٥ أ ـ وقوله في ترجمة فاطمة بنت المنجا التنوخية: «... هذا آخر ما وجدته عندي وما أظنني استوعبت، والله أعلم» ـ نفسه ق١٤٢ أ.

شاغلة لبضع ورقات[1] بينما تأتي أخرى شاغلة لبضعة أسطر[2] أو مترجمة في أقل من السطر[3]. وبالتالي فإنه لم يعن بالموازنة بين قسمي المعجم من حيث عد الترجمات فيهما، فضلاً عن المساحة المخصصة لكل قسم وينسحب ذلك تماماً على المساحة التي يشغلها الحرف الواحد.

وطبيعي أن يكون لكل هذا تأثيره في مادة الترجمات من حيث الزيادة أو النقص في عناصر الترجمات، والإسهاب أو الإقتضاب في العنصر الواحد.

٥ ـ أنه لم يخل تراجم معجمه من النقد التأريخي[4] أو الأدبي[5]، كما أنه كان شديد الإعتناء بذكر علاقاته بالمترجم لهم فيه، مع وجود صفة غالبة على كل من انتظم فيه وهي المعاصرة، حيث الإتصال بهم والتحمل عنهم[6].

---

(١) من نماذج ذلك ترجمة كل من: البرهان الشامي الضرير ـ نفسه ق ٢ أ: ١٢ ب، وابن المجاور الرسام ـ ق ١٤ أ: ١٧ أ، وشهاب الدين المحدث ـ ق ٢٣ أ ـ والزين العراقي ـ ق ٩٩ أ: ١٠٩ ب.

(٢) من نماذج ذلك قوله: «محمد بن حسن بن علي البيجوري، الفقيه شمس الدين الشافعي، سمع من عبد الرحمن القارىء في صحيح البخاري، وعلي عز الدين ابن جماعة جزءاً من تخريج الدمياطي لنفسه عنه. سمعت عليه وتفقه وبرع ومات سنة سبع وعشرين وثمانمائة» ـ نفسه ق ٢٦٤ ب.

(٣) كنحو قوله: «عبد الرحمن بن سلطان بن الزغبوب الدمشقي. مات سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة» ـ نفسه ق ١٩١ أ.

(٤) كنحو قوله بشأن البرهان التنوخي: «... ونزل أهل مصر بموته في الرواية درجة» ـ نفسه ق ١٢ ب، وقوله بشأن فاطمة بنت المنجا التنوخية: «... تفردت بالرواية عنهم في الدنيا» ـ نفسه ق ١٣٣ أ ـ وقوله في حق ابن مكي المقدسي: «... وكان مزجي البضاعة في العلم» ـ نفسه ق ٥٨ ب.

(٥) كنحو قوله في ترجمة ابن ناصر الدين: «... ونظر في الأدب حتى نظم الشعر الوسط» ـ نفسه ق ٢٦١ أ.

(٦) كقوله في ترجمة التقي المقريزي: «... وبيننا من المودة ما لا يسعه الورق» ـ نفسه ق ٢١٤ ب.

٦ ـ أن مادة المجمع المؤسس تتعاون مع مادة الإنباء في الكشف عن منهج «ابن حجر» في الكتابة التاريخية، بالإضافة إلى إعطاء صورة متكاملة بالنسبة لفكره تجاه من ترجم لهم فيهما، ويمكن أن نعطي لذلك الأمثلة في محورين هما:

أ ـ تعاون المجمع المؤسس مع الإنباء في الكشف عن منهجه في استخدام المصادر، خاصة الوارد فيه من نقول مسندة إلى مصدرها ويكون لها في الإنباء مقابل. حيث ورد في المجمع المؤسس قوله في النصفي الحنبلي[1] (ت ٨٠٣ هـ. / ١٤٠١ م.): مسنداً إلى ابن حجي الحسباني: «... قال ابن حجي: كان فقيهاً محدثاً حافظاً قرأ الكثير وحرر واتقن وألف وجمع وكان قد تخرج بابن المحب وابن رجب، وأفتى مع الإنجماع والتقشف»، بينما يقابل ذلك في ترجمته من الإنباء قوله[2]: «... قال ابن حجي: كان فقيهاً محدثاً حافظاً، قرأ الكثير وضبط وحرر واتقن وألف وجمع مع المعرفة التامة. تخرج بابن المحب وابن رجب، وكان يفتي ويتقشف مع الإنجماع. ولم يكن الحنابلة ينصفونه».

وبالمقارنة بين المنقولين يتضح أن «ابن حجر» قد أسقط من ترجمته في المجمع المؤسس كلمة «ضبط»، وأتبع كلمة «جمع» في الإنباء قوله: «مع المعرفة التامة» مع إسقاط «كان قد»، وإبدال «أفتي» بقوله: «وكان يفتي» وقوله: «مع الإنجماع والتقشف» بقوله «ويتقشف مع الإنجماع»، على حين زاد في الإنباء قوله: «ولم يكن الحنابلة ينصفونه» مما يشير إلى تصرفه في عبارة مصدره.

ب ـ التكامل بين ترجمات الإنباء والمجمع المؤسس من حيث المعلومات الواردة فيهما، ومن أمثلته قوله في المجمع المؤسس[3] مترجماً لابن المنهاجي (ت ٨٣٦ هـ. / ١٤٣٣ م.): «محمد بن عبد الرحيم بن أحمد المنهاجي، شمس الدين، كان أبوه أعجوبة في حسن الأدب مشهور بذلك، وهو سبط الشيخ شمس الدين ابن اللبان، واشتغل شمس الدين كثيراً ونظم الشعر وفاق الأقران

---

(١) المصدر السابق ق ٢٦٣ ب.

(٢) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٢ ص ١٨٦ تر ١٠٥.

(٣) نفسه المجمع المؤسس ق ٢٦٧ أ.

ولازم شيخنا ابن جماعة فمهر في الفنون. ومولده سنة اثنتين وسبعين تقريباً. سمعت من شعره وطارحني ومدحني بقصيدة. مات سنة ست وثلاثين وثمانمائة».

ويقابل ذلك في الإنباء[1] قوله: «محمد بن عبد الرحيم بن أحمد المنهاجي المعروف بسبط ابن اللبان، الشيخ شمس الدين الشافعي. ولد بعد السبعين، واشتغل قديماً، وأخذ عن مشايخ العصر كالعز ابن جماعة وشمس الدين ابن القطان وقرأ على ابن القطان صحيح البخاري بحضوري، وقرأ عليّ ترجمة البخاري يوم الختم، وتعاني نظم الشعر فمهر فيه، وله عدة قصائد ومقاطيع، ومهر في الفقه والأصول، وعمل المواعيد وشغل الناس ولزم بآخرة جامع عمرو بن العاص يقرأ فيه الحديث والمواعيد ويشغل الناس. وكان حسن الإدراك واسع المعرفة بالفنون، حج في هذه السنة من البحر فسلم ودخل مكة في شهر رجب مجاوراً إلى زمن إقامة الحج فحج وقضى نسكه ورمى جمرة العقبة ثم رجع فمات بمنى قبل طواف الإفاضة. سمعت من نظمه وطارحني مراراً وكتب عني كثيراً».

ومع تطويله لترجمته في الإنباء نجد أن المجمع المؤسس قد انفرد بتحديد سنة مولده على وجه التقريب «ومولده سنة اثنتين وسبعين تقريباً» على حين انفرد الإنباء بإيراد بعض الشيوخ المأخوذ عنهم مما لم يرد في المجمع المؤسس وكذا قراءته على ابن حجر، والعلوم التي مهر المترجم له فيها وحاله قبل الوفاة مع ذكر كيفيتها وتحديد موضعها.

وعلى العكس من ذلك تماماً، فإن ترجمته لابن البيطار (ت ٨٢٥ هـ. / ١٤٢٢ م.) في معجمه[2] يمكن الاستغناء بها عن ترجمته في الإنباء، حيث الوارد في الإنباء[3] قوله: «محمد بن علي بن خالد الشافعي، شمس الدين المعروف

---

(١) ابن حجر. إنباء الغمر ج ٣ ص ٥٠٨ تر ١٨.

(٢) نفسه، المجمع المؤسس ق ٢٦٧ أ.

(٣) نفسه، إنباء الغمر ج ٣ ص ٢٩٢ تر ٢٣.

بابن البيطار، سمع من عبد الرحمن بن الشيخ علي بن هارون القارىء مشيخته تخريج شيخنا العراقي، وسمع من غيره، ولازمنا في الإسماع على المشايخ كثيراً. وكان وقوراً ساكناً حسن الخلق كثير التلاوة، ومات في ربيع الآخر».

ويقابله قوله في المجمع المؤسس قوله: «محمد بن علي بن خالد بن محمد بن أحمد، شمس الدين ابن البيطار. ولد سنة اثنتين وخمسين، وسمع علي عبد الرحمن ابن القارىء، وسمع علي شرف الدين عبد الرحمن بن عساكر شيئاً من النسائي... وهذا القدر هو فوت ابن الصواف، وسمع مجموع ابن الصواف على أصحابه وسمع الكثير معنا، وأسمع أولاده، وأجاز في استدعاء ابني محمد، وكان حسن السمت كثير التلاوة. مات في ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة». وهنا نجد أن ترجمته في «الإنباء» لا تزيد عما ورد في المجمع المؤسس شيئاً، بل نجد أن المجمع المؤسس قد انفرد بتأريخ مولده، والإسهاب في ذكر من تحمل عنهم من الأساتيذ، وطرق مسموعه عليهم، وعلاقة ابن حجر به.

بل وحتى في موضع تطابق المعلومات الواردة بشأن المترجم لهم لديه في «الإنباء» والمعجم لانعدم الوقوف على إفادة أو إضافة، ومن نماذج ذلك قوله في المجمع المؤسس[1] بشأن ابن مقبل التركي (ت ٨٠٦ هـ. / ١٤١٤ م.): «محمد بن مقبل بن عبدالله التركي، تفقه في صباه وسمع من كلام بعض الظاهرية ففتن به وأكب على الإشتغال بكلام ابن حزم وغيره، وكتب الكثير بخطه، واشتهر بذلك ولم يكن بالماهر، وكان يرفع يديه في كل خفض ودفع ويحف شاربه. رأيته مراراً وسمعت كلامه. مات في سنة ست وتسعين وسبعمائة».

ويقابله قوله في الإنباء[2]: «محمد بن مقبل التركي. تفقه في صباه وأحب مذهب الظاهرية فتظاهر به، وكان يحف شاربه ويرفع يديه في كل خفض ورفع، وكتب بخطه كثيراً جداً».

وهكذا فإن المجمع المؤسس ـ في هذا الموضع ـ أفاد عنصراً لم يرد في «الإنباء» وهو المشاهدة والسماع عليه.

---

(١) ابن حجر. المجمع المؤسس ق ٢٧١ أ.

(٢) نفسه. إنباء الغمر ج ١ ص ٤٨٤ تر ٢٥.

الخاتمة

على الرغم من أهمية ما خلفه «ابن حجر» من الكتابات التاريخية أسقطه من جانب المؤرخين بعض الدارسين المحدثين، وتضاءلت قيمة مؤلفاته لدى البعض الآخر وربما كان مرد ذلك إلى أمور منها:

١ ـ غلبة جانب المحدث على «ابن حجر»، واشتهاره به.

٢ ـ إغفال هذا النوع من النقاد دراسة مؤلفاته التاريخية أوالوقوف على أهميتها.

٣ ـ ما شاع من أن العصر المملوكي كان عصر تقليد إنعدمت فيه الجدة وخلا من الابتكار، ومن أن الكتابات في هذا العصر لا تعدو أن تكون مختصرات أو شروحاً لما سبق أن كتب فيه، أو موسوعات تحتوي على جمع تأليفي لشتات حضارة بغداد بعد سقوط الخلافة فيها.

ولذا فإن هذا البحث قد عني بالترجمة «لابن حجر» في باب مستقل بهدف الكشف عن شخصيته حيث توصلت إلى نقاط جانبية من أهمها:

تعدد مصادر ترجمته واعتناء القدامى بتتبع حياته بالدراسة والتدوين ـ الاختلاف في إثبات سلسلة نسبة لدى مترجميه، بل ولديه كذلك، وكذا الاختلاف في تحديد يوم مولده ووفاته على وجه صائب ـ تنوع علومه وتعددها وكثرة شيوخه وأساتذته ـ اعتناء «ابن حجر» بالرحلة والطلب مما انعكس على

كتاباته التاريخية كذلك وصبغها بالصبغة الشمولية ـ توليه الكثير من الوظائف العلمية والولايات الدينية حيث وفر له كل هذا الاتصال بالحوادث والمشاركة فيها ومصاحبة رجالات الدولة من سلاطين وخلفاء وأمراء وولاة وغيرهم. . وهو ما مكن له من الإطلاع على شئون الدولة والتعرف على وثائقها والتثبت من صحة أخبارها، حتى لقد تفرد بذكر الكثير من الحوادث وجوانب الشخصيات المترجمة لديه في «الإنباء»، بل ربما عد مصدراً وحيداً لبعض التراجم، كما مر في الترجمة للزين العراقي.

أما الباب الثاني فقد خصص للدراسة المنهجية «للإنباء» حيث أمكنني الإشارة إلى أهميته الكامنة في كونه المؤلف الوحيد «لابن حجر» المشتمل على الحوادث والتراجم، والذي كان معاصراً لحيزه الزماني مدركاً لما فيه مشاركاً في حوادثه مخالطاً للكثيرين ممن ترجموا لديه فيه.

وإن لم يعرف على وجه اليقين ابتداء «ابن حجر» بالشروع في تدوينه فإنه من المجزوم به أنه لم يكن يكتب حوادثه حال وقوعها، وإنما بعد انقضاء أمد بعيد من ذلك، كما أنه كان دائب الرجوع إليه منقحاً ومهذباً بالإضافة أو بالحذف، ولذا ظل الكتاب إلى وفاته في المسودة إلى أن قدر له الذيوع والإنتشار بعد موته، دون مراعاة من النساخ والناشرين قدامى ومحدثين لرغبة مؤلفه في تجزئته ـ وهو منهج مرعى ومدرك لديه ـ حيث تخطوا تقسيمه إلى تقسيمات أخرى مغايرة روعي فيها الشكلية البحتة التي لم تكن يعيرها بالاً.

ولقد اتضح أن النسق الفني للإنباء يتمثل في تنظيمه على مقدمة متبوعة بمعلومات نظمت على الحوليات المتتابعة الإفراد ابتداء بحولية ثلاث وسبعين وسبعمائة للهجرة وانتهاء بحولية خمسين وثمانمائة مع مراعاة أن تذكر الحوادث والتراجم فيها منفصلة عن الأخرى من حيث النسق الترتيبي، وقد نظمت تراجم الوفيات حسب حروف الهجاء مع اعتبار اسم المترجم له فحسب، أما الحوادث فقد روعي فيها أن تأتي متتابعة التسلسل في صدر حولياتها، ولم يسر فيها على وتيرة واحدة.

كما لوحظ ـ كذلك ـ عدم اعتناء «ابن حجر» بالتنسيق بين عدد الصفحات أو كمية المعلومات الواردة في الحوليات فرادى، فضلاً عن إغفال التنسيق الفني في البناء الداخلي للحولية المفردة حيث لا يوجد مثل هذا التناسق بين التراجم والحوادث من حيث المساحة الشاغلة لها أو العد فيهما، ولعل علة ذلك راجعة إلى طبيعة كاتبها وتوفره على المصادر وتوفر المصادر له، فضلاً عن نوع المعلومات المدونة لديه.

أما النسق التعبيري للإنباء فيشير إلى مميزات خاصة بأسلوب «ابن حجر» تتمثل في فصاحة اللفظ ومعجميته، وتخير أساليبه البلاغية، وتضمينه للعبارات البليغة شائعة الاستعمال لدى كتاب العصر، مع توارد الاصطلاحات والتعبيرات المعروفة لعصره، وكذا التأثر بالقرآن الكريم والاقتباس منه، والاعناء بتضمين الحوادث والتراجم للكثير من الشواهد الشعرية، والابتعاد عن السجع والتكلف، واستعمال المختصرات، والمزاوجة في تدوين التواريخ بين الأرقام والحروف، وضبط الأسماء في الأعلام والأنساب والأمكنة بالحروف، تحرياً في الدقة والبعد عن التصحيف، والإفصاح عن رأيه وانفعالاته بعبارات وألفاظ سافرة، واستعماله اصطلاحات ومختصرات المحدثين.

كما ذيلت على ذلك بإبراز اتجاه «ابن حجر» إلى الشمول الموضعي والموضوعي لحوادثه قصداً إلى إكتمال الحدث بتتابعه وتسلسل عناصره في موضع واحد أو الإحالة في الحوادث والتراجم إلى معلومات فائتة أو لاحقة تحقيقاً لذلك، فضلاً عن توجيه الحوادث وجهة نقدية بهدف الإفصاح عن حال من تعلق به الحدث، أو توظيف الحدث للإبانة عن تعاطفه مع بعض الشخصيات والتأثير في نفس المطالع له، أو بتتبع الرواية المصاحبة له.

أما طبيعة الحوادث وأسس انتقاء مادتها، فقد اتضح أن «الإنباء» اشتمل على الحوادث الواقعة بين سنة مولده وسنة خمسين وثمانمائة وقد راعى فيها الشمولين النوعي والمكاني وإن استأثرت حوادث الدولة المملوكية من بينها بالحيز الكبير باعتبارها دولة الخلافة التي نشأ «ابن حجر» في أرضها وتكون وعاش في

ظلها، ولذا لم تقتصر أحداث حولياته على المجال السياسي فقط، وإنما كان مع ذلك التطرق بإسهاب إلى نواح متعددة من إدارية متمثلة في إيراد الكثير من الاستقرارت الوظيفية وما قد يطرأ عليها من تغيرات وما يعتريها من الإختلال أو الإستقرار والانتظام معللاً وناقداً، وما يتعلق بها من الرسوم وإن لم تكن مطردة بحيث يمكن أن تستخرج منها قوائم متسلسلة ومكتملة - وسياسية مختصة بالعلاقات الداخلية والخارجية للدولة المملوكية مع الإعتناء ببيان أثر سياسة الدولة المملوكية على الرأي العام في وقته ووقعه على الأنفس، كما أبرز أعمال السلاطين والأمراء فيما تعلق بالعمارة والبناء، وكذا حياتهم الخاصة، مع إثبات المراسم الصادرة من الإدارة المملوكية، وكذا حال النيل وما يتبعه من حالات إقتصادية وما قد يصيب مجتمعة من النكبات والأمراض، كما اهتم بأمر الحاج، وما يظهر من البدع والكائنات، أو يقع من المنافسة بين العلماء، أو إفشاء العوام والمماليك للفتن والفوضى والثورات، وما تعلق بأهل الذمة من الأحوال. . مع عدم إغفال الترجمة الذاتية له كلما سنحت الحال، وكذا تسجيل الكثير من الظواهر الطبيعية والعجائب ومستغربات، الحدوث شأنه في ذلك شأن كتاب الحوليات المتقدمين والمعاصرين واللاحقين. وهي غالباً ما تعبر عن شعور ديني خاص كان سائداً في عصره.

كما اتضح أنه لم يفرد مكان الصدارة في حولياته لنوع معين من تلك الحوادث اللهم إلا أن يكون لتلك الحوادث المفردة بالصدارة غلبة على عصره أو فكره لما لها من تأثير على الرأي العام في وقته.

أما التراجم فإنها قد تفاوتت من حيث العدد بين حولية وأخرى، وتغايرت الأسماء بين مؤرخ وآخر، ولكن مع هذا فإنه يمكن أن نميز «لابن حجر» في هذه الناحية منهجاً اعتمد في انتقاء التراجم على أسس رئيسة تمثلت في الشهرة - أياً كانت في المنصب أو الوظيفة أو الحرفة، في العلم أو الجهل به، في الحفظ وجودة القريحة، في الرياسة والوجاهة، في اللعب والتمهر فيه، في الإلتزام بالدين أو التهتك فيه. . والشمول النوعي، حيث لم يقصر ترجمات الوفيات على نوع واحد

من الأعلام المشاهير سواء في الجنس أو في الأصل أو في الديانة أو في المذهب أو في المنصب أو في الوظيفة أو في الحرفة أو في العلم والمعرفة، والشمول المكاني حيث ظهر حرصه على إيراد تراجم متعلقة بكل من شهر في عالمه ما دام قد أطلع على مادة ترجمته وضبط تاريخ وفاته.

ومع أن المادة التاريخية الموجودة في ترجمة ما تختلف عن الأخرى حسب طبيعة المترجم، فإنه قد أمكن بعد درسها أن نميز له عناصر رئيسة تناولت: الأسم واللقب، والكنية، وأسم الشهرة، والنسبة، والموطن، والألقاب العلمية، والصفات الأصلية، والمولد، وتقدير عمر المترجم له، والتأريخ لوفاته، مع تحديد كيفية الوفاة والعلة فيها، وحال المترجم له عند ذلك، والنشأة والتكوين، ومنزلة المترجم له ومكانته ووظائفه وأعماله وسجاياه وصفاته، وعلاقاته بالأهل والأقران، وعلاقة «ابن حجر» به، مع تفصيل القول في كل عنصر منها مشيراً إلى أن مثل تلك العناصر لا تجتمع بالضرورة في ترجمة واحدة، كما أن الطول والقصر في مادة العنصر الواحد راجع إلى أمور منها: طبيعة المترجم له وتخصصه، وطبيعة المادة المنتقي منها هذا العنصر، أو هذه الترجمة، ونوعية المصدر سواء كان مكتوباً أو معاصراً.

وذيلت على ذلك بدراسة موضوع التوازن الزماني بين حوليات الكتاب مشيراً إلى انعدام ذلك معللاً له بأن «ابن حجر» لم يكن من بين هؤلاء الذين يأخذون بالشكليات، حيث ديدنه في الالتزام بمنهج يلح به على تقرير شمولي لأحوال عصره تتعاون فيه الحوادث والتراجم في التأريخ لها بالإضافة إلى جدارة الحدث أو الترجمة بالتسجيل على سبيل الإسهاب أو الاقتضاب أو الإسقاط والإهمال.

وعلى الرغم مما شاع لدي المؤرخين والباحثين المحدثين من إنتفاء العلاقة بين التراجم والحوادث لدي كتاب الحوليات التقليديين، وإعتبار التنظيم داخل الحولية الواحدة على الحوادث والوفيات فصلاً تاماً فيما بينهما بحيث يمكن جمع كل قسم منها في مؤلف مستقل قائم بذاته دون تأثير في طبيعة المؤلف الأصلي - فإنه

قد أثبت من خلال دراسة «الإنباء» عكس ذلـك تماماً فالعـلاقة وثيقـة بين مـادة الكتاب أحداثه وترجماته، وهي لم تـأت عفويـة أو إرتجاليـة، وإنما كـانت وراءها أصبع «ابن حجر» التي وجدت في مناسبة الوفـاة فرصـة لا ستخدامهـا في تحقيق هـذه الغايـة، ومن علامـات ذلك ودلائله: العـلاقة الـزمانيـة فيما بينهـما، والتي إقتضته إثبات وتوزيع معلوماته على جزءي الكتاب، بإعتبـار أن الحوادث محتـوية على أخبار متنوعة بـين إدارية وسيـاسية وإقتصـادية وإجتمـاعية.. عـلى حين أن التراجم في حد ذاتها إخبار عن الـوفاة ومفـارقة الحيـاة المألـوفة، وكـل حدث في الحيز الزماني للحولية الواحدة، والعلاقة فيما بينهما من حيث الموضوع والمتمثلة في الترجمة بالإحالة الكلية على الحوادث، وقد ورد أسم المترجم له في الوفيات مجرداً عن أية معلومات إكتفاء بما جاء في الحوادث، والإحالة إلى الحوادث في تضاعيف التـرجمات، والإحـالة في الحـوادث إلى الترجمـات، والترجمـة لبعض الوفيـات في الحـوداث ـ مع إدراك «ابن حجـر» لـذلـك ونصـه عليـه في أكـثر من مـوضـع ـ والتكامل بين الحوادث والتراجم، حيث إتيان الكثير من الترجمات بأبعاد تاريخيـة للحـوادث فضلاً عن مـادة الكتاب مجتمعـة لإمتداد جـذورها إلى مـا قبل حـولية ثلاث وسبعين وسبعمائة المتصدرة للكتاب، وبإعتبار أن «ابن حجـر» كان ديـدنه التأريخ بالحدث والترجمة معاً، ولذا جزأ معلوماته على الحوادث والترجمـات مما لا يتأتي معه إعتماد الحوادث وحدها في كثير من المواضـع دون رجوع إلى التـرجمات لاستكمـالها وتتبع خيوطها وأبعادها. وعلاقـة السببية التي ظهـرت الوفيـات فيها مرتبة على الحوادث، وظهرت الحوادث ـ كذلك ـ مسببـة لها، وصـارت الوفيـات تبعاً لذلك توكيداً لها وتقريراً، وتشكيل الحوادث لمادة التراجم سواء بالإختصار أو التركيز أو الإعادة أو الإضافـة، وتوظيف التـراجم في النقد التـأريخي للحوادث، والعلاقة بين مادة الكتاب ومصادره بإعتبار أنه قد تـرجم لأصحاب هـذه المصادر في موضعهم من الوفيات.

ولقد تنوعت مصادر مادة «الإنبـاء»، حيث لم يقتصر «ابن حجر» فيـه على المصادر المكتوبة ـ على الرغم من إفادتـه منها كثيـراً ـ وإنما نجـده قد أخـذ مادتـه فضلاً عن ذلك عن طريق: المشاهدة والمشاركة ـ وقد أدرك قيمتها فاندفع يلح في

الإشارة إليها بألفاظ متعددة دالة على المعاصرة ومداها تتصدر غـالباً منقـوله وقـد ربطت بينه وبين ذاتية موردها ـ والمشافهة، سواء منها مـا ورد على لسـان المترجم له أو قرابته أو المتصلين به، أو شاهد عيان لواقعة تاريخية حضرهـا و «ابن حجر» عنها غائب، بـل لقد كـان منها مـا نسب إلى بعض أصحاب التـواريخ المكتـوبة والمساءلة والمكاتبة إستناداً إلى معرفة المسؤول ـ فيما يظن ـ بموضوع المساءلـة سواء كـانت هذه المسـاءلة شفهيـة أو كتابيـة، نـاهيـك عن الإستفـادة من الإجـازات والسماعات، والوثائق والخطوط، ومؤلفات المترجم له ونتاجه، ومجاميع الشيـوخ والصحاب. .

وكما تنوعت مصـادره، فـإن طرقه في الإنتساب إلى هذه المصادر قد تنوعت كـذلك لتتمثـل في: الإشارة إلى المصـادر، سـواء في صـدر مؤلفـه أو من خـلال المنقول عنها في حولياته، والإشارة إلى موضع النقـل، والإشارة إلى بـداية النقـل وإنتهـائه وإن أغفـل مع ذلـك التصريـح بمصادره في مـواضع كثيـرة استنتـج من مقابلتها بمصـادرها بعض عبـارات وألفاظ إصـطلاحية لـه ـ غالبـاً ـ ما تعبـر عن مصدر واحد، وهي دلالات النقل لديه عند عدم التصريح به.

ووضـح إهتمام «ابن حجـر» بمصادر مصـادره إدراكاً منـه لأهمية ذلـك في تعليل أفضلية المصدر المنقول عنه، فضلاً عن توثيقه، وبالتالي توثيق مادة الإنبـاء مما نقل عنه.

واتضح أن «ابن حجر» قـد عالـج مصادره بـطرق شتي، تكشف لا ريب عن شخصيته المصاحبة لكل منقول مثبت لديه، وإن لم تعبر في الغالبية العـظمي منها عن العبارة الأصلية للمنقول عنه، أمكن حصرهـا في: الإلتزام الحـرفي بمادة مصـادره قدر إمكـانه ـ إنتقـاء المنقول مـع الحفاظ عـلى ألفاظ المصـدر الأصـلي ـ التصـرف في النص من حيث اللفظ تعـديـلاً وإبـدالاً، زيـادة واختـصـاراً مـع الحـفـاظ عـلى النسـق الـتـرتـيـبي لـلمصـدر الأصـلي ـ الأسـاسي للمنقـول ـ الإلتزام بـالحرفيـة للألفـاظ قـدر إمكـانـه مـع تغيـير النسق التـرتيبي

وتعـديله ـ التصرف في اللفظ والنسق التـرتيبي معاً ـ النقـل بالفكـرة مـع إغفـال العبارة الأصلية لمصدره . .

كما بدت له نظرة عالج بها المصادر سواء بمعاملته للنقول على أنها جزئيـات تخضع لتصديق العقل إياها أو ردها أو بالنقد الشمولي للمصدر ككل .

ومع هذا وذاك ، ومع ولعه بتحري الدقة في النقل عن مصـادره ، فإنـه قد جانب الصواب في مواضع متعددة أمكن أعطاء نماذج لها .

كما ظهر «ابن حجر» معنياً بالنقد التأريخي ممارساً له في سائر جوانب كتابـه ملحاً عليه بشتي الطرق التي في مكنته التعبـير بها ، إنـطلاقاً من مفهـومه للتـأريخ وهو مفهوم ذو صلة بالحديث النبـوي وما يتبعـه من جرح وتعـديل ، ومن تـذوقه للأدب ومشاركته فيه ، بالإضافة إلى ما رزقه من حس تأريخي ناقد .

وإن أدي هـذا المسلك الناقـد في الكتابـة التأريخيـة إلى تعرضـه لكثـير من المشاحنات والعداوات إلى الحد الذي جعل بعضهم ينزهه عن الكتـابة التـأريخية جملة .

وأمكن الكشف عن منهجـه في النقد التـأريخي من خـلال دراسـة إحـدى فتـاويه رداً عـلى سؤال سائـل بشأن هـذا ، مقارنـاً ذلك بمـا ورد في «الإنباء» من جوانب تطبيقية ، حيث ميزت له أنواعاً من النقد تمثلت في :

١ ـ نقـد الرجـال من خـلال الكشف عن بعض الصفـات الأصليـة فيهم المعبرة عن حال المترجم لهم لديه ، وما يتبع ذلك من جرحهم وتعديلهم .

٢ ـ إصـدار الأحكام والتقـاويم على الملوك والسـلاطـين ونـواب السلطنـة والأمراء والمباشرين والقضاة والفنانين من خلال مقاييس خاصة بكـل طبقة عـلى حدة متبوعة بصفات مبحوثة فيهم ومثبتة عليهم سلباً أو إيجاباً .

٣ ـ نقـد الحوادث ، وقد توزع بـين نقد الـروايات التـاريخية ، وبـين إصدار الأحكام والتقاويم على الحوادث والرجال معاً ، وبين نقـد الحوادث في حـد ذاتها نقداً جزئياً ، مع الاعتنـاء بالنقـد الكلـي من خلال الشـواهد الشعـرية المنبثـة في

الحوادث والتراجم والموجهة وجهة نقدية هادفة إلى إبراز وتجسيم أهم خصائص وقضايا مجتمعه، بالإضافة إلى إبراز وتعليل العوامل الفاعلة في الحوادث وتقويمها.

واتضح علاوة عن ذلك أن «ابن حجر» من المؤرخين المنصفين في النقد حيث ظهر حرصه على نقل آراء الموافقين والمخالفين في المترجم له بهدف أعطاء صورة عنه تكون مكتملة، ومناقشة مصادره فيما أوردته من تقاويم وأحكام مناقشة منهجية اقتضته تفنيد الكثير من عباراتها معللاً، نشداناً للإنصاف والصواب، وحرصه على الدقة بالتحري عن معلوماته قبل إثباتها، حتى ولو صدرت عن المترجم له عينه، وتعديله لمادة عناصره وقد أثبتها في صورتها الأولى نتيجة لما حصله من مادة مصوبة لها وإيراده الحكم أو التقويم معللاً وليس مجرداً.

لكن مع ذلك وقع له الخطأ في بعض مواضع من حولياته نتيجة لسهو اعتراه أو إخلال بالدقة في النقل عن بعض مصادره في مواضع معدودة، أو لأنه لم يكن ممن يتوجه إلى الكتابة التاريخية بالكلية. بالإضافة إلى ولعله بالنقد الأدبي وتوظيفه للأدب في التأريخ ونقده إلى الحد الذي جعله يغفل الرواية التاريخية لدى مصدره إستناداً إلى تفضيل ما صاحب تلك المواضع من انفعال أدبي مقلد، فأتى حكمه خاطئاً لأنه أسس على ذلك.

كما أمكن الإشارة من خلال دراسة مؤلفات «ابن حجر» التأريخية المعاصرة للحيز الزماني «للإنباء» إلى أن هذا المنهج في الكتابة التاريخية مطابقي وبالتالي متأصل وراسخ في نفس مورده، كما أن مادة هذه المؤلفات الداخلة في الحيز الزماني للإنباء تكمل الموضوع والفكر فيه باعتبار أن فكر المؤرخ الواحد لا يمكن تجزئته، وأنها تمثل مصادر أصيلة وأساسية في سبيل التأريخ لعصره.

مصادر البحث ومراجعه

أولاً ـ المصادر[1]

(أ) المصادر الخطية:

ـ البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (ت ٨٨٥ هـ. / ١٤٨١ م.):

(١) عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران. مصورة دار الكتب المصرية رقم ١٠٠١ تاريخ (عن مخط. كوبريلي زادة بالآستانة)، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٣٤٢ تاريخ.

(٢) عنوان العنوان. مخط. دار الكتب المصرية رقم ١٤٧٤ تاريخ ـ تيمورية.

ـ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ. / ١٤٧٠ م.):

(١) الدليل الشافي على المنهل الصافي. مخط. قرة جلبي بتركيا رقم ٢٦٦، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٤٤ تاريخ.

(٢) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي:

ـ مخط. أحمد الثالث بتركيا رقم ٣٠١٨ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٨٤١ تاريخ.

ـ مخط. دار الكتب المصرية رقم ١١١٣ تاريخ.

(١) رتب هذا الثبت ترتيباً هجائياً مع إسقاط «ابن» و«أبو».

- مخط. عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم ٦٣٠ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٢٧١ تاريخ.

(٣) مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة:

- مخط. أحمد الثالث بتركيا رقم ٣٠٣٨، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية رقم ٥٣٥ تاريخ.
- مخط. الظاهرية بدمشق رقم ٣٠ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٥٣٥/٣ تاريخ.
- مخط. فيض الله بتركيا رقم ١٤٠٦، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٥٣٥/١ تاريخ.
- ابن حبيب، بدر الدين أبو محمد الحسن بن عمر (ت ٧٧٩ هـ. / ١٣٧٧م.): درة الأسلاك في دولة الأتراك. مخط. أحمد الثالث بتركيا رقم ٣٠١١، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٣٥/١ تاريخ.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ. / ١٤٤٩ م.):

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر:

- مخط. الظاهرية بدمشق رقم ٢٤١ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٥/٥.
- مخط. أحمد الثالث باستانبول رقم ٢٩٤١/٢ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياءالمخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٥/١، ٣ تاريخ.
- مخط. أحمد الثالث باستانبول رقم ٢٩٤٢ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٥/٢ تاريخ.
- مخط. الأزهرية بالقاهرة رقم ٧١٠ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٥٨٧ تاريخ.

- مخط. الأوقاف العامة ببغداد رقم ٥٨٨٣، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٤٠٤ تاريخ.
- مخط. الرباط رقم ٣٢٤ ك، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٤٠٥ تاريخ.
- مخط. السعيدية بالهند رقم ٩٤ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١/٩١٠ تاريخ.
- مخط. مدينة بالهند رقم ٥٢٢، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢/٩١٠ تاريخ.
- مخط. دار الكتب المصرية رقم ٢٤٧٦ تاريخ، ٨٨٤٤ ح.

(٢) انتقاض الإعتراض. مخط. المكتبة العمومية بدمشق رقم ٩٩.

(٣) ذيل الدرر الكامنة. مخط. دار الكتب المصرية رقم ٦٤٩ - تيمورية وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٥٠ تاريخ.

(٤) رفع الإصر عن قضاة مصر:

- مخط. الآصفية بالهند رقم ٩٠ تراجم، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢/١٠٧٤ تاريخ.
- مخط. خدابخش بتنة بالهند رقم ٢٤٨٣، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١/١٠٧٤ تاريخ.
- مخط. دار الكتب المصرية رقم ١٠٥ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٦٧٤ تاريخ.
- مخط. فيض الله بتركيا رقم ١٤٥٥ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١/٢٦٠، ٢ تاريخ.

(٥) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس:

- مخط. جامع إبراهيم باشا بالإسكندرية رقم ١٦، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢/٤٤٠ تاريخ.

- مخط. الأحمدية بحلب رقم ٣٤٥، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٤٤٠/٣ تاريخ.
- مخط. الأزهرية بالقاهرة رقم ١٣٦٠ (٨٧٨) مصطلح، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٤٤٠/١ تاريخ.
- مخط. دار الكتب المصرية رقم ٧٥ مصطلح، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٧٨٠ تاريخ.
- مخط. مراد ملا بتركية رقم ٦٠٣، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٤٤٠/٤ تاريخ.

(٦) المعجم المفهرس (تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنثورة).

- مخط. دار الكتب المصرية رقم ٨٢ مصطلح، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية رقم ٨١٥ تاريخ.
- ابن خطيب الناصرية، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن سعد الطائي (ت ٨٤٣ هـ. / ١٤٤٠ م.):

(١) الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب. مخط. الأحمدية بحلب رقم ٢٠٣٦ وعنه مصورة معهد إحياءالمخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٥٠ تاريخ.

(٢) مجموع ابن خطيب الناصرية. مخط. الخالدية بالقدس رقم ٣١ تراجم وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١١٩٨ تاريخ.

- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر (ت ٨٠٩ هـ. / ١٤٠٧ م): الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين:
- مخط أحمد الثالث بتركيا رقم ٢/٢٩٨٤، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٣/٢٠٨ تاريخ.
- مخط. التيمورية بالقاهرة رقم ١٤٩٢ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٠٨ تاريخ.
- مخط. حكيم أوغلي علي بتركيا رقم ٧٣٧، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١/٢٠٨ تاريخ.

- مخط. دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٧ تاريخ (المصور عن مخط. أيا صوفيا بتركيا رقم ٤١٧٢)، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٠٨/٤ تاريخ.
- سبط ابن حجر، جمال الدين يوسف بن شاهين (ت ٨٩٩ هـ. / ١٤٩٤ م.): رونق الألفاظ بمعجم الحفاظ:
- مخط. الخالدية بالقدس رقم ١١ تراجم، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٠٨٧ تاريخ.
- مخط. مدينة بالهند رقم ٤٩٣، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية رقم ٢٨٢ تاريخ، ٦٨٩ تاريخ.
- السخاوي، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ. / ١٤٩٧ م.):

الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر:
- مخط. أحمد الثالث بتركيا رقم ٢٩٩١، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٠٤/١ تاريخ.
- مخط. دار الكتب المصرية رقم ٤٧٦٨ تاريخ (المصور عن مخط. الأهلية بباريس رقم ٢١٠٥)، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٠٤/٢ تاريخ.
- مخط. الخزانة الملكية بالرباط رقم ١٥٠٠، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية، بدون فهرسة.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ. / ١٥٠٦ م.):

المنجم في المعجم. مخط. دار الكتب المصرية رقم ٥٢٦ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٥٢٨ تاريخ.
- ابن الشحنة، محب الدين أبو الوليد محمد بن كمال الدين محمد بن محمد بن محمود (ت ٨١٥ هـ. / ١٤١٢ م.):

روض المناظر في علم الأوائل والأواخر. مخط. أحمد الثالث بتركيا رقم ١/٢٩٠٢ وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٧٠ تاريخ.

- عبدالله بن زين الدين بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن زكريا بن خليل:
جمان الدرر من ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر. مخط. دار الكتب المصرية رقم ٧٢٦ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٩٨ تاريخ.
- العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف (ت ٨٥٥ هـ. / ١٤٥١ م.):
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان مج ١٩، مخط. أحمد الثالث بتركيا رقم ٢٩١١، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٣٣٤ تاريخ.
- ابن الغزي، محمد بن أحمد بن عبدالله العامري (ت ٨٦٤ هـ. / ١٤٦٠ م.):
بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين:
- مخط. دار الكتب المصرية رقم ٣٤٠٣ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٨٥ تاريخ.
- مخط. الظاهرية بدمشق رقم ٥٥ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٥٩٤ تاريخ.
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي (ت ٨٣٢ هـ. / ١٤٢٩ م.):
ذيل التقييد بمعرفة رواة السنن والأسانيد. مخط. دار الكتب المصرية رقم ١٩٨ مصطلح، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٧١ تاريخ.
- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر (ت ٨٥١ هـ. / ١٤٤٨ م.):

(١) الإعلام بتاريخ أهل الزمان. مخط. مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٢ تاريخ (عن مخط. الأهلية بباريس)، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٩٩ تاريخ.

(٢) طبقات الشافعية:

- مخط. أحمد الثالث بتركيا رقم ٢٨٣٦، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢/٣١٢ تاريخ.
- مخط. خدابخش بتنة بالهند رقم ٢٤٥٥، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢/١١٢٥ تاريخ.
- مخط. دار الكتب المصرية رقم ١٥٦٨ تاريخ، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٧٢٤ تاريخ.
- مخط. كوبريلي بتركيا رقم ١٠٢٨، وعنه مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٣١٢ تاريخ.
- مخط. الناصرية بلكنو بالهند رقم ١٠٠، ١٠١ رجال حديث وعنهما مصورتي معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقمي: ١/١١٢٥، ٣.
- المناوي، عبد الرؤوف (ت ١٠٣٥ هـ. / ١٦٢٦ م.):

اليواقيت والدرر في شرح نخبة ابن حجر. مخط. دار الكتب المصرية رقم ٩١ تيمورية ـ مصطلح حديث.

- ابن ناصر الدين الحنبلي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن عبدالله (ت ٨٤٢ هـ. / ١٤٣٩ م.):

توضيح المشتبه للذهبي. مخط. الظاهرية بدمشق رقم ١٥١ تفسير.

ب ـ المصادر المطبوعة:

- ابن أبي الدم الحموي، أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله (ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٩ م.):

أدب القاضي المسمى «الدر المنظومات في الأقضية والحكومات» ت. محمد مصطفى النزحيلي. دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٧٥.

- ابن الأثير، عز الدين بن محمد الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م):
الكامل في التاريخ. بيروت، الكاتب العربي، ط ٢، ١٩٦٢.

- ابن الأزرق، أبو عبدالله محمد (ت ٨٩٦ هـ. / ١٤٩١ م.):
بدائع السلك في طبائع الملك. ت. د. علي سامي النشار. بغداد، الأعلام، ٧٧ - ١٩٧٨.

- الأسنوي، جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن (ت ٧٧٢ هـ. / ١٣٧١ م.): طبقات الشافعية. ت. عبدالله الجبوري. بغداد، الأوقاف، ط ١، ١٩٧١.

- ابن إياس الحنفي، أبو بكر محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ. / ١٥٢٤ م.):
- بدائع الزهور في وقائع الدهور. ت. محمد مصطفى. فيسبادن، ١٩٦١ - ١٩٧٥.
- المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور. القاهرة، الشعب، ١٩٦٠.

- البغدادي، عبد القاهر (ت ٤٢٩ هـ. / ١٠٣٧ م.):
الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم. بيروت، الآفاق الجديدة، ١٩٧٣.

- البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٩ م.):
مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. ت. علي محمد البيجاوي. القاهرة، عيسى الحلبي، ط ١، ١٩٥٥.

- البكري، أبو عبد الله عبدالله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ. / ١٠٩٤ م.):
معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع. ت. مصطفى السقا. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٧.

- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف (ت ٨٧٤ هـ. / ١٤٧٠ م):

- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور (مختارات) ت. وليم بوبر. كاليفورنيا، ١٩٣١.
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (جـ ١). ت. أحمد يوسف نجاتي. القاهرة، دار الكتب، ١٩٥٦.
- مورد اللطافة. ت. د. كارليل. أوربا، ط ١، ١٧٩٢.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. القاهرة، مختلفة.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥ هـ. / ٨٦٩ م.):
مقالة الزيدية والرافضة ـ ضمن كتاب رسائل الجاحظ. ت. عبد السلام هارون. القاهرة، الخانجي، ط ١، ١٩٧٩.
- الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦ هـ. / ١٤٢٣ م.):
التعريفات. تونس، الدار التونسية، ١٩٧١.
- الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (ت ٨٣٣ هـ. / ١٤٣٠ م.): غاية النهاية في طبقات القراء ت. ج. برجستراسر. القاهرة، الخانجي، ١٩٣٣.
- ابن جماعة، بدر الدين أبو إسحاق إبراهيم بن سعد الدين (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م):
تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم. بيروت، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت ١٠٦٧ هـ. / ١٦٥٧ م.):
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بغداد، المثنى، بدون تاريخ.
- الحاكم النيسابوري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٤٠٥ هـ. / ١٠١٤ م.):
معرفة علوم الحديث. بيروت، المكتب التجاري، بدون تاريخ.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م).

- إنباء الغمر بأنباء العمر. ت. حسن حبشي. القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٦٩ - ١٩٧٢. (٣ جـ).
- ـــــ. ت. السيد عبدالله بن أحمد بن محمد المديحج الهند، دائرة المعارف العثمانية، ٦٧ - ١٩٧٦. (٩ جـ).
- ـــــ. ت. محمد أحمد دهمان. دمشق، المكتب الإسلامي، ١٩٧٩. (جـ ١).
- الإصابة في تمييز الصحابة. ت. علي محمد البيجاري. القاهرة، نهضة مصر، ١٩٧٢.
- بلوغ المرام من أدلة الأحكام. ت. رضوان محمد رضوان. بيروت، المكتب العربي، بدون تأريخ.
- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه. ت. علي محمد البيجاوي. القاهرة، الدار المصرية، ٦٥ - ١٩٦٧.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. بيروت، دار الجيل، بدون تاريخ.
- رفع الإصر عن قضاة مصر. ت. د. حامد عبد المجيد وغيره. القاهرة، الأميرية، ٥٧ - ١٩٦١. (٢ جـ).
- لسان الميزان. بيروت، الأعلمي، ط ٢، ١٩٧١.
- ابن حزم الأندلسي الظاهري، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م):
الفصل في الملل والأهواء والنحل. بيروت، المعرفة، ط ٢، ١٩٧٥.
- الخصاف، أبو بكر أحمد بن عمرو بن مهير الشيباني (ت ٢٦١ هـ / ٨٤٧ م): أدب القاضي. ت. فرحات زيادة. القاهرة، الجامعة الأمريكية، ١٩٧٩.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ. / ١٠٧١ م):

- تاريخ بغداد أو مدينة السلام. بيروت، الكاتب العربي، بدون تاريخ.
- الكفاية في علم الرواية. بيروت، الدار العلمية، بدون تاريخ.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله (ت ٧٧٦ هـ. / ١٣٧٥ م.):
الإحاطة في أخبار غرناطة. ت. محمد عبدالله عنان. القاهرة، الخانجي، ٧٣ - ١٩٧٧.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ. / ١٤٠٦ م.):
تاريخ ابن خلدون. بيروت، دار البيان، بدون تاريخ.
- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ. / ١٢٨٢ م.):
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ت. د. إحسان عباس. بيروت، صادر ١٩٧٧.
- الداوودي، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (ت ٩٤٥ هـ. / ١٥٣٩م.):
طبقات المفسرين. ت. علي محمد عمر. القاهرة، وهبة، ط ١، ١٩٧٢.
- الداوودي، أبو بكر عبد الله بن أيبك (ت ٧٣٢ هـ. / ١٣٣٢ م.):
كنز الدرر وجامع الغرر:
جـ ٧ ت. د. سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة، ١٩٧٢.
جـ ٨ ت. أولرخ هارمان. القاهرة، ١٩٧١.
- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت ٨٠٩ هـ. / ١٤٠٧ م.):
الأنتصار لواسطة عقد الأمصار. بيروت، المكتب التجاري، بدون تاريخ.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ. / ١٣٤٨ م.):
- تذكرة الحفاظ، الهند، دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٥ - ١٩٥٨.
- دول الإسلام. ت. فهيم محمد شلتوت، ومحمد مصطفى إبراهيم. القاهرة الهيئة المصرية، ١٩٧٤.

- العبر في خير من غبر. ت. د. صلاح الدين المنجد. الكويت، ٦٠ - ١٩٦٦.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ. / ١٢٠٩ م.):
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. القاهرة، الأزهرية، ١٩٧٨.
- ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد (ت ٧٩٥ هـ. / ١٣٩٣ م.):
الذيل على طبقات الحنابلة. القاهرة، ١٣٧٣ هـ.
- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ. / ١١٤٤ م.):
القسطاس المستقيم في علم العروض. ت. بهيجة باقر الحسني. بغداد، ١٩٦٩.
- ابن سبعين، أبو محمد عبد الحق (ت ٦٦٩ هـ. / ١٢٧١ م.):
رسائل ابن سبعين. ت. د. عبد الرحمن بدوي. القاهرة، الدار المصرية، ١٩٦٥.
- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب (ت ٧٧١ هـ. / ١٣٧٠ م.):
طبقات الشافعية الكبرى. بيروت، المعرفة، ط ٢، بدون تاريخ.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ. / ١٤٩٧ م.):
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. ت. فرانز روزنثال - ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين. بغداد، المثنى. ١٩٦٣.
- ـــــ. القاهرة، القدسي، ١٣٤٩ هـ.
- التبر المسبوك في ذيل السلوك. القاهرة، الأزهرية، بدون تاريخ.
- الذيل على رفع الإصر أبو بغية العلماء والرواة. ت. د. جوده هلال، ومحمد محمود صبيح. القاهرة، الدار المصرية، ١٩٦٦.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. بيروت، الحياة، بدون تاريخ.
- السمناني، أبو القاسم علي بن محمد بن أحمد (ت ٤٩٩ هـ. / ١١٠٦م.):

روضة القضاة وطريق النحاة ت. د. صلاح الدين الناهي. بغداد، ١٩٧٤.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ. / ١٥٠٦ م.):
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. ت. محمد أبي الفضل إبراهيم. القاهرة، عيسى الحلبي، ط ١، ١٩٦٥.
- تاريخ الخلفاء. بيروت، الثقافة، بدون تاريخ.
- التحدث بنعمة الله ت. اليزابيت ماري مارتين. القاهرة، ١٩٧٢.
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. ت. عبد الوهاب عبد اللطيف بيروت، دار إحياء السنة، ط ١، ١٩٧٩.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. ت. محمد أبي الفضل إبراهيم. القاهرة، عيسى الحلبي، ط ١، ١٩٦٧.
- ذيل طبقات الحفاظ. الهند، دائرة المعارف العثمانية، بدون تاريخ.
- طبقات الحفاظ. ت. علي محمد عمر. القاهرة، وهبة، ط ١، ١٩٧٣.
- نظم العقيان في أعيان الأعيان. ت. د. فيليب حتي. نيويورك، ١٩٢٧ م.
- أبو شامة المقدسي، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥ هـ. / ١٢٦٨ م.):
الروضتين في أخبار الدولتين، والذيل عليها. بيروت. دار الجيل، ط ٢، ٧٤.
- ابن شداد، عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي (ت ٦٨٤ هـ. / ١٢٨٥م.):
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. ت. دومنيك، وسامي الدهان. دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ٥٣ ـ ١٩٦٢.
- ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن تميم (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م):

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين. ت. د. جمال الدين الشيال. القاهرة، الدار المصرية، ط ١، ١٩٦٤.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ. / ١١٥٣ م.):
الملل والنحل ـ على هامش كتاب الفصل لابن حزم الأندلسي.

- الشوكاني، علي بن محمد (ت ١٢٥٠ هـ. / ١٨٣٥ م.):
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. القاهرة، ط ١، ١٣٤٨ هـ.

- ابن صصري، محمد بن محمد:
الدرة المضية في الدولة الظاهرية. ت. د. وليم. م. برينر. كالفورنيا، ١٩٦٣.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٣ هـ. / ١٢٦٣ م.):
الوافي بالوفيات:
جـ ١١ ت. جاكلين سوبله، وعلي عمارة. فيسبادن، ١٩٨٠.
جـ ١٢ ت. د. رمضان عبد التواب. فيسبادن، ١٩٧٩.

- ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان (ت ٦٤٣ هـ. / ١٢٤٥ م.):
مقدمة ابن الصلاح . ت. د. عائشة عبد الرحمن. القاهرة، الهيئة المصرية، ١٩٧٦.

- ابن الصيرفي، علي بن داود الجوهري (ت ٩٠٠ هـ./ ١٤٩٤ م.):

- إنباء الهصر بأنباء العصر. ت. د. حسن حبشي. القاهرة، الفكر العربي، ١٩٧٠.

- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان. ت. د. حسن حبشي. القاهرة، دار الكتب، ٧٠ ـ ١٩٧٤. (٣ جـ.)

- الصيمري، أبو عبد الله حسين بن علي (ت ٤٣٦ هـ./ ١٠٤٥ م.):
أخبار أبي حنيفة وأصحابه. بيروت، الكتاب العربي، ط ٢، ١٩٧٦.

- طاش كبري زادة، أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨ هـ./ ١٥٦١ م.):

مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. ت. كامل كامل بكري، وعبد الوهاب أبي النور. القاهرة، الكتب الحديثة، ١٩٦٨.

- ابن طولون الصالحي، شمس الدين محمد (ت ٩٥٣ هـ. / ١٥٤٧ م.):
القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية. ت. محمد أحمد دهمان. دمشق، مجمع اللغة العربية، ٨٠ ـ ١٩٨١.

- ابن عباس، الصاحب (ت ٣٨٥ هـ. / ٩٩٥ م):
نصرة مذهب الزيدية. ت. ناجي حسن. بغداد، ١٩٧٧.

- ابن العربي، محيي الدين محمد بن علي (ت ٦٣٨ هـ. / ١٢٤٠ م.):
إنشاء الدوائر الإحاطية. ليدن، ؛ ١٣٣٩ م.

- علي باشا مبارك.
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة. بولاق، ١٣٠٥ هـ.

- العماد الأصفهاني، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧ هـ. / ١٢٠١ م.):
الفيح القسي بالفتح القدسي. ت. محمد محمود صبيح. القاهرة، القومية، ١٩٦٥.

- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ. / ١٦٧٩ م.):
شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت، المكتب التجاري، بدون تاريخ.

- القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ. / ١١٤٩ م.):
الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع. ت. السيد أحمد صقر. القاهرة، دارالتراث، ١٩٧٨.

- الغزي، تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري (ت + ١٠٠٥ هـ. / + ١٥٩٧ م.):

الطبقات السنية في تراجم الحنفية. ت. عبد الفتاح أحمد الحلو. القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٠.

- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢ هـ. / ١٣٣١ م.):
- تقويم البلدان. ت. رينود، وماك كولين ديسلان. بغداد، المثنى، بدون تاريخ.
- المختصر في أخبار البشر. القاهرة، الحسينية، ط ١، ١٣٢٥ هـ.
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ. / ١٤٠٥ م.):

تاريخ ابن الفرات (مج ٩) ت. د. قسطنطين زريق. بيروت، الجامعة الأمريكية، ٣٦ - ١٩٣٨.

- ابن فهد المكي، تقي الدين أبو الفضل محمد بن محمد (ت ٨٧١ هـ. / ١٤٦٧ م.):

لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ. الهند، دائرة المعارف العثمانية، بدون تاريخ.

- ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي (ت ١٠٢٥ هـ. / ١٦١٦ م.):

ذيل وفيات الأعيان المسمى «درة الحجال في أسماء الرجال». ت. محمد الأحمدي أبي النور. القاهرة، التراث، ١٩٧٠.

- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن محمد (ت ٨٥١ هـ. / ١٤٤٨ م.):

تاريخ ابن قاضي شهبة (مج ١). ت عدنان درويش. دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٧٧.

- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ. / ٨٨٩ م.):

المعارف، د. ثروت عكاشة. القاهرة، المعارف، ط ٢، ١٩٦٩.

- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ. / ١٢٨٣ م.):
آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت، صادر، ١٩٦٩.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م.):
صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة، تراثنا، بدون تاريخ.
- ابن كثير، أبو الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ. / ١٣٧٣ م.):
- الباعث الحثيث في إختصار علوم الحديث. بيروت، الفكر العربي، بدون تاريخ.
- البداية والنهاية. بيروت، المعارف، ط ١، ١٩٦٦.
- مجير الدين الحنبلي، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن (ت + ٩٢٧ هـ. / + ١٥٢١ م.):
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. عمان، المحتسب، ١٩٧٣.
- المقري، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ. / ١٦٣٢ م.):
- أزهار الرياض في أخبار عياض. ت. مصطفى السقا وغيره. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٩. (جـ ١).
- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ت. د. إحسان عباس. بيروت، صادر، ١٩٦٨.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ. / ١٤٤٢ م.):
- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب. ت. عبد المجيد عابدين. القاهرة، عالم الكتب، ط ١، ١٩٦١.
- الخطط المقريزية «المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار». بولاق، ١٢٧٠ هـ.
- السلوك لمعرفة دول الملوك. ت. د. محمد مصطفى زيادة، ود. سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة، مختلفة.

- الملطي، أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ٣٧٧ هـ. / ٩٨٧ م.):
التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع. بغداد، المثنى، ١٩٦٨.
- ابن منظور، جميل الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ. / ١٣١١ م.):
لسان العرب. القاهرة، المعارف، بدون تاريخ.
- مؤرخ شامي مجهول:
حوليات دمشقية. ت. د. حسن حبشي. القاهرة، الأنجلو، ١٩٦٨.
- النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧ هـ. / ١٥٢١ م.):
الدارس في تاريخ المدارس. ت. جعفر الحسيني. دمشق، المجمع العلمي، ٤٨ ـ ١٩٥١.
- ابن هداية الله الحسيني، أبو بكر (ت ١٠١٣ هـ. / ١٦٠٦ م.):
طبقات الشافعية. ت. عادل نويهض. بيروت، الآفاق الجديدة، ط ١ ١٩٧١.
- اليافعي، عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨ هـ. / ١٣٦٧ م.):
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان. بيروت الأعلمي، ط ٢، ١٩٧٠.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦ هـ. / ١٢٢٨ م):
- معجم البلدان. بيروت، صادر، ١٩٧٧.
- المشترك وضعاً والمفترق صقعاً. بغداد، المثنى، بدون تاريخ.

ثانياً

المراجع

أ ـ المراجع العربية:

- أحمد أحمد بدوي. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. القاهرة، نهضة مصر، ١٩٧٢ م.
- أحمد السعيد سليمان ـ الدكتور. تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة. القاهرة، المعارف، ١٩٧٢ م.
- أحمد صادق الجمال. الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي. القاهرة، القومية، ١٩٦٦ م.
- أحمد مختار العبادي ـ الدكتور. قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام. بيروت، النهضة العربية، ١٩٦٩ م.
- بشار عواد معروف ـ دكتور. الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام. القاهرة الحلبي، ط ١، ١٩٧٦ م.
- جاستون فييت. القاهرة مدينة الفن والتجارة. تر. د. مصطفى العبادي. بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٦٨ م.
- حسن الباشا ـ دكتور. الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار. القاهرة، النهضة العربية، ١٩٧٨ م.
- ــــــ. الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية. القاهرة، النهضة العربية، ١٩٦٥ م.

- حكيم أمين عبد السيد ـ الدكتور. قيام دولة المماليك الثانية. القاهرة، القومية، ١٩٦٦ م.
- ستانلي لينبول. طبقات سلاطين الإسلام. تر. مكي طاهر الكعبي. بغداد، البصري، ١٩٦٨ م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور ـ دكتور. العصر المماليكي في مصر والشام. القاهرة النهضة العربية، ط ١، ١٩٦٥ م.
- ـــــ. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك القاهرة، النهضة العربية، ط ١، ١٩٦٢ م.
- ـــــ. مصر في عصر دولة المماليك البحرية. القاهرة، النهضة العربية، بدون تاريخ.
- شاكر محمود عبد المنعم ـ الدكتور. ابن حجر العسقلاني ودراسة مصنفاته ومنهجه وموارده في كتابه الإصابة جـ ١. بغداد، الأوقاف، ١٩٧٨ م.
- عبد العزيز الدوري ـ الدكتور. بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب. بيروت، الكاثوليكية، ١٩٦٠ م.
- علي إبراهيم حسن ـ الدكتور. إستخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي العام وفي التاريخ المصري الوسيط. القاهرة، النهضة المصرية، ط ٣، ١٩٨٠ م.
- فرانتز روزنثال ـ الدكتور. علم التاريخ عند المسلمين. تر. د. صالح أحمد العلي. بغداد، المثنى، ١٩٦٣ م.
- ـــــ. مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. تر. د. أنيس فريحة. بيروت، الثقافة، ط ٣، ١٩٨٠ م.
- فؤاد عبد المعطي الصياد ـ الدكتور. مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني. القاهرة، الكاتب العربي، ط ١، ١٩٦٧ م.
- مارغوليوس ـ المستشرق. دراسات عن المؤرخين العرب. تر. د. حسين نصار. بيروت، الثقافة، بدون.

- محمد عبد الله عنان. ابن خلدون حياته وتراثه الفكري. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٣، ١٩٦٥ م.
- محمد مصطفى زيادة ـ الدكتور. المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي القرن التاسع الهجري. القاهرة، ط ٢، ١٩٥٤ م.

ثالثاً

المقالات والدوريات

- فؤاد سيد. شروط المؤرخ في كتابة التاريخ والتراجم، خمس فتاوي لم تنشر لخمسة من أعلام القرن التاسع الهجري. القاهرة، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، مج ٢.
- كوركيس عواد. استدراك على مقال محمد راغب الطباخ (الآتي). دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج ١٧ ـ ١٩٣٧.
- محمد راغب الطباخ. مخطوطات ومطبوعات إنباء الغمر بأنباء العمر.
- دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج ١٦ ـ ١٩٣٧.
- محمد مصطفى زيادة. بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك. القاهرة، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة (فؤاد الأول)، مج ٤ ـ جـ ٢، ط ٢، ١٩٥٣.
- يوسف أبكار روفيج أوربلي. جداول التحويل لسنوات الهجرة إلى السنوات الميلادية تر. د. حسين قاسم العزيز. بغداد، مجلة المورد، مج ٣ جـ ٤ ـ ١٩٧٤.

فهرست المحتوى